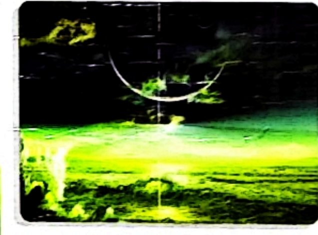
أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرض

أدلة التوحيد

النفسية والعقلية والعلمية

إعداد الدكتور

رشيد منصور محمد الصباحي

















أساليب
وخصائص المنهج القرآني في عرض
أدلة
النفسية
والعقلية
والعلمية
التوحيد



اسم الكتاب: أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية والعلمية

إعداد الدكتور: رشيد منصور محمد الصباحي

رقم الإيداع: ١٨٢٨٤/٢٠١٥_ الترقيم الدولي: ٩٧٧/٣٣١/٣٤٢/٥

نوع الطباعة: لون واحد.

عدد الصفحات: ٦٤٠ - الجزء الأول .

القياس: ١٧×٢٤.

تجهيزات فنية:

مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية

أعمال فنية وتصميم الغلاف أ/ عادل المسلماني.

٢٠١٦

الإدارة



١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.

تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٢٦٤٩٦

المبيعات

١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.

تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٣٢٢٠٠٢

dar_aleman@hotmail.com

أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية والعلمية

(هذا البحث رسالة علمية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه)

إشراف
أ.د. عبد الوهاب بن لطف الديلمي
مشرفًا ورئيسًا

إشراف
د. عبد العلي الجسماني
مشرفًا مشاركًا

إعْدَاد
رشيد منصور محمد الصباحي
عَفَا اللهُ عَنْهُ




بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل التمهيدي

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحـث الأول: الدراسات السابقة حول الموضوع.

المبحـث الثاني: التعاريف والمصطلحات المتعلقة بعنوان البحث.

المبحث الثالث: مقدمات وحقائق عن التوحيد وأدلته في القرآن الكريم.

شكر ودعاء

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشكره سبحانه القائل: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٧)، والصلاة والسلام على خير رسله القائل: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[(١)].

وبعد:

فلئن عجزت عن شكر الشيخ الدكتور/ **عبد الوهاب بن لطف الديلمي** ـ حفظه الله ـ فلن أعجز بعون الله عن دعوات له في ظهر الغيب على تفضله بالإشراف الرئيسي والمباشر على هذا البحث ـ رغم كثرة مشاغله ـ وقيامه بتوجيه الباحث بروح الأب مع ولده، وحرص المربي على تلميذه، فقد استفدت منه علماً كثيراً وأسلوباً حكيماً في صياغة البحث، ولمست منه بذل الجهد والإخلاص لإخراجه بالصورة اللائقة به على أحسن وجه وأكمله وأتقنه.

وأتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ الدكتور/ **عبد العلي الجسماني** (المتخصص في علم النفس) المشرف المشارك، على توجيهه لي بما يخدم البحث وينفع الباحث.

وأشكر القسم (قسم الدراسات الإسلامية) ممثلاً في أساتذتي: رئيسه وأعضاء هيئة التدريس، وكذلك عمادة كلية الآداب ممثلة بعميدها الدكتور/ **محمد عبد العزيز يُسر** ونائبه للدراسات العليا والبحث العلمي الدكتور/ **محمد الشجاع** على ما يبذلونه من جهود في سبيل التعليم.

---

(١) أخرجه ابن حنبل في مسنده ٢/ ٣٨٩ برقم ٧٩٢١، وأبو داود في سنه برقم ٤٨١١، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٤١٧.

وأتوجه بالشكر العميم إلى جامعة صنعاء ممثلة برئيسها الأستاذ الدكتور/ **خالد طميم**، ومن قبله الأستاذ الدكتور/ **صالح باصرة**، وأشكر نيابة شؤون الدراسات العليا ممثلة بالأستاذ الدكتور **توفيق سفيان**، وجميع العاملين فيها على ما يبذلونه من جهود في سبيل خدمة الباحثين وطلاب العلم.

ولا يفوتني شكرَ القائمين على مركز البحوث التابع لجامعة الإيمان في صنعاء وأمين مكتبته، على تعاونهم معي، وأخص بالذكر الشيخ عبدالمجيد بن عزيز الزنداني - رئيس جامعة الإيمان، الذي أسكنني في مكتبة المركز لأكثر من عامين، وأفردني بعدة مجالس علمية إيمانية في سبيل إنجاز هذا البحث، والشكر موصول للدكتور/ **خليل الكبيسي** الذي ما فتئ يأخذ بيدي إلى السبيل الأقوم لخدمة هذه الرسالة. وأشكر الله أولاً وآخراً على ما أولاني من نعمة، فهو مصدر كل خير وفضل... ولولاه ما اهتديت إلى هذا البحث ولا انتهيت من إعداده.

هذا ما اجتهدتُ به ووصلتُ إليه، فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله وأتوب إليه من كل زلة قلم أو فكر.

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا.. وسيئات أعمالنا.. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

أما بعد..

فإن القرآن الكريمَ كتابَ الله عز وجل الذي وصفه بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت: ٤٢) هو كتاب إعجاز وبيان للعالمين، وهو أيضاً كتاب هداية وإرشاد للمتقين، كما قال سبحانه: ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (آل عمران: ١٣٨).

وهذا الكتاب العظيم قد أخذ حظّاً كبيراً من نظر أهل العلم فيه ودراسة الباحثين في آياته ـ قديماً وحديثاً ـ سواء في جانب التفسير لها، أو الفقه لأحكامها، أو بيان إعجاز نصوصها، أو غير ذلك.

ومن هذه الدراسات ما يتعلق بالإيمان، فالقرآن الكريم هو المصدر الأول والرئيس من مصادر تلقي العقيدة الإسلامية المتمثلة في أركان الإيمان الستة وهي: «الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره».

فقد أُشبع القرآن الكريم بالآيات المتعلقة بما سبق بصورة مباشرة وغير مباشرة، وخاصة ركن الإيمان بالله عز وجل ـ أول وأهم ركن من أركان الإيمان ـ.

وقد قمت باستقراء وحصر الآيات المتعلقة بذلك فوجدتها ـ حسب علمي ـ في أكثر من ألف وتسعمائة موضع، منها ما يتعلق بتوحيد الله في ربوبيته، ومنها ما يتعلق بتوحيده في ألوهيته، ومنها ما يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات، ومنها ما يتحدث عن توحيد الله بشكل عام.

ورحم الله ابن القيم فقد صدق وأصاب في اعتبار القرآن الكريم كله كتاب توحيد لرب العالمين حيث قال:

«إن كل آية في القرآن... متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن:

ـ إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري.

ـ وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته.

ـ وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده.

ـ وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[1]. اهـ.

وعليه فمثل هذه الآيات جديرة بأن يتناولها الباحثون بالدراسة والتحليل، لشرح ما فيها من دلالة على التوحيد؛ بأسلوب يتناسب مع ما جدَّ في حياة

(١) تهذيب مدراج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، (٦٩١-٧٥١)هـ، راجع النسخة لجنة من العلماء، دار الحديث، ط (بدون د.ت ـ القاهرة، مصر ٣/ ٤٥٠.

الناس من شبهات، وأنماط حياة، وعلوم إنسانية، وغيرها، واستخراج ما فيها من معان إيمانية تربوية، وحجج يقينية قاطعة، وطرق حكيمة خاطبت الإنسان من الناحية النفسية والعقلية، فأثمرت ـ فيمن وفَّقه الله للهداية ـ التوحيد الخالص لرب العالمين.

وبناء على ما سبق، فإنه وفي طور البحث عن رسالة أتقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة صنعاء ـ كلية الآداب ـ قسم الدراسات الإسلامية ، فقد وقع اختياري على موضوع لاقى في الصدر انشراحاً ، ومن الغير تشجيعاً وتأييداً، وهو موضوع:

«أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية»

أسباب اختيار الموضوع:

١- حاجة الدعاة إلى الله وطلاب العلم إلى دراسة شاملة متعمقة تبحث في منهج القرآن الكريم في عرض قضية التوحيد وتقريره والدعوة إليه كما صَوَّرَتْهُ آيات القرآن الكريم ـ سواء فيما يتعلق بدعوة النبي ﷺ للمشركين وأهل الكتاب من أهل زمانه، أو ما يتعلق بدعوة الرسل السابقين أقوامهم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له ـ ليتمكن الدعاة وطلاب العلم من الاستفادة من ذلك كله في دعوتهم إلى الله، وغرس التوحيد في نفوس العبيد، وتوسعة رقعته على الأرض، وترسيخ الإيمان بالله وحده لا شريك له.

٢- ما تُحِسُّه النفس الإنسانية المؤمنة من انفعالات وتأثر بالغ بآيات التوحيد، وأسلوب القرآن في عرضها، وكذا ما تحققه هذه الآيات من إقناع عقلي بليغ بوحدانية الله وتوحيده، بصورة جعلت القرآن متميزاً بخصائص فريدة ومنهج وحيد لا يرقى إليه ولا يدانيه ما سواه.

٣- كثير من الذين تكلموا في أدلة وحدانية الله ووجوب توحيده فاتتهم الاستفادة من معطيات عصرنا وكشوفاته العلمية الجديدة التي تدعِّم الإيمان بالله وتؤكد نصوص القرآن التوحيدية وتنسف نظريات الملحدين الباطلة.

٤- كثرة الآيات القرآنية التي تحدثت عن الإيمان بالله، ودارت حول التوحيد ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ.

وهذه الآيات ـ على حد علمي ـ لم تلق دراسة شاملة خاصة بجمع وتبويب وتفصيل وتحليل علمي، وتوظيف تربوي إيماني، على الرغم من كثرة المؤلفات في موضوعات الإيمان والعقيدة الإسلامية.

ولقد تأكد لي ذلك أثناء جمعي للمادة العلمية المتعلقة بالموضوع حيث وجدت من العلماء والباحثين من يدعو لدراسة الدلالات العقلية للقرآن الكريم، وفق منهج القرآن في الاستدلال، وليس من وجهة نظر الفلاسفة والمتكلمين، ومن ذلك منهج القرآن في تقرير التوحيد، وأساليبه وخصائصه التي تميز بها، ومن هؤلاء الباحثين:

أ ـ الدكتور محمد السيد الجليند، حيث قال في كتابه «**الإمام ابن تيمية وقضية التأويل**»: «وبعد أن عشت مع قضية التأويل فترة ليست بالقصيرة ظهر لي أن هناك جانباً في الفكر الإسلامي لم يعطَ حقه من البحث والدراسة، وهو منهج القرآن في معالجة قضايا الألوهية، ولهذا فإني أقترح على الدوائر العلمية الإسلامية.. دراسة الجانب الإلهي من مصدره الأول وهو الكتاب والسنة، فإن دلائل الألوهية والربوبية قد وضَّحَها القرآن وبينها أحسن بيان، وقدم البراهين الفطرية والعقلية على وجود الله ووحدانيته بعيداً عن تعقيدات المتكلمين والفلاسفة وجدلهم العقيم»[1].

---

(١) انظر طبعة: شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، الرياض ـ السعودية، ص٣٥٩-٣٦٠.

ب- وقال الشيخ الدكتور **محمد أبو زهرة** في كتابه «**المعجزة الكبرى**»: «وفي الحق إن الناس لو شُغلوا بدراسة القرآن وما فيه من استدلال لينهجوا نهجه ويسيروا في طريقه لكان لهم من ذلك علم كثير، فإن القرآن قد اشتمل على مناهج في الاستدلال والجدل والتأثير تكشف عن أدق نواميس النفس الإنسانية، وتبين شيئاً كثيراً من أحوال الجماعات النفسية والفكرية، وفيها الطب لأدوائها.. وفي مناهجه البيانية المثل الأعلى للكلام النافذ إلى القلوب، والحجج الدامغة»(١).

ج ـ وقال الأستاذ/ **محمد قطب** في كتابه «**حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية**»: «إن تأثير العقيدة الصحيحة في الإنسان لهو من أهم موضوعات علم النفس الإسلامي، ومن أوسع مجالات الدراسة فيه.. تُرى كم خصصنا له من دراستنا ونحن ننقل علم النفس عن الغرب المنحل الذي يعيش بلا عقيدة؟! ولا شك أن الجيل الأول رضوان الله عليهم هم أبرز النماذج التاريخية لأثر العقيدة في النفوس.. والدارس المسلم أولى الناس بأن يُدخلها في دراساته النفسية..»(٢).

وغيرهم كثير ممن يدعو إلى دراسة أدلة القرآن الإيمانية، وأساليبه الاستدلالية(٣).

٥- الإسهام بجهد متواضع في خدمة الدين وتنوير الدعاة العاملين، بتقديم علم يُنتفع به بإذن الله تعالى.

---

(١) انظر طبعة: دار الفكر العربي، ط (بدون)، القاهرة ـ مصر، ص٤١١-٤١٢.

(٢) انظر طبعة: دار الشروق، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، القاهرة ـ مصر ص١٥٨- ١٦٧.

(٣) مثل الدكتور محمد الصادق عرجون في كتابه «القرآن الكريم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين» ص٢٨٣-٢٨٤، والأستاذ محمد عز الدين توفيق في كتابه «دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث» ص٦.

أهمية الدراسة وأهدافها:

تتضح أهمية الموضوع في أن منهج القرآن الكريم الذي سلكه لإقامة التوحيد في نفوس العبيد، وترجمه رسول الله ﷺ في سيرته وسَيْرِه إلى الله وجهاده في الدعوة إليه لإقامة التوحيد ومحاربة الشرك وأهله، ليس أبداً كغيره من المناهج والوسائل البشرية القاصرة في التعريف بالله أو التعرف عليه والهداية إليه: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ (الأنعام: ١٤٩).

فقد وصف الله كتابه بالهدى والنور والمفصل والمبين والمبارك والشفاء والرحمة وغير ذلك من أوصاف لا تكون ولا تجتمع لغيره من الكتب أو المناهج البشرية: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ (النساء: ١٢٢).

وقد كان لهذا المنهج النفسي والعقلي الأثر الأكبر في إحقاق حق التوحيد وإزهاق باطل الكفر والشرك، وإقناع كثير من رؤوس الكفر في عهد النبوة بتوحيد الله عزوجل، في ظل فترة زمنية قصيرة، سرعان ما تحولت بعدها أرض الجزيرة العربية إلى موطن للتوحيد، بل منطلق للدعوة إليه.

فأنى نجد مثل آيات القرآن وحججه وأسلوبه وتدرجه وبلاغته في الدعوة إلى الإيمان!؟.

أما أهداف الدراسة فهي تهدف الإجابة على التساؤلات الأربعة الآتية:

أولاً: ما هي أدلة التوحيد القرآنية؟ وما منهج القرآن الكريم وأساليبه البلاغية في عرضها؟ وما هي طريقته في نقض الشرك وإبطال عبادة المشركين؟ وما أثر ذلك كله على النفوس والعقول من وجهة نظر علم النفس الحديث وعلمائه المعاصرين؟

ثانياً: ما خصائص المنهج القرآني المتميز في عرض أدلة التوحيد؟ وما فضله على مناهج وأدلة الفلاسفة والمتكلمين؟

ثالثاً: كيف يمكن الاستفادة من ذلك كله في الدعوة لتوحيد رب العالمين؟

حدود الدراسة:

البحث يدور حول آيات القرآن المتعلقة بالتوحيد العلمي الخبري والتوحيد الإرادي الطلبي، والتي تنزلت على قلب محمد ﷺ خلال فترة النبوة والرسالة في المرحلة المكية والمدنية، حيث استغرقت ثلاثاً وعشرين عاماً تمكن خلالها رسول الله ﷺ من إقامة التوحيد على ما يحبه الله ويرضاه.

منهج البحث:

أ ـ **المنهج الاستقرائي**: وذلك باستقراء وحصر آيات القرآن الكريم المتعلقة بالتوحيد بأنواعه الثلاثة (ربوبية ـ ألوهية ـ أسماء وصفات).

ب ـ **المنهج التحليلي**: وذلك بعمل دراسة خاصة لهذه الآيات، وتفسيرها وتحليلها لاستنباط مافيها من معاني إيمانية، ودلالات توحيدية، وأساليب لغوية بليغة في عرض أدلة التوحيد وإقامته في نفوس العبيد.

طريقة العمل في البحث:

١- الرجوع إلى القرآن الكريم وذلك لجمع الآيات المتعلقة بالموضوع، ثم فرزها وتصنيفها حسب مضمونها وبما يتوافق مع خطة البحث وفقراته.

٢- إبراز النصوص التي تدل على المراد مطابقة، أو تضمناً، أو التزاماً.

٣- العودة إلى كتب التفسير بالمأثور والرأي المقبول لمعرفة أقوال أهل العلم في مدلول الآيات وما فيها من معانٍ تدل على المراد.

٤- الاستفادة من كتب العقيدة بشكل عام، وكتب العقيدة الإسلامية بشكل خاص، وكتب الإيمان بالله وتوحيده بشكل أخص ـ القديم منها والمعاصر ـ.

٥- الاستفادة من كتب علم النفس ومناهج البحث التربوي والحوار العقلي.

٦- توظيف ما أمكن من المكتشفات العلمية الحديثة ـ سواء في علوم الكون والحياة أو الإنسان والتاريخ، وبشهادة أكابر علماء الغرب المعاصرين، في الاستدلال على وحدانية الله.

٧- اعتمدت في روايات أسباب النزول على كتب الحديث الصحيحة، وكتب أسباب النزول المتخصصة في ذلك.

٨- قمتُ ـ كما هو معمول به ـ بعزو الآيات إلى سورها، وكذا الأحاديث والآثار إلى مصادرها، ولم أذكر مرتبة للحديث أو الآثار التي جاءت في الصحيحين أو أحدهما، للإجماع على صحتها، وما كان في غير الصحيحين ذكرت حكم أهل الاختصاص فيه.

٩- عند تخريج الأحاديث والآثار الواردة في الأصل، ذكرت لها أكثر من مصدر في الحاشية غالباً، لكني كنت أخص الأول بذكر الجزء والصفحة، والكتاب والباب، ورقم الحديث وراويه ـ خاصة ما ورد في الصحيحين ـ وأكتفي بذكر الباب والجزء لغير الأول.

١٠- عند الاستشهاد ببعض الأحاديث والآثار في الحاشية اكتفيت بمخرِّج واحد، مع ذكر رقم الجزء والصفحة والراوي، وأحياناً رقم الحديث.

١١- حاولت تخريج ما أمكن من روايات أهل التفسير والسيرة من كتب الحديث مع نقل الحكم عليها قدر الإمكان، وإن تعذر عليّ ذلك اكتفيت بعزوها إلى مراجعها.

١٢- بالنسبة لما رواه الحاكم لم أستشهد إلا بما وافقه عليه الذهبي.

١٣- قد أضطر للاستشهاد بالحديث الضعيف إذا لم أجد غيره ـ وهذا نادر جداً ـ مع بيان ضعفه.

١٤- إذا توافقت أقوال المفسرين في معنى آية ما، غالباً ما أعتمد قول المتقدمين منهم لاحتمال أن يكون المتأخر قد نقل عن المتقدم ـ.

١٥- بيَّنْتُ معنى كل كلمة أو عبارة غريبة ترد في صلب الموضوع في الحاشية، وذلك بالرجوع إلى المصادر المعتمدة.

١٦- قمتُ بتعريف المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها، عند ذكرها لأول مرة فقط، مرتبة هكذا: اسم الكتاب / اسم المؤلف / اسم المحقق أو المعلق أو المقدم (إن وجد) / دار النشر(إن وجدت)/ اسم المطبعة / رقم الطبعة/ تاريخ الطبعة / بلد الطبعة أو النشر، ومالم يُذكر من ذلك أشرت إليه بين قوسين بلفظ (بدون). وعند ذكر المرجع مرة أخرى أذكره باختصار.

١٧- الأصل في توثيق المعلومة ذكر المراجع القديمة (المتوفرة لديَّ)، وقد أُقدِّم عليها المراجع الحديثة، وما وقعت عليه يداي لسبب ما كصعوبة العثور على المصادر السابقة، وأشير إلى ذلك بلفظ (لم أعثر على المرجع الأصلي).

١٨- قمتُ بترجمة الأعلام الإسلامية الواردة في صلب الرسالة، وحاولت جاهداً البحث عن تاريخ ومكان ميلادهم، كما ترجمت لبعض الأعلام غير

الإسلامية إذا دعت الحاجة لذلك ترجمة مختصرة، ولم أترجم لما ورد في مقدمة البحث أو الحاشية، أو من ذُكر عند الكلام على الدراسات السابقة حول الموضوع، وجعلت الترجمة عند ذكر العلَم لأول مرة فقط.

١٩- عندما فهرست الأحاديث والآثار ذكرت مخرجها وراويها والحكم عليها، وعندما فهرست الأبيات الشعرية ذكرت ما أمكن من قائليها.

٢٠- عندما قمتُ بالفهرسة الأبجدية لم أعتبر «أل» ولا «أبو» ولا «ابن» بل حذفتها إذا لم تكن من أصل الكلمة، ولم تكن اسماً لعلم.

٢١- عندما قمتُ بفهرسة الأعلام اكتفيتُ بذكر اسم العلم ثلاثياً وإلحاقه ـ غالباً ـ بما اشتهر به من لقب أو اسم أو كنية أو صفة علمية تخصصية وخاصة علماء الغرب المعاصرين.

٢٢- اقتبستُ بعض الخرائط والصور الملوّنة، وابتكرت بعض الجداول والأشكال التوضيحية اللازمة للبحث وأثبتها فيه، ووضعت فهرساً لها.

٢٣- استخدمت أثناء كتابة البحث بعض الرموز للاختصار، وهي كما يلي:

(أ.هـ) تعني: انتهى.

(ت) تعني: سنة الوفاة.

(د.ت) تعني: بدون تاريخ.

(ج) تعني: الجزء.

(ص) تعني: الصفحة.

(ط) تعني: الطبعة.

(ق.هـ) تعني: قبل الهجرة.

(هـ) تعني: السنة الهجرية.

(م) تعني: السنة الميلادية.

(كم) تعني: كيلو متر.

(مْ) تعني: درجة مئوية.

(سا) تعني: ساعة.

(ملم) تعني: مليمتر.

(سم) تعني: سنتيميتر.

(ثا) تعني: ثانية.

(إلخ) تعني: إلى آخره.

(٪) تعني: في المائة.

الصعوبات:

من الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث:

عدم الحصول على بعض المراجع القديمة مما اضطرني ـ أحياناً ـ إلى الاعتماد على المراجع الحديثة.

ومنها كذلك: عدم القدرة على الحكم على بعض الأحاديث المنقولة من كتب التفسير التي لم يحكم عليها أهل الاختصاص ـ على حد علمي ـ.

خطة البحث:

اشتمل البحث على بابين سبقهما فصل تمهيدي وأعقبتهما خاتمة.

أما الفصل التمهيدي فقد اشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تحدثت فيه عن الدراسات السابقة حول الموضوع.

المبحث الثاني: عرّفت فيه مفردات عنوان البحث «أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية».

المبحث الثالث: مهَّدت فيه بمقدمات وحقائق عن التوحيد وأدلته في القرآن الكريم، حيث تعرضت لاستعمالات القرآن للفظ الوحدانية، ووصفي الألوهية والربوبية، وذكرت استفاضة القرآن بأدلة التوحيد ودعوته للنظر فيها، وأكدت على أنها أدلة عقلية، ثم ختمت هذا المبحث بذكر تأثير القرآن النفسي وأدلته التوحيدية على طائفة من المشركين والمؤمنين وأهل الكتاب والمرضى.

وأما **الباب الأول** فكان بعنوان «**منهج القرآن الكريم في الاستدلال على التوحيد بالأدلة النفسية والعقلية**». وهو صلب الرسالة وأهم أبوابها، ولذلك كان أطولها، وقد اشتمل على فصلين:

الفصل الأول: وهو بعنوان: «**منهج القرآن في الاستدلال على التوحيد بالأدلة الفطرية النفسية**». وقد انضوى تحته مبحثان:

المبحث الأول: مقدمات وحقائق عن الفطرة، تحدثت فيه عن حقيقتها، وأدلة وجودها في كل نفس إنسانية، وذكرت علاقتها بالعقل، وعوامل إصلاحها وإفسادها.

المبحث الثاني: استشهاد القرآن على التوحيد بالأدلة الفطرية النفسية، تناولت فيه أدلة التوحيد الفطرية المتعلقة بالإنسان، وكذا أدلة التوحيد الفطرية المتعلقة بالأكوان.

الفصل الثاني: وهو بعنوان: «**منهج القرآن في الاستدلال على التوحيد بالأدلة العقلية**» وقد اشتمل على خمسة مباحث رئيسة:

المبحث الأول: استدلال القرآن على التوحيد بالأدلة العقلية البدهية، تناولت فيه دليل تفرد الله بالربوبية والإنعام على خلقه، ودليل كماله وتفرده بالأسماء الحسنى والصفات العظمى.

المبحث الثاني: استدلال القرآن على التوحيد بنقض الشرك وإبطال عبادة الشركاء، شرحت فيه نقض القرآن لشرك العرب الأميين كشركهم بعبادة الملائكة والأصنام، ونقضه لشرك المجوس والصابئين، ثم تحدثت عن نقض القرآن لشرك أهل الكتاب بزعمهم اتخاذ الله الولد وقولهم بألوهية عيسى وأمه مريم عليهما السلام.

المبحث الثالث: استدلال القرآن على التوحيد بالأدلة العقلية الافتراضية، بيَّنت فيه تسليم القرآن جدلاً للمشركين بأن الله اتخذ ولداً وأن للكون أكثر من إله، ثم استخدام القرآن للوازم هذا القول ومقتضياته في إبطال الشرك وإثبات وحدانية الله ووجوب توحيده.

المبحث الرابع: استدلال القرآن على التوحيد بالأحداث التاريخية الماضية، ذكرت فيه استشهاد القرآن على وحدانية الله ووجوب توحيده بإهلاكه للكفار السابقين وبقاء رفات بعضهم حتى الآن ـ كجسد فرعون موسى ـ وكذا أطلال ديار بعضهم كعاد وثمود، وقوم لوط وسبأ، واستشهدت لذلك بالشكوفات

العلمية الحديثة والصور الحقيقية الملوّنة لما يتعلق بهؤلاء ويؤكد حقيقة ما أخبر به القرآن عنهم.

ورددت في هذا المبحث على شبهة الطبيعيين القائلين بأن العقوبات الإلهية إنما هي كوارث طبيعية، وغيرها من الشبهات.

المبحث الخامس: استدلال القرآن على التوحيد بآيات الله في الأنفس والآفاق، حيث أطنبتُ الحديث في هذا المبحث عن دلائل التوحيد العقلية المستفادة من الحقائق العلمية المتعلقة بخلق الإنسان ووظائف بدنه وبعض أعضائه، ودلالة ذلك على وجود خالق حكيم له كل صفات الكمال قد تنزه عن كل صفات النقص.

ثم تحدثت عن دلائل التوحيد المتعلقة بخلق الكون وسعته وحركته ودقة نظامه واتزانه بما فيه من أرض وسماء، وشمس وقمر، ونجوم وكواكب، وأفلاك ومجرات.

وتعرضت فيه لشيء من آيات الله في خلق الأرض وإبداعها وإعدادها وتسخيرها للإنسان.

وذكرتُ في هذا المبحث نماذج من آيات الله في بعض الطيور والأنعام والحيوان والحشرات والأسماك وغيرها، ثم ختمته بشرح استدلال القرآن بذلك كله على وحدانية الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته، ووجوب توحيده في ألوهيته.

أما الباب الثاني: فكان بعنوان: **«أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد»**.

وقد احتوى على فصلين:

الفصل الأول بعنوان: «**أساليب القرآن في عرض أدلة التوحيد**».

وقد ضم تحته مبحثين:

المبحث الأول: أساليب القرآن البلاغية في تقرير التوحيد والدعوة إليه، تحدثت فيه عن استخدام القرآن لأرقى أساليب الأدب العربي واستعماله لعلوم البلاغة العربية الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) بما فيها من أدوات وقواعد تحقق الإقناع العقلي والانجذاب النفسي لعقيدة التوحيد، فوق ما يستشعره قارئها من تذوق بلاغي أدبي رفيع.

المبحث الثاني: أساليب القرآن النفسية في تقرير التوحيد والدعوة إليه، تناولت فيه استخدام القرآن لأسلوب الترغيب والترهيب وأسلوب القص والتصوير الحي المؤثر لمشاهد دعوة الأنبياء للتوحيد، وأثر هذين الأسلوبين في نزع العقائد الباطلة وإحلال وترسيخ العقيدة الصحيحة.

أما الفصل الثاني: فكان بعنوان: «**خصائص أدلة التوحيد القرآنية**».

حيث ذكرت فيه تميز المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد عن مناهج الفلاسفة والمتكلمين بعدة خصائص ومميزات، وفصلت ذلك في مبحثين:

المبحث الأول: خصائص أدلة التوحيد القرآنية، ذكرت ما يقرب من اثني عشر خصيصة.

المبحث الثاني: الفرق بين منهج القرآن ومناهج الفلاسفة وعلماء الكلام في الاستدلال على الخالق، أوضحتُ فيه الفرق بينهما من حيث المصادر

والأهداف، ونقطة الانطلاق وطريقة الاستدلال، وأنواع أدلة الفريقين وثمـار المنهجين، ثم ختمت هذا المبحث بذكر موقف العلماء من الفلسفة وعلم الكلام وأهلهما.

وأخيراً:

أنهيت البحث بذكر ومناقشة أهم الشبهات والتساؤلات التي قد تعتري بعض الموحدين أو يشكك بها بعض الملحدين والمشركين، وختمت الرسالة بخاتمة اشتملت على خلاصة البحث ونتائجه والتوصيات والمقترحات على هيئة نقاط، حاولت من خلالها الإجابة على السؤال الرابع والأخير المتعلق بأهداف هذا البحث بذكر كيفية الاستفادة من منهج القرآن في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية في الدعوة إلى الله.

ثم ذيَّلتُ البحث بفهارس كاشفة لتيسير الوصول إلى ما يبتغيه القارئ والباحث مما ورد في البحث، وقد بلَغَتْ هذه الفهارس عشرة فهارس هي: «فهرس الآيات القرآنية، وفهرس الأحاديث النبوية والقدسية، وفهرس الأبيات الشعرية، وفهرس الأقوال والآثار، وفهرس الأعلام، وفهرس الأماكن والبلدان، وفهرس القبائل والجماعات والمذاهب، وفهرس الخرائط والجداول والأشكال التوضيحية، وفهرس المصادر والمراجع، وأخيراً فهرس الموضوعات».

وختاماً أقول: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات..

فقد بذلت ما في وسعي لإخراج هذا البحث ... ولا أزعم أني استطعتُ الوفاء بكل ما التزمتُ به، كما لا أدَّعي أني استكملتُ جميع جوانبه... لكن حسبي أني بذلتُ طاقتي واستفرغتُ جهدي.

«فإن كنت قد أحسنت فيما جَمَعْتُ، وأصبتُ في الذي صنعت، فذلك من عظيم منن الله تعالى وجزيل فضله،... وإن أسأتُ فيما فعلْتُ وأخطأْتُ فيما وضعت، فما أجدر الإنسان بالإساءة والعيوب، إذا لم يعصمه علاَّم الغيوب.

وما أبرئ نفسي إنني بشر ... أسهو وأخطئ ما لم يحمي قدر
ولا ترى عذراً أولى بذي زلل ... من أن يقول مقراً إنني بشر

فليسدل الناظر في هذا التأليف على مؤلفه ذيلَ سِتره إن مرَّت به هفوة، وليغض تجاوزاً وصفحاً إن وقف منه على كبوة أو نبوة، فأي عضب مهنَّد لا يكلُّ ولا ينبو، لا سيما والخاطر بالأفكار مشغول، والعزم لالتواء الأمور وتعسُّرِها فاتر محلول، والذِّهن من خطوب هذا الزمن القطوب كليل، والقلب لتوالي المحن وتواتر الإحن عليل[1].

لقد أبى الله إلا أن يجعل الكمال له ولكتابه، والعصمة لنبيه ﷺ.

وأما الإنسان فقد جمع إلى ضعف البشر قِصَر النظر، وأضاف إلى قلّة العلم كثرة العيوب، وها هو البحث منصوب لسهام الراشقين، وملاحظات أهل العلم الراسخين، فلقارئه غُنْمُه، وعلى مؤلِّفه غُرْمُه، وإني لأرجو أن توهب سيئاته لحسناته، وأخطاؤه لصوابه[2].

---

(١) اقتباساً من مقدمة كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥) هـ، مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة ـ مصر، ص٣.

(١) اقتباساً من روضة المحبين ونزهة المشتاقين، للعلامة محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت٧٥١) هـ، دار الكتب العلمية، ط (بدون) ١٤١٢هـ، بيروت، لبنان ص١٤-١٥.

والله أسألُ أن يلهمني السداد والصواب في كل أقوالي وأفعالي، في جميع أوقاتي وأحوالي.. آمين.

وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد خير الدعاة والموحدين، وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين.

رشيد منصور الصباحي
جامعة صنعاء
كلية الآداب
قسم الدراسات الإسلامية

قال تعالى:

﴿... أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

(إبراهيم: ١٠).

وقال سبحانه:

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ... ﴾

(محمد: ١٩).

وقال جل شأنه:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾

(الإسراء: ٢٣).

عرفتُكَ من كل شيء ظَهَرْ ... عرفتُك مما اختفى واستتر
عرفتك من حاضرات الوجود ... ومما مضى في زمان غَبَر

عرفتُك من معجزات السُّوَرْ ... ومما جَمَعْتَ من جليل العِبَر
وعرَّفني بك طه الأغر ... رسولُك أحمد خير البشر

بأنك أنت الإله الأحد
وأنك أنت العظيم الصمد[1]

(١) مختارات من قصيدة طويلة للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه (براهين وأدلة إيمانية).

المبحث الأول

المصنفات والدراسات السابقة حول الموضوع

منهج القرآن الكريم في عرض أدلة التوحيد من الموضوعات الهامة التي أوصى كثير من العلماء والباحثين بدراستها ـ كما سبق ذكره ـ.

ومن خلال بحثي واطلاعي على ما وصلت إليه يداي من المصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع، خرجتُ بتصور خلاصته وجود ثلاثة أصناف من الدراسات السابقة للموضوع، كما يلي:

الصّنف الأول: عبارة عن كتب العقيدة الإسلامية بشكل عام، وهي التي صنَّفها أصحابها للبحث في أصول الإيمان بأركانه الستة، وما يتعلق بها، ومن ذلك الإيمان بالله عزوجل، حيث أفرد كثير من أئمة الحديث ـ رحمهم الله ـ أبواباً خاصَّة مستقلة في مؤلفاتهم بعنوان (الإيمان)، كما فعل البخاري وغيره، وكما هو موجود أيضاً في بعض كتب التفسير، وخصَّص بعضهم كُتُباً مفردة للإيمان من أهمها حسب التسلسل التاريخي لوفاة مؤلفيها:

١- (كتاب الإيمان، ومعالمه وسننه واستكمال درجاته) للإمام أبي عُبيدٍ القاسم بن سلاّم البغدادي الهروي (ت٢٢٤)هـ.

٢- (كتاب الإيمـان) للحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي (ت٢٢٥ أو ٢٣٥)هـ، وقد طبع كلا الكتابين بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

٣- (كتاب الإيمان) للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١)هـ، وقد حُقِّق في رسالة علمية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٤- (الإيمان) لمحمد بن أسلم الطوسي (ت٢٤٢)هـ، وهو في حكم المفقود.

٥- (كتاب الإيمان) للحافظ أبي عبدالله محمد بن يحيى بن أبي عمر المكي العدني (ت٢٤٣)هـ، تحقيق حمد بن حمدي الجابري.

٦- (الإيمان) للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي، صاحب العقيدة الطحاوية (ت٣٢١)هـ.

٧- (كتاب الإيمان) للحافظ محمد بن إسحاق بن يحيى بن مَنْدَه (ت٣٩٥) هـ، تحقيق الدكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، طبع في ثلاثة أجزاء.

٨- (كتاب الإيمان) للقاضي أبي يعلى، محمد بن الحسن الفرَّاء الحنبلي (ت:٤٥٨) هـ.

٩- (الإيمان الأوسط) و(الإيمان الكبير) لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (ت٧٢٨)هـ، وطبع كلا الكتابين ضمن مجموعة الفتاوى، وطبع الكتاب الكبير طبعة مستقلة بالمكتب الإسلامي، مع تخريج موجز للشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله ـ[1].

١٠- (شرح العقيدة الطحاوية) للقاضي علي بن علي بن أبي العز الحنفي (ت٧٩٢)هـ، تحقيق ومراجعة جماعة من العلماء، طبعة المكتب الإسلامي، وهناك طبعة أخرى لمؤسسة الرسالة بتحقيق وتعليق وتخريج د/ عبد الله بن عبدالمحسن التركي، والشيخ شعيب الأرناؤوط.

---

(١) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان بن جمعة ضميرية، تقديم د/ عبد الله عبد الكريم العبادي، مكتبة السوادي، ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، جدة ـ السعودية ص٨٨-٨٩.

تلك طائفة من مؤلفات السابقين الأولين المتعلقة بالإيمان بشكل عام، ومن مؤلفات اللاحقين الأواخر كتاب (الإيمان، حقيقته، أركانه، نواقضه) لمحمد نعيم ياسين، وغير ذلك من الكتب.

وقد تميزت المؤلفات السابقة بمنهج خاص في إيراد النصوص على مذهب أهل السلف تحت عناوين دالَّة على المعنى، وتميّز بعضها بالرد على المخالفين ومناقشتهم، وتوجيه الأدلة التي يسوقونها، وتميز البعض الآخر بحسن الترتيب والتبويب، وجمع المسائل تحت أصول عامَّة كما فعل أبو عبيد الهروي، والحافظ محمد بن إسحاق بن منده ـ رحم الله الجميع ـ، وتميز كتاب ابن تيمية ببسط الأدلة، وإيراد المذهب المخالف مع أدلته، ثم نقضها بصحيح المنقول وصريح المعقول.

لكن هذه المؤلفات ونحوها لم تفرد مسألة الإيمان بالله عز وجل بصورة مستقلة، ولم تتعرض لمنهج القرآن في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية بصورة تكشف ما فيها من أوجه إقناع وتأثير نفسي عظيم بعقيدة الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

الصنف الثاني: عبارة عن مؤلفات سابقة ولاحقة أفردها أصحابها للحديث عن ركن الإيمان بالله وحده، وما يتعلق بذلك، حيث تناولَتْ هذه المؤلفات مسألة التوحيد بأنواعه الثلاثة (ربوبية، ألوهية، أسماء وصفات) واستفاضت في ذلك، ومن هذه المؤلفات:

١- (كتاب التوحيد) لأبي العباس أحمد بن عمر بن سُريج البغدادي (ت٣٠٦هـ).

٢- (كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عزوجل) للإمام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري صاحب (الصحيح)، (ت٣١١هـ)، وله بحث في مسألتي (القضاء السابق والمقادير النافذة قبل حدوث كسب العباد، والإيمان بجميع صفات الرحمن الخالق جل وعلا..).

ومنهج المؤلف أن يضع عنواناً مطولاً للمسألة التي يبحثها وكأنه ملخص لها، ويسوق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالَّة عليها ـ بإسناده هو ـ مع تعليق موجز على بعض النصوص، والرد على المخالفين من الجهمية والمعطلَّة والقدرية والمعتزلة.

وقد طبع الكتاب أكثر من مرة في الهند ومصر وبيروت، ثم حققه الدكتور عبدالعزيز الشهوان في رسالة علمية في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، وطبع في مجلدين.

٣- (كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عزوجل وصفاته على الاتفاق والتفرد) للإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن إسحاق بن مَنْدَه (ت٣٥٩هـ)، وقد طبع بتحقيق الدكتور علي ناصر الفقيهي، في ثلاثة أجزاء، وقسَّم المؤلف فيه التوحيد إلى أربعة أقسام: توحيد الربوبية، توحيد الألوهية ـ وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ـ وتوحيد أسماء الله الحسنى، ثم أتبعها بالقسم الرابع عن الصفات، ومنهجه في ذلك أن يضع عنواناً للمسائل التي يشير إلى موضوعها، ويسوق الآيات والأحاديث الدالَّة عليها، ومن خصائصه الاستشهاد الكثير بالآيات القرآنية على أنواع التوحيد ومسائله، مما يربط القارئ بكتاب الله، فيستمد منه التوحيد مباشرة، وهذا الكتاب جيد نفيس.

٤- (الحجة في بيان المحجَّة وشرح التوحيد ومذهب أهل السنة) للحافظ أبي القاسم إسماعيل بن محمد التَّيْمي الأصبهاني (ت٥٣٥هـ)، مع ملاحظة أن الاسم المثبت للكتاب على غلافه هو (الحجة في بيان المحجَّة وشرح عقيدة أهل السنة) بينما قال هو في مقدمته (وسَّميته كتاب: الحجة في بيان المحجَّة وشرح التوحيد..إلخ) وهذا الكتاب يبحث في المسائل الاعتقادية على منهج أهل السنة، وقد جعله أربعة عشر باباً، في التوحيد، والصفات، والقرآن، ومسائل الإيمان.. وكلام الرب عز وجل، وغير ذلك[1].

ومادة الكتاب هي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار عن الصحابة والتابعين، وقد استفاد المؤلف ممن سبقه من العلماء ونقل عنهم، مع حسن تنظيم وتبويب، وقد حُقِّق هذا الكتاب في رسالة جامعية، وطبع في مجلدين، أحدهما بتحقيق محمد بن ربيع بن هادي، والثاني بتحقيق محمد أبو رحيم، طبع عام ١٤١١هـ، في الرياض.

٥ - (التمهيد لقواعد التوحيد) للإمام أبي المعين ميمون بن محمد النَّسفي المكحولي (ت٥٠٨هـ).

٦ - (تجريد التوحيد المفيد) للإمام تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت٨٥٤هـ)، وهو كتاب صغير الحجم،كثير الفائدة، يُبيِّن فيه صاحبه دعوة التوحيد،ويخلصها من شوائب البدع والخرافات، التي قد تذهب بأصل التوحيد، مع مناقشة الشبهات، وبيان الطريق المستقيم الذي ينبغي أن يسلكه الموحِّد، وقد طبع أكثر من طبعة.

---

(١) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لعثمان جمعة ضميرية ص١١٠.

٧ - (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)، للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب التميمي النجدي، (ت١٢٠٦هـ).

وهو كتاب وحيد في بابه، جرى فيه مؤلفه على عنوان المسألة بـ(باب) ما يُذْكَر فيه من العقيدة، ثم يورد من الآيات ما يشهد لها، ثم يُتبع ذلك بذكر حديث صحيح أو أحاديث تؤيد ذلك، ويعزو الأحاديث إلى مخرِّجيها من الكتب المعتمدة، ثم يستنبط من الآيات والأحاديث مسائل اعتقادية يجب الإيمان بها والعمل بمقتضاها.

وجُلُ مباحث الكتاب في الدعوة إلى التوحيد وفضله، وبيان التوحيد، مع العناية بتوحيد الألوهية، وتوحيد الصفات، وما يناقضهما، وللكتاب شروح كثيرة، من أجودها (تيسير العزيز الحميد) للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ، و(فتح المجيد) للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، ولكل منهما طبعات كثيرة، متعددة.

٨ - (رسالة التوحيد) للعلامة الشيخ إسماعيل بن عبدالغني الدّهلوي، الشهيد عام (ت:١٢٤٦هـ)، وقد نقله إلى العربية وعلّق عليه الشيخ أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي.

والكتاب في أصله كُتب لتقوية الإيمان، ورد الإشراك في العلم والتصرف والعبادة والعادات.

٩ - (الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد) للعلامة محمد بن علي الشوكاني، صاحب (نيل الأوطار) (ت١٢٥٠هـ).

وهو عبارة عن جواب لسؤال سائل عن التوسل والاستغاثة والتمرغ على القبور وطلب قضاء الحاجة من الميت، وغير ذلك مما يتعلق بأهل القبور وطلب قضاء الحاجة من الميت.

وقد طبع الكتاب للمرة الأولى في مطبعة المنار بتعليق الشيخ محمد رشيد رضا، ثم طبع بالمطبعة المنيرية، وتتابعت بعد ذلك طبعاته.

١٠ - (دلائل التوحيد) لعلامة الشام الشيخ محمد جمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ)، وقد أقام المؤلف كتابه على البراهين الدالة على وجود الله ومعرفته سبحانه ابتداءً من برهان الفطرة، ثم بقية الأدلة على وجوده سبحانه، وعددها خمسة وعشرون دليلاً كما تناول الكتاب الرد على الملحدين، وإبطال شبهاتهم، ثم بيان آيات آيات خاتم النبيين ـ عليه السلام ـ.

١١ - كتاب (الله جل جلاله) للشيخ سعيد حوّى رحمه الله.

١٢ - كتاب (العقيدة في الله) للدكتور عمر سليمان الأشقر.

١٣ - كتاب (توحيد الخالق) و(كتاب التوحيد) للشيخ عبدالمجيد الزنداني وغير ذلك من كتب التوحيد المعاصرة.

وقد راعى المؤلفون ـ حوّى والأشقر والزنداني ـ أن تكون مؤلفاتهم المتعلقة بعلم الإيمان والتوحيد متمشية مع أحوال زماننا من حيث الاستدلال بالأدلة العلمية وضرب الأمثلة، وربط الحقائق الدينية القرآنية والنبوية بأدلتها المبثوثة في الكون، مع قيام الأخير (الزنداني) ببيان بعض الإعجازات العلمية للقرآن والسنة، واستخدامه لوسائل التوضيح المختلفة من صور ملونة وغير ذلك.

وهذه المؤلفات كلها ـ القديم منها والمعاصر ـ رغم أنها أفردت مسألة الإيمان بالله وتوحيده في بحوث خاصة، وتناول بعضها أدلة وجوب ذلك من القرآن والسنة ـ وخاصة المؤلفات القديمة ـ أو تناول بعضُها الآخر آيات الله الإنسانية

والكونية الدالة على وحدانيته سبحانه ـ وخاصة المؤلفات الحديثة ـ إلا أنها جميعاً لم تتعرض لمنهج القرآن في عرض أدلة التوحيد وإقامته في نفوس العبيد.

الصِّنف الثالث: هي عبارة عن دراسات وبحوث عصرية حديثة تعرَّضت لدلائل العقائد الإسلامية ـ بشكل عام ـ وَشَرحَ بعضُها مصادر وقواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة؛ وبيَّن البعض الآخر غِنَى النقل (القرآن والسنة) بالأدلة العقلية على أصول الاعتقاد، وخصائص هذه الأدلة، وناقش غيرها الاستدلال العقلي القرآني على مسائل العقيدة الإسلامية، بينما تعرضت مؤلفات أخرى لأساليب القرآن الكريم في عرض عقيدة الإسلام ـ بشكل عامـ، ومن هذه الدراسات والبحوث ما يلي:

١ - (العقيدة الإسلامية وأسسها) لعبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني.

٢- (براهين وأدلة إيمانية) لنفس المؤلف.

٣- (منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة) لعثمان بن علي حسن، رسالة ماجستير، لعام ١٤١٠هـ في جامعة الإمام محمد بن سعود، بالرياض.

٤- (الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد) لسعود بن عبدالعزيز العريفي، رسالة ماجستير، في جامعة أم القرى، بمكة المكرمة.

٥- (منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في العقيدة) لجابر إدريس علي أمير، رسالة جامعية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة.

٦- (الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية)، لعبد الكريم نوفان عبيدات، رسالة دكتوراه، في جامعة أم درمان الإسلامية، بالسودان.

٧- (منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام) لمؤلفه جمعة أمين عبدالعزيز.

٨- (منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان) رسالة ماجستير، لعلي محمد ناصر فقيهي، جامعة أم القرى، بمكة المكرمة.

٩- (كتاب دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون) لعبد الله بن عبد القادر التليدي.

١٠- (منهج القرآن الكريم في دعوة أهل الكتاب) رسالة ماجستير، لحمود أحمد فرج الرحيلي، في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

١١- (منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام) رسالة دكتوراه لنفس المؤلف السابق، في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وغيرها من الدراسات والبحوث ـ مما لا يتسع المقام لذكره ـ.

ولم أجد فيما سبق من مصَّنفات عصرية حديثة واحداً منها أفرد المنهج القرآني في تقرير التوحيد، بدراسة خاصَّة شاملة، لمعرفة القاعدة العامَّة التي سار عليها القرآن في عرضه لجميع دلائله التوحيدية النفسية والعقلية، دراسة قامت على استقصاء آيات التوحيد، واستقرائها وتحليلها لاستنباط ما فيها ومعرفة التميز القرآني بأساليبه وخصائصه في تقديم أدلة التوحيد بصورة تهز المشاعر والعواطف النفسية، وتحقق القناعات العقلية بوحدانية الله وتوحيده، فتدفع كل عاقل سليم الفطرة إلى الاستسلام لرب العالمين.

ولذا فإني في دراستي هذه سوف أتناول أدلة التوحيد القرآنية لاستنباط ما فيها من حجج قطعية عقلية يقينية، وسبق علمي لقواعد علم النفس الحديث في مخاطبة النفس الإنسانية والتأثير فيها لغرس عقيدة التوحيد.

المبحث الثاني
التعاريف والمصطلحات المتعلقة بعنوان البحث

«المطلب الأول»
«المقصود بالأساليب لغةً واصطلاحاً»

أولاً: المقصود بالأساليب لغة:

أساليب جمع أسلوب، والهمزة في (أسلوب) زائدة.

جاء في المقاييس: («سَلَبَ» السين واللام والباء أصل واحد، وهو أخذ الشيء بخفَّة واختطاف.

يقال: سلبْتُه ثوبَه سَلْباً، والسَّلَب:.. والسَّليب: المسلوب: والسَّلُوب من النوق: التي يُسلب ولدُها، والجمع: سُلُب،.. والسَّلَب: لحاء الشجر)[1].

وفي المفردات: (السَّلْب: نزع الشيء من الغير على القهر، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ (الحج: ٧٣))[2].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، بتحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان، ٣/ ٩٢-٩٣ مادة (سلب) بتصرف.

(٢) المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم حسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، مصر، ص٢٣٨.

وفي الأساس: (..، وسلكتُ أسلوب فلان: أي طريقته، فالأسلوب: الطريقة، وكلامه على أساليب حسنة: أي طرق حسنة)[١].

وفي لسان العرب: (.. والسَّلَب: ما يُسلب،.. والجمع أسلاب، وكل شيء على الإنسان من اللباس فهو سلَب،.. وفي الحديث: «**من قتل قتيلاً فله سلَبُه**»[٢]..، وسلَبُ الذبيحة: إهابُها، وأَكْراعُها، وبطنُها،.. والسَّلْب: السَّير الخفيف السريع.

ويقال للسَّطر من النخيل: أُسلوب، وكل طريق ممتد فهو أُسلوب،.. والأُسلوب: الطريق والوجه والمذهب، يقال: أنتم في أُسلوب سُوءٍ، ويُجمع على أساليب،..

---

(١) أساس البلاغة، تأليف: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٥٤٥-٦٠٦هـ)، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٥م، مصر. ١/ ٤٥٢ مادة (سلب) باختصار.

(٢) أخرجه البخاري في ٣/ ١٤٤ في أبواب الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب ومن قتل قتيلاً فله سلبه، برقم٢٩٧٣، عن أبي قتادة بلفظ [من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه]، وأخرجه مسلم في ٣/ ١٧٥١ في كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، انظر: صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ)، ضبط وشرح د/ مصطفى البغا، دار القلم، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ـ دمشق سوريا.

وانظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، ط (بدون)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان.

والأُسلوب: «الفن، يقال: أَخَذَ فلانٌ في أساليب من القول، أي: أفانين منه،..»[١].

وهناك مشتقات عصرية حديثة للفظ (سلب) لها معان ودلالات عصرية حالية[٢].

وبناءً على ما سبق يمكن القول: أن لفظ (أسلوب) لغةً يدور حول عدة معانٍ منها ما له علاقة بالبحث ومنها مالا علاقة له به، فمما له علاقة بالبحث أن المقصود بالأسلوب لغة هو: الطريقة ـ الوجهة ـ المذهب ـ الفن.

---

(١) لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري (٦٣٠-٧١١هـ)، مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، بيروت، لبنان، ٦/ ٣١٩ مادة (سلب) بتصرف.
وهناك معان أخرى للفظ سلب ذكرها ابن منظور في ٦/ ٣١٩.

(٢) كقولهم: سالب (للاتجاه المضاد للاتجاه الموجب فيما يتعلق بالرياضة والطبيعة)، وسالب (إشارة للدوران إلى جهة اليسار، ولما يقع ظِلُّه، وضوءُه في وضع عكسي لظل الشيء وضوئه فيما يتعلق بالبصريات)، ويقال: كهربية سالبة إذا كان عدد الإلكترونات على سطح المادة أكثر من عدد البروتونات، وغير ذلك من المعاني العصرية لمشتقات لفظ (سلب).
انظر: المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرين، إصدار مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، دار الدعوة، ط(بدون)، ١٩٨٩م، استانبول، تركيا ص٤٤١ مادة (سلب).

ثانياً: المقصود بالأساليب اصطلاحاً:

اصطلح أهل العلم على معنىً لـ(الأسلوب) يُفهم منه اتفاقهم في المضمون وإن اختلفوا في الصياغة كما يلي:

الأسلوب عند الزركشي[١] يعني:

«... حُسن التأليف، وبراعة التركيب.. مع سهولة الكلام وجزالته، وعذوبته وسلاسته..»[٢].

---

(١) الزركشي: هو بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزركشي الشافعي، مصري المولد والوفاة، ولد سنة خمس وأربعين وسبعمائة للهجرة، أخذ العلم عن العلمين جمال الدين الأسنوي وسراج الدين البلقيني، كما رحل إلى الشام، وسمع من علمائها، نبغ في الأصول والفقه والتفسير والحديث والأدب، توفي في رجب سنة أربع وتسعين وسبعمائة للهجرة، له عدة تصانيف منها:

(تكملة شرح المنهاج، للإمام الأسنوي) و(النكت على البخاري) و(البحر المحيط في أصول الفقه) و(شرح جمع الجوامع، للسبكي).

انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ)، دار الجيل، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ٣/ ٣٩٧.

وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، للمؤرخ الفقيه الأديب أبي عبدالحي بن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)، دار الكتب العلمية، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ٦/ ٣٣٥ والكتاب يقع في ثمانية أجزاء ضمن أربعة مجلدات.

(٢) البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي (٧٤٥-٧٩٤)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، القاهرة ـ مصر، ٢/ ٣٨٢ بتصرف يسير.

وقال الزرقاني[(١)]:

«الأسلوب هو: الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه.

أو هو: المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه...»[(٢)].

وقال آخرون: الأسلوب هو: «طريقة التعبير، أو طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير..»[(٣)].

---

(١) الزرقاني: هو الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، من علماء الأزهر الشريف بمصر، تخرج من كلية أصول الدين، وعمل بها مدرساً لعلوم القرآن والحديث، توفي بالقاهرة سنة ١٣٦٧هـ، له عدة مصنفات منها: (مناهل العرفان في علوم القرآن) و(بحث) في الدعوة والإرشاد. أ.هـ

انظر: الأعلام (قاموس تراجم الأعلام لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط٦، ١٩٨٤م، بيروت، لبنان ٦/ ٢١٠.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني (ت: ١٣٦٧هـ)، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان، ٢/ ٣٢٥ باختصار، وانظر: التعبير الفني في القرآن، للدكتور بكري شيخ أمين، دار الشروق، ط٤، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، بيروت، ص١٧٩.

(٣) الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية) لأحمد الشايب، مطبعة السعادة، ط٧، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ مصر، ص٤٤، باختصار.

وقيل إن الأسلوب يعني: «عرض ما يُراد عرضه من معانٍ وأفكار وقضايا في عبارات وجمل مختارة لتناسب فكر المخاطبين وأحوالهم، وما يجب لكل مقام من المقال»[1].

وعند التأمل في معنى (الأسلوب) لغة واصطلاحاً نجد أن المعاني التي وردت في ذلك متقاربة في المعنى، ويتضح لنا أن الأسلوب لا يكون أسلوباً حسناً حتى تتوافر فيه الشروط الأربعة التالية:

١- انتقاء الألفاظ وفصاحتها وجزالتها.

٢- براعة تركيب العبارات وحُسن تأليفها.

٣- تأديتها للمقاصد والمعاني المراد منها.

٤- مناسبتها لفكر المخاطبين وأحوالهم وتأثيرها فيهم.

وبناءً على ما سبق فيمكن القول إن المقصود بلفظ (أساليب) المذكورة في عنوان البحث هي: (طرق يسلكها المتكلم، وينفرد بها في اختيار الألفاظ، وتأليف العبارات).

وهذا ما تميَّز به القرآن الكريم في عرضه لأدلة التوحيد النفسية والعقلية كما سنأتي له بعون الله.

وعليه فيمكن تعريف لفظ أساليب بالنسبة إلى القرآن أنها: الطرق التي سلكها القرآن في اختيار الألفاظ وتأليف العبارات.

---

(١) المرأة المسلمة المعاصرة، للدكتور أحمد بن محمد أبابطين، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، الرياض ـ السعودية، ص٥٢٣.

«المطلب الثاني»

«المقصود بالخصائص لغةً واصطلاحاً»

أولاً: المقصود بالخصائص لغة:

الخصائص: جمع خَصِيصَة كقولك فضائل جمع فضيلة.

وفي كتاب جمهرة اللغة: «خ ص ص: خَصَّه بالشيء يخصُّه خصاً وخصوصاً وخصوصيةً إذا فضَّله به، ... وخُصَّان الرجل: من يختصُّه من إخوانه، والخُصُّ: بيت من قصب أو شجر ـ والجمع أخْصَاص وخِصَاص، وقيل.. خُصُوص.

وإنما سُمِّي خُصَّاً لأنه يُرَى ما فيه من خَصَاصِهِ، والخَصاص: الفُرَج، والخَصاصَة: الحاجة والفقر وسوء الحال، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1](الحشر: ٩).

وفي المفردات: «خص: التخصيص والاختصاص والخُصُوصية والتخصُّص: تَفَرُّدُ بعضِ الشيء بما لا يشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العموم والتَّعمُّم والتَّعميم...، والخاصَّة ضد العامَّة، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (الأنفال: ٢٥) أي بل تعمُّكم...»[2].

وفي لسان العرب: «خصص: خصَّه بالشيء يَخُصُّه خصَّاً وخُصوصاً وخَصُوصية وخُصُوصِيَّةً، والفتح أفصح، وخِصِّيصَى، وخصَّصَه واختصَّه: أَفْرَدَه به دون غيره... ويقال: فلان مَخِصٌّ بفلان أي خاص به وله به خِصِّيَّةٌ ...، وفي

---

(١) جمرة اللغة لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري (ت ٣٢١) هـ مكتبة الثقافة الدينية، ط (بدون) د.ت.، مصر ١/ ٦٧ مادة (خ ص ص) بتصرف (باختصار وزيادة).

(٢) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص ١٤٩ مادة (خص).

الحديث: «بادروا بالأعمال سِتًّا.. ـ وذكر منها ـ وخُوَيِّصَة أحدكم»[١]، يعني حادثة الموت التي تخص كل إنسان، وهي تصغير خاصَّه، وصُغِّرت لاحتقارها في جنب ما بعدها من البعث والعَرْض والحساب..»[٢].

وفي المعجم الوجيز: «... وخَصَّ كذا لنفسه: اختاره فهو خاص به وهي خاصَّة، وتُجمع على خواص، واختص فلان بالشيء: انفرد، واختَصَّ الشيءَ: اصطفاه واختارَهُ.. وتَخَصَّصَ: انفرد وصار خاصّاً، وتخصَّص به أَوْلَهُ: انفرد وصار خاصاً به أَوْلَهُ، ويقال: تخصَّص في علم كذا: قَصَر عليه بحثه وجُهده... وخاصة الشيء: ما يميِّزهُ من الصفات، تُجمع على خواص، ... والخاصِّيةُ: صفة لا تنفك عن الشيء وتُميِّزه عن غيره،... والخِصِّيصْ: الأخص من الخاص،.. والخُصُوص: نقيض العموم ويُستعمل بمعنى لا سيَّما، تقول: يعجبني فلانٌ خصوصاً عِلْمَه وأدَبَهُ.. والخَصِيْصَة: الصفة التي تُمَيِّز الشيء وتُحدِّدُه، وُتجمع على خصائص»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في (٤/ ٢٢٦٧) في كتاب الفتن، باب: بقية من أحاديث الدجال، برقم ١٢٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً ابن ماجه في سننه برقم ٤٠٥٦، والحاكم في مستدركه (٤/ ٥١٦)، انظر: سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧-٢٧٥هـ)، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ط (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان.

وانظر: المستدرك على الصحيحين بتلخيص الذهبي، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (٣٢١-٤٠٥هـ)، دار المعرفة، ط (بدون)، د.ت، بيروت، لبنان.

(٢) لسان العرب، لابن منظور ٤/ ١٠٩-١١٠ باختصار وزيادة يسيرة.

(٣) المعجم الوجيز، صادر عن مجمع اللغة العربية، تقديم مصطفى حجازي ص١٩٨-١٩٩ بتصرف وزيادة يسيرة.

ومما سبقٍ يتبيَّن لنا أن لفظ (خصائص) لغةً يدور حول عدة معانٍ، منها ماله علاقة بالبحث ومنها ما لا علاقة له به، فمما له علاقة بالبحث يمكن القول: إن المقصود بالخصائص هو:

«التفرُّد ـ التميُّز».

ثانياً: المقصود بالخصائص اصطلاحاً:

لم أجد فيما بحثتُ فيه من كتب التفسير وغيرها معنى اصطلاحياً للفظ (خصائص) اصطلح عليه العلماء سوى ما ذكره ابن عاشور[1] ـ رحمه الله ـ حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة: ١٠٥): «... ومعنى اختصاص ـ الرحمة ـ جعلها لأحد دون غيره، لأن أصل الاختصاص والتخصيص راجع إلى هذا المعنى، أعنى جَعْل الحكم خاصاً غير عام سواء خَصَّ واحداً أو أكثر..»[2].

---

(١) هو: محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، ولد سنة ١٢٩٦هـ بتونس، كان مفسراً حكيماً.. توفي سنة ١٣٩٣هـ وقيل ١٣٩٤هـ بتونس، له عدة مصنفات منها: (أصول الإنشاء والخطابة) و(مقاصد الشريعة) وتفسيره المعروف (التحرير والتنوير).
انظر: الأعلام لخير الدين الزركلي ٦/ ١٧٤، والنهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، لمحمد رجب البيومي، دار القلم، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، دمشق ـ سوريا ٥/ ٢٨٠-٢٩٣.

(٢) التحرير والتنوير، المعروف بتفسير ابن عاشور، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (١٢٩٦-١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، بيروت بتصرف وزيادة يسيرة.

وبناءً على ما ذكره ابن عاشور ـ رحمه الله ـ وما سبق ذكره من معانٍ لغوية للفظ (خصائص) فيمكن تعريف الخصائص اصطلاحاً بأنها:

«المزايا التي ينفرد بها الشيء وتميِّزه عن غيره».

ويمكن أن يقال بالنسبة إلى القرآن أن الخصائص القرآنية هي:

«المزايا التي انفرد بها كلام الله وتميز بها عن غيره في الدعوة إلى التوحيد والدفاع عنه».

«المطلب الثالث»

«المقصود بالمنهج لغةً واصطلاحاً»

أولاً: المقصود بالمنهج لغة:

قال ابن منظور: «.. طريقٌ نَهْجٌ: بَيِّنٌ واضح، وهو النهج،.. والجمع نَهْجَاتٌ ونُهُجٌ ونُهُوج.. وطُرُقٌ نَهْجَةٌ، وسَبيلْ مَنْهج كَنَهْجٍ، ومَنْهَجُ الطريق: وَضَحُهُ، والمنهاج كالمنهج.

وفي التنزيل: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨)، وأَنْهَجَ الطريق: وَضَحَ واستبان وصار نَهْجاً واضحاً بَيِّناً، قال يزيد بن الخذَّاق العبدي[١]:

ولقد أضاء لك الطريقُ وأنْهَجَتْ سُبُلُ المكارم، والهُدَى تُعدي[٢]

أي تُعين وتُقوِّي.

---

(١) نسبه الزمخشري في أساس البلاغة ٢/ ٤٨٤ إلى يزيد بن حذاق الشني.

(٢) يزيد بن الخذاق الشني العبدي، من بني عبدالقيس، شاعر جاهلي، كان معاصراً لعمر بن هند، من شعره أبيات أولها: هل للفتى من بُنات الدهر من واق؟ أم هل له من حمام الموت من راق؟

قال أبو عمرو بن العلاء: هي أول شعر قيل في ذم الدنيا.

انظر: الشعر والشعراء، لابن قتيبة، شرح أحمد محمد شاكر، مطبعة (بدون)، ١٣٦٤هـ، مصر ص٣٤٥.

وانظر: سمط اللآلي في شرح أمالي القاري، لابي عبيد البكري، نسَّقه وأكثر من التعليق عليه عبدالعزيز الميمني (الراجكوتي)، مطبعة (بدون)، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م، مصر ص٧١٣.

والمنهاج: الطريق الواضح، واستنهج الطريقُ: صار نهجاً..، ونَهَجْتُ الطريق: أَبَنْتُهُ وأَوْضحتُهُ...، ونَهجْتَ الطريقَ: سَلَكْتَهُ، وفلانٌ يستنهج سبيل فلانٍ أي يسلك مسلَكَهُ، والنَّهْجُ: الطريق المستقيم، ونَهَجَ الأمرُ وأَنْهَجَ، لغتان، إذا وَضَحَ،..»[1].

وفي المعجم الوسيط: «... والمنهاج: الخطة المرسومة..، ومنه: مِنهاج الدراسة، ومنهاج التعليم...، ويُجمع على مناهج، والمَنْهَجُ: المِنهاج، والنَّاهج: الطريق الواضح البيِّن...»[2].

يتبيَّن لنا مما سبق أن لفظ (نهج) له في اللغة عدة معانٍ منها ما له علاقة بالبحث ومنها غير ذلك، فمما له علاقة بالبحث أن:

١ ـ المنهج: الطريق البيِّن الواضح.

٢ ـ المنهج: الطريق المستقيم.

٣ ـ المنهج: الخطة المرسومة.

---

(١) لسان العرب ١٤/ ٣٠٠-٣٠١ باختصار.

(٢) المعجم الوسيط، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وآخرون، ص٩٥٧، مادة (نهج) بتصرف يسير.

ولمزيد من التوسع انظر: معجم اللغة العربية، (أحدث موسوعة ملونة باللغة العربية بالتسلسل الأبجدي) تأليف: أديب اللجمي وآخرون، عالم المعرفة، دار المحيط، ط١، ١٩٩٥م، بيروت ـ لبنان، ص١٢٧٨، مادة (نهج).

ثانياً: المقصود بالمنهج اصطلاحاً..

سبق بيان أنَّ المنهاج والمنهج بمعنىً واحد.

وقد عرَّف ابن تيمية[١] ـ رحمه الله ـ المنهاج بأنه: «الطريق والسبيل..»[٢].

وسبق تعريف المنهاج في المعجم الوسيط بأنه: «الخطة المرسومة»[٣].

وعرَّف بعض المعاصرين المنهاج بناءً على ما أضيف إليه كقولهم: «المنهج العلمي هو: القواعد العلمية التي يسلكها العقل في حركته للبحث عن الحقيقة، في أي مجال من مجالات المعرفة... وقولهم المنهج الدعوي هو: الخطط العملية

(١) ابن تيمية هو: الإمام العلامة الحافظ المطلق المفسر شيخ الإسلام.. أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني، ولد سنة واحد وستين وستمائة للهجرة بحران (على طريق الموصل والشام) وأفتى دون العشرين من عمره، وقد امتُحِن وأوذي في الله، وحُبس مرات، ومات معتقلاً في قلعة دمشق سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، بلغت مصنفاته ثلاثمائة مصنف منها:
(العقيدة الواسطية والحموية والتدمرية) و(رفع الملام عن الأئمة الأعلام) و(الفتاوى) وغير ذلك.
انظر: تذكرة الحفاظ، لأبي عبدالله شمس الدين محمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، دار الكتب العلمية، ط(بدون) د.ت، بيروت ـ لبنان ٤/ ١٤٩٦. و:شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ٦/ ٨٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ)، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، وساعده ابنه محمد، دار عالم الكتب، ط(بدون)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، الرياض ـ السعودية، ١٩/ ١١٣.

(٣) انظر: المعجم الوسيط ص٩٥٧ وفيه إشارة إلى أن هذا المعنى محدث من وضع مجمع اللغة العربية.

والأصول والقواعد النظرية الشرعية والعقلية، والمسالك الخلقية المستعملة في نشر الدعوة الإسلامية» ونحو ذلك[١].

وكل تعريفاتهم لا تخرج ـ من حيث العموم ـ عما ذكرته سابقاً.

وبناءً على ما تم ذكره من معانٍ لغوية واصطلاحية للفظ (منهج) فيمكن تعريف لفظ (المنهج) الوارد في عنوان البحث بأنه: الطريق والخطة الواضحة المرسومة مسبقاً.

ويمكن أن يقال بالنسبة إلى القرآن أن المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد هو:

«الطريقة القرآنية والخطة الواضحة المرسومة التي سلكها القرآن في الدعوة إلى الإيمان بالله والدفاع عن التوحيد».

---

(١) انظر: مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر، للدكتور عبدالرحمن بن زيد الزنيدي، مركز الدراسات والإعلام، دار اشبيليا، ط١، ١٤١٨/١٩٩٨م، الرياض ـ السعودية، ص١٥-١٦.

ومنهج ابن تيمية في الدعوة، للدكتور عبدالله بن رشيد الحوشاني، مركز الدراسات والإعلام، دار اشبيليا، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، الرياض ـ السعودية، ص٥٠.

«المطلب الرابع»

«المقصود بالقرآني لغةً واصطلاحاً»

أولاً: المقصود بالقرآني لغة:

ورد لفظ القرآن ومشتقاته في القرآن الكريم في أكثر من ست وثمانين موضعاً[١].

وفي النهاية: «..والأصل في هذه اللفظة الجَمْع، وكل شيء جَمَعْتَهُ فقد قرأتَهُ، وسُمِّي القرآن قرآناً لأنه جمع القصص، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات والسور بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغفران والكفران.

وقد يُطلق على الصلاة لأن فيها قراءة[٢] تسمية للشيء ببعضه، وعلى القراءة نفسها، ويقال: «قرأ يقرأ قراءة وقرآناً» ومنه سُمِّي القرآن قرآناً[٣].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، ط (بدون)، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، بيروت ـ لبنان ص ٥٣٩-٥٤٠ مادة (قرأ).

(٢) يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (الإسراء: ٧٨)، قال الشوكاني: (المراد بقرآن الفجر: صلاة الصبح) انظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشيخ محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه د/ عبدالرحمن عميرة، وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، المنصورة ـ مصر ٣/ ٣٤٧.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر: لسان العرب، لابن منظور ١١/ ٧٨-٧٩، مادة قرأ، وقال دراز في كتابه (النبأ العظيم) ص١٢ (روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه. انظر: النبأ العظيم، (نظرات جديدة في القرآن)، للدكتور محمد عبدالله دراز، دار القلم، ط (بدون)، د.ت، الكويت.

«والاقتراء افتعال من القراءة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ (القيامة: ١٧) أي جمعه وقراءته[1].

وقد تُحذف الهمزة منه تخفيفاً فيقال: قُران، وقَرَيْتُ، وقارٍ، ونحو ذلك من التصريف»[2].

وفي اللسان: «القرآن: التنزيل العزيز.. يقال: قرأَهُ يَقْرَؤُهُ ويَقْرءُهُ.. قَرْءاً وقِراءةً وقُرآنا.. فهو مقروء.. ورجُلٌ قارِئٌ من قوم قُرَّاءٍ وقَرَأَةٍ وقارِئِين، وأَقْرَأَ غيْرَه يُقْرِئُه إِقْرَاءً..، وأَقْرَأَهَ القرآن فهو مُقْرِئٌ.. وقَارَأَهُ مُقَارَأة وقِرَاءً، بغير هاء: دَارَسَهُ.

واستقرأه: طلب إليه أن يقرأَ... ورجل قَرَّاءٌ: حَسَنُ القراءة من قوم قَرَّائِين... وجمع القُرَّاء: قَرَّاؤُون وقَرَائيءُ..»[3].

والعرب تنطق لفظ (القرآن) على أكثر من وجه، فهو لفظ مهموز أحد حروفه، حيث أن من العرب من يحقق الهمزة في كل موضع، ومنهم من يسهِّلها في غير أول الكلمة[4]، لذلك كانت للفظ (القرآن) بوصفه مهموز أحد الحروف صورتان في النطق:

---

(١) كما قال الشوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٥١) حيث قال: (إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه..).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، الإمام مجد الدين المبارك بن محمد الجزري (٥٤٤-٦٠٦هـ)، تحقيق محمود محمد الطناحي، دار الفكر، ط(بدون)، ١٣٩٩هـ/ ١٩٨٩م. بيروت ـ لبنان. ٤/ ٣٠-٣١ بزيادة يسيرة.

(٣) لسان العرب ١١/ ٧٨-٧٩ مادة قرأ، باختصار وزيادة يسيرة.

(٤) وذلك لأن الهمزة حرف مستثقل كونه بعيد المخرج في الحلق.

الأولى: بتحقيق الهمزة (القرءان).

والثانية: بإسقاطها (تسهيلها) (القُرَان)[١].

وهكذا في القراءات، فقد قرأ ابن كثير[٢] (القرآن) معرَّفاً ومُنكَّراً، بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها مع حذفها وصلاً ووقفاً[٣].

---

(١) انظر: علوم القرآن الكريم، تأليف د/ غانم قدوري حمد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، كلية الشريعة، مطبعة (بدون)، ط (بدون)، د.ت، البلد (بدون) ص٢٤. والكتاب، لسيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان، ط(بولاق)، ط (بدون)، ١٣١٧هـ، البلد (بدون) ٢/ ١٦٧.

(٢) هو عبد الله بن كثير بن المطلب القرشي من بني عبدالدار، أبو محمد المكي الداري، إمام أهل مكة في القراءة، أصله فارسي، قيل له الداري لأنه كان عطاراً والعطار تسميه العرب دارياً نسبة إلى دارين موضع بالبحرين يُجلب منه الطيب، وقيل لأنه كان من بني عبدالدار، وقيل غير ذلك...، ولد بمكة سنة خمس وأربعين للهجرة، ولقي بها عبدالله بن الزبير وأبا أيوب الأنصاري وغيرهما.. وروى عنهم، وروى القراءة عنه إسماعيل بن عبدالله القسط وإسماعيل بن مسلم وغيرهما... كان فصيحاً بليغاً مفوّهاً، ... لم يزل هو الإمام المجتمع عليه في القراءة بمكة حتى مات سنة عشرين ومائة للهجرة، أشهر من روي عنه البزي وقنبل. انظر: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، للإمام شمس الدين أبي عبدالله الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ، حققه وفهرس له محمد سيد جاد الحق (من علماء الأزهر الشريف)، دار الكتب الحديثة، ط١، د.ت، عابدين ـ مصر، ص٧١-٧٢. و: غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري ١/ ٤٤٣-٤٤٥.

(٣) إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر المسمى منتهى الأماني والمسرات في علوم القراءات، للعلامة الشيخ أحمد بن محمد البنا (ت١١١٧) هـ.

حققه وقدم له الدكتور شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، بيروت ـ لبنان ص٢١٧.

ومن القُرَّاء من حقق الهمزة، ومنهم من قرأها بين بين.

وقد وقع خلاف في لفظ (القرآن) من حيث الاشتقاق وغيره، وقد فصَّل القول في هذا كلٌ من ابن جرير الطبري[1] والسيوطي[2] ـ رحمها الله ـ ويمكن إجمال ذلك بالقولين التاليين:

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، الإمام، العلامة، القارئ، المحدث، المفسر، المؤرخ، الفقيه، صاحب التصانيف، ولد بآمل (إحدى مناطق طبرستان) سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة توفي ببغداد سنة عشر وثلاثمائة للهجرة، ألف عدة كتب منها: (جامع البيان) في التفسير، و(تاريخ الأمم والملوك)، و(تهذيب الآثار). انظر: سير أعلام النبلاء، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان ١٤/ ٢٦٧. و: طبقات المفسرين، للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي (ت: ٩٤٥هـ)، تحقيق: علي محمد عمر، دار الكتب، ط١، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، مكتبة وهبه، عابدين، القاهرة، ٢/ ١٠٦.

(٢) هو أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري، السيوطي أو الأسيوطي (نسبة إلى أسيوط مصر)، الشافعي، المسند، المحقق، المؤرخ، الإمام، الحافظ، الأديب، ولد سنة تسع وأربعين وثمانمائة للهجرة، توفي والده وهو ابن خمس سنوات، فختم القرآن وعمره ثمان سنين، ثم حفظ عدداً من الكتب.. توفي في روضة المقياس (على نيل مصر) في منزله، سنة إحدى عشر وتسعمائة للهجرة، له عدة مصنفات تزيد على الخمسمائة منها: (تناسق الدرر في تناسب السور) و(الإتقان في علوم القرآن) و(تاريخ الخلفاء). انظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي (٨٣١-٩٠٢هـ)، دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان ٤/ ٦٥، وما بعدها. وقطف الأزهار في كشف الأسرار، للإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد الأسيوطي (٨٤٩-٩١١هـ)، تحقيق ودراسة د/ أحمد بن محمد الحمادي، إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، البلد (بدون)؛ ١/ ٢٦-٤٩.

القول الأول: أن القرآن اسم علم جامد غير مشتق، خاص بكلام الله تعالى، فهو غير مهموز، وهذا القول منسوب إلى شيخ الشافعي[1] (اسماعيل ابن قسطنطين)[2] ـ رحم الله الجميع ـ ففي تاريخ بغداد: «قال الشافعي: وقرأتُ على اسماعيل بن قسطنطين، وكان يقول: القرآن اسم وليس بمهموز، ولم يؤخذ من

(١) الشافعي/ هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع.. الهاشمي، القرشي المطلبي، ويجتمع جده شافع مع رسول الله ﷺ في عبد مناف، وقد لقي جده شافع رسول الله ﷺ، وهو مترعرع.. والشافعي أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة... ولد في غزة بفلسطين عام ١٥٠هـ وحُمِل منها إلى بغداد وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين...، قال المبرد كان الشافعي من أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات، وقد برع في الرمي والشعر واللغة وأيام العرب، ثم أقبل على الفقه والحديث، وأفتى وهو ابن عشرين سنة، وكان شديد الذكاء، توفي في القاهرة عام ٢٠٤هـ، له مصنفات كثيرة أشهرها (كتاب الأم) في الفقه، ومن كتبه (المسند) في الحديث، و(الرسالة) في أصول الفقه، وغير ذلك، والشافعي أول من ألف في أصول الفقه. انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨-٦٨١هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، ط(بدون)، د.ت، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ٤/ ١٦٣ وما بعدها. وتهذيب التهذيب للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند، ط(بدون)، ١٣٢٥هـ دار صادر، بيروت ـ لبنان ٩/ ٢٥.

(٢) هو: إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، أبو إسحاق المخزومي، المكّي المعروف بالقسط، مقرئ مكة، ولد سنة مائة هجرية، قرأ على ابن كثير وعلى صاحبيه، شبل بن عباد ومعروف بن مشكان، وهو من أقرأ الناس في زمانه، وكان ثقة ضابطاً، قرأ عليه الإمام الشافعي، وغيره، توفي سنة سبعين ومائة. انظر: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي١/ ١١٧. وغاية النهاية في طبقات القراء، لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد الجزري (ت٨٣٣)هـ عني بنشره: ج.برجستراسر، طبع لأول مرة بنفقة الناشر ومكتبة الخانجي بمصر سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، ١/ ١٦٥-١٦٦.

قرأت، ولو أُخذ من قرأت لكان كل ما قرئ قرآناً، ولكنه اسم للقرآن، مثل التوراة والإنجيل، يهمز قرأت، ولا يهمز القرآن..»[(١)].

وقد اختار هذا القول السيوطي، وقال: «... وبه قرأ ابن كثير... وهو المختار عندي في هذه المسألة..»[(٢)].

وهذا القول يوافق ما ذكره أبو إسحاق النحوي[(٣)] عن القرآن حيث قال: «يسمى كلام الله الذي أنزل على نبيه محمد ﷺ كتاباً وقرآناً وفرقاناً..»[(٤)].

القول الثاني: أن القرآن اسم لكلام الله تعالى، مصدر، مشتق وليس بجامد.

ولكن اختلف أهل هذا القول في أصل اشتقاق لفظ القرآن وهمزته كما يلي:

---

(١) تاريخ بغداد أو مدينة السلام، للخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي (٣٩٢-٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ٢/ ٦٢.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، العلامة جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (٨٤٩-٩١١هـ)، تقديم وتعليق د/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، دمشق ـ سوريا ١/ ١٦٢-١٦٣ بتصرف واختصار.

(٣) هو الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن السّري بن سهل، الزجاج، البغدادي، نحوي زمانه، قال عنه القفطي (كان من أهل الفضل والدين، حسن الاعتقاد، وله مؤلفات حسان في الأدب)، توفي في بغداد عام ٣١١هـ، له تآليف جمة منها كتاب (معاني القرآن وإعرابه)، و(الاشتقاق) وغير ذلك.

انظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة، لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (٥٦٨-٦٢٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت ـ لبنان ١/ ١٩٤، و: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ١٤/ ٣٦٠. وهو عنده باسم (إبراهيم بن محمد بن السري)

(٤) لسان العرب، لابن منظور ١/ ٧٨.

أ ـ قال الأشعري[١]: «هو مشتق من قرنتُ الشيء بالشيء، إذا ضممتُ أحدَهما إلى الآخر، وسُمِّي به القُرآن لاقتران السور والآيات والحروف فيه، ومن قولهم قِران لمن جمع بين الحج والعمرة،.. وهو بلا همز، ونون أصلية..»[٢].

وقريب من هذا قول الراغب حيث قال: «... والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل.. وتسمية هذا الكتاب قُرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم..»[٣].

وقريب من القولين السابقين ما قاله الزجاج حيث قال: «القَرْء بمعنى الجمع، ومنه قرأْتُ الماء في الحوض، أي جمعْتُه..»[٤].

---

(١) الأشعري هو: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري، وهو مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من الأئمة المجتهدين المتكلمين، ولد في البصرة عام ٢٠٦هـ ، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم، وقد نصر مذهبه أبو بكر الباقلاني، كان حنفي المذهب، معتزلي الكلام، وقد سمع من زكريا الساجي وأبي خليفة الجمحي، ثم رجع عن آراء المعتزلة ومعتقداتهم وجاهر بذلك، توفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ ، له عدة مصنفات منها: (الإبانة عن أصول الديانة) و(الرد على المجسمة) و(إمامة الصديق) وغيرها كثير.

انظر: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، لمحيي الدين أبي محمد عبدالقادر بن محمد بن محمد القرشي الحنفي (٦٩٦-٧٧٥هـ)، تحقيق د/ عبدالفتاح محمد الحلو، مؤسسة الرسالة، مطبعة هجر، ط٢ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان، ٢/ ٥٤٤-٥٤٥. وكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ٢/ ٣٥٩-٣٦٠.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ١٦٢ بتصرف وزيادة.

(٣) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص٤٠٢.

(٤) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ١٦٢.

ب - **وقال الفرَّاء**[١]: «هو مشتق من القرائن، لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضاً، ويشابه بعضها بعضاً، وهي قرائن»[٢].

ج - **وقال قطرب**[٣]: «إنه إنما سمي قرآناً لأن القارئ يُظْهِرُهُ ويُبَيِّنُهُ من فِيْهِ، أخذاً من قول العرب: ما قَرَأَت الناقة سلاً قط، أي ما رَمَتْ بولد، أي ما أسقطت ولداً، أي ما حَمَلَتْ قط، والقرآن يَلْفِظُهُ القارئ من فيه ويُلقيه، فَسُمِّي قرآناً»[٤].

د - **وقال اللحياني**[٥]: ومن نحى نحوه: «هو مصدر لقرأتُ، كالرجحان والغفران، سُمِّي به الكتاب المقروء،من باب تسمية المفعول

---

(١) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله، الكوفي، النحوي، صاحب الكسائي، ولد عام ١٣٩هـ ، وقيل ١٤٤هـ ، سماه بعضهم أمير المؤمنين في النحو، وقال ثعلب: لولا الفراء لما كانت عربية، مات عام ٢٠٧هـ ، في طريق مكة للحج. من أشهر كتبه (معاني القرآن) ومنها (المذكر المؤنث) وكتاب (اللغات) وغير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي ١٠/ ١١٨. ووفيات الأعيان، لابن خلكان ٦/ ١٧٦.

(٢) الإتقان، للسيوطي ١/ ١٦٢.

(٣) قطرب هو: أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد، الشهير بـ«قطرب» و«قطرب: لقب دعاه به أستاذه سيبويه، لتبكيره إليه في الأسحار، والقطرب: دويبه تدب ولا تفتر»، وهو نحوي، عالم بالأدب واللغة، من أهل البصرة، من الموالي، كان يرى رأي المعتزلة النظامية، وهو أول من وضع «المثلث» في اللغة، توفي عام ٢٠٦هـ. من كتبه «النوادر» و«معاني القرآن» وغير ذلك. انظر: تاريخ بغداد أو مدينة السلام، للخطيب البغدادي ٣/ ٢٩٨.

(٤) الإتقان، للسيوطي ١/ ١٦٢.

(٥) اللحياني هو: أبو الحسن علي بن حازم بن المبارك، عالم لغوي مشهور، لقب باللحياني لعظم لحيته، أو لأنه من بني لحيان بن هذيل بن مدركة، وهو من تلاميذ الكسائي والأصمعي...، وقد أخذ عنه القاسم بن سلام. توفي عام ٢٥١هـ ، له كتاب «النوادر المشهورة». انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، طبعة (بدون) د.ت، صيدا - لبنان ٢/ ٨٥.

بالمصدر»[١] ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ (القيامة: ١٧) وبناء على هذا فلفظ القرآن مصدر مهموز، وهمزته أصلية، وهو مشتق من قرأ بمعنى تلا، وهذا هو قول الأكثرية ومنهم ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ حيث قال: «فأما القرآن فإن المفسِّرين اختلفوا في تأويله، والواجب أن يكون تأويله على قول ابن عباس[٢] من التلاوة والقراءة، وأن يكون مصدراً من قول القائل قرأت القرآن كقولك «الخسران» من «خسِرت» و«الغفران» من «غفر الله لك»..»[٣].

ثم استشهد ابن جرير لذلك بتفسير ابن عباس للآية: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ (القيامة: ١٨) فقال في تفسيرها: «... فإذا بَيَّنّاه بالقراءة فاعمل بما بيَّنّاه

(١) الإتقان، للسيوطي ١/ ١٦٢.

وانظر: معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، المتوفى سنة ٢٠٧هـ ، عالم الكتب، ط٢، ١٩٩٠م، بيروت ـ لبنان ٣/ ٢١١.

(٢) هو أبو العباس عبد الله ابن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي؛ ابن عم رسول الله ﷺ؛ ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث سنين؛ دعا له الرسول ﷺ بالفقه في الدين وتعليمه التأويل؛ وقد سمي بالبحر والحبر لكثرة علمه؛ مات بالطائف سنة ٦٨هـ، وهو ابن إحدى وسبعين سنة.

انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لأحمد بن علي بن حجر العقسلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ)، دار الكتب العلمية ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ٤/ ٩٥.

و: تقريب التهذيب، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العقسلاني، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان ـ ١/ ٥٠٤.

وسير أعلام النبلاء، للذهبي ٣/ ٣٣١.

(٣) تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٥-٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان ١/ ٦٧.

لك بالقراءة»[١] ووضحَّ صحة ما ذكره بقوله ـ بعد أن ساق سنده ـ : «عن عبد الله بن عباس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ قال أن نقرئك فلا تنسى، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه، أي: إذا تُلي عليك فاتبع ما فيه»[٢].

ثم قال ابن جرير: «وأما على قول قتادة ـ أي في تفسيره للآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ (القيامة: ١٧- ١٨) بأن معناها: إن علينا حفظه وتأليفه فإذا قرأناه فاتبع حلاله واجتنب حرامه، فإن الواجب أن يكون مصدراً من قول القائل: قرأْتُ الشيء إذا جمعتُهُ وضممتُ بعضه إلى بعض..»[٣].

ثم ختم كلامه قائلاً: «ولكلا القولين ـ أي قول ابن عباس وقول قتادة ـ وجه صحيح في كلام العرب، غير أن أَوْلَى قولَيْهما بتأويل الآية قول ابن عباس، لأن الله جل ثناؤه أمر نبيه ﷺ في غير ما آية من تنزيله باتباع ما أوحى إليه، ولم يرخص له في ترك اتباع شيء من أمره إلى وقت تأليفه القرآن له..إلخ»[٤].

وبعد استعراض أقوال أهل اللغة والتفسير لكلمة القرآن وأصل اشتقاقها يمكن إجمال أقوالهم في أنها مشتقة من:

---

(١) المرجع السابق ١/ ٦٧ بتصرف وزيادة يسيرة.

(٢) المرجع السابق ١/ ٦٧ بتصرف وزيادة يسيرة.

وانظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، أبي إسحاق بن إبراهيم السَّري المتوفى سنة ٢١١هـ، شرح وتحقيق د/عبدالجليل عبده شلبي، خرج أحاديثه الأستاذ علي جمال الدين، دار الحديث، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، القاهرة ـ مصر ٥/ ٢٥٣.

(٣) المرجع السابق ١/ ٦٧ باختصار.

(٤) جامع البيان ١/ ٦٧ بتصرف يسير.

١- القِران: وهو الجمع بين الأشياء من (قَرَن).

٢- القَرينة: وجمعها القرائن: وهي المتشابهة التي يُصَدِّق بعضُها بعضاً.

٣- قَرَأَ: بمعنى القِراءة والتلاوة، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول أي المقروء.

٤- قرأ: بمعنى جمع، لأن العرب تقول: قرأتُ الشيء قرآناً إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض.

وحتى يمكن تبيين الراجح من كل الأقوال السابقة في أصل كلمة القُرآن، وهل هي مهموزة أم غير مهموزة؟ جامدة أم مشتقة؟ وإذا كانت مشتقة فما أصل اشتقاقها؟ أقول:

أ ـ من قال بأن القُرآن مشتق من القِران بمعنى الجمع، أو قرأ بمعنى جَمَعَ، وأن القِراءة هي جمع وضم للحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل[1]، فإن لازم قوله أن معنى الآية ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ (القيامة: ١٧) هو: إن علينا جمعه وجمعه، وهذا لا يستقيم في تفسير الآية، لأن الله تعالى إنما ذكر كلمة (وقُرآنه) لإثبات المغايرة بين الكلمتين لا الترادف بينهما.

ويؤيد هذا ما نصَّ عليه الزركشي ـ رحمه الله ـ حيث قال في البرهان: «لا يكون القرآن من قرأ بمعنى جمع، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ فغاير بينهما»[2] وبناءً على هذا فالقول بأن القُرآن مشتق من القِران وهو الجَمْع، أو قَرَأ بمعنى جمع قول مرجوح.

---

(١) ذكر هذا الشيخ مناع القطان ـ رحمه الله ـ في كتابه ـ مباحث في علوم القرآن ص١٦. وقد سبقه إليه الأشعري كما مرّ معنا في البحث ص٢٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي ١/ ٢٧٧.

ب ـ وبناءً على ما سبق فيمكن القول أن القرآن مصدر.. على وزن فُعلان، ليس بجامد، ولا مرتجل ـ أي موضوع من أول الأمر علماً على الكلام المنزَّل[١] على محمد ﷺ ـ سُمِّي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر، فهو مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ ثم نُقل من هذا المعنى المصدري، وجعل اسماً لكلام الله المنزل على آخر رسله ـ عليهم جميعاً سلام الله ـ.

وهذا هو الراجح كما يبدو لي، فالقرآن مأخوذ من قرأ بمعنى تلا، فهو من القراءة في قولنا: يقرأُ قِرَاءةً وقرآناً، قال اللحياني القرآن: «مصدر لقرأت..»[٢].

ولا يلزم من هذا القول ما قاله اسماعيل بن قسطنطين من أنه لو أُخذ من قرأتُ لكان كل ما قُرِئ قرآناً بعد أن خُصِّص بكلام الله شرعاً.

ثم إن القائلين بأن القرآن اسم علم جامد غير مشتق التزموا أن يكون لفظ القرآن غير مهموز[٣]، وهذا غير صحيح، وردَّه معظم أهل اللغة، وإنما ذلك من باب التخفيف، قال الزجاج: «هذا القول سهو، والصحيح: أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف ونَقْلِ حركة الهمز إلى الساكن قبلها»[٤] ويؤيد هذا ما سبق ذكره عن ابن عباس إمام اللغة والتفسير، ولم يرد عن الصحابة ما يخالفه، فهم أعلم بذلك.

---

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، ١/ ١٦.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ١/ ١٦٢.

(٣) كما سبق شرحه ص٥٦.

(٤) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ١٦٢.

ومن هنا يتضح لنا أن همزة القُرءان أصلية، وهذا ما اختاره صاحب المناهل حيث قال: «...ذلك ما نختاره استناداً إلى موارد اللغة، وقوانين الاشتقاق.. فلفظ قُرْءَان مهموز، وإذا حذف همزة، فإنما ذلك للتخفيف.

وإذا أُدخلت عليه (أل) بعد التسمية فإنما هي للمح الأصل لا للتعريف..»[1].

ثانياً: المقصود بالقرآني اصطلاحاً:

بناء على ما سبق من معان لغوية للفظ (القرآن) ومشتقاته، وانسجاماً مع عنوان البحث وفقراته فيمكن تعريف القرآني بأنه:

«المنسوب إلى القرآن الكريم الخاص به، والمقتبس منه».

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني ١/ ١٦ باختصار.

«المطلب الخامس»

«المقصود بالعَرْض لغةً واصطلاحاً»

أولاً: المقصود بالعَرْض لغةً:

جاء في لسان العرب: «العَرْض خلاف الطُّول، والجمع أَعْرَاض، ...، ـ ويقال ـ في الكثير: عُرُوض وعِرَاض،.. وقد عَرُضَ يَعْرُض عِرَضاً مثل صَغُرَ صِغَراً، وعَرَاضَةً بالفتح، قال جرير[1]:

إذا ابتدر الناسُ المكارمَ بذَّهم عَرَاضَةُ أخلاقِ ابنِ لَيْلَى وطولُها

فهو عَريض وعُراض بالضم، والجمع عِرْضان، والأنثى عَرِيضةٌ وعُرَاضةٌ، وعَرَّضتُ الشيء: جعلْتهُ عَرِيضاً، وقال الليث[2]: أَعْرَضْتهُ: جعلْتهُ عريضاً.

---

(١) هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي التميمي، ولد في اليمامة سنة ٢٨هـ يكنى بأبي حزرة، كان أشعر أهل عصره، عاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم، وكان هجّاء مُرّاً، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان عفيفاً، وهو من أغزل الناس شعراً،.. له (ديوان شعر) في جزأين، وجمعت (نقائضه مع الفرزدق) في ثلاثة أجزاء، توفي في اليمامة سنة ١١٠هـ. انظر: طبقات الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، مطبعة (بدون)، ط (بدون)، ١٩١٣هـ ليدن ص٩٦. و: وفيات الأعيان، لابن خلكان: ١/ ١٠٢.

(٢) هو الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمي، أبو الحرث (الحارث) إمام أهل مصر في عصره، أصله فارسي أصبهاني، ولد سنة ٩٤هـ، في قلقشندة (قرقشندة)، روى عن الزهري وعطاء وغيرهما، وروى عنه ابن شعيب وابن المبارك وآخرون، قال عنه يحيى بن بكير: (ما رأيت أحداً أكمل من الليث، كان فقيه النفس، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث والشعر..) وله في خاصة من الكتب (كتاب التاريخ) وكتاب (مسائل في الفقه)، توفي سنة ١٧٥هـ. =

والعُرَاض أيضاً: العَرِيض كالكُبار والكَبِير..، وقوله تعالى: ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ (فصلت: ٥١) أي واسع أو كثير وإن كان العَرْض إنما يقع في الأجسام والدعاء ليس بجسم.

وعَرَضَ الشيءَ عليه يعرِضُهُ عرضاً: أراه إياه... وعَرَضْتُ الكتاب وعَرَضْتُ الجُنْدَ عَرْضَ العين إذا أمررتَهم عليك ونظرْتَ ما حالُهم..، وقد فاته العَرَضُ وهو العطاء،.. واعْـتَرَضَ الناسَ: عَرَضَهُم واحداً واحداً..، وفي الحديث: «تُعْرَضُ الفتن على القلوب عَرْضَ الحصير...»[(١)].

= انظر: شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ١/ ٢٨٥.

و: موسوعة عباقرة الإسلام (في النحو واللغة والفقه)، للدكتور رحاب خضر عكاوي، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان ٣/ ٢٢٤ وما بعدها.

والكتاب يقع في أربعة أجزاء الأول من تأليف د/ محمد أمين فرشوخ، يتحدث عن عباقرة الإسلام في (العلم والفكر والأدب والقيادة) وبقية الأجزاء للدكتور/ رحاب عكاوي الثاني يتحدث عن عباقرة الإسلام في (الطب والجغرافية والتاريخ والفلسفة) والأخير يتحدث عن عباقرة الإسلام في (الفيزياء والكيمياء والرياضيات).

(١) أخرجه مسلم ١/ ١٢٨ في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً..، برقم ٢٣١، عن حذيفة رضي الله عنه، بلفظ «تعرض الفتن على القلوب كالحصير»، وأخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ ٤٧٩، برقم ٢٣٢٧٢ عن حذيفة رضي الله عنه، وأخرجه الخطيب التبريزي في المشكاة ٣/ ١٤٨٠ في كتاب الفتن برقم ٥٣٨٠، انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ)، إشراف د/ سمير طه المجذوب، إعداد علي حسن الطويل وآخرين، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان.

وانظر: مشكاة المصابيح، للشيخ محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (توفي بعد عام ٧٣٧هـ)، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، بيروت ـ لبنان.

قال ابن الأثير[١]: أي توضع عليها وتُبسط كما يُبسط الحصير، وقيل هو لإظهارهم واختبار أحوالهم[٢]، وعارَضَ الشيء بالشيء معارضةً: قابَلَهُ.

وفي الحديث: «**إن جبريل عليه السلام كان يعارضُهُ القرآن في كل سَنَةٍ مرَّة، وإنه عارَضَهُ العام مرَّ تين**»[٣]. أي دارسه مرتين..، وعرَضَ الشيء... انتصبَ.. وعَرَضْتُ له الشَّيءَ: أي أظهرته له.

وأَبْرَزْتَه إليه...، والعَرَض من أحداث الدهر من الموت والمرض ونحو ذلك..، والعَرَض ما نِيْلَ من الدنيا..، واستعرضه: سأله أن يعرِض عليه ما عنده..، وعِرْضُ الرجل حَسَبُهُ..، وعَرْضُ الشيء بالضم: ناحِيَتُهُ من أي وجهٍ

---

(١) ابن الأثير هو: أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقلب بمجد الدين، ولد سنة ٥٤٤هـ، محدث، لغوي، أصولي، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر (نسبة إلى رجل من أهل برقعيد، من أعمال الموصل بناها عبد العزيز بن عمر)، وانتقل إلى الموصل بالعراق.. وأصيب بالنقرس فبطلت حركة رجليه ويديه.. ولازمه المرض إلى أن توفي في إحدى قرى الموصل عام ٦٠٦هـ له عدة مصنفات قيل أنه ألفها كلها في زمن مرضه إملاء على طلبته، منها (النهاية) في غريب الحديث والأثر، و(جامع الأصول في أحاديث الرسول) وغير ذلك كثير. وهو أخو ابن الأثير المؤرخ، وابن الأثير الكاتب. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان ٣/ ٣٤٩ وما بعدها.

(٢) انظر: النهاية، لابن الأثير ٣/ ٤٣٩ باب العين.

(٣) أخرجه البخاري في ٣/ ١٣٢٧ في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم ٣٤٢٦ عن عائشة رضي الله عنها. وابن حنبل في ٦/ ٣٢٠ برقم ٢٦٤٠٦ في أحاديث فاطمة رضي الله عنها. والهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٣، انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (٧٥٣-٨٠٧هـ)، بتحرير العراقي وابن حجر، دار الريان للتراث، ط(بدون)، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، القاهرة ـ مصر.

جِثّتَهُ..، والعَرْض والعَارِض: السحاب الذي يعترض في أفق السماء..، وعَرُوض الكلام: فحواه ومعناه..، وعَرْضُ الشيء: وَسَطُهُ..، والعَرْض: الجانب من كل شيء..، والعارض: الخدُّ..، والإعراض عن الشيء: الصدُّ عنه..، والتعريض خلاف التصريح، والمعاريض: التورية بالشيء عن الشيء..، والعَرُوض: عَرُوض الشِّعر وهي فواصل أنصاف الشعر وهو آخر النصف الأول من البيت..»[1].

وفي المعجم الوسيط: «... عَرَضَ الكتابَ: قرأه عن ظهر قلب..، وعَرَضَ الحصيرَ: بَسَطَهُ..، وأَعْرَضَ عنه: صَدَرَ وَوَلَّى، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٨٣)[2] وغير ذلك من المعاني اللغوية الكثيرة للفظ (عرض)[3].

يتضح لنا مما سبق أن لفظ (عرض) يدور لغوياً حول عدة معانٍ، منها ما له علاقة بعنوان البحث، ومنها غير ذلك، فمن معاني العَرْض المتعلقة بعنوان البحث:

«الكشف والإظهار ـ الإبراز ـ النَّصب ـ البسط».

ثانياً: المقصود بالعَرْض اصطلاحاً:

لم أعثر فيما بحثت فيه من كتب السابقين ومؤلفات اللاحقين في التفسير وغيره على معنىً اصطلح عليه أهل العلم للفظ (عَرْض) أو (العرْض) سوىٰ ما

---

(١) لسان العرب، لابن منظور ٩/ ١٣٧-١٥٢ بتصرف واختصار.

(٢) المعجم الوسيط: ص٥٩٣-٥٩٥.

(٣) انظر: نفس المرجع ونفس الصفحات، وانظر: لسان العرب ٩/ ١٣٧-١٥٢.

ذكره الشوكاني[1] - لغوياً - في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ (الكهف: ١٠٠) حيث قال: «المراد بالعرْض هنا الإظهار، أي أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها..»[2] وما ذكره ابن عاشور - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ (الكهف: ٤٨) حيث قال: وعرْض الشيء: إحضاره ليُرى حاله وما يحتاجه..»[3].

وبناءً على هذين القولين وما سبقهما من المعاني اللغوية للفظ (عَرْض) يمكن تعريف (العرض) اصطلاحاً بأنه (عملية الإحضار والإظهار والنَّصب لما يُراد كشفُهُ ورؤيته) وقد ورد لفظ (عَرْض) ومشتقاته في القرآن الكريم في تسعة وسبعين موضعاً[4].

---

(١) الشوكاني هو: العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ثم الصنعاني، ولد بهجرة شوكان (تبعد عن صنعاء دون مسافة يوم، وهي من بلاد خولان باليمن)، وكانت ولادته سنة ١١٧٣هـ ، نشأ بصنعاء وولي قضاءها سنة ١٢٢٩هـ ، كان مشتغلاً في جميع أوقاته بالعلم درساً وتدريساً وإفتاء وتصنيفاً، ترك التقليد واجتهد رأيه اجتهاداً مطلقاً غير مقيد، توفي عام ١٢٥٠هـ في صنعاء. بلغت مصنفاته أربعة عشر ومائة كتاب، منها تفسيره (فتح القدير) و(إرشاد الفحول) في أصول الفقه، و(السيل الجرار) و(نيل الأوطار) في الفقه، وغير ذلك من المصنفات. انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للعلامة محمد بن علي الشوكاني ٢/ ٢١٤. و: أئمة العلم المجتهدون في اليمن، تأليف القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، دار البشير، ط١، عمان، الأردن، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ص٢٢٧ وما بعدها.

(٢) فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٤٣٤.

(٣) التحرير والتنوير: ١٥/ ٧٩.

(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٥٦١-٥٦٢.

«المطلب السادس»
«المقصود بالأدلة لغةً واصطلاحاً»

أولاً: المقصود بالأدلة لغةً:

الأدلة: جمع دليل.

وفي لسان العرب: «..ودلَّ فلان إذا هَدَى.. ودلَّهُ على الشيء يدلُّهُ دلاً.. فاندلَّ: سدَّده إليه.. والدَّليل ما يُستدل به، وقد دلَّه عليا لطريق يَدُلُّه دَلالةً ودِلالةً ودلُولة..

وأنشد أبو عُبيد[1]:

«إني امرؤٌ بالطُّرق ذو دلالات»..

والدَّليل والدِّلِّيلي: الذي يدلُّك،..

---

(١) أبو عبيد هو: الإمام الحافظ المجتهد أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله، الهروي الأزدي الخزاعي البغدادي، محدث، فقيه، مقرئ، ولد بهرة سنة ١٧٧هـ، وقيل غير ذلك، قرأ القرآن على أبي الحسن الكسائي وآخرين، وأخذ اللغة عن أبي عبيدة وجماعة، قال ابن سعد: (كان أبو عبيد مؤدباً، صاحب نحو وعربية، وطلب للحديث والفقه) ولي قضاء طرسوس أيام الأمير ثابت بن نصر الخزاعي، مات بمكة سنة ٢٢٤هـ، وقيل غير ذلك، له عدة مصنفات منها: (الغريب المصنف في علم اللسان) و(فضائل القرآن) و(الإيمان).
انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد، أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (١٦٨-٢٣٠)هـ، دار بيروت، ط(بدون)، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، بيروت ـ لبنان ٧/ ٣٥٥.
و: تذكرة الحفاظ، للذهبي ٢/ ٤١٧، وسير أعلام النبلاء، للذهبي ١٠/ ٤٩٠.

قال سيبويه(١): والدِّلِّيلي: علمه بالدلالة ورسوخه فيها.. ودلَلْتُ بهذا الطريق: عَرَفْتُهُ، وأَدْلَلْتُ بالطريق إدلالةً، والدِّلِّيلة: المحجة البيضاء..»(٢)(٣).

وفي التعريفات: «الدَّليل في اللغة هو: المرشد..»(٤).

وفي تاج العروس: «والدَّلاَل كشدَّاد: الجامع بين البيِّعين..»(٥).

وبناءً على ما سبق يمكن القول أن الدليل هو: المرشد والهادي، سواء كان من العقلاء أو غيرهم كالأمارات والعلامات المنصوبة أو المكتوبة.

---

(١) سيبويه هو: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي المقلب بسيبويه، مولى بن الحارث بن كعب، وقيل مولى آل الربيع بن زياد، ولد عام ١٤٨هـ، في إحدى قرى شيراز، وهو إمام النحاة في زمانه، وأول من بسط علم النحو، ومعنى سيبويه رائحة التفاح بلغة فارس، (وإنما لقب بسيبويه لأن أمه كانت تُرَقِّصُه وتقول له ذلكْ، وقيل أن وجنتيه كانتا كالتفاحة..).
لزم أولاً المحدثين والفقهاء.. ثم لزم الخليل بن أحمد فبرع في النحو، وكان شاباً حسناً جميلاً نظيفاً، توفي عام ١٨٠هـ. من مصنفاته المطبوعة (كتاب سيبويه) في النحو. انظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ١٢/ ١٩٥. و: البداية والنهاية، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٠٠-٧٧٤هـ)، تدقيق وتحقيق: د/ أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الريان، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، القاهرة، مصر ١٠/ ١٨٢.

(٢) لسان العرب، لابن منظور ٤/ ٣٩٣-٣٩٤ مادة (دلل) باختصار.

(٣) ولمزيد من التفصيل يمكن النظر في المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرين ص٢٩٤، مادة (دلل).

(٤) التعريفات، للجرجاني، الشريف علي بن محمد (٧٤٠-٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان ص١٠٤.

(٥) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، للإمام محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي (١١٤٥-١٢٠٥هـ) دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر، ط(بدون)، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، بيروت ـ لبنان ١٤/ ٢٤١ مادة دلل.

والدليل على وزن فعيل للمبالغة بمعنى فاعل كقادر وقدير.

والاستدلال هو طلب الدليل، والمدلول هو مقتضى الدليل ونتيجته[1].

وقد ورد لفظ (دليل) في القرآن بمعنى الإمارة والعلامة كما في قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ (الفرقان: ٤٥).

وورد بمعنى الهداية والإرشاد كما في قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الصف: ١٠).

ومن الألفاظ المرادفة للدليل في معناه: «البرهان، والحجة، والسلطان، والبصيرة، والآية، والبينة»، وكل هذه الألفاظ قد وردت في القرآن بما يتضمن معنى الدليل.

فمن النوع الأول قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (النمل: ٦٤).

ومن النوع الثاني قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ (الشورى: ١٦).

ومن النوع الثالث قوله تعالى: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾ (يونس: ٦٨).

---

(١) وقد نسب ابن تيمية إلى الإمام أحمد أنه كان يعلم بعض أصحابه دعاءً يقولون فيه: (يا دليل الحيارى، دلني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين)، وقال: (كان عامة أهل السنة من أصحابنا وغيرهم على أن الله يسمى دليلاً) ولم يبرهن على ذلك، رغم ترجيحه له ومناقشته لقول المانعين لتسمية الله دليلاً. ونحن لا نوافقه على ذلك، فمن المعلوم أن أسماء الله وصفاته توقيفية، ولم يثبت في الكتاب والسنة أن الله يسمى دليلاً. انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية ٢/ ١٧-١٨.

ومن النوع الرابع قوله سبحانه: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (الأنعام: ١٠٤).

ومن النوع الخامس قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (غافر: ٧٨).

ومن النوع الأخير قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ (الأنعام: ٥٧).

ولأهل اللغة كلام فيما يتعلق بالفروق الجوهرية بين معاني بعضها[1].

ثانياً: المقصود بالأدلة اصطلاحاً:

جاء في الإحكام «والدليل: قد يكون برهاناً، وقد يكون اسماً يعرف به المسمى، وعبارة يتبين بها المراد..»[2].

---

(١) لمعرفة ذلك انظر:

أ ـ تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ط١، د.ت، مصر ٦/ ٢٩٤-٢٩٥ مادة (بره).، ٣/ ٣٩٠ مادة (حج)، ١٢/ ١٧٥ مادة (بصر)، ١٥/ ٤٩٥ مادة (بان).

ب ـ مختار الصحاح، للرازي ص٥٠ مادة (برهن)، وص١٢٣ مادة (حجج).

ج ـ معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ١/ ٢٤٥ مادة (بصر)، ١/ ٣٢٨ مادة (بين)، و٢/ ٢٩-٣٠ مادة (حجج) و٣/ ٩٥ مادة (سلط).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٣٨٣-٤٥٦هـ)، مراجعة وتحقيق لجنة بإشراف الناشر، دار الحديث، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، القاهرة ـ مصر، ١/ ٤١.

وفي كتاب التعريفات «الدليل...: هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر»[١].

وجاء في إرشاد الفحول: «والدليل: ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري،.. والعلم بالغير... وهو ترتيب أمور معلومة بقصد الوصول إلى مجهول..»[٢].

وفي علم أصول الفقه أن الدليل هو: «ما يُستدل بالنظر الصحيح فيه على حكم شرعي عملي، على سبيل القطع أو الظن..»[٣]. وهذا ما اصطلح عليه أكثر الفقهاء والأصوليين[٤].

وبعد أن سردت أقوال بعض أهل العلم في معنى الدليل لغة واصطلاحاً، ووجدنا تقاربها في المعنى يتضح لنا أن الدليل لا يكون دليلاً قوياً حتى تتوافر فيه الشروط الأربعة التالية:

---

(١) التعريفات، للجرجاني، ص١٠٤.

(٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، للشوكاني، محمد بن علي بن محمد (١١٧٣-١٢٥٠هـ)، تحقيق أبي مصعب محمد سعيد البدري، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٧، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، بيروت ـ لبنان ص٢١ بتصرف واختصار.

(٣) علم أصول الفقه، للشيخ عبد الوهاب خلاف، مطبعة (بدون)، ١٩٤٧م، البلد (بدون)، ص٨.

(٤) ولمزيد من التفصيل يمكن النظر في: أ ـ المحصول في علم أصول الفقه، للرازي، الإمام فخر الدين محمد بن عمر الحسيني (٥٤٤-٦٠٦هـ)، دراسة وتحقيق: د/ طه جابر العلواني، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان ١/ ٨٨.

ب ـ أصول الفقه، لشمس الدين محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي (٧١٢-٧٦٣هـ)، حققه وعلق عليه وقدم له الدكتور / فهد بن محمد السدحان، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، الرياض ـ السعودية ١/ ١٩.

١- كمال بيانه ووضوحه.

٢- قوة دلالته وحجته.

٣- قبوله إعمال العقل فيه تدبراً واستنباطاً.

٤- إرشاده الناظر فيه إلى العلم بمدلوله.

وبناءً على ما سبق فيمكن تعريف لفظ (أدلة) الوارد في عنوان البحث ـ بعد إضافة (أل) إليها بأنها:

«النصوص والحجج الواضحة، الموصِّلة بصحيح النظر فيها إلى العلم بمدلولاتها على سبيل القطع أو الظن».

والأدلة منها ما يكون نقلياً[1]، ومنها ما يكون عقلياً[2]، مع افتقار كل منهما للآخر غالباً[3]. ومنها ما يكون قطعي الدّلالة[4]، ومنها ما يكون ظني الدَّلالة[5]. ومنها ما هو مجمع عليه بين العلماء يجب اتباعه[6]. ومنها ما هو مختلف فيه بينهم[7]،

---

(١) كأدلة النصوص والأحكام الشرعية المأخوذة من القرآن والسنة.

(٢) كأدلة حدوث العالم والكون من تغير وتقلب وفناء.....إلخ، فكلها تدل على وجود محدث له.

(٣) فالاجتهاد مثلاً كدليل عقلي لا يمكن بدون الاعتماد على الدليل النقلي، لأن العقل المحض لا دخل له في تشريع الأحكام.

(٤) أي يفيد العلم واليقين.

(٥) أي يفيد غلبة الظن ورجحانه، وقد يفيد استواء الطرفين.

(٦) كالكتاب والسنة والإجماع.

(٧) كالاستحسان والمصالح المرسلة والعرف ومذهب الصحابي..إلخ، مما يتعلق بأصول الفقه والأحكام الشرعية.

ومنها ما يدل على مدلولات حسية، ومنها ما يدل على مدلولات معنوية، ومنها كذلك ما يدل على مدلولات خيِّرة، ومنها ما يدل على مدلولات شرِّيرة[١].

وقد ورد لفظ (دل) ومشتقاته في القرآن الكريم في ثمانية مواضع[٢].

---

(١) لمزيد من التفصيل وضرب الأمثلة يمكن النظر في:

أ ـ الأدلة المختلف فيها عند الأصوليين، للدكتور خليفة بابكر الحسن، الناشر: مكتبة وهبة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار التوفيق النموذجية، الأزهر ـ القاهرة ـ مصر، ص٥.

ب ـ الوجيز في أصول الفقه، للأستاذ الدكتور/ وهبة الزحيلي، دار الفكر، ط٢. ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، دمشق ـ سوريا ص٢١.

(٢) هي كما يلي:

(١) في سورة الأعراف آية ٢٢.

(٢) وفي سورة طه آية ١٢٠.

(٣) في سورة طه آية ٤٠.

(٤) وفي سورة القصص آية ١٢.

(٥) وفي سورة الفرقان آية ٤٥.

(٦) وفي سورة سبأ آية ٧.

(٧) في سورة سبأ أيضاً آية ١٤.

(٨) في سورة الصف آية ١٠.

«المطلب السابع»

«المقصود بالتوحيد لغةً واصطلاحاً»

أولاً: المقصود بالتوحيد لغة:

جاء في معجم مقاييس اللغة: («وحد» الواو والحاء والدال: أصلُ واحد يدل على الانفراد، من ذلك: الوحدة، وهو واحد قبيلته إذا لم يكن فيهم مثله ...

ولقيتُ القوم مَوْحَدَ مَوْحَدَ، ولقيتُهُ وحده، ولا يضاف إلا في قولهم: نسيجُ وَحْدِهِ... وهو مَثَلٌ،..)[1].

وعند ابن منظور: «والواحد: أوَّل عدد الحساب، وقد ثُنِّي، أنشد ابن الأعرابي[2]:

فلما التقينا واحِدَيْنِ علوتُهُ ... بذي الكف إني للكُماة ضروب

ويقال: .. رجل وحيد: لا أحد معه يؤنسه...

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٦/ ٩٠-٩١ مادة (وحد) باختصار يسير.

(٢) هو محمد بن زياد الهاشمي (مولاهم) أبو عبد الله، الملقب بابن الأعرابي، راوية، ناسب، علامة باللغة، من أهل الكوفة، ولد سنة ١٥٠هـ، كان صاحب سنة واتباع، مات بسامراء سنة ٢٣١هـ، له تصانيف كثيرة منها (معاني الشعر) و(النوادر) و(تاريخ القبائل).

انظر: الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، بيروت - لبنان ٣/ ٧٩.

و: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المعروف بمعجم الأدباء، لياقوت الحموي، طبعة مرجليوث، ط(بدون)، ١٩٠٧-١٩٢٥، مصر ٧/ ٥.

قال ابن سِيده[1]: والله الأوحد والمتوحِّد وذو الوحدانية، ومن صفاته: الواحد الأحد.. والفرق بينهما أن (الأحد) بُني لنفي ما يُذكر معه من العدد، تقول: ما جاءني أحد، و(الواحد) اسمٌ بني لمفتتح العدد، تقول: جاءني واحد من الناس، ولا تقول جاءني أحد، فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير، والأحد منفرد بالذات والمعنى[2]..

---

(١) ابن سيده: هو علي بن إسماعيل، وقيل ابن أحمد، وقيل ابن محمد، أبو الحسن الضرير، ولد حوالي سنة ٣٩٨هـ ، في مدينة شرقي قرطبة،.. تلقى العلم عن أبيه.. قال عنه الحميدي في (جذوة المقتبس): (إمام في اللغة والعربية، حافظ لهما،..) توفي سنة ٤٥٨هـ وقيل غير ذلك، بدانية، من تصانيفه (كتاب المخصص) و(كتاب المحكم والمحيط الأعظم) و(كتاب الوافي في علم أحكام القوافي). انظر: نكت الهميان في نكت العميان، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ط(بدون) ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، مصر ص٢٠٤. و: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي ص٣٢٧.

(٢) وهناك فروق أخرى بين لفظ (أحد) ولفظ (واحد)، ولفظ (وحيد) كما يلي:

أ ـ أحد اسم أكمل من الواحد، فقولنا: فلان لا يقوم له أحد من الناس، أبلغ من قولنا: فلان لا يقوم له واحد من الناس، فيجوز في المعنى أن يقوم له اثنان وأكثر.

ب ـ أحد أخص من الواحد، فقولنا: ليس في الدار واحد، يحتمل أن يكون من الدواب والطير والوحش والإنس وغيرهم، بخلاف قولنا: ليس في الدار أحد، فإنه مخصوص بالآدميين دون غيرهم.

ج ـ أحد يستوي فيه المذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (الأحزاب: ٣٢)، بخلاف الواحد، فلا يقال: كواحد من النساء، بل كواحدة.

د ـ أحد له جمع من لفظه وهو: (الأحدون) و(الآحاد) وليس للواحد جمع من لفظه، فلا يقال: واحدون، بل اثنان وثلاثة.

هـ ـ أحد ممتنع الدخول في الضرب والعدد والقسمة وفي شيء من الحساب، بخلاف الواحد كما هو معلوم.

=

ولا يوصف شيء بالأحدية غير الله تعالى، فلا يقال: رجل أحد، ولا درهم أحد.. لأن أحداً صفة من صفات الله عزوجل التي استخلصها لنفسه، ولا يُجمع هذان الوصفان إلا لله عزوجل.. وتقول: أَحَّدْتُّ الله تعالى ووحَّدته.. والوحداني هو: المفارق للجماعة المنفرد بنفسه، بزيادة الألف والنون للمبالغة..»[1].

= و- الأحد يفيد أنه فارق غيره ممن شاركه في فن من الفنون ومعنى من المعاني فهو منفرد بالمعنى والذات، والواحد منفرد بالذات فقط.

ز- أحد استعمل في القرآن غالباً في النفي، قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ (البلد: ٥).

وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ (البلد: ٧).

وقال: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ (التوبة: ٨٤).

بينما لفظ (واحد) استعمله القرآن في النفي والإثبات مطلقاً.

ح- الوحيد والفريد يفيد التخلي من الاثنين، يقال: فلان فريد ووحيد يعني أنه لا أنيس له، ولا يوصف الله تعالى به لذلك.

انظر: الإتقان، للسيوطي ١/ ٤٦٤-٤٦٥ (النوع الأربعون: في معرفة معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر).

و: لوامع الأنوار السَّنية ولواقح الأفكار السُّنية شرح قصيدة ابن أبي دؤاد الحائية في عقيدة أهل الآثار السلفية، تأليف الإمام العلامة محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، (ت ١١٨٨هـ)، دراسة وتحقيق د/ عبد الله بن محمد بن سليمان البصيري، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، الرياض- السعودية ١/ ٣٣١.

و: الفروق اللغوية، للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل، ضبطه وحققه جُسَّام الدين القدسي، دار زاهد القدسي، ط (بدون)، د.ت، البلد (بدون) ص١١٤- ١١٥.

(١) لسان العرب ١٥/ ٢٣٠-٢٣٤ مادة (وحد) باختصار وتصرف يسير.

وقال الراغب الأصفهاني: «... والواحد في الحقيقة: هو الشيء الذي لا جزء له البتة[١]، ثم يُطلق على كل موجود[٢]، حتى إنه ما من عدد إلا ويصح أن يوصف به.. فالواحد لفظ مشترك يستعمل على عدة وجوه[٣]:

الأول: ما كان واحداً في الجنس أو في النوع كقولنا الإنسانُ والفرس: واحد في الجنس، وزيد وعمروٌ واحد في النوع.

الثاني: ما كان واحداً بالاتصال إما من حيث الخلقة، كقولك: شخص واحد، وإما من حيث الصناعة، كقولك: حِرفة واحدة.

الثالث: ما كان واحداً لعدم نظيره إما في الخِلقة كقولك: الشمس واحدة، وإما في دعوى الفضيلة، كقولك: فلان واحد دهره...

الرابع: ما كان واحداً لامتناع التجزِّي فيه، إما لصغره كالهباء، وإما لصلابته كالألماس.

الخامس: للمبدأ، إما لمبدأ العدد، كقولك: واحد اثنان، وإما لمبدأ الخط، كقولك: النقطة الواحدة.

وإذا وُصف الله تعالى بـ(الواحد) فمعناه: هو الذي لا يصح عليه التَّجزِّي، ولا التكثُّر.. والواحد: المفرد، ويوصف به غير الله تعالى»[٤].

---

(١) كالهباء مثلاً.

(٢) وإن تعددت أجزاؤه كالإنسان.

(٣) في الأصل (على ستة أوجه) مع أن الموجود في المصنف خمسة أوجه فقط. انظر: المفردات ص٥١٤-٥١٥ مادة (وحد).

(٤) المفردات في غريب القرآن ص٥١٤ بتصرف واختصار.

ومع أن الواحد مشترك لفظي إلا أن الوحدة في جانب الخلق جميعاً عارضه تقبل التَّحَوُّل، بل قد تكون ادَّعائية، كقولهم: (فلان واحد دهره)، والوحدة في مايتعلق بالخالق أصلية غير عارضة ولا مدعاة وهي حقيقة يقينية لا تقبل التحول، والانتقال، وقد أحسن الراغب حين قال بعد أن بيَّن استعمالات لفظ (الواحد): «والوحدة في كلها عارضة..»[1].

وقال صاحب التعريفات: «والتوحيد في اللغة: الحُكْم بأن الشيء واحد، والعلم بأنه واحد»[2].

والتوحيد على وزن التفعيل، وهو مصدر للفعل الثلاثي المزيد بتضعيف عينه، يقال: وحَّدته توحيداً، أي: جَعَلْتُهُ واحداً[3]، منفرداً عما يشاركه أو يشبهه في ذاته وصفاته، والتشديد فيه للمبالغة، أي: بالغتُ في وصفه بذلك.

والخلاصة من كل ما سبق أن (الوحدانية) هي صفة ذاتية لله تعالى، و(التوحيد) هو علم المكلف وإيمانه واعتقاده أن الله تعالى متصف بذلك، فهو تكليف من الله لعباده ابتداء، وهو أيضاً امتثال من العباد لهذا التكليف انتهاء. وأن لفظ التوحيد ـ لغةً ـ يدور حول معانٍ خمسة كما يلي:

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) التعريفات، للجرجاني ص ٦٩.

(٣) المقصود بذلك: نسبت إليه الوحدانية، لا جعلته واحداً، فإن وحدانية الله تعالى ذاتية، ليست بجعل جاعل، أما التوحيد فهو فعل المكلف.

انظر: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، للسفاريني، محمد بن أحمد (١١١٤-١١٨٨هـ)، مع تعليقات الشيخ سليمان بن سحمان، وعبد الرحمن أبا بطين، المكتب الإسلامي، ط (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ١/ ٥٦-٧٥.

١ - الوحدة.

٢- الانفراد والتفرد.

٣ - العلم بالموحَّد.

٤- الحُكم بالوحدانية للواحد.

٥ ـ نفي الشريك والشبيه والمثل والنظير[١].

ثانياً: المقصود بالتوحيد[٢] اصطلاحاً:

عرف أهل العلم التوحيد اصطلاحاً بناءً على ما استقرَّ لديهم واعتمدوه من عموم وإجمال أو تقسيم وتفصيل في معناه بالتعاريف الآتية:

فالتوحيد عندهم على سبيل الإجمال يعني:

أ ـ «إفراد المعبود بالعبادة، مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً»[٣].

---

(١) انظر: معجم ألفاظ العقيدة، تصنيف أبي عبدالله عامر عبدالله فالح، تقديم فضيلة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين، مكتبة العبيكان، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، الرياض ـ السعودية ص١٠٨.

وأورد أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية، ص١١٥، فرقاً بين الوحدة والوحدانية قائلاً: (..الوحدة التخلي، والوحدانية تفيد نفي الأشكال والنظراء ولا يستعمل في غير الله، ولا يقال: لله واحد من طريق العدد.. ولا يقال: إنه أحد الأشياء لما في ذلك من الإيهام والتشبيه.

(٢) مع ملاحظة أن كلمة التوحيد قد تدل على كل مسائل الإيمان في العقيدة الإسلامية، لأنه إذا حصل الإيمان بمضمون شهادة التوحيد على وجه صحيح استتبع ذلك قطعاً الإيمان ببقية العقائد من إلهيات ونبوات وسمعيات، انظر مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، لعثمان جمعة ص١٠٦.

(٣) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني ١/ ٥٧.

ب ـ «العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال، والإقرار بتوحيده بصفات العظمة والجلال، وإفراده وحده بالعبادة»[١].

ج ـ «إفراد الله سبحانه بما يختص به.. من عبادة، محبَّةً وتعظيماً ورغبةً ورهبةً..»[٢] وهناك تعريفات أخرى نحو ما سبق[٣].

---

(١) القول السديد في مقاصد التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧-١٣٧٦هـ)، مؤسسة النور، ط٣، ١٣٩٠هـ الرياض ـ السعودية ص١٠.

(٢) معجم ألفاظ العقيدة، تصنيف أبي عبد الله عامر عبد الله فالح ص١٠٨ بتصرف واختصار.

(٣) انظر: أ ـ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ (١٢٠٠-١٢٣٣هـ)، المكتب الإسلامي، ط(بدون)، ١٤٠٩هـ بيروت ـ لبنان ص١٧.

ب ـ الكواشف الجلية عن معاني الواسطية، عبدالعزيز السلمان، نسخة وزعت من قبل معهد إمام الدعوة، ط(بدون)، د.ت.، الرياض ـ السعودية ص٤١٧.

مع ملاحظة تطور استعمال كلمة التوحيد وانتقالها إلى معان أخرى ـ مردود عليها ـ غير ما شرحناه في المتن، وقد ذكر ذلك أبو حامد الغزالي في الإحياء ١/ ٤٥.

وانظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، لعثمان جمعة ص١٠٨-١٠٩.

من أسباب تقسيم علماء العقيدة التوحيد إلى أقسام:

أ- انحسار بعض المفاهيم الشرعية الصحيحة عند كثير من المسلمين للألفاظ والنصوص، وخاصة بعد حركة الترجمة لكثير من علوم المنطق والفلسفة، واختلاط المسلمين بثقافات الشعوب بعد الفتوحات الإسلامية مما أدى إلى اختلال اللسان العربي ... فلجأ علماء الإسلام إلى تفصيل التوحيد وتقسيمه بعد استقراء النصوص الشرعية المتعلقة به.

ب ـ ظهور مفاهيم خاطئة في باب التوحيد عند كثير من الفرق المنتسبة للإسلام والمخالفة لأهل السنة والجماعة، كبعض المتصوفة وغيرهم.

انظر: الشرك في القديم والحديث، لأبي بكر محمد زكريا، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، الرياض ـ السعودية ١/ ٧٦-١١٢.

والمقصود بالتوحيد عند أهل العلم على سبيل التفصيل والتقسيم ـ استقراءً لنصوص الكتاب والسنة الوردة في ذلك:

أولاً: باعتبار ما يجب على الموحِّد:

أ ـ توحيد المعرفة والإثبات (التوحيد العلمي الاعتقادي الخبري) ويعني: (إثبات حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلوِّه فوق سماواته على عرشه، وتكلُّمِه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحُكمه،...)[1]، وهو ما يسمي عند البعض بـ(توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات)[2] وهو يستلزم توحيد الألوهية.

ب ـ توحيد الطلب والقصد والإرادة (التوحيد العملي) ويعني: (عبادة الله وحده لا شريك له)[3] (وهذا ما تضمنته سورة: قل يا أيها الكافرون..)[4] ويسمى عند البعض بـ(توحيد الألوهية)[5] و(يتضمن توحيد الربوبية)[6].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، لابن القيم ٣/ ٤٤٩.

(٢) معجم ألفاظ العقيدة، لأبي عبد الله عامر عبد الله فالح ص١٠٩.

(٣) انظر: أ ـ شرح العقيدة الطحاوية، للعلامة القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي (٧٣١-٧٩٢هـ)، حققها وراجعها جماعة من العلماء، خرج أحاديثها الألباني، المكتب الإسلامي، ط٩، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان، ص٨١.

ب ـ القول المفيد على كتاب التوحيد، شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين (ت: ١٤٢٢هـ)، جمعه وخرج أحاديثه د/ سليمان بن عبدالله أبو الخيل، د/ خالد بن علي المشيقح، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، الدمام ـ السعودية ١/ ١٦.

(٤) تهذيب مدارج السالكين، لابن القيم ٣/ ٤٤٩.

(٥) معجم ألفاظ العقيدة، لأبي عبد الله عامر عبد الله فالح ص١٠٩.

(٦) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص٨٣.

ثانياً: باعتبار متعلقه:

أ- توحيد الربوبية:

ويعني: «الإقرار بأن الله خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال..»[1].

ويتعبير أدق هو: «إفراد الله -عز وجل- بالخلق والملك والتدبير»[2].

ب- توحيد الألوهية (الإلهية) (العبادة):

هو نفس ما سبق ذكره في تعريفنا للتوحيد العملي «توحيد الطلب والقصد والإرادة».

ج- توحيد الأسماء والصفات (التنزيه وإثبات الكمال) ويعني:

«إفراد الله بما له من الأسماء والصفات..»[3] وذلك بإثبات جميع أسمائه وصفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه أو أثبتها له نبيه ﷺ»[4]. «..من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل»[5].

---

(١) نفسه ص٩٧.

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن عثيمين . وانظر: معجم ألفاظ العقيدة، لابن فالح ص١٠٨.

(٣) القول المفيد، لابن عثيمين ١/ ١٨

وانظر: معجم ألفاظ العقيدة، لابن فالح ص١٠٨-١٠٩.

(٤) نفسه بتصرف.

(٥) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (فتاوى العقيدة)، جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الثريا للنشر، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، الرياض - السعودية، ص٣٤.

ومن خلال ما سبق سرده من معاني (التوحيد) لغة واصطلاحاً نجد تقاربها في المعنى، وأنه يمكن أن نعرِّف التوحيد بما عرَّفه به الشنقيطي[١] - رحمه الله - حيث قال: التوحيد هو: (إفراد الله بما يختص به)[٢].

يتضح لنا أن لفظ التوحيد اصطلاحاً[٣] يشمل:

علم العبد واعتقاده واعترافه بتفرد الرب بما يختص به، وما أَمَر به خلقه[٤] من القضايا الثلاث التالية:

---

(١) هو: الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ولد عام ١٣٢٥هـ، مفسر، مدرس، من علماء شنقيط موريتانيا، ولد وتعلم بها، حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وحصل على الإجازة بقراءة نافع وهو ابن ستة عشر عاماً، طلب العلم، وتعلم الأدب وغير ذلك من فنون العلم الأخرى، رحل للحج عام ١٣٦٧هـ، واستقر مدرساً في المدينة المنورة، ثم الرياض، ثم المدينة مرة أخرى.. توفي بمكة عام ١٣٩٣هـ، له عدة مصنفات منها: (أضواء البيان) في التفسير، و(منع جواز المجاز) و(دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) وغير ذلك. انظر: الأعلام، للزركلي ٦/ ٤٥. و: علماء ومفكرون عرفتهم، لمحمد المجذوب، دار الشواف، ط٤، ١٩٩٢م، الرياض ـ السعودية ١/ ١٧١-١٩١.

و: ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، جمع عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس، دار الهجرة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، الرياض ـ السعودية.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (١٣٢٥-١٣٩٣هـ)، عالم الكتب، ط (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان، ١/ ٤١٠ بتصرف يسير.

(٣) مع ملاحظة أن لفظ (التوحيد) يطلق في العصر الحديث على العلم الذي يدرس الجانب العقائدي من الدين، وعلم التوحيد هو: علم يبحث عن وجود الله، وما يجب أن يثبت له من صفاته، وما يجوز أن يوصف به، وما يجب أن يوصف به، وما يجب أن ينفى عنه سبحانه، ويبحث عن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه، وما يجوز أن ينسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم، انظر لوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ٥٧.

(٤) كما هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وغيرها من الآيات.

١- توحيد الربوبية.

٢- توحيد الألوهية (العبادة).

٣- توحيد الأسماء والصفات (الكمال والتنزيه)[1].

---

(١) وذكر ابن فالح في معجم ألفاظ العقيدة ص١٠٩ نوعاً آخر من أنواع التوحيد، وسماه: توحيد الحاكمية حيث قال (توحيد الحاكمية: من أقسام التوحيد، وهو متضمن لتوحيد الألوهية والربوبية، ومنهم من أفراده بقسم خاص كالشيخ عبدالرحمن عبدالخالق في كتابه الصراط، ومنهم من أدرجه ضمن توحيد الربوبية والألوهية كالشيخ محمد بن عثيمين، والشيخ عبد العزيز بن باز، والحاصل أن الخلاف فيه لفظي، ولا مشاحة في الاصطلاح).

ولا شك أن توحيد الحاكمية يدخل ضمن توحيد الربوبية باعتبار كون المولى سبحانه له الحكم وحده، ويدخل ضمن توحيد الألوهية باعتبار ما يجب على العبد من التحاكم إلى شرعه وحده.

وذكر الدكتور محمد التميمي في كتابه (معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات) ص٣٧-٤٠ أنواع التوحيد المذكورة أعلاه وزاد عليها:

أ- توحيد الاتباع وهو ما يسمى عند البعض بتوحيد الحاكمية (أي التحاكم إلى الكتاب والسنة) وفي الحقيقة أنه يدخل ضمن توحيد الألوهية كما سبق بيانه.

ب- التوحيد القولي، والمراد به توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وسمي بالقولي لأنه في مقابل توحيد الألوهية الذي يشكل الجانب العملي من التوحيد.

ج- التوحيد العملي، والمراد به توحيد الألوهية، وسمي بالعملي لأنه يشمل كلا من عمل القلب وعمل اللسان والجوارح التي تشكل بمجموعها جانب العمل من التوحيد، فالتوحيد له جانبان: جانب تصديقي علمي، وجانب انقيادي عملي (وهو نفسه توحيد الاتباع السابق ذكره).

انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، للدكتور محمد بن خليفة التميمي، مكتبة أضواء السلف، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، الرياض - السعودية.

و: تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، لفوز بنت عبداللطيف بن كامل الكردي، دار طيبة، ط١، ١٤٢١هـ الرياض - السعودية ص٩٥-١١٤.

«المطلب الثامن»

«المقصود بالنفسية لغةً واصطلاحاً»

أولاً: المقصود بالنفسية لغةً:

قال صاحب مقاييس اللغة: « «نَفَس» النون والفاء والسين أصل واحد يدل على خروج النسيم كيف كان، من ريح أو غيرها...، وذلك أن في خروج النسيم رَوحاً وراحة، والنَّفَس: كل شيء يُفرَّج به عن مكروب.. ويُقال للعين نَفْسٌ، وأصابت فلاناً نَفْسٌ، والنَّفْس: الدَّم، وهو صحيح، وذلك أنه إذا فُقِد الدم من بدن الإنسان فقد نَفَسَه، والحائض تَسمَّى النُّفَساء لخروج دمها، والنِّفَاس: وِلاد المرأة، فإذا وضَعَت فهي نُفَساء، ويقال: وَرِثْتُ هذا قبل أن يُنفس فلان، أي يُولد، والولد منفوس، والنِّفَاس أيضاً جمع نُفَساء[١]،... والنَّفْس قِوامها بالنَّفَس.. وشيء نفيس[٢]، أي ذو نفس وخَطَر يُتنافس به، والتنافس: أن يبرز كل واحد من المتنافسين قوَّة نفسه..»[٣].

وقال صاحب لسان العرب: «النَّفْس: الروح..، قال أبو إسحاق: النفس في كلام العرب يجري على ضربين: أحدهما قولك خَرجَتْ نفسُ فلان أي رُوحه،..

---

(١) وفي لسان العرب، لابن منظور ١٤/ ٢٣٧ (ونُفِسَتْ المرأة ونَفِسَتْ، بالكسر، نَفَساً ونَفَاسَة ونِفَاساً، وهي نُفَساء ونفساء: ولدت).

(٢) وفي القاموس المحيط، للفيروز آبادي ٢/ ٣٧٢ (.. وشيء نَفِيس ومنفوس ومُنْفِس.. يُتنافس فيه). انظر: القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب (٧٢٩-٨١٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، بيروت ـ لبنان.

(٣) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٥/ ٤٦٠-٤٦١.

والضرب الآخر معنى النَّفْس فيه معنى جملة الشيء وحقيقته، تقول: قَتَل فلان نفسَه وأهلك نفسه، أي أوقع الإهلاك بذاته كلها، والجمع من كل ذلك أنْفُس ونُفوس،.. والنَّفْس ما يكون به التمييز، وشاهد ذلك قوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الزمر: ٤٢).

فالنَّفْس الأُولى ـ أي الروح ـ هي التي تزول الحياة بخروجها، والنفس الثانية ـ أي التمييز ـ هي التي يزول العقل بزوالها..،

والنفس أيضاً بمعنى الأخ، وشاهد ذلك قوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ (النور: ٦١)[1]..»[2] وقد ترد النفس بمعان أخرى[3].

«.. والعرب قد تجعل النفسَ التي يكون بها التمييز نَفْسَيْنِ، وذلك أن النفس قد تأمر صاحبها بالشيء، وتنهى عنه، وذلك عند الإقدام على أمر مكروه، فجعلوا التي تأمره نفساً، وجعلوا التي تنهاه كأنها نفس أخرى...

والنفس يُعبَّر بها عن الإنسان جميعه كقولهم: عندي ثلاثة أنفس[4].

---

(١) ولفظ النفس في الآية يعم الأخ بالأخوة الإيمانية، والأخ بالأخوة النسبية وغير ذلك.

انظر: تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، المتوفى ٧٧٤هـ ضبط ومراجعة مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ محمد إبراهيم رمضان، دار مكتبة الهلال، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، بيروت ـ لبنان، ٤/ ٢٧٥-٢٧٧.

(٢) لسان العرب، لابن منظور ١٤/ ٢٣٣-٢٣٤ بتصرف واختصار.

(٣) كما في قوله وتعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ (آل عمران: ٢٨)، والمعنى: ويحذركم الله إياه.

(٤) ومنه قوله وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

ومن اللغويِّين من سوَّى بين النفس والروح وقال: هما شيء واحد، إلا أن النفس، مؤنَّثة والروح مذكَّر[١].. وسميت النفس نفساً لتولُّد النَّفَس منها واتصاله بها،[٢]..

والنَّفْس: الجسد.. والمتنفِّس: ذو النَّفَس، ونفس الشيء: ذاته،..

ورجل ذو نَفَسٍ أي: خُلُقٍ وجَلَد. والنافس: العائن، والمنفوس: المعيون، والنُّفُوس: العَيُون الحَسُود..

وما أَنْفَسَه أي: ما أشدَّ عينه.. وكُلُ تَرَوُّحٍ بين شربتين: نَفَسٌ، والجمع أنفاسٌ.

والتَّنَفُّس: استمداد النَّفَس،.. ويقال: نَفَّستُ عنه تنفيساً أي: رفَّهتُ..، واعمل وأنت في نَفَسٍ من أمرك أي: فُسْحةٍ وسَعَةٍ..، وهذا الثوب أَنْفَسُ من هذا أي: أعرض وأطوَل وأمثَل،.. وتنفَّس الصبح أي: تبلَّج وامتَّد حتى يصير نهاراً بيِّناً، وتنفَّس النهار: امتد وطال، ويقال للنهار إذا زاد تنفَّس[٣]... وقال اللحياني: تنفَّس النهار انتصف،.. ونَفُسَ الشيء، بالضم: نفاسَةً، فهو نفيسٌ ونافِسٌ: رَفُعَ وصار مرغوباً فيه،.. وهذا أنفسُ مالي أي: أحَبُّهُ وأكْرَمُهُ عندي،.. ونَفِسْتُ عليه الشيء أَنْفَسُهُ نَفَاسَةً إذا ضِنْنتَ به ولم تُحب أن يصل إليه،.. ونَفِسْتَ عليَّ بخير أي حَسَدْتَّ، وتنافَسْنَا ذلك الأمر وتنافَسْنَا فيه: تحاسدنا وتسابَقْنَا، وفي التنزيل العزيز ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ (المطففين: ٢٦)، أي وفي ذلك فليتراغب المتراغبون،.. ونَفِسْتُ بالشيء، بالكسر أي: بَخِلْتُ..»[٤].

(١) وفي القاموس، للفيروز أبادي ١/ ٤٥٦: «الرُّوح بالضم، ما به حياة الأنفس، ويؤنث..».

(٢) هكذا في الأصل، ولعل الأصوب: (واتصاله بها) انظر: لسان العرب ١٤/ ٢٣٤.

(٣) وكذلك الموج إذا نضح الماء، انظر: لسان العرب ١٤/ ٢٣٦ مادة (نفس).

(٤) المرجع السابق: ١٤/ ٢٣٣-٢٣٨ باختصار وزيادة يسيرة.

ثانياً: المقصود بالنفسية اصطلاحاً:

ـ النفس عند الغزالي[١] تطلق على عدة معان، لكنه اقتصر منها على معنيين:

أحدهما أن النفس هي: «المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان»[٢].

الثاني أن النفس هي: «اللطيفة التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نفس الإنسان وذاته..»[٣].

---

(١) الغزالي هو: محمد بن محمد بن محمد، الطوسي، الشافعي، أبو حامد، لقب بحجة الإسلام، ولد في قرية غزالة التابعة لمدينة طوس في خراسان، سنة ٤٥٠هـ ، أصله فارسي، عربي النشأة، شافعي المذهب من كبار متكلمي الأشعرية، درس الفقه والأدب، والتحق بإمام الحرمين الجويني، برع في المذهب والأصول والجدل والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة، كان شديد الذكاء، قوي الإدراك، قال عنه الذهبي: (الغزالي إمام كبير.. أما الإحياء (إحياء علوم الدين، لمؤلفه الغزالي) ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير) وقد جمعها السبكي في طبقاته ٦/ ٢٨٧-٣٨٨، وعدها ٩٤٣ حديثاً تقريباً ـ بدون سند ـ وقد حقق أحاديثه الإمام العراقي.. وفي آخر عمره عاد إلى طوس، وانقطع للعبادة حتى توفي سنة ٥٠٥هـ، له مصنفات كثيرة منها: (إحياء علوم الدين) و(الاقتصاد في الاعتقاد) و(مقاصد الفلاسفة).
انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي ١٩/ ٣٢٢-٣٤٦. و: موسوعة عباقرة الإسلام في (العلم والفكر والأدب والقيادة)، للدكتور محمد أمين فرشوخ، دار الفكر العربي، ط١، ١٤١٢-١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان ص١٠٩-١١٣.

(٢) إحياء علوم الدين، تصنيف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ)، وبذيله كتاب المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت ـ لبنان ٣/ ٥ بتصرف يسير.

(٣) نفس المصدر ٣/ ٥ وقد قسمها الغزالي ـ استقراءً لآيات القرآن ـ إلى نفس مطمئنة ولوامة وأمارة بالسوء.

ـ والنفس عند ابن تيمية لفظ مرادف للروح حيث قال: «والروح المدبرة للبدن التي تفارقه بعد الموت هي الروح المنفوخة فيه، وهي النفس التي تفارقه بالموت..»[١].

ـ وأورد ابن قيم الجوزية آراء جماعة من علماء المسلمين وغيرهم في تعريف النفس[٢] والعلاقة بينها وبين الروح، وناقش ذلك[٣]، واعتبر أن النفس قد تطلق على الروح[٤]، وأكَّدَ أنها:

---

(١) مجموعة الرسائل المنيرية (رسالة في العقل والروح)، لمحمد منير عبده أغا الدمشقي، إدارة الطباعة المنيرية، مكتبة طيبة، ط (بدون)، ١٣٤٣هـ الرياض ـ السعودية ٢/ ٣٦.

(٢) كأبي الحسن الأشعري، والجبائي، وجعفر بن حرب، وجعفر بن مبشر، والأصم، وأرسطوطاليس.

• انظر: الروح، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ)، دار المنار، ط (بدون)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، مكتبة فياض، المنصورة ـ مصر، ص٢٢٣-٢٢٦.

(٣) انظر: المرجع السابق ص٢٢٢-٢٢٥.

(٤) المرجع السابق ص٢٢٦، ٢٧٤، ٢٧٧.

وقد وردت الروح في القرآن بعدة معان منها:

أ ـ أن الروح تعني جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ (الشعراء: ١٩٣).

ب ـ أن الروح تعني القرآن، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى: ٥٢).

ج ـ أن الروح تعني الوحي، قال تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (غافر: ١٥).

د ـ أن الروح تعني القوة: قال تعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (المجادلة: ٢٢).

هـ ـ أن الروح محتمل لجبريل وغيره، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾ (النبأ: ٣٨).

وقال: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ (القدر: ٤).

و ـ ووقع إطلاق روح الله على عيسى عليه السلام. انظر: فتح الباري، لابن حجر ٨/ ٤٠٢.

«جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم..»[١] ثم قال: «وهذا القول هو الصواب في المسألة... وعليه دلَّ الكتاب والسُّنَّة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة..»[٢] ثم ساق أدلة ذلك[٣] واعتبر حقيقتها «واحدة ولكن لها عدة صفات، فتمسى باعتبار كل صفة باسم»[٤].

- وذكر صاحب التعريفات أن النفس هي: «.. الجوهر اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة والإرادة..»[٥] وقد قسَّمها إلى تسعة أقسام[٦].

- وفي التحرير والتنوير أنَّ النَّفْس: «مأخوذة من التنفس... وتطلق على روح الإنسان وإدراكه.. ومنه قول العرب: قلتُ في نفسي أي في تفكيري..»[٧].

- وهناك أقوال أخرى في تعريف النَّفْس[٨].

وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين النفس والروح والعلاقة بينهما، وهل هما شيء واحد أو شيئان متغايران؟

---

(١) الروح، لابن القيم ص٢٢٦.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) انظر: نفس المرجع ص٢٢٦-٢٣٨.

(٤) نفس المرجع ص٢٧٨.

(٥) التعريفات، للجرجاني ص٢٤٢.

(٦) انظر: المرجع السابق ص٢٤٣-٢٤٤.

(٧) تفسير ابن عاشور ١/ ٥٤٢-٥٤٣ بتصرف واختصار.

(٨) انظر: الروح، لابن القيم ص٢٢٢-٢٢٦، ص٢٧٤-٢٧٨.

وتعدَّدت أقوالهم في ذلك، ويمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ طائفة اعتبرت النَّفْس غير الرُّوح، وقالت بوجود فرق بينهما وأكّدت أن الروح تُطلق على أشياء لا تطلق عليها النفس، ونُسب هذا القول إلى الأكثرين[١]، لكن أقوالها تغايرت في الفرق بين النَّفْسِ والرُّوِح كما يلي:

القول الأول: أن النَّفْس هي النسيم الداخل والخارج بالنَّفَس[٢]، والرُّوح عَرَضٌ، وهو الحياة فقط وهو غير النَّفْس[٣].

القول الثاني: أن النَّفْس غير الروح، والروح غير الحياة، والحياة عَرَضٌ، فالإنسان حياة وروح ونفس[٤].

---

(١) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي (١٢١٧-١٢٧٠)هـ ، طبعه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥، / ١٩٩٤م، بيروت ـ لبنان ١٢/ ٢٦٣، تفسير الآية ٤٢ من سورة المزمل.

(٢) وفي القاموس ٤/ ٢٥٥ (النَّسَم.. نَفَسُ الرُّوح، كالنسمة.. ونَفَسُ الريح إذا كان ضعيفاً كالنسيم والنيسم.. وتَنَسَّم تنفَّس.. والنَّسَمَة الإنسان.. والنسيم الروح) انظر: القاموس، باب الميم فصل النون، مادة: نسم.

(٣) وهذا قول أبي بكر الباقلاني، ومن تبعه من الأشعرية، انظر: الروح، لابن القيم ص٢٢٤.

(٤) وهذا رأي فرقة من أهل الحديث والفقه والتصوف، وأبي الهذيل وغيرهم، وزعم أنه قد يكون الإنسان حال نومه مسلوب النفس والروح دون الحياة، ثم اختلف هؤلاء في معرفة الروح والنفس، فقال بعضهم: النفس طينية نارية، والروح نورية روحانية، وقال بعضهم: الروح لاهوتية والنفس ناسوتية، وقال ابن القيم: وهو قول أهل الأثر. انظر: الروح، لابن القيم ص٢٢٤-٢٧٦.

القول الثالث: أن النَّفْس هي التي بها العقل والتمييز، والرُّوح هي التي بها النَّفَس والتحرك[١].

٢ ـ طائفة اعتبرت النَّفْس هي الروح، لا فرق بينهما، وأنهما اسمان مترادفان لمعنىً واحد، وقد يعتبر بأحدهما عن الآخر، وهذا قول بعض أهل العلم، وابن تيمية رحمه الله، وتلميذه ابن القيم حيث قال الأخير:

«أما الروح التي تُتَوفَّى وتُقبض فهي روح واحدة وهي النَّفْس..»[٢]، وهذا ما أُرجِّحه ـ كما يبدو لي بعد الاستقراء والنظر ـ وعلة الترجيح ما يلي:

---

(١) وروي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما حيث نسب إليه قوله: «إن في ابن آدم نفساً وروحاً.. فالنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النفس والتحرك فيتوفيان عند الموت، وتتوفى النفس وحدها عند النوم..».

وروي عن مقاتل بن سليمان قوله: (فإذا نام ـ الإنسان ـ خرجت نفسه التي يعقل بها الأشياء، ولم تفارق الجسد، بل تخرج كحبل ممتد له شعاع، فيرى الرؤيا بالنفْس التي خرجت منه، وتبقى الحياة، والروح في الجسد، فيه يتقلب ويتنفس، فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين، فإذا أراد الله عزوجل أن يميته في المنام أمسك تلك النفس التي خرجت، وقال أيضاً: إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق، فإذا رأت الرؤيا رجعت، فأخبرت الروح..إلخ. انظر: الروح، لابن القيم ص٢٧٦، و: روح المعاني، للآلوسي ١٢/ ٢٦٣.

(٢) نفس المرجع، ص٢٧٦.

ولقد أكثر ابن حجر رحمه الله من النقول في الفتح لكبار العلماء عن معنى الروح والنفس والفرق بينهما، وفي هذا قال «.. وقد تنطع قوم فتباينت أقوالهم، فقيل: هي النَّفَسْ الداخل والخارج، وقيل هي الحياة، وقيل جسم لطيف يحل في جميع البدن،.. حتى قيل إن الأقوال فيها بلغت مائة..، وقال ابن العربي: اختلفوا في الروح والنفس، فقيل متغايران وهو الحق، وقيل هما شيء واحد، قال: وقد يعبَّر بالروح عن النفس وبالعكس، كما يعبر عن الروح وعن النفس بالقلب وبالعكس، وقد يعبر عن الروح بالحياة...» اهـ. =

أ ـ قال تعالى ـ مخاطباً الملائكة ـ في شأن خلقه لآدم عليه السلام ونفخ الروح فيه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الحجر: ٢٨، ٢٩) ونظيرها في (ص: ٧١، ٧٢) قال القرطبي[١] رحمه الله تعالى في تفسير الآية «.. والروح: جسم لطيف أجرى الله العادة بأنه يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً..»[٢].

وقال تعالى في شأن توفِّيه للأنفس عند موتها أو نومها: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الزمر: ٤٢) وغيرها من الآيات[٣].

= انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ أحمد بن علي بن حجر العقسلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه/ محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، ط(بدون)، د.ت، البلد (بدون) ٨/ ٤٠٣.

(١) القرطبي هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري، الخزرجي، المالكي، ولد بمنية بني خصيب من صعيد مصر، مصنف التفسير المشهور باسم «الجامع لأحكام القرآن»، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين، الزاهدين في الدنيا، المشغولين بالآخرة، توفي عام ٦٧١هـ، بنفس مكان ميلاده من مصنفاته (التذكرة في أحوال الموتى والآخرة».
انظر: طبقات المفسرين، للداودي ٢/ ٦٥. و: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني (٩٨٦ـ١٠٤١) هـ، تحقيق يوسف البقاعي، دار الفكر، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م بيروت ـ لبنان ٢/ ٤١٣٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محم بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، مطبعة (بدون)، ط٣، ١٩٥٢م، البل (بدون) ١٠/ ٢٤.

(٣) كما في سورة الأنعام آية ٩٣، والفجر آية ٢٧-٣٠.

قال الآلوسي[١] في تفسير الآية «أي يقبضها عن الأبدان بأن يقطع تعلقها تعلق التصرف فيها عنها..وقت موتها..»[٢].

ب ـ وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الروح إذا قُبض تبعه البصر**»[٣] وقال لصحابته: «**إن الله قبض أرواحكم وردَّها إليكم حين شاء**»[٤].

وعند التأمل فيما سبق نجد أن الله عزوجل عبرَّ عن خلق الحياة وإجرائها في بدن آدم عليه السلام بالنفخ من روحه سبحانه، فجاء القرآن بلفظ الروح لإثبات الحياة.

---

(١) **الألوسي هو**: أبو الثناء شهاب الدين، السيد محمود أفندي الآلوسي، ولد سنة ١٢١٧هـ، في جانب الكرخ من بغداد، جمع كثيراً من العلوم، فكان مفسراً ومحدثاً وأصولياً وفقيهاً، اشتغل بالتدريس والتأليف، وانتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي، وولي المدرسة المرجانية التي كانت ولايتها مشروطة لأعلم أهل البلد، انفصل عن منصب الإفتاء وانكب على تفسير القرآن حتى أتمه وهو (روح المعاني).
توفي سنة ١٢٧٠هـ، ودفن في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الكرخ.
انظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، للدكتور محمد البيومي ٤/ ٤١٠-٤٢٢.
و: التفسير والمفسرون، للدكتور محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، ط٢، ١٣٩٦هـ، القاهرة ـ مصر ١/ ٣٥٢ وما بعدها.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٢٦٢.

(٣) أخرجه مسلم ٢/ ٦٣٤ كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضِر، برقم ٩٢٠ عن أم سلمة ﵂، والإمام أحمد في مسنده ٦/ ٣٣٧ برقم ٢٦٥٣٥/ ٧٤.

(٤) أخرجه البخاري في ١/ ٢١٤ كتاب مواقيت الصلاة، باب الأذان بعد ذهاب الوقت، برقم ٥٧٠ عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه، بلفظ: «**إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردها عليكم حين شاء..**» وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١/ ٤٠٤.

وعبرَّ سبحانه وتعالى عن إزالة حياة الإنسان وقطعها ـ نهائياً بالموت أو مؤقتاً بالنوم ـ عبرَّ عن ذلك بتوَّفي الأنفس، فجاء بلفظ النفس بصيغة الجمع (الأنفس) ولم يأت بلفظ الروح، كما عبرَّ عنها النبي ﷺ فيما سبق من أحاديث.

فدلَّ هذا على أن النفس والروح هما شيء واحد، وإن كان القرآن قد استعمل لفظ (الروح) ومشتقاته للتعبير بذلك عن ابتداء حياة الإنسان، واستعمل لفظ (النفس) ومشتقاته لما بعد ذلك[1].

وبعد أن سردت شيئاً من أقوال بعض أهل العلم عن المقصود بالنفس، لغةً واصطلاحاً، والعلاقة بينها وبين الروح، تبيَّن لنا عند التأمل في معاني النفس.

أنَّ منها ما له علاقة بهذا البحث، ومنها غير ذلك[2].

فمن معاني النفس التي لها علاقة بهذا البحث:

الروح، وما كان سبباً للحس والحركة والحياة والإرادة.

وبناءٍ على ما سبق وانسجاماً مع عنوان البحث وفقراته، فيمكن تعريف النفسية بأنها ما اشتملت على الجانبين التاليين أو أحدهما[3]:

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبدالباقي ص٧١٠-٧١٤ مادة (نفس).

(٢) من معاني النفس التي لا علاقة لها بالبحث:

أ ـ العين والحسد ب ـ الدم ج ـ الذات والحقيقة د ـ الإنسان هـ ـ الجسد و ـ الجوهر اللطيف ز ـ العظمة ح ـ العزة ط ـ الهمة ك ـ الأنفة ل ـ الكبر م ـ الريح.

انظر: لسان العرب، لابن منظور ١٤/ ٢٣٣-٢٣٨.

(٣) وفي الكافي ص١٠٣٠ أن النفسية هي «المنسوبة إلى النفس ... يراد به ما انطوت عليه نفس الإنسان..». =

أ ـ النابعة من نفس الإنسان وذاته.

ب ـ المثيرة لمشاعر الإنسان وأحاسيسه الداخلية النفسية.

وقد تكررت كلمة (النفس) ومشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من مائتين وسبع وتسعين مرة[1][2].

= انظر: الكافي (معجم عربي حديث) لمحمد الباشا، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان.

و: المعجم العربي الأساسي، تأليف وإعداد جماعة من كبار اللغويين العرب، بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مطبعة (بدون)، د.ت، البلد (بدون) ص١٢١٦.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٧١٠-٧١٤، مادة (نفس).

(٢) من بعض معاني النفس الواردة في القرآن الكريم:

أ - النفس بمعنى الإنسان (والمقصود الشخصية البشرية بكامل هيئتها) قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ (البقرة: ٤٨).

ب - النفس بمعنى الروح، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ (آل عمران: ١٤٥).

ج - النفس بمعنى الهوى أو الجماعة والرغبة في الشيء، قال تعالى على لسان امرأة العزيز ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ (يوسف: ٥٣).

وغير ذلك من المعاني التي دلت عليها آيات القرآن.

مع ملاحظة أنه يمكن حمل النفس في هذه الآيات الثلاث على المعنى الأول.

«المطلب التاسع»

«المقصود بالعقلية لغةً واصطلاحاً مع بيان مكانة العقل في الشريعة الإسلامية»

أولاً: المقصود بالعقل لغةً:

جاء في العين: «العقل: نقيض الجهل، عَقَلَ يعقِل عَقْلاً فهو عاقل، والمقصود: ما تعقِلُه في فؤادك، ويُقال: هو ما يُفهم من العقل، والمعقول والعقل واحد.. قال دغْفَل[1]:

قد أفادَتْ لهم حِلماً وموعظةً   لمن يكون له إربٌ ومعقولُ

.. وعَقَلَ بطنُ المريض بعدما استطلق: استمسك. وعَقَل المعتوه.. والصَّبِي: إذا أدرك وزكا.

وعَقَلْتُ البعير عَقْلاً: شَدَدْتّ يده بالعقال أي: الرباط..، وهو الحبل والجمع عُقُلُ، والمعاقل: حيث تُعقل الإبل.

والعقل: الحصن، وجمعه العُقُول، وهو المعْقِل أيضاً، وجمعه معاقل..،

والعاقل من كل شيء: ما تحصَّن في المعاقل المُتمنِّعةِ...

---

(١) هو دغفل بن حنظلة بن زيد بن عبدة الذهلي، الشيباني، قيل اسمه حجر، ولقبه دغفل، نسابة العرب، وفد على معاوية ﵁ أيام خلافته، فسأله عن العربية وعن أنساب الناس وعن النجوم، فأعجبه علمه، فأمره أن يتولى تعليم ابنه يزيد، ففعل، قال عنه الجاحظ: (لم يدرك الناس مثله لساناً وعلماً وحفظاً)، مات غرقاً بفارس، في وقعة الأزارقة، سنة ٦٥هـ.

انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ)، تحقيق علي محمد البجادي، دار المعرفة، ط (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان، ١/ ٣٢٨.

وفلان معقل قومه: أي يلجأون إليه إذا حزبهم أمر..»[1].

وفي لسان العرب: «العقل: الحِجْرُ...، ورجل عاقل: وهو الجامع لأمره ورأيه، وقيل العاقل: الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أُخِذَ من قولهم: قد اعتُقِلَ لسانه إذا حُبس..، وعاقله فَعَقَلَهُ يَعْقُلُهُ، بالضم: كان أعقلَ منه،

والعقل: التَّثبُّت في الأمور، والعقل: القلب..،

وسُمِّي العقل عقالً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك.

وقيل العقل هو: التَّمْيِيزُ الذي به يتميزِ الإنسان من سائر الحيوان..

ويقال: أَعْقَلْتُ فلاناً أي: أَلْفَيْتَهُ عاقلاً: وعَقَّلْتُهُ أي صيرَّتهُ عاقلاً،

وتَعَقَّل: تكلَّفَ العقل..، وتعاقل: أظهر أنه عاقل فَهِم وليس بذاك..،

والعَقُول: فَعُول منه للمبالغة.. ويقال: أَعْطِنِي عَقُولاً، فيعطيه ما يمسك بطنَهُ..، وعَقَلَهُ عن حاجته يعقِلُهُ، وعقَّلَهُ وتعقَّلَهُ واعتقله: حبسه،..

وفي الحديث: «القرآن كالإبل المعقَّلة»[2] أي: المشدودة بالعقال، والتشديد فيه للتكثير..، والعقل: الدِّية، وعَقَلَ القتيل يعقِلُه عَقْلاً: وَدَاهُ، وعَقَلَ عنه: أدَّى جنايته، وذلك إذا لزمته ديةً فأعطاها عنه،.. ويقال: اعتقل فلان من دم صاحبه.. إذا أخذ

---

(١) كتاب: العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥هـ)، تحقيق: د/ مهدي المخزومي، ود/ إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ط(بدون)، د.ت، البلد (بدون، ١/ ١٥٩-١٦٠، بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ١٩٢٠، في كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده، برقم ٤٧٤٣ عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة..إلخ الحديث». وأخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٥٤٣ في صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضائل القرآن وما يتعلق به، برقم ٧٨٩.

٦ ـ القلب، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ (الحج: ٤٦).

٧ ـ الحِجَى، ولم أعثر في آيات القرآن على ما يشهد لذلك، وإن كان العرب قد أطلقت على العقل الحِجَى[١].

وقد تبيَّن بعد التأمل فيما سبق من الألفاظ ومعانيها الواردة في العقل أن أقربها دلالة عليه ـ بما يتوافق مع المقصود من هذا البحث هي: اللُّب، والنُّهى، والفكر.

وعموماً لم يرد لفظ (عقل) في القرآن الكريم على الإطلاق، وإنما جاء النظر العقلي بمعنى استخدام العقل في التعقل، لأن العقل ليس له ماهية قائمة بذاته، إنما هو عمليات عقلية صرَّحت بها الآيات الكريمة في مواضع كثيرة، فجاءت مشتقات (العقل) في تسع وأربعين آية، كلها بالصيغة الفعلية:

- صيغة (عقلوه) مرة واحدة[٢].
- صيغة (نعقل) مرة واحدة[٣].
- صيغة (يعقلها) مرة واحدة[٤].

---

(١) انظر: المرجع السابق ص١٢٥ مادة (حجا).

ووردت في القرآن ألفاظ تدل على أعلى خصائص العقل وهي صفة الرشد، كما في قوله تعالى لقوم لوط على لسانه عليه السلام ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ (هود: ٧٨).

(٢) كما في سورة البقرة: ٧٥.

(٣) كما في سورة الملك: ١٠.

(٤) كما في سورة العنكبوت: ٤٣.

٢ ـ الفكر، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: ٢١)(١).

٣ ـ الحِلم، قال تعالى: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (الطور: ٣٢)(٢).

٤ ـ النُّهي، قال تعالى: ﴿ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ (طه: ٥٤)(٣).

٥ ـ الحِجْر، قال تعالى: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ (الفجر: ٥)(٤).

---

(١) وفي الكليات، للكفوي ص٦٧، ٦٩٧: (الفكر هو الانتقال من المطالب إلى المبادئ، والرجوع من المبادئ إلى المطالب) اهـ. وفي المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص٣٨٤، مادة (فكر): (الفكر مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها).

(٢) وفي الكليات، للكفوي ص٤٠٤ (الحلم: استعمل للعقل ولبلوغ المرء حد الرجال، وهو الأناة والسكون مع القدرة والقوة) أ.هـ، وانظر: لسان العرب، لابن منظور ٣/ ٣٠٤ مادة (حلم)، و: المفردات، للأصفهاني ص١٢٩.

(٣) وفي الكليات، للكفوي ص٦٢٠ (والنهى لانتهاء الذكاء والمعرفة والنظر إليه، وهو نهاية ما يمنح العبد من الخير المؤدي إلى صلاح الدنيا والآخرة) أ.هـ وانظر: مختار الصحاح، للرازي ص٦٨٣ مادة (نهى) وفي المفردات، للأصفهاني ص٥٠٧: (والنهية: العقل الناهي عن القبائح، جمعها نهى) مادة (نهى).

(٤) وفي الكليات، للكفوي ص٦٢٠ (.. وسمِّي حِجر لحجره ـ صاحبه ـ عن ركوب المناهي) أ.هـ بتصرف يسير، وانظر: مختار الصحاح، للرازي ص١٢٣، مادة (حجر)، وانظر: المفردات، للأصفهاني ص ١٠٩، مادة: (حجر).

٦ ـ القلب، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ (الحج: ٤٦).

٧ ـ الحِجَى، ولم أعثر في آيات القرآن على ما يشهد لذلك، وإن كان العرب قد أطلقت على العقل الحِجَى[(١)].

وقد تبيَّن بعد التأمل فيما سبق من الألفاظ ومعانيها الواردة في العقل أن أقربها دلالة عليه ـ بما يتوافق مع المقصود من هذا البحث هي: اللُّب، والنُّهى، والفكر.

وعموماً لم يرد لفظ (عقل) في القرآن الكريم على الإطلاق، وإنما جاء النظر العقلي بمعنى استخدام العقل في التعقل، لأن العقل ليس له ماهية قائمة بذاته، إنما هو عمليات عقلية صرَّحت بها الآيات الكريمة في مواضع كثيرة، فجاءت مشتقات (العقل) في تسع وأربعين آية، كلها بالصيغة الفعلية:

- صيغة (عقلوه) مرة واحدة[(٢)].
- صيغة (نعقل) مرة واحدة[(٣)].
- صيغة (يعقلها) مرة واحدة[(٤)].

---

(١) انظر: المرجع السابق ص١٢٥ مادة (حجا).

ووردت في القرآن ألفاظ تدل على أعلى خصائص العقل وهي صفة الرشد، كما في قوله تعالى لقوم لوط على لسانه عليه السلام ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ (هود: ٧٨).

(٢) كما في سورة البقرة: ٧٥.

(٣) كما في سورة الملك: ١٠.

(٤) كما في سورة العنكبوت: ٤٣.

- وتكررت صيغة (يعقلون) اثنين وعشرين مرة[١].

- وجاءت صيغة (تعقلون) أربعاً وعشرين مرة[٢].

ثانياً: المقصود بالعقلية اصطلاحاً:

- عرف الجويني[٣] العقل بقوله: «العقل علوم ضرورية، والدليل على أنه من العلوم الضرورية استحالة الاتصاف به مع تقدير الخلو عن جميع العلوم»[٤].

- وفي الفتاوى لابن تيمية رحمه الله: «... العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة، وهو الذي يُسمى عرضاً قائماً بالعاقل، وعلى هذا دلَّ القرآن

---

(١) انظر في ذلك: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٥٧٥.

(٢) نفسه.

(٣) الجويني هو: أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، الملقب بإمام الحرمين، ولد في جوين من نواحي نيسابور سنة ٤١٩هـ، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، من أئمة الأشاعرة الكلابية، درس على والده العلوم الأولى، ثم تفقه على عدة مشايخ، تتلمذ على يديه الغزالي، درَّس في المسجد النبوي، ولذلك لقب بـ(إمام الحرمين) ورحل لبغداد وغيرها، ثم عاد إلى نيسابور، ودرّس فيها، توفي سنة ٤٧٨هـ في جوين نيسابور من نواحي خراسان. من مؤلفاته (الشامل في أصول الدين) و(الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد) وغيرها.

انظر: طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي (٧٢٧-٧٧١هـ)، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح حلو، مطبعة عيسى الحلبي، مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م، القاهرة ـ مصر ٥/ ١٦٥.

و: شذرات الذهب، لابن العماد ٣/ ٣٥٨، و: وفيات الأعيان، لابن خلكان ٣/ ١٦٧-١٧٠.

(٤) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (٤١٩-٤٧٨هـ)، مكتبة الخانجي، ط (بدون)، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، القاهرة، ص١٥.

في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ٧٣، ٢٤٢، والأنعام: ١٥١) [١]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ (الحج: ٤٦) وغيرها من الآيات[٢].

فالعقل لا يُسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه، ولا العمل بلا علم، بل إنما يسمى العلم الذي يعمل به، والعمل بالعلم، ولهذا قال أهل النار: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الملك: ١٠) ..

والعقل المشروط في التكليف لابد أن يكون علوماً يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره، فالمجنون الذي لا يميز.. ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل، أما من فهم الكلام وميَّز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل»[٣].

وقد علق ابن تيمية على من عرَّف العقل بأنه علوم ضرورية قائلاً: «.. ومن الناس من يقول: العقل علوم ضرورية، ومنهم من يقول: العقل هو العمل بموجب تلك العلوم، والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا»[٤].

وبناء على ما سبق فالعقل عند ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هو: «العلوم الضرورية.. أو العمل بموجب تلك العلوم»[٥].

---

(١) وغيرها كثير.

(٢) كما في البقرة آية ٤٤، ٧٦، وآل عمران آية: ٦٥، ١١٨ وغير ذلك كثير.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩/ ٢٨٦-٢٨٧ باختصار وتصرف يسير.

(٤) نفس المرجع ٩/ ٢٨٧.

(٥) نفس المرجع ٩/ ٢٨٧ باختصار.

ـ وفي التعريفات أن العقل: «نور في القلب يعرف الحق والباطل.. وهو جوهر مجرد عن المادة، يتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف..»[١]، وللعقل تعريفات أخرى بحسب ما أُضيف إليه[٢].

ـ وفي القاموس أن العقل: «العلم بصفات الأشياء من حُسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين، وشرِّ الشرَّين... وهو نور روحاني به تدرِكُ النفسُ العلومَ الضرورية والنظرية..»[٣].

ـ وفي الكليات أن العقل: «جوهر تُدْرَك به الغائبات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة»[٤].

ـ وفي المعجم العربي الأساسي أن العقل: «ما يكون به التفكير والاستدلال عن غير طريق الحواس...»[٥].

ـ وفي الكافي أن العقل يعني: «.. إدراك الأشياء على حقيقتها..، وهو ما يُمَكِّن الإنسان من التفكير والحُكم..»[٦].

---

(١) التعريفات، للجرجاني ص١٥١-١٥٢ باختصار.

(٢) أ ـ كقوله (.. وقيل: العقل والنفس والذهن واحد، إلا أنها سميت عقلاً لكونها مدركة، وسميت نفساً لكونها متصرفة، وسميت ذهناً لكونها مستعدة للإدراك.

انظر: التعريفات، للجرجاني ص١٥٢.

(٣) القاموس المحيط، للفيروز آبادي ٤/ ٢٧ بتصرف (مع ملاحظة أن القاموس كتاب لغة، لكن مؤلفه أحياناً يورد تعريفات اصطلاحية لبعض الألفاظ التي يذكرها).

(٤) الكليات، للكفوي ص٦٧.

(٥) المعجم العربي الأساسي، لجماعة من كبار اللغويين العرب ص٨٥٥ باختصار.

(٦) الكافي، لمحمد الباشا ص٧٠١ بتصرف يسير.

وهناك تعريفات أخرى للعقل بناءً على ما أُضيف إليه[١].

وبعد أن سَرَدْتُ عدة أقوال لأهل اللغة وغيرهم في تعريف العقل لغةً واصطلاحاً، تبيَّن لنا أن لفظ (العقل) يدور حول عدة معان مختلفة، منها ما يتعلق بهذا البحث، ومنها غير ذلك، فمن المعاني المتعلقة بهذا البحث أن العقل يعني:

١ ـ الفهم[٢] والإدراك والتمييز للأشياء على حقيقتها، سواءٌ كانت علوماً ضرورية أو نظرية، غائبة أو محسوسة، حسنة أو قبيحة، كاملة أو ناقصة، خيِّرة أو شرِّيرة، حقاً أو باطلاً.

---

(١) انظر المرجع السابق ص٧٠١.

و: لسان العرب، لابن منظور ٩/ ٣٢٩.

ومن الباحثين من عرف العقل بحسب استعمال اللفظ، وبحسب اصطلاح السلف والفلاسفة وعلماء الكلام، وخلاصة ما ذكره أن العقل هو:

١ ـ الغريزة المدركة.

٢ ـ المعارف الفطرية أو العلوم الضرورية.

٣ ـ إدراك المعارف النظرية المستفادة من التجارب الحسية (المكتسبة).

٤ ـ قوة النفس التي بها يحصل تصور المعاني وتأليف القضايا والأقيسة.

٥ ـ صفوة الروح.

انظر: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، لسعود بن عبد العزيز بن محمد العريفي، دار عالم الفوائد، ط١، ١٤١٩هـ، مكة المكرمة ـ السعودية، ص٢٧-٣٥.

و: منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في العقيدة، لجابر إدريس علي أمير، أضواء السلف، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، الرياض ـ السعودية، ١/ ٦٥-٨٠.

(٢) وهذا ما نص عليه ابن عاشور في تفسيره ٢٠/ ١٧٦ حيث قال: (... والعقل هنا بمعنى الفهم...) وقد ذكر هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

٢ ـ الجوهر اللطيف الذي ميَّز الله به الإنسان على الحيوان، ومكَّنه بذلك من التعلم والتفكير والاستدلال، والتدبير والتصرُّف، والتَّثبتِ في الأمور والحكم عليها.

وبناءً على ما سبق وانسجاماً مع عنوان البحث وفقراته التالية فيمكن تعريف العقليةِ بأنها: «القابلة لإعمال العقل فيها، المحقِّقه للفهم وإدراك الأشياء على حقيقتها»[1].

وإجمالاً لكل ما سبق تعريفه من مفردات البحث الوارد في عنوانه:

«أساليب وخصائص المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية».

فيمكن القول: إن المقصود بذلك هو عملية استقصاء واستقراء: «طريقة القرآن ومنهجه المتميز في عرض وبسط الحجج القوية الواضحة، المعرِّفة بالله

---

(١) وفي المعجم العربي الأساسي ص٨٥٦ أن العقلية هي المنسوبة إلى العقل. وانظر: الكافي، لمحمد الباشا ص٧٠١.

وذكر ابن القيم في مفتاح دار السعادة ١/ ٢٠٠ اختلاف أهل العلم في محل العقل من الإنسان هل هو في القلب أم في الدماغ من الرأس؟ ثم حاول الجمع بين أقوالهم قائلاً: (... فالصواب أن مبدأه ـ أي مبدأ العقل ـ ومنشأه من القلب، وفروعه وثمرته من الرأس، والقرآن قد دل على هذا بقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ (الحج: ٤٦)، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (ق: ٣٧)، ولم يُرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات، بل المراد ما فيه من العقل واللب..).

انظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، للإمام العلامة أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية، ط (بدون)، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، بيروت ـ لبنان.

ووحدانيته، والموصلة إلى توحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، بصورة تهزُّ المشاعر النفسية وتحقق القناعات العقلية».

ـ فيخرج بقولنا: (المنهج القرآني) كل منهج نبوي سلكه النبي محمد ﷺ في عرض أدلة التوحيد وإقامته في نفوس الناس من غير القرآن الكريم، سواء عبر الأحاديث القدسية أو النبوية، أو اجتهادات الرسول ﷺ العقلية، أو تنفيذه لأحكام القرآن التشريعية كالدعوة والجهاد في سبيل الله وغيرهما، ويخرج بذلك أيضاً كل منهج بشري اجتهادي سلكه علماء الإسلام والفلاسفة وأهل الكلام لإثبات وجود الله ووحدانيته.

ـ ويخرج بقولنا: (أدلة التوحيد) ـ القرآنية ـ كل الأدلة القرآنية المتعلقة ببقية أركان الإيمان وهي الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره، وكذا بقية الأدلة القرآنية المتعلقة بالأمور الأخرى غير التوحيد.

ـ ويخرج أيضاً كل الأدلة النبوية المتعلقة بجميع أركان الإيمان السابقة مضافاً إليها أوَّل وأهم ركن وهو ركن الإيمان بالله.

ـ ويخرج أيضاً كل أدلة الأحكام الفقهية في أبواب العبادات والمعاملات ونحو ذلك مما ورد في الكتاب والسُّنَّة.

ـ ويخرج بقولنا (النفسية والعقلية) كل أدلة وحدانية الله وتوحيده الأخرى ـ الشرعية الغيبية ـ التي تحدَّث عنها القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ مما لا سبيل للنفس للشعور به، ولا للعقل لإدراكه وتصديقه ـ إلا بالإيمان بالوحي الصادق ـ لخروج ذلك كله عن طاقة البشر، كقنوت الكون وتسبيحه وسجوده للواحد

الأحد، وعبادة الملائكة لله،وإرساله سبحانه لمن سبق من الرسل مع كتبهم السماوية، وإهلاكه لمن كفر من الأمم الماضية التي لم يبق من آثارها شيء.

ـ كما يخرج أيضاً كل دلائل التوحيد المتعلقة بمظاهر ربوبية الله في الدار الآخرة التي آمنَّا بها ولم تدركها نفوسنا ولا عقولنا ولا جوارحنا وأحاسيسنا.

ثالثاً: مكانة العقل في الشريعة الإسلامية:

الإسلام يعتبر العقل أداة التلقي للوحي، وأساس استيعاب الخطاب، ومناط تكليف الإنسان وإقامة الحجة عليه، بل يَعتبر العقل مرتكز الحساب والثواب والعقاب، ومن هنا جاء اهتمام الدين الإسلامي بالعقل من خلال اعتباره أحد الكليات الخمس التي يجب حفظها وحمايتها تحقيقاً لمقاصد الشريعة من جلب للمصالح، ودرءٍ للمفاسد، فحرَّم كل ما يضر بالعقل، أو يذهب بالوعي ويعطِّل وظائف الفؤاد، ودعى الإنسان العاقلَ لإعمال عقله وتوظيفه فيما خُلِق له، من تدبر(١) وتفكر(٢) وتعقل(٣) ونظر للاتعاظ والاعتبار(٤) وغير ذلك، وقد أكثر القرآن من مخاطبة الإنسان من خلال وظائف عقله السابق

---

(١) كما في قوله تعالى في سورة النساء آية: ٨٢ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ونحوها في سورة محمد: ٢٤، والمؤمنون: ٦٨، ص: ٢٩.

(٢) كما في قوله تعالى في سورة البقرة آية: ٢١٩ ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ونحوها في سورة الأنعام: ٥٠، والروم: ٨، وسبأ: ٤٦ وغير ذلك.

(٣) كما في سورة البقرة آية: ٢٤٢، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ونحوها في سورة آل عمران: ١١٨، ويوسف: ٢، والمؤمنون: ٨٠ وغيرها.

(٤) كما في قوله تعالى في سورة الأعراف آية: ١٨٥ ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ونحوها في سورة يوسف: ١٠٩، وق:٦، والغاشية: ١٧ وغيرها.

ذكرها، وامتدح من يقوم بها، وذم وانتقص من يعطلها، كل هذا احتفاءً بالعقل، ورفعاً من شأنه[١].

وقام الوحي بتقديم الكثير من العلوم والمعارف اللازمة لعقل الإنسان مما يتعلق بدينه ودنياه وآخرته ويرتبط بالإنسان والكون والحياة والموجودات الحسية والمعنوية الغيبية، وخالق ذلك كله، وصدق الله القائل: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١) «فالوحي قد قام بترشيد العقل البشري.. وبيَّنِ له أنه ما من شيء في الوجود إلا وله علة وسبب، وتحكم مسيرته سُنَّة وقانون، ويسير إلى هدف وغاية»[٢].

وتتضح مكانة العقل في شريعة الإسلام من خلال رفع التكليف عن فاقد العقل، لحديث «رُفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يشب، وعن المعتوه[٣] حتى يعقل»[٤].

---

(١) ولمعرفة مزيد من التفاصيل عن العقل وذكره في القرآن الكريم، انظر: القرآن والنظر العقلي، لفاطمة إسماعيل محمد إسماعيل، المعهد العالي للفكر الإسلامي، هيرندن ـ فرجينيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية ص٦٤-٨٠.

(٢) القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر لعبد المجيد بن سعود، سلسلة كتاب الأمة، العدد ٦٧، رمضان، ١٤١٩هـ، وزارة الشؤون الإسلامية، قطر ص١٠ بتصرف.

(٣) المعتوه: المجنون، والعته: التجنن، انظر: لسان العرب، لابن منظور ٩/ ٤٢ مادة (عته).

(٤) أخرجه الترمذي ٤/ ٢٤ في كتاب الحدود، باب: ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، برقم ١٤٢٣ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٥/ ٥٩، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٥٦، وصححه الألباني في الإرواء ٢/ ٤ برقم ٢٩٧.

انظر: الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩-٢٩٧هـ)، بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، بيروت ـ لبنان.

=

ومن خلال دعوة العقل للاجتهاد في حدود الشريعة فيما يتعلق بأحكامها ومبادئها، وترتيب الأجر على ذلك حتى لو كانت النتائج خاطئة ما دام الاجتهاد صادراً من أهله، وفيما يحق للمرء الاجتهاد فيه مع بذل الوسع في الوصول إلى الحق وما دامت المقاصد والأساليب حسنة موافقة للشرع[1]، ويكفي دليلاً على اهتمام الإسلام بالعقل قول النبي ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم..**»[2] وكذا ابتداء نزول الوحي بقوله تعالى: ﴿ **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ** ﴾ (العلق: ١) حيث كانت أول آية أُنزلت على قلب النبي ﷺ خصوصاً وأمته عموماً هي الدعوة إلى القراءة أهم وسيلة للتعلم، ثم أكّد القرآن ذلك بقوله بعد ذلك بآية ﴿ **ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝** ﴾ (العلق: ٣-٥).

= و: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢١هـ)، إشراف محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، بيروت ـ لبنان.

(١) لما صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**» أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد.. برقم ٦٩١٩ عند عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ١/ ٨١ في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم ٢٢٤، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني في كتابه: صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٩٢، برقم ١٨٤.

وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٢٠، وذكره ابن حجر في المطالب العالية برقم ٣٠٦٥.

انظر: صحيح سنن ابن ماجه، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ت١٤٢١)هـ، مكتب التربية العربية لدول الخليج، الرياض، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، بيروت ـ لبنان. و: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢) هـ، تحقيق أبي بلال غنيم بن عباس، وأبي تميم ياسر بن إبراهيم، دار الوطن، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، الرياض ـ السعودية.

وما ذلك إلا لإعطاء العقل حقوقه ولوازمه من العلوم والمعارف التي يصلح بها شأن الإنسان، والقرآن قد رفض الظن والتخمين أو الخرص في مجال المعتقدات العقلية، وحذر الإنسان من اتباع مالا علم له به، حتى لا ينهج بعقله نهج أهل الضلال في معتقداتهم وسلوكياتهم، الذين يتبعون ما لا يعلمون صحته وحقيقته، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦)، قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ «.. أي لا تتبع ما لا تعلم... ومعنى الآية: النهي عن أن يقول الإنسان مالا يعلم، أو يعمل ما لا علم له به.. وقيل المعنى: لا تتبع الحدس والظنون..»[١].

ومن صور اهتمام الإسلام بالعقل ما جاء في القرآن والسنة من تنقيته وتزكيته وتحصينه من العقائد الباطلة التي لا تقوم على برهان صحيح أو دليل صادق، فكان أول ما قام بمحاربته من الباطل هو الإشراك بالله واعتقاد تعدد الآلهة، قال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (البقرة: ١٦٣)، فالتعلق بالشرك «إهدار للعقل، ومسخ له، وإفساد للفطرة»[٢] لأنه يدفع الإنسان ويجره لعبادة ما لا يستحق، دون تفكير وإعمال للعقل، ومعرفة وجه استحقاق تلك المعبودات للعبادة. وما عاقبتها في الدارين؟ لذلك نزل القرآن لإيقاظ العقل ودعوته إلى إحداث «ثورة عنيفة على الشرك والكهانة والوساطة بين العبد وربه، وقضى على

---

(١) فتح القدير ٣/ ٣١٤ بتصرف يسير.

كما وردت آيات أخرى تنكر على المؤمنين القول بما لا يعلمون صحته وحقيقته، كما في حادثة الإفك التي اتهمت فيها عائشة رضي الله عنها زوراً وبهتاناً، فأنزل الله: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ (النور: ١٥).

(٢) منهج القرآن في التربية، لمحمد شديد، مؤسسة الرسالة، ط(بدون)، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، بيروت ـ لبنان ص١٢٧.

جميع مظاهر العبودية لغير الله، واستعباد العقل لغير الله، أو استبعاده في حمل المعتقدات، وحرر العقول وطالب أصحابها بالتفكير والتدبر»[١]، وقدَّم للعقل المسلم عقيدة التوحيد الخالص لله، ومبررات ودواعي تلك العبودية له، وحدَّد مسار العقل فيما يطيقه ويقدر عليه من المعتقدات والمعارف و«أعفاه من كل ما لا يطيق، كالتفكر في ذات الله وحقيقة الملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغيرها من الغيبيات التي تعجز العقول عن إدراكها بالتفصيل، كل هذا حتى لا يضل العقل أو يحتار، أو تُبَدَّد جهود الإنسان وطاقته وأوقاته في غير النافع المفيد»[٢].

بل لقد نهى القرآن عن تتبع المتشابه منه[٣]، وحذَّرت السُّنة من الخوض في القدر[٤]، صيانة للعقل وحفظاً له من التطاول إلى ما لا يبلغه وليس في وسعه

---

(١) نفس المرجع ص١٢٨-١٢٩ بزيادة يسيرة.

(٢) تربية الناشئ المسلم، للدكتور علي عبدالحليم محمود، دار الوفاء، ط٣، د.ت، المنصورة ـ مصر، ص٢٦٣ بتصرف وزيادة يسيرة.

(٣) كما هو المفهوم من قوله تعالى في سورة آل عمران آية: ٧: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾.

(٤) كما ورد عند الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ١٩٨ برقم ١٠٤٤٨ عن أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا**» والحديث قد حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٤٢ برقم ٣٤وقال: «رُوِي من حديث ابن مسعود، وثوبان وابن عمر، وطاووس مرسلاً، وكلها ضعيفة الأسانيد، ولكن بعضها يشد بعضاً». انظر: المعجم الكبير، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)، تخريج وتحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديثة، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، الموصل ـ العراق.
و: سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢١هـ)، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، بيروت ـ لبنان.

إدراكه، وليس ذلك حجراً عليه أو انتقاصاً من شأنه، غير أن العقل له حدود، لا يستطيع تجاوزها.

كما أن العقيدة الإسلامية قد حاربت ورفضت كل معتقد لا يقوم على أساس من الصحة كالأمور القائمة على الأوهام والخرافات الباطلة، كالسحر[١] والشعوذة، والدجل[٢]، والكهانة والعِرافة[٣]، والعيافة[٤]، والطِّيَرة[٥]، والطَّرْق[٦]، ونحو ذلك،

---

(١) السحر هو الأخذة، وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر يأخذ العين حتى يظن أن الأمر كما يرى، وليس الأصل على ما يرى، وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره،..
انظر: لسان العرب، لابن منظور ٦/ ١٨٩ مادة (سحر).
و: المغني، لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي(٥٤١-٦٢٠هـ)، تحقيق د/ عبد الله عبد المحسن التركي، ود/ عبدالفتاح محمد الحلو، مطبعة هجر، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، القاهرة ـ مصر، ١٢/ ٢٩٩. و: مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ)، تحقيق عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، ط٢، ١٩٦٦م، القاهرة ـ مصر، ٢/ ١٩٣. و: تفسير ابن عاشور ١/ ٦١٣ وما بعدها.

(٢) الدجل: هو الكذب وتغطية الشيء، وأصله الخلط، يقال: دجل إذا لبس وموه، انظر لسان العرب، لابن منظور ٤/ ٢٩٤، مادة (دجل).

(٣) الكهانة والعرافة هي: تعاطي الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان وادعاء الأسرار، لسان العرب، لابن منظور ١٢/ ١٨١، مادة (كهن).

(٤) العيافة: هي زجر الطير والتفاؤل بها كما كانت العرب تفعله، والعائف هو المتكهن، لسان العرب، لابن منظور ٩/ ٥٠٠ مادة (عيف).

(٥) الطيرة: هي التشاؤم بما يرى من مجيء الطير والضباء نحو الشمال، وما يسمع من صوتها، والطيرة مضادة للفأل، وفي الكتاب العزيز ﴿ قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ ﴾ (يس: ١٩)، أي شؤمكم، لسان العرب، لابن منظور ٨/ ٢٣٩ وما بعدها، مادة (طير).

(٦) الطرق: هو ضرب الحصى، والخط في الرمل، وهو ضرب من التكهن، والطراق: المتكهنون، والطوارق المتكهنات، لسان العرب، لابن منظور ٨/ ١٥١ مادة (طرق).

وأبطل الإسلام اعتقاد تأثير العدوى بنفسها[١]، وأنكر الشؤم[٢]، والهامة[٣]، والأنواء[٤]، وصفر[٥]، وغير ذلك مما يُضَلَّل به على العقول ولا أساس له من الصحة[٦].

---

(١) العدوى: هي ما يعدي من جرب وغيره، وهو مجاوزته من صاحبه إلى غيره، انظر: لسان العرب، لابن منظور ٩/ ٩٦-٩٧م مادة (عدا).

(٢) الشؤم: هو خلاف اليُمن، وهو ما تكره عاقبته، لسان العرب، لابن منظور ٧/ ٧-٨، مادة (شأم).

(٣) الهامة: واحدة الهوام، وقيل كانت العرب تقول في الجاهلية: إذا قتل الرجل ولم يؤخذ بثأره خرجت من رأسه هامة فتدور حول قبره، فتقول: أسقوني أسقوني، فإذا أدرك بثأره ذهبت وإلا بقيت، وقيل غير ذلك، لسان العرب، لابن منظور ١٥/ ١٦٢، مادة (هوم).

(٤) الأنواء: جمع نوء، وهو قول الكفار مطرنا بنوء كذا، إشارة إلى النجوم واعتقادهم ذلك، انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٤/ ١٧٤٤.

(٥) صفر: هي دواب في البطن، وهي دودة حيث كان الجاهليون يعتقدون أن في البطن دابة تهيج عند الجوع وربما قتلت صاحبها، وقيل كانوا يتشاءمون بدخول شهر صفر وهو الصحيح ولا زال. انظر: لسان العرب، لابن منظور ٧/ ٣٥٩ مادة (صفر).

(٦) وقد تظاهرت وتضافرت الأدلة على كل ما ذكرته أعلاه فمن ذلك قوله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات ... الشرك بالله والسحر، و..**» رواه البخاري في ٣/ ١٠١٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٢٦١٥.

وقوله ﷺ: «**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**» أخرجه الحاكم في مستدركه ١/ ٨ عن أبي هريرة، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي.

وقوله ﷺ: «**العيافة والطيرة والطرق من الجبت**» أخرجه أبو داود في مج٢/ ج٤، ص١٥، في كتاب الطب، باب: الخط وزجر الطير، برقم ٣٩٠٧ عن قبيصة الهلالي، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢/ ٧٤٠: صحيح مقطوع، وقد ذكره برقم ٣٣٠٧، والجبت هو كل ما عبد من دون الله، وقيل هو الكاهن والشيطان، لسان العرب، لابن منظور ٢/ ١٦٤ مادة (جبت).

وقوله ﷺ: «**لا عدوى ولا هامة ولا نوء لا صفر**» رواه مسلم ٤/ ١٧٤٤، في كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة، برقم ٢٢٢٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه. =

وقد رفض القرآن كل الأساطير والخرافات المتعلقة بالأنبياء ونبوءاتهم أو رسالاتهم كما فعل ضُلاَّل أهل الكتاب من النصارى في غلُوِّهم ببعض أنبيائهم ورسلهم كعيسى ابن مريم عليه السلام، وكذا غلوّ اليهود في عُزير عليه السلام.

وحرَّم على الإنسان الاجتهاد في تأسيس وإنشاء العقائد، وأغلق باب البدع في العبادات، حتى لا يضل الإنسان في نفسه، أو يُضَلَّل عليه، أو يُضَلِّل غيرَه وحتى يسير على هدي وبصيرة في هذه الحياة، وأنكر القرآن على الكفار تعطيل عقولهم وتقليد أسلافهم على غير هدى، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠) بَل حَكَم بأنهم أضل من الأنعام وأخبر أنّ مآل من يعطل عقله وبصره وسمعه إلى النار، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩)[1]،

= انظر: سنن أبي داود، للحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢-٢٧٥هـ) إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، دار الحديث، ط١، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م، بيروت لبنان.

و: صحيح سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت١٤٢١هـ)، مكتب التربية العربية لدول الخليج، الرياض، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، بيروت، لبنان.

(١) ومن الآيات التي تدلل على إنكار القرآن على الذين لا يُعملون عقولهم فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الأحقاف: ٢٦).

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦).

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : «ووجه كونهم أضل من الأنعام: أن الأنعام لا يبلغ بها ضلالها إلى إيقاعها في مهاوي الشقاء الأبدي.. والأنعام قد خُلق إدراكها محدوداً لا يتجاوز ما خُلقت لأجله، فنقصان انتفاعها بمشاعرها ليس عن تقصير منها، فلا تكون بمحل الملامة، وأما أهل الضلالة فإنهم حجزوا أنفسهم عن مدركاتهم بتقصير منهم، وإعراض عن النظر والاستدلال، فهم أضل سبيلاً من الأنعام»[(١)] ومن هنا أوجب الشارع الحكيم أن يكون «التدين والاعتقاد ثمرة اختيار واقتناع، وليس عن وراثة، ومحاكاة، وتعطيل ملكات العقل»[(٢)] من تبصر ونظر وتمحيص وبحث واستدلال وغير ذلك.

وما دام الأمر كذلك فإن على العاقل واجباً عظيماً ومهمة كبرى في التعرف على الله والفرار إليه، والإقبال عليه، قال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ (الذاريات: ٥٠)، قال الرازي[(٣)] في تفسير الآية: «أمر بالتوحيد، وفيه لطائف: الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ ﴾ ينبئ عن سرعة الإهلاك، كأنه يقول: الإهلاك والعذاب أسرع وأقرب من أن يحتمل الحال

---

(١) تفسير ابن عاشور ٨/ ٣٦٠ باختصار.

(٢) القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، لعبدالمجيد بن سعود ص١٤-١٥، نقلاً عن مقدمة الكتاب لعمر عبيد حسنة.

(٣) الرازي: هو الإمام العلامة أبو عبدالله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل، ثم الرازي، مفسر، متكلم، إمام وقته في العلوم العقلية، ولد سنة ٥٤٤هـ، وتوفي بهراة يوم الفطر عام ٦٠٦هـ، قيل أنه ندم في آخر حياته على دخوله في علم الكلام.

من تصانيفه: (التفسير الكبير المعروف بمفاتيح الغيب) و(المحصول) و(نهاية العقول).

انظر: طبقات المفسرين، للداوودي ٢/ ٢١٤ وما بعدها. و: شذرات الذهب، لابن العماد ٥/ ٢١.

الإبطاء في الرجوع، فافزعوا إلى الله سريعاً وفروا: الثانية: قوله تعالى: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بيان المهروب إليه...»[١].

ولا يمكن إعفاء أي عاقل من هذه المسؤولية الكبرى، ما دام العقل هو آلة التمييز بين الحق والباطل، وجهاز التفكير والفهم والإدراك والاستدلال كما سبق تعريفه[٢]، فأول واجب عليه تجاه خالقه استعمال أدوات التعلم والمعرفة التي خلقها الله له من سمع وبصر ونحو ذلك في اكتشاف مظاهر ودلائل وجود الله وعظمته ووحدانيته سبحانه وتعالى، قال جل شأنه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨) فبإمكان العقل معرفة الذات الإلهية والتعرف عليها إجمالاً، ثم معرفة صدق رُسُلِ الله وتصديقهم والإيمان بهم طالما وقد جاءوا بمعجزات من عند الله أثبتت حقيقة رسالتهم وإرسالهم من عند الله، ويجب على كل عاقل أيضاً الإيمان بما أخبر به الرسل من تفاصيل حقيقة الذات الإلهية، مما يليق بالله وما لا يليق به.

ومما يجوز على الله وما لا يجوز، وما يجب وما يحرم، وما يحبه ويرضاه ويُقرب إليه، أو يَبْغضه ولا يأذن به ويُباعد عنه.. إلخ ما جاءت به رسل الله، فالعقل لا يستقل بنفسه في التعرف على الله والإقبال عليه بدون الرسل عليهم السلام.

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي (٥٤٤-٦٠٤هـ)، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، بيروت ـ لبنان ٢٨/ ١٩٥ باختصار.

(٢) راجع تعريف العقل اصطلاحاً ص١٠٥ .

ولو كان العقل قادراً على إدراك كل ما جاءت به الرسل من تلقاء نفسه لما أرسل الله رسله، ولا احتاجت البشرية لمبشرين ومنذرين، قال سيد قطب: «والذين يرون أن العقل يغني عن الوحي.. إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله، فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري، ولا حتى فطرتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد، والإيمان به، لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أن العقل وحده يضل، وأن الفطرة وحدها تنحرف، وأنه لا عاصم لعقل الإنسان ولا لفطرته إلا أن يكون الوحي هو الرائد والهادي، وهو النور والبصيرة»[1].

وبناءً على ما سبق فالواجب ألا يُهمل العقل ولاُ يقلَّل من شأنه.. وكذا ألا يُعطي أكبر من قدره، ولا تُتجاوز به حدوده، فإنَّ في هذا إعناتاً له ـ كما سبق شرحه ـ ولا يقدَّم على ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة، أو يُحكَّم فيهما، ـ كما فعل أهل الكلام والفلاسفة ـ.

ولا يصح اعتقاد تعارض العقل مع النقل وإن وقع هذا ظاهراً، فعند التحقيق يتبين عدم تعارض العقل الصريح مع النقل الصحيح، بل إنه يوافقه ويشهد له[2]، وما أحسن ما قاله ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في شأن علاقة العقل بالشرع حيث قال: «.. بل العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، لكنه ليس مستقلاً بذلك.. فهو بمنزلة قوَّة البصر التي

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٩٨ بتصرف يسير..

(٢) انظر: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، لسعود بن عبد العزيز العريفي ص ٣٩ بتصرف.

في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها، وإن عُزل بالكلية: كانت الأقوال والأفعال مع عدمه: أموراً حيوانية.. فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة، والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه»[1].

وبناءً على كلام ابن تيمية يمكن القول: إن العقل البشري ليس ندّاً لشريعة الله، وحقائق الوحي لا يمكن أن تتعارض أبداً مع حقائق العقل انطلاقاً من وحدة مصدرهما وهو الله سبحانه وتعالى، وأقصى ما يتطلب من العقل البشري هو إدراك وتحرِّي دلالة النص القرآني أو النبوي وانطباقه على الحقيقة «لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه، فالمصلحة متحققة أصلاً بورود النص من قبل الله تعالى»[2].

قال سيد قطب: «إن دور العقل أن يتلقى الرسالة، ووظيفته أن يفهم ما يتلقَّاه عن الرسول، ومهمة الرسول أن يبلِّغ ويبين، ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام، وينبِّه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفات،.. وليس دور العقل أن يكون حاكماً على الدين

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣٣٨-٣٣٩ بتصرف واختصار.

لمزيد من التفصيل يمكن النظر في إحياء علوم الدين ١/ ٩٩-١٠٦.

وانظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية.

و: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٢/ ٧٢٣ بتصرف يسير.

ولو كان العقل قادراً على إدراك كل ما جاءت به الرسل من تلقاء نفسه لما أرسل الله رسله، ولا احتاجت البشرية لمبشرين ومنذرين، قال سيد قطب: «والذين يرون أن العقل يغني عن الوحي.. إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله، فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري، ولا حتى فطرتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد، والإيمان به، لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أن العقل وحده يضل، وأن الفطرة وحدها تنحرف، وأنه لا عاصم لعقل الإنسان ولا لفطرته إلا أن يكون الوحي هو الرائد والهادي، وهو النور والبصيرة»[1].

وبناءً على ما سبق فالواجب ألا يُهمل العقل ولاُ يقلَّل من شأنه.. وكذا ألا يُعطي أكبر من قدره، ولا تُتجاوز به حدوده، فإنَّ في هذا إعناتاً له ـ كما سبق شرحه ـ ولا يقدَّم على ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة، أو يُحكَّم فيهما، ـ كما فعل أهل الكلام والفلاسفة ـ.

ولا يصح اعتقاد تعارض العقل مع النقل وإن وقع هذا ظاهراً، فعند التحقيق يتبين عدم تعارض العقل الصريح مع النقل الصحيح، بل إنه يوافقه ويشهد له[2]، وما أحسن ما قاله ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في شأن علاقة العقل بالشرع حيث قال: «.. بل العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، لكنه ليس مستقلاً بذلك.. فهو بمنزلة قوَّة البصر التي

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٩٨ بتصرف يسير..

(٢) انظر: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، لسعود بن عبد العزيز العريفي ص ٣٩ بتصرف.

المبحث الثالث

مقدمات وحقائق عن التوحيد وأدلته في القرآن الكريم

«المطلب الأول»

« الوحدانية والتوحيد في القرآن الكريم»

أَوْلَى القرآن الكريم قضية وحدانية الله وتوحيده كل الاهتمام، وعني بها غاية العناية، وسلك في سبيل تقرير وتأكيد وإقامة التوحيد في نفوس العبيد كل مسلك، واستخدم كل الوسائل والأساليب الكفيلة بجلاء هذه الحقيقة الحتمية، فالقرآن كله متضمن للتوحيد، شاهد به، داعٍ إليه[1]، سواء في الآيات المكية أو المدنية، وإذا كان القرآن قد تحدَّث عن الوحدانية والتوحيد بجميع أنواعه بصُوْرِة مباشرة أو غير مباشرة في أكثر من ألف وتسعمائة موضع، فإنه قد أفرد لذلك أكثر من سبعمائة آية، وردت في نحو ثمانين سورة، تارة في جمل قصيرة أو آية وآيتين بصورة موجزة، وتارة في جوامع مسلسلة في عدة آيات ببسط وتفصيل أخَّاذ بالألباب.

وإذا كان القرآن قد قرَّر قضية التوحيد عن طريق الإثبات باستخدام ألفاظ شتى مثل (الواحد، والأحد، والرب، والإله) فإنه أيضاً قد قرر ذلك باستخدامه ألفاظاً متعددة لنفي ما هو ضد التوحيد كـ(الشرك والشركاء، والشفعاء، والأولياء، والذبح والدعاء والعبادة لغير الله) وغير ذلك كثير.

(١) راجع كلام ابن القيم في هذا البحث ص (١٠).

ومن خلال استقرائنا للفظ (وحد) ومشتقاته في القرآن الكريم نجد أنه قد ورد في ثمانية وستين موضعاً[١]، منها ثمان وعشرين مرة جاءت وصفاً لله تعالى وتقريراً لوحدانيته، كأمره سبحانه لنبيه ﷺ بالقول والإعلان لوحدانية الله والتبرؤ من الشرك وأهله، كما في سورة الأنعام المكية: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٩).

وإخباره سبحانه لجميع خلقه بوحدانيته، وأمره لهم بالإسلام له، كما في قوله سبحانه في سورة الحج المدنية: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ (الحج: ٣٤).

وورد لفظ (أحد) في القرآن الكريم في خمسةٍ وثمانين موضعاً، في عدة آيات[٢]، منها ما كان وصفاً ودعوة إلى إفراد الله تعالى بالأحدية كأمره سبحانه للنبي ﷺ بإقرار وإعلان وحدانية الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص: ١).

ومنها ما كان نفياً منه لأي مكافئ له في الذات والصفات والأفعال من جميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص: ٤).

ومنها ما كان أمراً منه سبحانه ألا ندعو معه أحداً سواه، قال جل شأنه: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الجن: ١٨).

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٧٤٥ مادة (وحد).

(٢) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي ص١٥-١٦ مادة (أحد). ولمعرفة المزيد مما يتعلق باسمي الله (الواحد ـ الأحد) انظر: النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، تأليف محمد الحمود النجدي، مكتبة الإمام الذهبي، ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، الكويت ٢/ ٨٣-٩٣.

وبناءً على ما سبق يمكن القول إن القرآن الكريم قد تناول قضية الوحدانية والتوحيد، وأفاض في ذلك، كون (الوحدانية) صفة جامعة، من أبرز صفاته المتعلقة بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فهو سبحانه كما قال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١).

وتناول قضية التوحيد كونها العقيدة اللازم اعتقادها والعمل بمقتضاها من جميع الثقلين، والدين الحق الذي انحرفت عنه الأجيال البشرية ـ إلا من هدى الله ـ.

لقد شرح القرآن مسألة التوحيد وأمر به باعتباره أساس الإيمان ببقية الأركان، وشرط قبول الأعمال الصالحة، وأداة توجيه السلوك الشخصي والاجتماعي، وطريق النجاة من سخط الله وناره، والوصول إلى مرضاة الله وجنته.

تحدَّث القرآن عن ذلك كله بجوامع الألفاظ، وبالإجمال والتفصيل، وبذكر دعوات بعض الرسل أقوامهم لتوحيد الواحد الأحد[١].

ولا عجب من ذلك كله، فقد كان القرآن يخاطب أقواماً ينكرون وجود الله كالدهريين الذين سجَّل الله مقالتهم ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (الجاثية: ٢٤)، والمكابرين أصحاب العلم بالحق والجحود بعد اليقين، الذين سلكوا طريق فرعون القائل لموسى عليه السلام: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٣)، والذين قال الله في شأنهم: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣).

---

(١) سيأتي شرح ذلك فيما يلي من فقرات قادمة بعون الله.

وكان القرآن أيضاً يخاطب آخرين يدينون للأوثان بعبادة توارثوها عن الآباء والأجداد و﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ٥٣) وزعموا أنها تقربهم إلى الله قائلين: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (الزمر: ٣).

وكان القرآن كذلك يحاجج أهل كتاب يدينون بالتوراة والإنجيل، ويختلفون في مذاهب الربوبية والعبادة والتأليه للرسل، والإشراك بالله ما لم ينزل به سلطاناً، لقد كانت، دعوة القرآن لأمة أمية من العرب، وغيرها من العجم، لعصر النبوة وسائر العصور إلى قيام الساعة[1].

---

(١) انظر: الله جل جلاله، للعقاد، عباس محمود، المكتبة العصرية، ط (بدون)، د.ت، صيدا، بيروت ص٢٣٥ (اقتباس بالمعنى مع زيادات).

«المطلب الثاني»

«أنواع التوحيد في القرآن الكريم، والعلاقة بينها»

سبق تعريف التوحيد لغة واصطلاحاً، وذكر أقسامه لدى أهل العلم[١]، وسبقت الإشارة إلى بعض دواعي ذلك التقسيم[٢]، والحقيقة أن غالب آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن التوحيد إنما ذكرته بصورته الكلية المترابطة، وليس الجزئية المفككة، ودعت لذلك صراحة أو ضمناً باسم الإيمان بالله، وهذا هو الأولى في مثل هذه القضية العقدية التي لا تقبل التجزئة أصلاً ـ رغم ذكرها لنوعي التوحيد ـ ، قال شارح العقيدة الطحاوية: «... ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان:

أولاً: توحيد في الإثبات والمعرفة..، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، كما في أول (الحديد)[٣] و(طه)[٤] وآخر (الحشر)[٥] وأول (ألم تنزيل السجدة)[٦] وأول (آل عمران)[٧] وسورة (الإخلاص) بكمالها، وغير ذلك.

---

(١) راجع ص٧٧.

(٢) انظر حاشية ص ٨٣.

(٣) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: ٣).

(٤) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (طه: ٨).

(٥) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ... ﴾ (الحشر: ٢٢-٢٤).

(٦) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ... ﴾ (السجدة: ٤ - ١٠).

(٧) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ... ﴾ (آل عمران: ٢ - ٦).

والثاني: وهو توحيد الطلب والقصد، مثل ما تضمنته سورة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الكافرون: ١)، و﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (آل عمران: ٦٤)، وأول سورة (تنزيل الكتاب)[١] وآخرها[٢]، وأول سورة (يونس)[٣] وأوسطها[٤] وآخرها[٥]، وأول سورة (الأعراف)[٦] وآخرها[٧]، وجملة سورة (الأنعام)[٨].

---

(١) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ.. ﴾ (الزمر: ٣).

(٢) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ... ﴾ (الزمر: ٦٤ - ٦٦).

(٣) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ... ﴾ (يونس: ٣).

(٤) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ.. ﴾ (يونس: ١٨).

(٥) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى ﴾ (يونس: ١٠٤ - ١٠٦).

(٦) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ.. ﴾ (الأعراف: ٣).

(٧) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ... ﴾ (الأعراف: ٢٠٥ - ٢٠٦).

(٨) لعله يشر إلى: قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.. ﴾ (الأنعام: ١٤-١٥).

وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ... ﴾ (الأنعام: ١٩).

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ... ﴾ (الأنعام: ٢٢ - ٢٣).

وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ... ﴾ (الأنعام: ٤٠ - ٤١).

وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ ... ﴾ (الأنعام: ٥٦).

وآيات قصة إبراهيم عليه السلام في دعوته قومه لتوحيد الله، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ... ﴾ (الأنعام: ٧٤ - ٨٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ... ﴾ (الأنعام: ٩٩).

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ... ﴾ (الأنعام: ١٣٦).

وقوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ... ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

وغير ذلك من الآيات.

ثم قال: وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل سورة في القرآن..

فـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ توحيد[١]، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ توحيد[٢]، ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ توحيد[٣]، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ توحيد[٤]، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الذين فارقوا التوحيد..)[٥].

وكما أن القرآن الكريم قد تناول التوحيد بنوعيه السابقين باعتبار ما يجب على الموحِّد، فقد تناوله أيضاً بأنواعه الثلاثة (ربوبية ـ ألوهية ـ أسماء وصفات) باعتبار متعلقه بالذات الإلهية، وجَعَل بينها علاقة وطيدة كما يلي:

١ ـ ساق القرآن بعض آيات الربوبية لِيخلُص منها إلى الدعوة لتوحيد الألوهية، إذ أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فجعل الأولى برهاناً على الثانية، أو مقدمة مقرَّرة لنتيجةٍ حتميةٍ مطلوب الإقرار بها، وكان يدعو لتوحيد العبادة (الإلهية) مبيِّناً عقب ذلك مباشرة أوجه استحقاق الذات الإلهية لها.

---

(١) فيها إشارة لتوحيد الألوهية والربوبية.

(٢) فيها إشارة لتوحيد الأسماء والصفات.

(٣) فيها إشارة لتوحيد الربوبية.

(٤) فيها دلالة صريحة على توحيد الألوهية والربوبية.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص٨٩-٩٠، باختصار.

ويتضح هذا من أمثلة الآيات التالية:

أ ـ قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ (البقرة: ٢١، ٢٢).

ب ـ قوله سبحانه: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ ﴾ (النمل: ٦٠-٦٤) وغير ذلك من آيات الربوبية التي ساقها القرآن للتدليل على توحيد الألوهية مما سنأتي لشرحه مع ما سبق فيما يلي من هذا البحث، قال شارح العقيدة الطحاوية: «.. والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد ـ أي توحيد الربوبية ـ وبيانه، وضرب الأمثال له، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم ألا يُعبد إلا الله، فيجعل

الأول دليلاً على الثاني.. فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه مالم يجتمع في غيره، فإنه الدليل والمدلول عليه، والشاهد والمشهود له..»[١].

ولا عجب من هذا الأسلوب القرآني البديع الرائع لغرس التوحيد وإقامته في نفوس العبيد فمن أقر بتوحيد الربوبية لزمه الإقرار بتوحيد الألوهية، ولا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الألوهية[٢]، ولا يصح قيام توحيد الألوهية بدون توحيد الربوبية، فالعلاقة بينهما علاقة تلازم وتضمن وشمول.

قال ابن القيم[٣] رحمه الله:

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص٨٥-٩٦ باختصار.
وانظر: تحفة الإخوان بأجوبة مهمة تتعلق بأركان الإسلام، للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، جمع: محمد الشايع، دار الفائزين، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، الرياض ـ السعودية ص٣٢ باختصار.

(٢) ولهذا لم يعتبر القرآن الإقرار بتوحيد الربوبية دون الألوهية إيماناً، فالكفار السابقون أقروا بتوحيد الربوبية دون الألوهية، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٧)، ومع هذا أنكر عليهم قائلاً ﴿ .. فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ وقاتلهم النبي ﷺ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله.

(٣) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ثم الدمشقي، الفقيه الحنبلي، الشهير بابن قيم الجوزية، ولد عام ٦٩١هـ في دمشق، مجتهد مفسر، نحوي، أصولي، تتلمذ على يد ابن تيمية، وسمع من الشهاب النابلسي وإسماعيل بن مكتوم، قال عنه ابن رجب: «كان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة.. لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علماً..» وقد امتُحن وأوذي مرات، وحُبس كذلك..، توفي عام ٧٥١هـ في دمشق. ألف كثيراً من الكتب تربو على خمسين مؤلفاً منها: (إعلام الموقعين) و(الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) و(زاد المعاد) و(أحكام أهل الذمة) و(تهذيب سنن أبي داود).
انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر ٣/ ٤٠٠-٤٠٣.
و: شذرات الذهب، لابن العماد ٦/ ١٦٨-١٧١.

«الإلهية التي دعت الرسل أممهم إلى توحيد الرب بها هي العبادة والتأليه، ومن لوازمها توحيد الربوبية الذي أقرَّ به المشركون، فاحتج الله عليهم به، فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الألوهية»[1].

فلا يصح أن يُعبد إلا من كان رباً خالقاً مالكاً مدبِّراً، وهذا ليس لأحد إلا لله جل شأنه، لاجتماع ذلك كله له وحده، وبناء على ما سبق يمكن القول: بما أنَّ توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية[2]، فإن من عَبَد الله ولم يشرك به شيئاً دلَّت عبادته ضمناً على اعتقاده بالله رباً.

٢ ـ رَبَط القرآن كثيراً من آيات التوحيد العلمي الخبري، أو الإرادي الطلبي بأسماء الله وصفاته، تارة في مبتدأ الآيات كما في قوله سبحانه:

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المشهور بابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ)، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، ط(بدون)، د.ت، الرياض ـ السعودية.

(٢) وهناك فروق بينهما، من ذلك:

أ ـ الاختلاف في الاشتقاق، فالربوبية مشتقة من لفظ (رب) والألوهية مشتقة من لفظ (إله).

ب ـ أن متعلق الربوبية الأمور الكونية من خلق وتدبير ونحوه، ومتعلق الألوهية الأمور الشرعية من أمر ونهي، وواجب ومحرم، ونحو ذلك.

ج ـ أن توحيد الربوبية متفق عليه بين المسلمين والمشركين، أما توحيد الألوهية، فلم يقر به المشركون.

د ـ أن توحيد الربوبية مدلوله علمي خبري يتعلق بالمعرفة والإثبات، أما توحيد الألوهية فمدلوله عملي يتعلق بالقصد والطلب والإرادة.

انظر: الشرك في القديم والحديث، لأبي بكر محمد زكريا ١/ ١٠٠.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾

(الرحمن: ١-٤).

وتارة في أوسط الآيات كما في قوله سبحانه في سورة الفاتحة: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾ (الفاتحة: ٢-٥).

وتارة في نهايتها كما في قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٢٥٥ ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وغير ذلك كثير في القرآن الكريم[1].

وهذا للمناسبة بين الآيات، وحِكَمٍ أخرى ذكرها أهل العلم ببلاغة القرآن ومعانيه وبيانه وبديعه.

ولا غرو في ذلك فتوحيد الأسماء والصفات شامل لتوحيد الربوبية والألوهية، فهو يقوم على تنزيه الله تعالى عن صفات النقص والعيب، وإفراده بكل ما له من صفات الأعمال التي لا تنبغي إلا له، ومن ذلك صفة الوحدانية لله في ألوهيته وربوبيته، ومن المعلوم أنَّ «كل من وحَّد الله في ربوبيته وألوهية، ولكنه سمى غيره باسمه مما لا يجوز أن يطلق على غيره أو أَلْحَدَ في أسمائه فلم يُثبت ما

(١) كما في سورة الأنعام آية ١٢٨، والأعراف آية ١٦٧، والكهف آية ٥٨ وغير ذلك.

دلَّت عليه تلك الأسماء من صفات الكمال أو أثبت لغيره مثل صفته، لم ينفعه توحيده في الربوبية والألوهية»(١).

فـ «... توحيد الأسماء والصفات يستلزم تخصيص الله بالعبادة وإفراده بها، لأنه سبحانه هو الكامل في ذاته، وفي أسمائه وصفاته»(٢).

---

(١) دعوة التوحيد، أصولها ـ الأدوار التي مرت بها، مشاهير دعاتها، للدكتور محمد خليل هراس، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، بيروت ـ لبنان ص٧٥.

(٢) تحفة الإخوان، لابن باز ص٣٢، باختصار.

«المطلب الثالث»

«استعمالات القرآن لوصفي الربوبية والألوهية»

ورد لفظ (رب) ومشتقاته في القرآن الكريم في أكثر من تسع مائةٍ وسبعةٍ وسبعين موضعاً[١]، وورد لفظ (إله) ومشتقاته في القرآن الكريم في مائة وسبعة وأربعين موضعاً[٢]، وورد لفظ الجلالة (الله) في القرآن الكريم في أكثر من ألفين وستمائة وثمانين موضعاً[٣].

وقد استخدم القرآن الألفاظ السابقة للدلالة على الذات الإلهية إثباتاً، أو نفياً لضدها، وتَنوَّع في اشتقاقها واستعمالاتها بحسب السياق القرآني وأهداف الآيات، وغير ذلك من الحِكَم العظيمة والإعجازات البلاغية التي امتلأ بها كتاب الله، ومن جملة ذلك استعمالات القرآن لوصفي الألوهية والربوبية.

وقد سبق شرح أنواع التوحيد في القرآن والعلاقة بينها، ومن ذلك العلاقة بين الربوبية والألوهية من ناحية المعنى والمضمون، واتضح لنا (التلازم التام بينهما، وأنهما لا ينفصلان من حيث الحقيقة الشرعية، ومن حيث الوجود الواقعي، فكلاهما وصف لذات واحدة، لا يوجدان في غيرها، ولا يجتمعان في سواها، ولا يتحققان بمعناهما الصحيح إلا لله الواحد الأحد)[٤].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٢٨٥-٢٩٩ مادة (رب).

(٢) انظر: المرجع السابق ص٣٨-٤٠٠ مادة (أله).

(٣) انظر: نفس المرجع السابق ص٤٠-٧٥ مادة (الله).

(٤) المدخل إلى التفسير الموضوعي، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، القاهرة ـ مصر ص١١٠.

ومع أن القرآن الكريم قد ربط في كثير من آياته بين توحيد الربوبية والألوهية إلا أنه قد أورد هذين النوعين على أربعة وجوه ـ كما تبين من استقراء الآيات المتعلقة بذلك ـ ويمكن توضيح هذا الأمر فيما يلي:

الوجه الأول: استعمال اللفظ في معناه الخاص به فقط:

ـ مثال الربوبية قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (الأعراف: ٥٤)، فالخلق هنا من أخص معاني ربوبية الله، تحديداً للمعنى المراد بربكم هنا.

ـ مثال الألوهية قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ (التوبة: ٣١) فالإله هنا بمعنى المعبود وحده لا شريك له كما يتضح من سياق الآية.

الوجه الثاني: استعمال كل لفظ منهما في معناه الخاص به مع جمعهما في مكان واحد:

كما في قوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (غافر: ٦٥)، فمعنى ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو، ومعنى ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي خالقهم ومالكهم ومدبر أمرهم.

فكل عبارة مما سبق إنما أفادت المعنى الخاص بها، وقد جمع القرآن بينهما لبيان حقيقة التوحيد الجامعة للمعنيين جميعاً، ويؤكد ذلك الآية التي أعقبتها مباشرة، قال تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (غافر: ٦٦)، ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ (الأنعام: ١٠٢) «وهذا من النوع المعروف

في البديع باللف والنشر المرتب إذ الخلق عائد إلى معنى (الرب)، والأمر بالعبادة عائد إلى معنى (الإله) على الترتيب الواقع في صدر الآية الكريمة»[١].

الوجه الثالث: استعمال اللفظين في المعنى المشترك بينهما:

من المعلوم أن لفظ (الرب) و(الإله) يشتركان في بعض المعاني ويختلفان في البعض الآخر. فلفظ (الرب) يعني: المربي بكل صور وأنواع التربية، ويعني السيد المطاع النافذ الحكم. ولفظ (الإله) يعني: المعبود بكل صور وأنواع العبادة، ويعني أيضاً المستعلي على عباده، الخليق بالطاعة في أمره ونهيه[٢].

واللفظان السابقان يشتركان في معنى السيد المطاع في أمره ونهيه، وبهذا قد جاءت عدة آيات قرآنية، منها قوله سبحانه آمراً نبيه ﷺ بمخاطبة اليهود والنصارى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

فسياق الآيات يدل على أن المقصود (بالأرباب) هنا هم السادة المطاعون من أقوامهم، وبالتالي فمعنى (ألا نعبد إلا الله) أي ألا نسمع ونطيع إلا له لأن الآيات تتحدث عن الطاعة في التشريع مما يتعلق بالحلال والحرام.

ومثل هذا قوله سبحانه عن أهل الكتاب: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (التوبة: ٣١).

---

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد ص١١٢-١١٣.

(٢) انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد ص١١٠.

أخرج أبو جعفر بن جرير الطبري عن عدي بن حاتم[1] رضي الله عنه أنه.. دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهو يقرأ الآية ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

قال فقلت يا رسول الله؟ إنا لسنا نعبدهم فقال: «**أليس يُحَرِّمون ما أحل الله فتُحَرِّمونه، ويُحِلُّون ما حرَّم الله فتُحِلُّونه، قال قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم**»[2].

وهناك آيات أخرى استعمل القرآن فيها لفظ (الرب) و(الإله) بمعنى السيد المطاع (المشترك بينهما)[3] ونكتفي بما ذكرناه.

---

(١) هو: عدي بن حاتم بن عبد الله بن امرئ القيس الطائي، أبو حاتم الذي يُضرب به المثل في الجود، يكنى عدي أبا طريف، وقيل: أبو وهب، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع في شعبان، وقيل: سنة عشر، فأسلم، وكان نصرانياً. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة، ثبت وقت الرِّدَّة هو وقومه، وكان جواداً شريفاً في قومه معظَّماً عندهم وعند غيرهم، حاضِر الجواب، رُوي عنه أنه قال: «ما دخل علي وقت صلاة إلا وأنا مشتاق إليها» وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه إذا دخل عليه. شهد فتوح العراق، ووقعة القادسية، وغير ذلك، توفي سنة ٦٧هـ، وقيل غير ذلك، وله ١٢٠ سنة، قيل: مات بالكوفة، وقيل مات بقرقِيسيا. انظر: أسد الغابة، لابن الأثير ٤/ ١٠-١٣. و: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٦/ ٤٠١-٤٠٢.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٣٥٤. والحديث أخرجه الترمذي في ٥/ ٢٥٩ في كتاب تفسير القرآن، باب ١٠ (ومن سورة التوبة) برقم ٣٠٥٩ عن عدي بن حاتم، بلفظ «**أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم..**» وأخرجه ابن جرير في تفسيره ٦/ ٣٥٤، وذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ٣٦٢. وقال الألباني في غاية المرام: هو حسن. انظر: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، تأليف الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، بيروت ـ لبنان ص١٩، حديث رقم ٨.

(٣) كما في سورة آل عمران آية: ٨٠، ويوسف آية: ٣٩.

الوجه الرابع: استعمال كل لفظ مكان الآخر:

سبق أن شرحتُ التلازم بين الألوهية والربوبية وشمول الأولى للثانية، واعتماد القرآن عليها في تعبيد الخلق للخالق[1]، وتبين لنا آنفاً عدة أوجه من استعمالات القرآن للفظي (رب) و(إله)، وأختم هنا بشرح، الوجه الأخير من ذلك، فقد استعمل القرآن لفظ (الرب) للدلالة على الألوهية، واستخدم لفظ (الإله) للدلالة على الربوبية، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ (النمل: ٦٠) فالآية تستفسر عن مدبِّر هذا الكون مما يتعلق بالربوبية مِنْ خَلْقٍ للكون وإنزالٍ للماء وإنباتٍ للأشجار فكان المقام يقتضي أن يكون السؤال في آخر الآية (أَرَبٌّ مع الله)؟ لكنها خُتمت بقوله جلَّ شأنه (أإله مع الله)؟ ولعل هذا لحكمةٍ عظيمةٍ هي لفت انتباه كل عاقل إلى أن من خَلَق ورزق حقُّه أن يَوحَّد ويُعبد، وخاصة أن النزاع مع الكفار إنما كان في توحيد الألوهية[2].

وهناك آيات أخرى من مثل ما سبق استخدم القرآن فيها الألوهية للدلالة على الربوبية والعكس[3].

---

(١) ارجع إلى المطلب الثاني من هذا المبحث بعنوان: «أنواع التوحيد في القرآن الكريم والعلاقة بينهما» ص ١٢٨.

(٢) انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد ص١١٠.

(٣) كما في سورة المائدة آية ٧٢، وآية ١١٧، وسورة الحج آية ٧٧.

«المطلب الرابع»

«توسُّع القرآن واستفاضته بأدلة وحدانية الله وتوحيده، ودعوته للنظر فيها»

مع أن وجود الله ووحدانيته سبحانه وتعالى قضية أوضح من الشمس في رابعة النهار، بل حقيقة مغروسة في فطرة كل نفس بشرية، ولها من الدلائل في كل الخلق ما لا يُعد ولا يُحصى.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد[1]

إلا أن القرآن الكريم قد حشد مئات الأدلة والشواهد القرآنية على وجود الله ووحدانيته سبحانه وتعالى، واستفاضت آياته في ذلك، تعريفاً للخلق بخالقهم، ودحضاً لشبهات المنكرين الجاحدين لربهم، وتحقيقاً وتقوية لإيمان المؤمنين الموقنين به سبحانه وتعالى، ولئن كانت الحواس البشرية الخمس قد عجزت عن

---

(١) نسبه ابن كثير في تفسيره ١/ ٢٦ إلى ابن أبي المعتز، ونسبه ابن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان) ٧/ ١٣٧ إلى أبي نواس، ونسبه أبو الفرج الأصبهاني في كتابه (الأغاني) ٤/ ٣٩ لابي العتاهية إسماعيل بن القاسم، وأول الأبيات كما يلي:

ألا إننا كلنا بائد وأي بني آدم خالد

وبدؤهم كان من ربهم وكل إلى ربه عائد

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

انظر: الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (٢٨٤-٣٥٦هـ)، شرح: عبد علي مهنا وسمير جابر، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان. و: ديوان أبي العتاهية، لإسماعيل بن القاسم العنزي، دار صعب، ط (بدون) د.ت، بيروت ـ لبنان ص ٧٠.

الإحاطة علماً بحقيقة الذات الإلهية، فقد وهب الله الإنسان عقلاً يدرك به آثار ودلائل وجود الله ووحدانيته المبثوثة في القرآن، وصدق الله القائل: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق: ٣٧) ولا يُنكر ذلك ويجحده إلا من أُصيب بجهل[١] أو كبر[٢] أو انحراف[٣] أو ظلم[٤].

أما المتأمل أدنى تأمل لسور القرآن وآياته فإنه يرى من أدلة التوحيد القرآنية ما يدفعه لإعلان الإيمان بالله والدعوة إليه، فكل سُوَرِ القرآن المائة وأربع عَشْرة سورة ـ ابتداء بسورة الفاتحة وانتهاء بسورة الناس ـ تحدَّثت عن التوحيد صراحةً أو ضمناً، ودلَّت عليه بصورة مباشرة وغير مباشرة. وقد سبق القول أن آيات ودلائل التوحيد القرآنية زادت على السبعمائة آية، تكررت في أكثر من ألف وتسعمائة موضع، ورد منها بصورة مباشرة في نحوٍ من ثمانين سورة[٥].

---

(١) كما هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾ (البقرة: ١١٨).

(٢) كما هو المفهوم من قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢١).

(٣) كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ ﴾ (غافر: ٣٦، ٣٧)، فالآية تضمنت الرد على فرعون في قوله سبحانه: ﴿ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ ﴾ فليس ما طلبه فرعون من هامان وتصور صحته طريقاً لمعرفة الله بل هو انحراف عن الطريق الصحيح.

(٤) كما هو المفهوم من تعليله سبحانه لأخذه قوم موسى بالصاعقة، قال تعالى: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ (النساء: ١٥٣)، فلم يكن طلبهم لرؤية الله من العدل بل هو من ظلم النفوس للحق الذي تعرفه ثم تتنكَّر له.

(٥) سأشرح كثيراً منها فيما يلي من فقرات قادمة.

ومنطوق كثير من الآيات ومفهومها ولازم معناها يدل دلالة قاطعة على وحدانية الله، ولا يمكن أن يتحقق قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء: ٩) وقوله سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩) ونحو ذلك من الآيات[١] دون تضمن القرآن لكل أسباب ودواعي وبراهين الإيمان، ومن ذلك الإيمان بالله وحده، «وإذا كان الله تعالى قد بيّن في كتابه كثيراً من دقائق الأحكام والحلال والحرام... فكيف يقصر كتابه عن بيان ما هو أهم من ذلك كله ألا وهو أدلة توحيد الله سبحانه وتعالى، التي بها يكون تأسيس اليقين في القلوب، وتثبيت الإيمان في النفوس»[٢]، ومن المعلوم أن الشيء كلما كان الناس إلى معرفته أحوج، فإن الله ـ تعالى ـ يوسع عليهم دلائل معرفته بقدر ما يسد هذه الحاجة ويزيد[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ (الأنبياء: ٢٤) دلالة واضحة على أن الذكر الذي جاء به رسول الله ﷺ من عند ربه (القرآن) يحمل من البراهين والبينات ما يدفع العقلاء المنصفين لإعلان شهادة التوحيد، ولا يُتصوَّر أبداً ولا يُعقل أن يأمر الله رسوله ﷺ بالبلاغ المبين كما في قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (المائدة: ٦٧)

---

(١) كما في سورة البقرة آية: ١٥٩، و١٨٥، والنحل: ٦٤، والفرقان: ٣٣، وغيرها كثير.

(٢) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، تأليف: سعود بن عبد العزيز بن محمد العريفي ص ٥٩ بتصرف واختصار.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر: درء تعارض العقل والنقل، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ)، تحقيق: د/ محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، د.ت، الرياض ـ السعودية ١/ ١٢٩.

وقوله: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النور: ٥٤) دون أن يشتمل الوحي الذي أُنزل إليه من ربه على الأدلة الكافية، الوافية، الشافية، القطعية، اليقينية، المغنية عما سواها، و«التي من شأنها أن تُزيل عن الفِطر حُجب الشبهات، وتَنفي عن القلوب خبث الشهوات، وتستنقذ العقول من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد»[1].

ومن هنا فلا عجب أن ينكر الله على كل من طلب آيات تدل على صدق رسول الله ﷺ بعد نزول هذا الكتاب المعجز الخالد، قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ (العنكبوت: ٥٠، ٥١) قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ «.. وذلك طلبهم أن يأتي النبي ﷺ بآيات مرئية خارقة للعادة تدل على أن الله خلقها تصديقاً للرسول ﷺ كما خلق ناقة صالح وعصا موسى، وهذا من جلافتهم ألا يتأثروا إلا للأمور المشاهدة.. والمعنى أنه لا يُسَلَّم أن التبليغ يحتاج إلى الإتيان بالخوارق على حسب رغبة الناس واقتراحهم حتى يكونوا معذورين في عدم تصديق الرسول إذا لم يأتهم بآية حسب اقتراحهم.. ـ ثم قال رحمه الله ـ والاستفهام تعجبي إنكاري، والمعنى: وهل لا يكفيهم من الآيات آيات القرآن؟ فإن كل مقدار من مقادير إعجازه آية على صدق الرسول ﷺ، فإن آيات القرآن زهاء ستة آلاف آية، ومقدار كل ثلاث آيات مقدار معجز،

---

(١) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، لسعود بن عبد العزيز العريفي ص٦، بتصرف وزيادة.

فيحصل من القرآن مقدار ألفي معجزة، وذلك لم يحصل لأحد من رسل الله»[١]

فإذا لم يكف القرآن دليلاً وحجة لإعلان الإيمان ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الجاثية: ٦).

ورغم كفاية القرآن للدلالة على توحيد الرحمن إلا أن الحق سبحانه وتعالى بيَّن في محكم كتابه تجدد واستمرار دلائله التوحيدية ليجمع لكل معاند بين الدلالة البرهانية القرآنية والدلالة البرهانية العيانية فقال سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣).

ولم يكتف القرآن بحشد دلائل التوحيد القرآنية وتكرارها في أكثر من موضع بصورة واضحة بينة، والتأكيد على استمرار وتجدد آيات الله في الآفاق والأنفس، وكفاية ذلك كله لتحقيق الإيمان بالله وحده، بل دعى في كثير منها إلى إعمال العقل فيها ـ سواء ما يتعلق بالنفس الإنسانية وبداية خلقها، أو الأرض وما عليها، أو السماء وما فيها، أو القرآن ومعجزاته والتشريع وحِكَمه.

ويتضح هذا من كثير من الآيات، كما في قوله تعالى في شأن خلق الإنسان: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١) وفيما يتعلق بالكون قال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس: ١٠١) وفيما يتعلق بالأمم الماضية قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧).

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٠/ ١٨٧-١٨٨ بتصرف وزيادة.

وفيما يتعلق بالقرآن قال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) وغير ذلك من الآيات التي تدعو الإنسان للتأمل والنظر[١] والتبصر[٢] والتدبر[٣] والتذكر[٤] والاعتبار[٥] والتفكر[٦] والتفقه[٧] في آيات الله الكونية والقرآنية، وتحذره وتنهاه عن الغفلة[٨] والجهل[٩] والضلال[١٠] ولا شك أن أهم موضوع على الإطلاق يستحق إعمال

---

(١) وقد وردت مع مشتقاتها في أكثر من سبعين موضعاً من القرآن الكريم، انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد ص٧٩٩-٨٠٠.

(٢) وقد وردت مع مشتقاتها في أكثر من مائة وأربعين موضعاً من القرآن، انظر: المرجع السابق ص١٤٨-١٥٠.

(٣) وقد وردت في أربع آيات فقط كلها خاصة بالقرآن الكريم، في سورة النساء: ٨٢، ومحمد: ٢٤، والمؤمنون: ٦٨، وص: ٢٩.

(٤) وقد وردت في أكثر من أربعين موضعاً من القرآن، انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٣٣٤-٣٣٥.

(٥) وقد ورد هذا في أكثر من ست آيات صراحة وأكثر من خمس آيات ضمناً، انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، لمجموعة من المختصين بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد وعبد الرحمن بن محمد ملوح، دار الوسيلة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، جدة ـ السعودية ٢/ ٣٨٢-٣٨٣.

(٦) وقد وردت في أكثر من خمسة عشر موضعاً من القرآن، انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٦٣٥-٦٣٦.

(٧) وقد ورد هذا في أكثر من خمسة عشر موضعاً من القرآن، انظر: المرجع السابق، ص ٦٣٥.

(٨) ورد ذلك في موضعين في القرآن، في سورة الأعراف: ٢٠٥، والكهف: ٢٨.

(٩) وقد ورد لفظ الجهل ومشتقاته في القرُآن في أكثر من عشرين موضعاً، انظر: المرجع السابق ص٢٢٥-٢٢٦.

(١٠) وقد ورد لفظ الضلال ومشتقاته في القرآن في أكثر من مائة وخمسين موضعاً، انظر: المرجع السابق ص٥١٨-٥٢١.

العقل فيه هو دلائل التوحيد القرآنية، فكلما وظَّف الإنسان عقله في تأملها من خلال دراسة المحسوس لمعرفة الغائب المجرد، والاستدلال بالمخلوق على الخالق، كلما تحقق نضجه وكماله العقلي، وزادت معرفته بالله، وبالتالي زادت خشيته له سبحانه، وصدق الله القائل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر: ٢٨).

فالقرآن في دعوته إلى الإيمان بالله لم يقهر العقل بالخوارق القاهرة التي يخضع لها الفكر خضوع إجبار، قال تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ (الشعراء: ٤) قال سيد قطب: أي: «لأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالاً ولا انصرافاً عن الإيمان..»[1].

والقرآن كذلك «لم يأخذ العقل بأسرار لا حيلة له فيها ولا اختيار، بل خاطبه ووعَّاه وأيقظه وناقشه»[2] كل هذا ليؤكد للإنسان وجود ربِّه، ويعرِّفه بقدرة الله وعظمته وربوبيته وألوهيته، وحقيقة أسمائه وصفاته، وتفرده في ذلك كله، وبيان استحقاقه وحده لكل صور العبادة، قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان: ٦٢): «والشكر عرفان إحسان المحسن، والمراد به هنا العبادة، لأنها شكر لله تعالى..، فتفيد الآية معنى: لينظر في اختلافهما المتفكر، فيعلم أنه لابد في انتقالهما من حال إلى حال من فعل مؤثِّر حكيم، فيستدل بذلك على توحيد الخالق، ويعلم أنه عظيم القدرة فيوقن بأنه لا يستحق غيره الإلهية»[3].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٨٤.

(٢) منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب، دار الشروق، ط٩، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، بيروت - لبنان ١/ ٨٨-٨٩ بتصرف وزيادة.

(٣) التحرير والتنوير ١٩/ ٨٦ بزيادة يسيرة.

وكما شهد أهل العلم من الأمم الماضية على وحدانية الله في ألوهيته[١]، وشهدوا أيضاً بحقيقة الحق القرآني[٢]، فقد شهد أهل العلم من أمة محمد ﷺ ـ ممن لهم نظر واشتغال بالقرآن الكريم ـ على كمال هداية القرآن وتمام أدلته الدالة على وحدانية الله وتوحيده، وقوتها، ومن ذلك ما ذكره القاضي عياض ـ رحمه الله ـ أثناء حديثه عن وجوه إعجاز القرآن حيث قال: «... فجمع فيه من.. التنبيه على طرق الحجج العقليات، والرد على فرق الأمم، ببراهين قوية، وأدلة بيِّنة، سهلة الألفاظ، موجزة المقاصد حججاً، رام المتحذلقون[٣] بعدُ أن ينصبوا أدلة مثلها، فلم يقدروا عليها.. وجَمَع بين الدليل ومدلوله، واحتج بنظم القرآن وحُسن رصفه وإيجازه وبلاغته..»[٤].

وقال الزرقاني ـ رحمه الله ـ : «جاء القرآن بالعقيدة في الله بيضاء نقية، نزَّهه فيها عن جميع النقائص.. وكل ما يُشعِر بمشابهة الخالق بالمخلوق، ووصَفَ الله بالكمال المطلق، ونصَّ على وحدانيته في ربوبيته ووحدانيته في ألوهيته»[٥].

---

(١) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ (آل عمران: ١٨).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (سبأ: ٦).

(٣) المتحذلقون: هم الحاذقون الذين يدَّعون أكثر مما عندهم، انظر: لسان العرب، لابن منظور ٣/ ٩٦.

(٤) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (٤٧٦-٥٤٤هـ)، قدم له وخرج أحاديثه كمال بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، بيروت ـ لبنان، ١/ ٢١١-٢١٢ بتصرف.

(٥) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٦٧ باختصار.

وبناءً على ما سبق فيمكن القول: إن الله عز وجل قد أقام حجته على خلقه أجمعين بتنزيل القرآن وتقديم كل دليل وبرهان لتحقيق الإيمان، ودعوته كل العقلاء لتعقل أدلة وحدانية الله وتوحيده، وصدق الله القائل:

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

(الزمر: ٢٧).

وإن الله تعالى قد أرسل محمداً ﷺ بهذا الكتاب العظيم، وأمره أن يعلن للناس قائلاً:

﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٩).

ومن هنا كان إيمان السلف الصالح بالقرآن الكريم بما فيه من أدلة وجود الله ووحدانيته إيمان تسليم وقبول، لا فرق عندهم بين توحيد المعرفة والإثبات ولا توحيد الطلب والقصد والإرادة، ولم يثبت أنهم تنازعوا في مسائل الإيمان بالله ووحدانيته بل كلهم متفقون على حجية القرآن، ومن ذلك دلائل التوحيد القرآنية، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ بعد ذكره لتنازع الصحابة في بعض مسائل الأحكام: «ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب.. كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم، لم يسوموها تأويلاً، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً، ولم يبدوا لشيء منها إبطالاً، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم

يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم..»[١].

وقال أيضاً في معرض رده على أهل الكلام القائلين بظنية دلالة نصوص الكتاب في مسائل الاعتقاد: «إن الله سبحانه قد أقام الحجة على خلقه بكتابه ورسوله.. فلو كان كلام الله ورسوله لا يفيد اليقين والعلم، والعقل معارض للنقل فأي حجة قد قامت على المكلفين بالكتاب والرسول، وهل هذا القول إلا مناقض لإقامة حجة الله على خلقه بكتابه من كل وجه، وهذا ظاهر لكل من فهمه ولله الحمد»[٢].

وهذا القرآن الذي أنزله الله حجة على خلقه بجميع سوره وآياته من حيث العموم، وبآيات ودلائل التوحيد من حيث الخصوص، قد تنوع وتفنن في تقديم وعرض أدلة التوحيد القرآنية بصورة حقَّقت الإقناع العقلي بوحدانية الله، فهي شرعية نقلية عقلية في نفس الوقت وعند التأمل في دلائل التوحيد القرآنية نجد أن معظمها إنما جاءت لتحقيق توحيد الألوهية وحتمية البعث والجزاء، أكثر من مجيئها لإثبات وجود الله وربوبيته لاستقرار ذلك في الفِطر والنفوس[٣]، ولأن

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لمحمد بن أبي بكر، الشهير بابن القيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ)، تحقيق وضبط: عبد الرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ١/ ٥١-٥٢ باختصار.

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، للعلامة محمد بن أبي بكر، الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ)، تحقيق: د/ علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، ط٣، ١٤١٢هـ، الرياض ـ السعودية ٢/ ٧٣٥-٧٧٣ باختصار.

(٣) سأشرح ذلك فيما يلي من فقرات قادمة.

ذلك يثبت ضمناً في دلائل توحيد الألوهية والأسماء والصفات، ودلائل البعث والجزاء[١]، كما أن معظم دلائل توحيد الربوبية جاءت متضمنة الدلالة على توحيد العبادة[٢].

وأخيراً أقول جاءت أدلة التوحيد القرآنية لتقيم الحجة على الإنسان بوحدانية الله، وتحقق فيه توحيد العبادة وتوحيد الأسماء والصفات، بإيمان قلبي وقناعة عقلية فيستسلم لربه ظاهراً وباطناً.

---

(١) ويمكن أن يستثني من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥).

وما ورد كذلك في سورة البقرة آية: ٢٥٨ حيث ناظر إبراهيم النمرود لإثبات ربوبية الله.

وما ورد أيضاً في سورة الشعراء: ٢٣-٢٨ حيث ناظر موسى عليه السلام فرعون.

فكل ما سبق ورد في القرآن للاستدلال على ربوبية الله سبحانه وتعالى فقط.

(٢) سأشرح ذلك فيما يلي من فقرات قادمة.

«المطلب الخامس»

«أدلة التوحيد القرآنية نقلية وعقلية»

قسم أهل العلم الأدلة التي يُستدل بها إلى أدلة سمعية نقلية، وأدلة اجتهادية عقلية، فمن النوع الأول كل ما ورد في الكتاب وصحيح السنة والآثار، ومن النوع الثاني ما اجتهد فيه الفلاسفة وعلماء الكلام ومن نحى نحوهم لإثبات الحقائق، ومن ذلك الاستدلال على وجود الله ووحدانيته، ومع تسليمنا بأن أدلة التوحيد القرآنية هي أدلة شرعية نطق بها الشارع الحكيم، وسمعية نقلية في نفس اللحظة تضمنتها آيات القرآن المنقول إلينا بالتواتر الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢) إلا أن الملاحظ أنه عند تدبر آيات القرآن -وأقصد هنا المتعلقة بالتوحيد- نجد أنها تخاطب عقل الإنسان، وتقدم له من الأدلة التوحيد ما يمكن إدراكه وتمييزه بالعقل، والاستدلال به على ما وراء ذلك، بل الملاحظ أيضاً أن القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى إعمال عقله في دلائل وحدانية الله وتوحيده، ويوجهه لاستغلال ذلك في تحقيق وزيادة الإيمان، ويتضح هذا من خلال التدبر في كثير من الآيات القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١) وغيرها من الآيات[١]، فلولم يكن عقل الإنسان قادراً على إدراك آيات الله في السماوات والأرض والليل والنهار والبحار والأمطار والرياح والسحب وغير ذلك لما اعتبرها سبحانه آيات لقوم يعقلون، ولا دعى أولي الألباب للتفكر فيها والاستدلال بها على توحيد الله «فقضية التوحيد بالذات لا بد فيها من اقتناع وحوار عقلي واستخدام أدلة وبراهين عقلية، كما فعل إبراهيم عليه السلام مع النمرود»[٢] «وتعويد العقل منهج الاستدلال بعد النظر والتأمل منهج علمي دقيق تمثل في كثير من آيات القرآن»[٣].

ومن هنا جاءت معظم دلائل التوحيد القرآنية تخاطب العقل والوجدان، بصورة صالحة للتفكر والتدبر والاستدلال بها على عدة حقائق غيبية عظيمة، ومن ذلك وجود الله وعظمته، ووحدانيته سبحانه وتعالى، قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

«واعلم أن عامة مسائل أصول الدين الكبار: مثل الإقرار بوجود الخالق وبوحدانيته، وعلمه وقدرته، ومشيئته وعظمته،.. وغير ذلك مما يُعلم بالعقل: قد

---

(١) كما في سورة الرعد آية: ٤، السجدة: ٢٧، الواقعة: ٦٣-٦٧ وغيرها كثير.

(٢) تربية الناشئ المسلم، للدكتور علي عبد الحليم محمود، ص٢٦٩ بزيادة يسيرة.

والآيات المتعلقة بذلك هي رقم ٢٥٨ في سورة البقرة وسآتي لشرحها فيما يلي من فقرات في ص ٧٤٤.

(٣) المرجع السابق ص٢٦١، بتصرف وزيادة يسيرة.

دل الشارع على أدلته العقلية.. بل قد تَدَبَّرْتُ عامة ما يذكره المتفلسفة والمتكلمة والدلائل العقلية فوجدت دلائل الكتاب.. تأتي بخلاصته الصافية عن الكدر، وتأتي بأشياء لم يهتدوا إليها..»[١] وقال شارح العقيدة الطحاوية: «وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية، وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذُكر في القرآن من الطرق العقلية بأفصح عبارة وأوجزها، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣٣)..»[٢]، وبناء على ما سبق يمكن القول إجمالاً: إن أدلة التوحيد القرآنية إنما جاءت متوافقة مع العقل في دلالتها على وجود الله وربوبيته وألوهيته، وكماله في أسمائه وصفاته، ووحدانيته في ذلك كله[٣].

واتسمت هذه الأدلة بإيماءات نفسية بالغة التأثير لمن يخشى، بليغة التعبير لمن يعقل، وهذا ما أقوم بدراسته وتحليله في المطلب السادس والأخير من هذا المبحث.

---

(١) الفتاوى، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ١٩/ ٢٣٠-٢٣٣ باختصار.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص١١٢. وسأشرح الفرق بين منهج القرآن ومناهج الفلاسفة والمتكلمين في الاستدلال على الخالق فيما يلي من فقرات قادمة في ص٨٧٧.

(٣) وعند ابن تيمية رحمه الله أن الدليل الصالح للاستدلال لابد فيه من شرطين:
أ ـ أن يكون مما اتفقت العقول على صحته، أي مقبولاً معقولاً عند ذوي العقول السليمة.
ب ـ أن يكون شرعياً أي نص عليه الشارع الحكيم، واستدل به، وأمر الناس بذلك.
انظر: النبوات، لابن تيمية ص٩٢، أو منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل، لجابر إدريس ١/ ٢٠٢.

«المطلب السادس»

«التأثير النفسي للقرآن الكريم وأدلته التوحيدية»

ما من شك أبداً أن القرآن الكريم الذي وصفه الله بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢) لم يكن ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ و﴿ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (طه: ٣)، و﴿ ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٩٠) هكذا دون قوة في الحجة، وسلطان في البرهان، ليبلغ من التأثير في الفطرة الآدمية الحنيفية الصافية والنفس البشرية ما يهدف إليه، فلا يسع سامعه أو قارئه بما فيه من أدلته التوحيدية إلا التسليم أو الإيمان ـ ما لم يكن مكابراً معانداً، أو مجادلاً جحوداً ـ.

فهو الكتاب الوحيد الذي يدخل القلب من غير استئذان، وله «... صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في حال آخر ما يخلص منه إليه»[١]، قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (الحشر: ٢١)، وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣) لقد «بلغ القرآن في تأثيره على النفوس مبلغاً خرق به العادة في كل ما عُرف من كُتُبِ الله والناس، وخرج عن المعهود في سنن الله من التأثير النافع بالكلام وغير الكلام.. إن له من السلطان القاهر على النفوس، والحكم النافذ على العواطف والميول، ما يصد الناس عن نهجهم الأول في عقائدهم التي توارثوها، وعباداتهم التي

---

(١) الإتقان، للسيوطي: ٢/ ١٠١٣.

ألفوها، وأخلاقهم التي نشأوا عليها، وعاداتهم التي امتزجت بدمائهم،وما يحملهم على اعتناق هذا الدين الجديد..»[١].

وحتى يتضح لنا تأثير القرآن الكريم بأدلته التوحيدية على النفوس أُقَسِّم هذا المطلب إلى الفقرات التالية:

أولاً: تأثير القرآن في نفوس أوليائه المؤمنين:

طالما أثّر القرآن في نفوس عباد الرحمن، الذين خشعت قلوبهم، واقشعرّت أبدانهم، وانهمرت دموعهم، عند تلاوة القرآن أو سماعهم لآياته بإنصات وتدبُّر، وحسن إقبال على الله وكلامه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ (الأنفال: ٢) وقوله سبحانه واصفاً بعض أوليائه من الأنبياء وتابعيهم ومن اهتدى بهديهم: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم: ٥٨).

فقد أثّر القرآن على نفس محمد ﷺ حتى أبكاه من خشية الله[٢]، وأثر على كثير من الصحابة والتابعين في زمانهم، ومن ذلك ما ذكره

---

(١) المناهل، للزرقاني ٢/ ٤٣٥ بتصرف وزيادة.

(٢) كما صحَّ عند مسلم في ١/ ٥٥ في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن، برقم ٨٠٠ عن عبد الله ـ أي ابن مسعود ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن»، قال: فقلت يا رسول الله، اقرأ عليك، وعليك أُنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري»، فقرأتُ النساء، حتى إذا بلغتُ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٤١) ـ رفعتُ رأسي، أو غمزني رجل إلى جنبي، فرفعتُ رأسي، فرأيتُ دموعه تسيل. أ.هـ بزيادة يسيرة. وانظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم وأخلاق الرسول الكريم، لمجموعة من العلماء ٣/ ٨٣٧.

ابن الجوزي[1] عن سعد بن زنبور[2] قال: كنا على باب الفُضيل بن عياض[3]، فاستأذنّا عليه فلم يؤذن لنا فقيل لنا: إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن، قال: وكان معنا رجل مؤذّن وكان صَيِّتاً[4]، فقلنا له اقرأ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ... ﴾ (التكاثر: ١-٨)،

---

(١) ابن الجوزي: هو أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، ولد عام ٥٠٨هـ في بغداد، ونسبته بالجوزي إلى (مشرعة الجواز)، قرأ القرآن وجوّده، وأخذ الإجازات فيه.. سمع الكتب الكبار، وكان فقيهاً حافظاً مفسّراً أديباً، له أكثر من ثمانين شيخاً.. بدأ التصنيف وعمره ثلاث عشرة سنة، توفي عام ٥٩٧هـ في بغداد.
انظر: كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، لأبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي (٧٣٦-٧٩٥هـ)، دار المعرفة، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ٣/ ٣٣٩، منها مجلدين للطبقات ومجلدين للذيل.
و: كتاب الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ١٨/ ١٠٩.
و: زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (٥٠٨-٥٩٧هـ)، تقديم زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، بيروت ـ لبنان ١/ ٢١-٢٥.

(٢) سعد بن زنبور (لم أعثر على ترجمته).

(٣) هو الفضيل بن عياض، الإمام، القدوة، الثبت، شيخ الإسلام، أبو علي التميمي، اليربوعي الخراساني، المجاور بحرم الله، ولد بسمرقند سنة ١٠٥هـ ونشأ بأبيورد، وارتحل في طلب العلم، روى عنه سفيان الثوري، ورُوي في سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع تاليا يتلو: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الحديد: ١٦)، فقال: بلى يا رب قد آن فرجع، وهو من أكابر العباد الصالحين، كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق، منهم الإمام الشافعي، توفي في مكة سنة ١٨٧هـ، من كلامه (من عرف الناس استراح).
انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي ٨/ ٤٢١، والجواهر المضية، لمحيي الدين الحنفي ١/ ٤٠٩.

(٤) أي قوي الصوت وشديده.

- فقرأ بها - ورفع صوته، فأشرف علينا الفُضيل، وقد بكى حتى بلّ لحيته بالدموع، ومعه خِرقة يُنَشِّف بها الدموع من عينيه، وأنشأ يقول:

بلَغْتُ الثمانين أو جُـزتُها فماذا أُؤمِّل أو أنتـظـر

أتى لي ثمانون من مولِدي وبعد الثمانينَ ما يُنتظر

عَلَتْنِي السُّنُونُ فأبلينني ....

قال: ثم خَنَقَتْهُ العَبْرة، وكان معنا علي بن خُرشم[١] فأتمَّهُ لنا، فقال:

عَلَتْنِي السُّنُونُ فأبلينني فَرَقَّت عظامي وكَلَّ البصر[٢].

وهكذا أثّر القرآن في نفوس أوليائه المؤمنين، ولا زال يؤثر، رغم تغيّر كثير من أساليب الحياة الاجتماعية وصورها في البلدان الإسلامية، وعند المسلمين بشكل عام، ورغم ضعف اللسان العربي عند أهله، واختلاف أنماط معيشة المجتمع المسلم عمّا كان عليه سلفنا الصالح، ورغم تقادم عهد نزول القرآن، إلا أنّ تأثيره في نفوس المؤمنين لا يزال، وبقوة، ويظهر ذلك جلياً في صلاة القيام في شهر رمضان لدى ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٢).

ويظهر تأثير القرآن في نفوس أهله من خلال تنافسهم في حفظه وقراءته في الصلاة وغيرها، «حتى طاب لهم أن يهجروا لذيذ منامهم من أجل تهجُّدهم به في الأسحار»[٣].

ومن أظهر الدلائل على تأثير القرآن النفسي في نفوس المؤمنين ما ترجمه سيد قطب في صياغته الأدبية البليغة في تفسيره (في ظلال القرآن) بما يوحي بشدة تأثره

---

(١) علي بن خرشم (لم أعثر على ترجمته).

(٢) صفة الصفوة، للإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ٢/ ٢٣٧-٢٤٧.

(٣) مناهل العرفان، للزرقاني ٢/ ٤٣٩.

بنصوص القرآن الروحية، وما كتبه عن الذين سمعوا ما أنزل على الرسول ﷺ[1] في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ... ﴾ (المائدة: ٨٣) حيث قال: «فهذا مشهد حي يرتسم من التصوير القرآني لهذه الفئة من الناس،.. إنهم إذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزّت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع، تعبيراً عن التأثُّر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه، والذي لا يجدون له في أول الأمر كَفَاءً من التعبير إلا الدمع الغزير، وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع ليؤدي مالا يؤديه القول، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف..»[2].

كما يظهر تأثير القرآن في نفوس أوليائه من خلال إخراجه أمة وصفها الله بأنها: ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) وإحالته لها من رعاة للغنم إلى قادة للشعوب والأمم.

لقد جعل القرآن الكريم من أهله الذين صدقوا في الإيمان والعمل به «أروع إنسانية، وأقوى شخصيات عَرَفتها الحياة»[3] وأنجزت للبشرية أعظم حضارة شهد بفضلها الأعداء قبل الأصدقاء.

---

(١) وهم النصارى، ولكني آثرت ذكر قوله هذا في فقرة تأثير القرآن على المؤمنين من غير أهل الكتاب لتناسب ذلك بشكل أكبر على أولياء القرآن.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٦٢. وانظر ما سجله سيد قطب عن حالته النفسية عند سماعه لقارئ يقرأ سورة النجم في كتابه (في ظلال القرآن) ٦/ ٣٤٢٠-٣٤٢١.

(٣) القرآن وعلم النفس (الشخصية المسلمة حسب المنهاج القرآني)، د/ عبد العلي الجسماني، الدار العربية للعلوم، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، بيروت ـ لبنان ٧/ ٤٨.

ثانياً: تأثير القرآن في نفوس أعدائه الكافرين:

شهدت كُتُب السِّيَر والحديث وغيرها أن القرآن الكريم قد بلغ من التأثير على نفوس الأعداء والجذب لها في زمن النبي ﷺ - رغم كفرهم وعدم إيمانهم به - مبلغاً جعل بعض سادات قريش كأبي جهل وأبي سفيان[١] والأخنس بن شريق[٢] يتسابقون سرّاً منفردين لسماع تلاوة رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته[٣].

---

(١) **أبي سفيان هو**: صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي، يكنى أبا حنظلة، وهو والد معاوية، وابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ، كان رأساً للمشركين يوم أحد والأحزاب، ثم أسلم عام الفتح، وكان من المؤلفة قلوبهم، مات في آخر خلافة عثمان وهو ابن ثمانٍ وثمانين سنة، في المدينة المنورة، كان موته سنة إحدى وثلاثين هجرية، وقيل غير ذلك.
انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٣/ ٢٣٧. و: أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري، المعروف بابن الأثير. (ت:٦٣٠هـ)، تصحيح الشيخ عادل الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، بيروت ـ لبنان ٦/ ١٥٧ ترجمة رقم ٥٩٦١. و: سير أعلام النبلاء، للذهبي ٢/ ١٠٥.

(٢) **الأخنس بن شريق**: هو أُبي بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، يكنى أبا ثعلبة، كان حليفاً لبني زهرة ومقدّماً فيهم، لُقّب بالأخنس لأنه رجع ببني زهرة من بدر لمّا جاءهم الخبر أن أبا سفيان نجا بالعير، فقيل: خنس الأخنس ببني زهرة، ثم أسلم الأخنس فكان من المؤلفة قلوبهم، وشهد حنيناً، وفي الإصابة (وقال ابن عطية ما ثبت قط أن الأخنس أسلم..) لكن ابن حجر رد ذلك مؤكداً أن بعضهم أثبته في الصحابة. وقال: لا مانع أن يسلم ثم يرتد ثم يرجع إلى الإسلام، ومات في أول خلافة عمر رضي الله عنه. انظر: أسد الغابة، لابن الأثير ١/ ٧٦. و: الإصابة، لابن حجر وبذيله كتاب الاستيعاب، لابن عبد البر ١/ ٣٧.

(٣) كما ثبت في السيرة النبوية، لابن هشام، أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت٢١٣ أو٢١٨هـ)، تقديم وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، ط(بدون)، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، القاهرة ـ مصر، ١/ ٢٧٥.

بل بلغ تأثير القرآن على نفوس الكفار درجةً جعلَتْ زعماء قريش في الفصاحة والبلاغة وأعلمهم بالشعر يشهدون بحلاوة القرآن وعُلُوِّه وقوَّة تأثيره[١]، بل أقسم بعضهم أنه لا طاقة لهم بالوقوف أمام سحره ـ سحر البيان لا سحر البنان ـ كما في قول عتبة بن ربيعة ـ بعد سماعه أول سورة فُصِّلت[٢] من النبي ﷺ مخاطباً قريش: «.. خَلُّوا بين رسول الله وبين ما هو فيه، فاعتزِلوه، فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعْتُ نبأ، فقالوا لقد سحرك محمد»[٣].

والحق ما شهدت به الأعداء[٤]، فإن القرآن الذي يتلوه محمد ﷺ وحملَتُهُ من بعده «قد سحر العرب منذ اللحظة الأولى التي نزل فيها سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام ومن جعل على بصره غشاوة»[٥].

(١) كما في قصة الوليد بن المغيرة حيث قال عن القرآن (والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه ... إلخ). انظر: مستدرك الحاكم ٢/ ٥٠٧ كتاب التفسير، باب تفسير سورة المدثر، و: شعب الإيمان، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤-٤٥٨هـ)، تحقيق أبي هاجر محمد السيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، بيروت ـ لبنان ١/ ١٥٨، باب الإيمان برسل الله.

(٢) من الآية ١-١٣.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام ١/ ٢٦٢. و: الشفاء، للقاضي عياض ١/ ٢٠٩.

(٤) وفي الشفاء للقاضي عياض ١/ ١٩٩ أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤)، فسجد، ولما سئل، قال: سجدت لفصاحته، وفيه أيضاً ١/ ١٩٩، أن رجلاً سمع أحد المسلمين يقرأ ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ (يوسف: ٨٠)، فقال: أشهد إن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

(٥) علم الإعجاز القرآني بين الفن والتاريخ، د/ خليل رجب حمدان الكبيسي، مركز عبادي للدراسات والنشر، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، صنعاء ـ اليمن، ص٢٣٦.

إن تأثير القرآن الكريم بأدلته التوحيدية على نفوس الكفار جعل بعضهم يُعلن الإيمان بالله وحده لمجرد سماعه شيئاً من آيات القرآن، فقد صحَّ أن «جُبير بن مُطعم[1] ﷺ قدم إلى المدينة قبل إسلامه في فِداء أُسارى بدر، فسمع النبي ﷺ يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥-٣٧) إلى قوله سبحانه: ﴿ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ قال جُبير: كاد قلبي أن يطير[2]، وفي رواية أنه قال: «فكأنما صدع قلبي حين سمعت القرآن»[3]، وفي رواية أنه قال: «وذلك أوَّل ما وقر الإيمان في قلبي»[4] وغير ذلك من الروايات[5].

---

(١) جبير بن مطعم بن عدي، شيخ قريش في زمانه، أبو محمد، ويقال أبو علي القرشي النوفلي، ابن عم النبي ﷺ، من الطلقاء الذين حسن إسلامهم، وقد قدم المدينة في فداء الأسارى من قومه، وكان موصوفاً بالحِلم ونبل الرأي كأبيه، وأبوه (مطعم بن عدي) هو الذي أجار النبي ﷺ، حين رجع من الطائف حتى طاف بعمرة، وكان جبير شريفاً مطاعاً، له رواية أحاديث، وروى عنه ولداه الفقيهان محمد ونافع وآخرون، توفي سنة ٥٩هـ وقيل غير ذلك. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين ابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري ١/ ٣٩٧. و: سير أعلام النبلاء، للذهبي ٣/ ٩٥-٩٩.

(٢) الشفاء، للقاضي عياض ١/ ٢٠٩.

(٣) شرح معاني الآثار، للإمام أبي جعفر محمد بن أحمد بن سلامة الطحاوي الحنفي (٢٢٩-٣٢١هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، بيروت ـ لبنان ١/ ٢١١-٢١٢. وانظر: المعجم الكبير، للطبراني ٢/ ١١٦.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ١٤٧٥، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، برقم ٣٧٩٨ عن محمد بن جبير عن أبيه.

(٥) كما ورد في البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ١٠٦.
أن جبير بن مطعم لما سمع قراءة النبي ﷺ للطور حتى انتهى إلى قوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ (الطور: ٧) قال: خشيت أن يدركني العذاب، وفي لفظ: كاد قلبي يطير فأسلم.

وكما آمن جبير بن مطعم لمجرد سماعه بعض آيات تُتلى اشتملت على بعض أدلة وحدانية الله كدليل الخلْق والعناية بالإنسان والكون(١)، فقد آمن أيضاً عمر بن الخطاب(٢) رضي الله عنه بعد سماعه لأخته التي كانت تتلو سورة (طه) مع أنه إنما كان ذاهباً لقتل رسول الله ﷺ(٣).

---

(١) سأشرح تفصيل ذلك فيما يلي من فقرات قادمة في ص٦٠٨ وما بعدها.

(٢) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي، أبو حفص ...، ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة.. وكان من أشراف قريش، أسلم بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة، وقيل بعد تسعة وثلاثين رجلاً وعشرين امرأة، ..

وكان النبي ﷺ قد دعا له قائلاً: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام»، يعني أبا جهل، وكان إسلام عمر في السنة السادسة، وقد سماه النبي ﷺ، الفاروق، وكانت هجرته إلى المدينة جهاراً..

شهد بدراً وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ، وهو الذي أشار بقتل أسارى المشركين في بدر، وكان فقيهاً في دين الله قائماً بحدوده، ذا هيبةٍ في صدور الرجال، كثير الزهد والتواضع، له فضائل عديدة، تولى الخلافة بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنهما جميعاً، طُعن سنة ٢٣هـ صباح يوم الأحد لأربع ليال بقين من ذي الحجة، ومكث ثلاثاً وتوفي، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال.

انظر: أسد الغابة، لابن الأثير ٤/ ١٥٦-١٩٢ ترجمة رقم ٣٨٢٤.

و: البداية والنهاية، لابن كثير ٧/ ١٣٧ وما بعدها.

و: تاريخ الخلفاء لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ)، تحقيق الشيخين قاسم الشماعي ومحمد العثماني، دار القلم، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت - لبنان ص١٢٧-١٧٤.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٤ (إسلام عمر بن الخطاب).

وآمن أيضاً أُسيد بن حُضير[١] وسعد بن معاذ[٢] في المدينة المنوَّرة لمجرد إصغائهما لتلاوة مصعب بن عُمير[٣] رضي الله عنهم جميعاً، وآمن غيرهم كذلك من كفار

---

(١) هو: أسيد بن حضير (الحضير) بن سماك بن عقيل بن امرئ القيس، الأنصاري، الأشبلي، يكنى أبا يحيى وأبا عتيك، من السابقين للإسلام، كان إسلامه على يد مصعب بن عمير وقيل: سعد بن معاذ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة، وكان ممن ثبت يوم أحد، وجُرح يومئذ سبع جراحات، له أحاديث في الصحيحين وغيرهما، وكان من أحسن الناس صوتاً بقراءة القرآن، توفي سنة ٢٠هـ وقيل ٢١هـ. انظر: الإصابة، لابن حجر ١/ ٧٥. و: سير أعلام النبلاء، للذهبي ١/ ٣٤٠ وما بعدها.

(٢) هو: سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، السيد الكبير الشهيد، أبو عمرو الأنصاري الأوسي، البدري، الذي اهتز العرش لموته، سيد الأوس، أسلم على يد مصعب بن عمير، شهد أحداً فكان ممن ثبت فيها..، استشهد في السنة الخامسة للهجرة بسهم أصابه بالخندق، وعمره سبع وثلاثون سنة، ودفن بالبقيع، مناقبه كثيرة. انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد ٣/ ٢ القسم الثاني. و: سير أعلام النبلاء، للذهبي ١/ ٢٧٩ وما بعدها.

(٣) هو: مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، القرشي، العبدري، أحد السابقين إلى الإسلام، يكنى أبا عبد الله، كان في الجاهلية فتى مكة شباباً وجمالاً ونعمة، ولما ظهر الإسلام زهد عن النعيم، وكان يلقب (مصعب الخير)، أسلم في مكة، وكتم إسلامه، فعلم به أهله فأوثقوه، وحبسوه، فهرب مع من هاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى مكة، وهاجر إلى المدينة، فكان أول من جمع الجمعة فيها، وعُرف فيها بالمقرئ، وأسلم على يديه أُسيد بن حُضير، وسعد بن معاذ، وغيرهما من الأنصار، شهد بدراً، وحمل اللواء يوم أحد، واستشهد حينها سنة ٣هـ. ينطبق عليه وعلى أصحابه الذين استشهدوا في أحد قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب: ٢٣). انظر: الإصابة، لابن حجر ٣/ ٤٢١. و: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت٤٣٠هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٩٨م، بيروت ـ لبنان ١/ ١٠٦. و: صفة الصفوة لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (٥١٠-٥٩٧هـ)، تحقيق محمود فاخوري، تخريج د/ محمد رواس قلعجي، دار المعرفة، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، بيروت ـ لبنان، ١/ ١٥٢.

عصرهم[١] وعصرنا[٢] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء: ٩).

وهكذا فكم «من عدوّ للرسول ﷺ من رجال العرب وفُتّاكها أرادوا اغتياله وقتله، وسَعَوا للقضاء على حملة القرآن من أصحابه ﷺ فلما وصلوا إليه وإليهم، وسمعوا آيات الله تُتلى، لم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم موقع إرشاد وهداية أن يتحوَّلوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دين الله، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً»[٣].

هذا التأثير لكلام الله على نفوس سامعيه وقارئيه هو الذي جعل الكفّار في عهد النبوّة يخافون على عامتهم من التأثر به إلى درجة التواصي فيما بينهم على اللغو والتشويش على القرآن حتى لا يسمعه أحد فيتأثر به فيؤمن بآياته، وسجّل الله ذلك، قائلاً سبحانه:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾

(فصلت: ٢٦).

---

(١) ومنهم النفر الذين قرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن عندما جاءوا للموسم (وهم من الأنصار)، فلما سمعوا القرآن آمنوا بالنبي ﷺ، وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها حتى ما بقي بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن.

انظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٥٤.

(٢) انظر: المعجزة المتجددة، لليافعي.

(٣) بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، لمحمد بن محمد بن إبراهيم البستي الخطابي (٣١٩-٣٨٨هـ)، تحقيق محمد خلف الله، ود/ محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط٤، د.ت، القاهرة ـ مصر ص٧٠.

قال مجاهد[1]: «أي الغوا فيه بالمكاء[2] والتصدية[3].. والتخليط في الكلام حتى يصير لغواً، وقال الشوكاني: عارضوه باللغو والباطل، أو ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارئ له»[4].

ولم يكتف الكفار بالتشويش على القرآن بل سارعوا إلى تحذير كل واصل إلى مكة من سماع القرآن كما حصل مع الطفيل بن عمرو الدوسي[5] الذي وضع

---

(١) مجاهد هو: الإمام مجاهد بن جبر، أبو الحجاج، المكي، شيخ القراء والمفسّرين، تابعي مفسّر، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، وقيل غيره، ولد عام ٢١هـ أشهر تلامذة ابن عباس، أخذ عنه القرآن والتفسير والفقه، يقول مجاهد: «عرضْتُ القرآن على ابن عباس، أَقِفُهُ عند كل آية أسأله فيم نزلت، وكيف كانت». قال عنه قتادة: «أعلم من بقي بالتفسير مجاهد» استقر في الكوفة، توفي عام ١٠٣هـ وقيل غير ذلك، وقد بلغ ثلاثاً وثمانين سنة، يقال أنه مات وهو ساجد. انظر: طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٦. و: سير أعلام النبلاء، للذهبي ٤/ ٤٤٩.

(٢) المكاء هو: الصفير، تنبيهاً أن ذلك جار منهم مجرى مكاء الطير، والمكاء: طائر يصدر منه صفيرٌ.. انظر: المفردات للراغب ص٤٧١ بتصرف يسير.

(٣) التصدية هي: كل صوت يجري مجرى الصَّدى.. والمقصود هنا الغناء. انظر: المفردات للراغب الأصفهاني ص٢٧٩.

(٤) فتح القدير ٤/ ٦٧٣ بتصرف واختصار.

(٥) هو: الطفيل بن عمرو الدوسي الأزدي، صحابي، من الأشراف في الجاهلية والإسلام، كان شاعراً، غنياً، كثير الضيافة، مطاعاً في قومه، أسلم في مكة، ورجع لقومه فدعاهم للإسلام، فأبوا، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن دوساً قد عصت فادع الله عليهم، فقال: «اللهم اهد دوساً وائت بهم» أخرجه مسلم في ٤/ ١٩٥٧، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عقار وأسلم... ودوس...، برقم ١٩٧، عن أبي هريرة رضي الله عنه .شهد فتح مكة، واستشهد في اليمامة سنة ١١هـ. انظر: الإصابة، لابن حجر ٢/ ٢٢٥. و: تلبيس إبليس، للحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي المتوفى سنة (٥٩٧)هـ دار الكتب العلمية، ط٤، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، بيروت ـ لبنان، ص٦٩ ، وفيه (كان لصنم دوس يقال له ذو الكفين، فلما أسلموا بعث رسول الله ﷺ الطفيل فحرّقه).

كرسفاً[١] على أذنيه ـ متأثراً بتحذيرهم ـ خشية سماعه شيئاً من القرآن مِنْ فِيِّ رسول الله ﷺ ويأبى الله إلا أن يسمعه فيُسلم رضي الله عنه[٢].

وهذا كله يدل «على الذعر الذي كان يضطرب في نفوسهم، من تأثير هذا القرآن فيهم وفي أتباعهم وهم يرون هؤلاء الأتباع يُسحرون بين عشية وضحاها ـ بسحر البيان ـ من تأثير الآية والآيتين، والسورة والسورتين، يتلوهما محمد ﷺ أو أحد أتباعه، فتنقاد إليهم النفوس، وتهوي إليهم الأفئدة»[٣] إن القرآن الكريم يملك من التأثير النفسي ويحوي من دلائل التوحيد ودوافعه وجواذبه ما جعل بعض النصارى المعاصرين الأدباء والشعراء يعلنون الإيمان بالله، بل ويَنْظُمُون القصائد الشعرية لبيان إعجاز القرآن وعظمته حتى قال أحدهم بعد إيمانه:

يقولون: ما آياته؟ ضل سعيُهم — وآياته ـ ليست تُعَدُّ ـ عظامُ
كفى معجز الفرقانِ للناس آيةً — عَلاَ وسما كالنجم ليس يُرام

لقد علّل هذا إيمانه قائلاً: «قرأتُ القرآن فأذهلني، وتعمّقتُ فيه فَفَتَنَنِي، ثم أعدتُ القراءة فآمنتُ،.. آمنت بالقرآن الإلهي العظيم،.. فهو أصدق شاهد، وأبلغ حجة، وأدمغ برهان..»[٤].

---

(١) الكرسف هو: القطن، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٤/ ١٦٣.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢-٢٣.

(٣) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٥، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، القاهرة ـ مصر ص١٤.

(٤) معجزات الرسول وبيّناته، للزنداني ٢٠٢.

ثالثاً: تأثير القرآن في نفوس أهل الكتاب:

لم يقتصر تأثير القرآن على نفوس أهل الجاهلية من كفار قريش وأمثالهم فقط، ولم يقتصر أيضاً تأثيره على المؤمنين به، بل امتد تأثير القرآن نفسياً إلى الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب وخاصة النصارى، وسجّل الله تعالى ذلك قائلاً عنهم: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (المائدة: ٨٣) وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (الإسراء: ١٠٧-١٠٩).

ذكر الواحدي[1] في:

---

(١) الواحدي هو: الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، النيسابوري، الشافعي، من أبناء التجار، مولده بنيسابور، والواحدي نسبة إلى الواحد بن الديل بن مهرة، مفسر، عالم بالأدب، لزم أستاذه أبا إسحاق الثعلبي المفسر وأكثر عنه، أخذ علم العربية عن أبي الحسن القهندزي الضرير، وسمع من مشايخ آخرين وقرأ عليهم الحديث، حدّث عنه عبد الجبار بن محمد الخواري وعمر بن عبد الله الأرغياني، وغيرهما، كان طويل الباع في العربية واللغات، تصدّر للتدريس مدة وعظُم شأنه، وله شعر رائق، وكان أستاذ عصره، وأدرك الإسناد العالي، سار الناس إلى علمه وأدركوا من فوائده، قال فيه أبو سعد السمعاني: «كان الواحدي حقيقاً بكل احترام وإعظام، لكن كان فيه بسط اللسان في الأئمة المتقدمين» مرض ومات في نيسابور سنة ٤٦٨هـ. له عدة مصنفات منها: (أسباب النزول) و(التحبير في شرح الأسماء الحسنى) و(البسيط) و(الوسيط) و(الوجيز) في التفسير، وغير ذلك من المصنفات. انظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي ٢/ ٢٢٣-٢٢٥. و: العِبَر في خبر من غبر، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ)، تحقيق وضبط أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، بيروت ـ لبنان ٢/ ٣٢٤. و: طبقات المفسرين لأحمد بن محمد الأدنه وي (من علماء القرن الحادي عشر)، تحقيق سليمان بن الخزي، مكتبة العلوم والحكم، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، المدينة المنورة ـ السعودية ص١٢٧-١٢٨.

«أسباب النزول»[(١)] عن الآية الأولى أنها: «نزلت في النجاشي[(٢)] وأصحابه حين قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب[(٣)] سورة مريم ففاضت أعينهم من الدمع[(٤)].

---

(١) أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت: ٤٦٨هـ)، دار ومكتبة الهلال، ط(بدون)، ١٩٩١م، بيروت ـ لبنان ص١٣٩-١٤١.

(٢) **النجاشي هو**: أصحمة، وقيل أصحم بن بُجرى، ملك الحبشة (ومعنى أصحمة بالعربية عطية)، كان ممن حسن إسلامهم، ولم يهاجر، وليست له رؤية للنبي ﷺ، أمَّن المهاجرين إليه من الصحابة على دينهم وأرواحهم، وعدل فيهم، وردّ وفد مكة الذين قدموا لاستردادهم خائبين، وبكى عند سماعه القرآن من جعفر بن أبي طالب، توفي في حياة النبي ﷺ فصلى عليه بالناس صلاة الغائب، كانت وفاته في شهر رجب سنة ٩هـ. انظر: أسد الغابة، لابن الأثير ١/ ١١٩. و: سير أعلام النبلاء، للذهبي ١/ ٤٢٨ وما بعدها.

(٣) هو: جعفر بن أبي طالب بن عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم النبي ﷺ، صحابي، من شجعانهم، يقال له: جعفر الطيار، وهو أحد السابقين للإسلام، أخو علي بن أبي طالب (شقيقه) وهو أسن منه بعشر سنين، هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية، فلم يزل هناك إلى أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، فقدم عليه جعفر وهو بخيبر سنة ٧هـ، كان أشبه الناس برسول الله ﷺ خَلقاً وخُلُقاً، روى شيئاً يسيراً، وروى عنه ابن مسعود وعمرو بن العاص وغيرهما، حضر وقعة مؤتة بالبلقاء (من أرض الشام) فنزل عن فرسه وقاتل، ثم حمل الراية، وتقدم صفوف المسلمين، فقطعت يمناه، فحمل الراية باليسرى، فقطعت أيضاً، فاحتضن الراية إلى صدره وصبر حتى وقع شهيداً سنة ٨هـ، وفي جسمه نحو ٩٠ طعنة ورمية، وحزن رسول الله لوفاته كثيراً، روي أن الله عوضه عن يديه جناحين في الجنة. انظر: الإصابة، لابن حجر ١/ ٢٣٧. و: سير أعلام النبلاء، للذهبي ١/ ٢٠٦/ ٢١٧.

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٥/ ٦-٧. وابن أبي حاتم في تفسيره ٤/ ١١٨٤ برقم ٦٦٨٤، ٦٦٧٧، ٦٦٧٨، ٦٦٧٩، ٦٦٨٠. وذكره نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٤١٩ وقال: (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عثمان بن بحر وهو ثقة). وقال الشيخ مقبل في الصحيح المسند من أسباب النزول ص٩٩: (الحديث رجاله رجال الصحيح إلا محمد بن إدريس والد ابن أبي حاتم وهو حافظ كبير..) انظر: تفسير القرآن =

وفي رواية أخرى أنها نزلت في ثلاثين أو سبعين رجلاً من أصحاب النجاشي بعثهم إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يس فبكوا[١] جميعاً تأثراً بالقرآن العظيم.

وأيّاً كان الذي بكى فالشاهد من ذلك كله أن للقرآن الكريم تأثيراً بالغاً في نفوس الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لدرجة جعلتهم يبكون من خشية الله ولذيذ خطابه[٢].

ولم يقتصر تأثير القرآن النفسي على أهل الكتاب السابقين، بل حتى المعاصرين منهم تأثروا به نفسياً عندما قرؤوا بعض آياته ـ وشهدوا بذلك ـ إلى درجة دفعت بعضهم لإعلان إسلامه، فقد نشرت مجلة الفرقان الأردنية[٣] قصة امرأة أمريكية تُدعى شارون، حيث تحدَّثت هذه الفتاة أنها عاشت حياتها مع أهلها في الكنيسة بين الأناجيل والقساوسة، وأنها كانت فتاة مشاكسة متمردة على الجميع، وقد طلبت من الله أن يرزقها رجلاً مسيحياً متديناً تتزوَّجه، فساق الله لها رجلاً فلسطينياً مسلماً، قادها في النهاية إلى الإسلام، بعد أن حاربت إسلامه

= العظيم، للحافظ عبد الرحمن بن محمد الرازي ابن أبي حاتم (٢٤٠-٣٢٧هـ)، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، صيدا ـ بيروت. و: الصحيح المسند من أسباب النزول، للشيخ مقبل بن هادي الوادعي (ت١٤٢٢هـ)، مكتبة دار الحرمين، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ـ صنعاء ـ اليمن.

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١١٨٥ حديث رقم ٦٦٧٩ عن سالم عن سعيد.

(٢) وحُكِي عن نصراني أنه سمع قارئاً يقرأ القرآن، فوقف يبكي، فقيل له: لم تبكي؟ فقال: للشجا والنظم.
انظر: الشفاء، للقاضي عياض ١/ ٢٠٨.

(٣) انظر: مجلة الفرقان، العدد السادس، تموز ٢٠٠٠، ربيع ثاني ١٤٢١هـ صفحات ٥٩-٦٠.

وقرآنه لفترة، ولكنها تأثرت بالقرآن بعد ذلك، ودخلت في دين الإسلام، وسجّلت، قصة إسلامها بيدها.

تقول الفتاة شارون الأمريكية «... كان أول رجل طلبني للزواج فلسطينياً، وكان به عيبان، لم أردهما في الرجل الذي سيتزوجني: كان عربياً، وكان مسلماً!.. ولكنه على الرغم من ذلك كان يختلف عن أي رجل قابلتُه في حياتي، فلم يكن يشرب الخمر، وكان مستقيماً...

تزوَّجْنا، لكن زواجنا كان سيئاً للغايةَ! وقلت له بأن لا يناقش دينَهُ معي أبداً ألبتَّه، فلم يفعل ذلك، وجعلتُ حياته بؤساً في البداية...

وفي إحدى الليالي أحضر لي معه القرآن، أعطاه لي قائلاً: هذا هو كتابنا المقدس، وإنني أستطيع أن أقرأ فيه إن أردت!

فرددت عليه قائلة: ضعه هناك، فأنا لا أريد أن أقرأ فيه!

وانتظرته حتى غطَّ في نوم عميق، ثم دعوت الله قائلة: يا إلهي: أرني إن كان هذا القرآن هو الحقيقة أم لا! فإن كان هو الحقيقة فسوف أقبلُه! ولكن أرني ذلك.

وفتحتُ القرآن عشوائياً، وإذا بي أفتح على سورة «العلق» فقرأت قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ (العلق: ١-٥)، شعرتُ بعاطفة من نوع جديد، تسري في عروقي، ثم فتحتُ القرآن عشوائياً على صفحة أخرى، فإذا بي أقرأ قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (سبأ: ٦)،

فجأة وللمرة الأولى في حياتي كنت مدركة تماماً أني أحمل بين يدي كتاباً في غاية القداسة أو شعرتُ برهبة شديدة! فقد عرفت أنني أحمل بين يديَّ كلام الله، وعندئذ عرفتُ بأن الله أراد لي الخير[1] عند ما أرسل لي زوجاً مسلماً عربياً، بل كان ذلك رحمة منه، لكي أجد هذه المعجزة، وهذه الحقيقة التي طالما بحثتُ عنها!

أحسست بسعادة تغمرني حيث وجدتُّ الكنز أخيراً... وعرفت بأن الله منحني الرحمة، لأنه قادني لأجد الحقيقة وفي تلك اللحظة شعرتُ بخجل شديد من نفسي، لأني كنتُ في غاية السخرية تجاه خالقي وإلهي الرحيم، وجلستُ متسمِّرة في مكاني لبعض الوقت... وكانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحاً، ولكن هذا لم يكن يهمني، فقد وجدت المعجزة! وركضتُ لأوقظ زوجي قائلة: أريد أن أقول لك شيئاً!!

فاستيقظ وقال: عن أي شيء تتحدثين؟

قلت له: القرآن، ذلك الكتاب الذي أعطيتني إياه، إنه معجزة من الله!

«لماذا لا تصرخون بأعلى صوتكم أيها المسلمون، لِتُعَلِّموا الناس كتاب الله؟!».

ابتسم زوجي قائلاً: القرآن كلام الله وكل آية في القرآن معجزة!

فقلتُ: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله!».

---

(١) أصل العبارة (عرفتُ الله لم يكرهني) ولكني حوَّرتُها بما يتناسب مع المصطلحات المتعارف عليها عند أهل العلم الشرعي. وانظر تعليقنا على مثل هذه العبارات في ص٦٧٨.

هذا هو تأثير القرآن في نفوس أهل الكتاب[1] وبشهادتهم أنفسهم، وهكذا هو دائماً، حتى قال أحد المستشرقين المعاصرين من النصارى المتأثرين بالقرآن الكريم: «إن أسلوب القرآن جميل وفياض، ومن العجيب أنه يأسر بأسلوبه أذهان المسيحيين، ويجذبهم إلى تلاوته، سواء في ذلك الذين آمنوا به، أو لم يؤمنوا به، وعارضوه»[2].

رابعاً: تأثير القرآن في نفوس المرضى:

وكما أنّ للقرآن الكريم تأثيراً نفسياً عظيماً على نفوس الأصحاء من مشركي العرب ومؤمنيهم، وأرقّاء القلوب من أهل الكتاب والمنصفين منهم، فقد كان له أيضاً تأثيراً واضحاً على بعض المرضى في عصرنا الحالي الذين أُصيبوا بأمراض نفسية أو جسدية، من الناطقين بالعربية وغيرهم الذين لا يتحدثون بها، من المسلمين الذين يؤمنون بالقرآن وغيرهم ممن لا يؤمن به، والشواهد على ذلك كثيرة[3]، ولا حاجة لنا هنا لذكر شيء من ذلك، لعدم تعلقه بتأثير أدلة التوحيد القرآنية على سامعها وقارئها في تحقيق الإيمان.

---

(١) وانظر تأثيره على امرأة نصرانية يوغسلافية لا تفهم العربية حتى أبكاها، لمجرد سماعها تلاوة إمام يصلي بالمسلمين فوق ظهر سفينة تمخر عباب المحيط الأطلسي متجهة إلى نيويورك. انظر: ذلك في كتاب (في ظلال القرآن)، لسيد قطب ٣/ ١٧٨٦.

(٢) انظر: بينات الرسول ﷺ ومعجزاته، للشيخ عبد المجيد بن عزيز الزنداني، بمساعدة مجموعة من ظلاب العلم، مركز البحوث ـ جامعة الإيمان، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، صنعاء ـ اليمن ص١٩٩. ولم ذكر المؤلف اسم قال العبارة.

(٣) انظر: بعض التجارب العلمية الطبية التي تثبت ذلك في:

أ ـ بينات الرسول ﷺ ومعجزاته، للشيخ الزنداني ص٢٠٠-٢٠١.

ب ـ القرآن وعلم النفس، للدكتور / عبد العلي الجسماني ٧/ ١٠٤-١٠٥.

ويكفي أن أسجل هنا مما يتعلق بتأثير القرآن بشكل عام نتائج الدراسات والبحوث الحديثة لعدد من المعاصرين، فقد استُعملت أجهزة المراقبة الإلكترونية المزودة بالكمبيوتر (الحاسوب) لقياس الآثار والتغييرات (النفسية) عند عدد من المتطوعين الأصحاء أثناء استماعهم لتلاوات قرآنية... وتم تسجيل وقياس أثر القرآن عند عدد من المسلمين المتحدثين بالعربية... وبالنسبة لغير المتحدثين باللغة العربية، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، فقد تُليت عليهم مقاطع من القرآن الكريم باللغة العربية ثم تُليت عليهم ترجمة هذه المقاطع باللغة الإنجليزية، وفي كل هذه المجموعات أثبتت هذه التجارب المبدئية وجود أثر مهدِّئ للقرآن بنسبة ٩٧٪.. وهذا الأثر ظهر في شكل تغيرات فسيولوجية تشير إلى مستوى تأثر الجهاز العصبي التلقائي. وتفاصيل هذه النتائج المبدئية عُرِضت على المؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الطبية الإسلامية بأمريكا الشمالية الذي عُقد في مدينة سانت لويس، في أغسطس ١٩٨٤م، ولقد ظهر من الدراسات المبدئية أن تأثير القرآن على التوتر يمكن أن يُعزى لعاملين:

الأول: هو صوت القرآن الكريم في كلمات عربية بغض النظر عما إذا كان المستمع قد فهمها، وبغض النظر عن إيمان المستمع.

الثاني: هو معاني المقاطع القرآنية التي تُليت، حتى ولو كانت مقتصرة على الترجمة الإنجليزية بدون الاستماع للكلمات القرآنية اللغة العربية[1].

---

(١) من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، د/ معتصم بابكر مصطفى، كتاب الأمة، العدد ٩٥، جمادى الأولى ١٤٢٤هـ السنة الثالثة والعشرون، ط١، ٢٠٠٣م ـ الدوحة ـ قطر ص٧٦، نقلاً عن محمد كامل عبد الصمد، الإعجاز العلمي في الإسلام، الدار المصرية اللبنانية، ط٢، القاهرة ـ مصر ص٣٠٧.

وختاماً لهذا المطلب أقول: هذا التأثير النفسي للقرآن الكريم بأدلته التوحيدية هو الذي جعل بعض المتقدمين والمعاصرين يقولون بوجود إعجاز في القرآن غير وجوه إعجازه المعروفة[1]، سمّوا ذلك بالإعجاز الروحي للقرآن الكريم[2]، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى: ٥٢).

فالقرآن يفعل في النفوس فعل الروح في الأبدان، فيبعثها من موات، ويوقظها من غفلة، ويحركها من جمود، و يقيمها من قعود، «فهو معجز في يُسر مَدَاخِلِه إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها، وفتح مغاليقها واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها»[3] وسماه البعض الآخر بالإعجاز في تأثيره النفسي والقلبي.

---

(١) من إعجازات القرآن المعروفة التي درسها العلماء:
أ ـ الإعجاز البلاغي. ب ـ الإعجاز الغيبي. ج ـ الإعجاز العلمي. د ـ الإعجاز التشريعي.
هـ ـ الإعجاز النغمي (الموسيقي). و ـ الإعجاز العددي. ز ـ الإعجاز النظمي.
انظر: علم الإعجاز القرآني بين الفن والتاريخ، للدكتور خليل الكبيسي.

(٢) من المتقدمين الذين قالوا بالإعجاز الروحاني (الروحي) للقرآن الكريم وأشاروا إليه: الخطابي في كتابه (بيان إعجاز القرآن) ص٢٥، والقاضي عياض في الشفاء ١/ ٢١٠، ثم القرطبي في الجامع ١٠/ ٢٤، ثم الزرقاني في المناهل ٢/ ٤٣٩. ومن المعاصرين القائلين بذلك: عكرمة سعيد صبري في كتابه (أضواء على إعجاز القرآن) ص٤٦. ود: عبد الكريم الخطيب في كتابه (الإعجاز في دراسات السابقين) (الإعجاز في مفهوم جديد) ٢/ ٢٥٢. ومحمد فريد وجدي في موسوعته (دائرة معارف القرن العشرين) مادة اقرأ ٧/ ٦٧٧، وسيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن) ٦/ ٣٣٩٩.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٥/ ٢٥٨٥.

وجعل سيد قطب[1] رحمه الله يُفرد له عنواناً خاصاً في كتابه (التصوير الفني في القرآن) باسم: (سحر القرآن) ويقوم بدراسة منبع السحر القرآني، وجمال منطقه الوجداني وتصويره الفني ـ على حد قوله ـ وصدق في قوله: «إن في القرآن سرّاً خاصاً، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها... إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هناك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هناك عنصراً ما ينسكب في الحِس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود.. ذلك سِرٌّ مودع في كل نص قرآني.. في التصور الكامل الصحيح الذي يُنشئه في الحس والقلب والعقل... وفي الطريقة التي يتبعها القرآن لبناء هذا التصور ... وهو يخاطب الفطرة خطاباً خاصاً، غير معهود مثله في كلام البشر أجمعين، وهو يقلب القلب من جميع جوانبه ومن جميع مداخِله، ويعالجه علاج الخبير بكل زاوية وكل سرٌّ فيه.. وفي الشمول والتوازن والتناسق بين توجيهاته كلها، والاستواء على أُفق واحد فيها كلها، وهذه مسألة لا

(١) هو سيد قطب إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، ولد بأسيوط سنة ١٩٠٦م، تخرّج من كلية دار العلوم بالقاهرة، وعمل مدرساً ثم موظفاً فمراقباً بوزارة المعارف المصرية، وأُوفِد إلى أمريكا لدراسة برامج التعليم الغربية، ولما عاد وقد تغير فكره طالب ببرامج تتمشى مع الفكرة الإسلامية، وبنى على هذا استقالته، وانضمَّ إلى حركة الإخوان المسلمين آنذاك، وسُجن معهم مرات، وقد كتب كتابه الشهير (في ظلال القرآن) في السجن ما بين عامي ١٩٥٤-١٩٦٥م، صدر الحكم بإعدامه في عام ١٩٦٦م.
من مؤلفاته: (العدالة الاجتماعية في الإسلام) و(المستقبل لهذا الدين) و(معالم في الطريق).
انظر: الأعلام، للزركلي ٣/ ١٤٧. و:النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، للبيومي ٣/ ١٤٦-١٦٨.

يبارى فيها إنسان يحترم حِسَّهُ، ويحترم نفسه،..»[١]. «وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزايل، ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن، كلما تفتَّح القلب، وصفا الحِسُّ، وارتفع الإدراك، وارتفعت حاسية التلقي والاستجابة»[٢].

فاقرأ ما شئت من كلام البشر في موضوع ما، ثم اقرأ من كتاب الله آيات في نفس الموضوع، وتحسّس المشاعر بين ما تسمعه من وعْظِ الواعظ بكلام الله، وبين وعظه بكلامه هو، لترى الفرق واضحاً وكبيراً بين القرآن العظيم، وكلام البشر من حيث قوة التأثير النفسي والإقناع العقلي والروعة، والهيبة التي تلحق قلب القارئ والسامع[٣].

ويمثل هذا الإعجاز القرآني (الروحي والنفسي)[٤] صاغ القرآن الكريم أدلة التوحيد القرآنية لتقرير وإقامة أعظم قضية في الوجود (قضية الإيمان بالله)،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط(بدون)، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، بيروت ـ لبنان ٦/ ٣٣٩٩ باختصار.

(٢) نفسه ٥/ ٢٨٠٥.

(٣) انظر: بينات الرسول ﷺ ومعجزاته، للزنداني ص١٩٩.

(٤) وهناك من الباحثين من ذكر أن الإعجاز النفسي في القرآن الكريم يتمثل في الحديث عن النفس الإنسانية، وأسرارها، وخصائصها واستعدادها للخير والشر، والتزكية والفجور.
انظر: البيان في إعجاز القرآن، للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار، ط(بدون)، د.ت، البلد (بدون) ص٣٣٨.
و: معجزة القرآن، للشيخ محمد متولي الشعراوي ـ رحمه الله ـ مكتبة دار التراث الإسلامي، ط١، ١٩٨٨م، القاهرة ـ مصر، ١/ ١٠٨.
وعرّف بعض الباحثين الإعجاز الروحي النفسي للقرآن الكريم بأنه (ذلك التأثير العظيم.. على النفوس، هيبة وحلاوة، ورغبة ورهبة، على التالي والمستمع..) أ.هـ (بتصرف). =

صاغها بأسلوب خاطب فيه العقل والقلب والروح، وبمنهج فريد عظيم سرعان ما تحولت بعده جزيرة العرب من بؤرة للشرك والكفر إلى دولة للتوحيد والإيمان. فما هو منهج القرآن في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية؟

وما هي أساليبه الفريدة في صياغة هذه القضية وتقديمها لكل البشرية؟ وما هي خصائص المنهج القرآني المتميز في إقامة التوحيد في نفوس العبيد؟ هذا ما أقوم بشرحه بالتفصيل في البابين التاليين.

= انظر: إعجاز القرآن الكريم، للأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، وسناء فضل عباس، دار الفرقان، ط٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، عمان ـ الأردن ص٣٤١.

وقد أفرد محمد فريد وجدي في موسوعته فقرة خاصة بعنوان (جهة إعجاز القرآن الكريم في نظرنا) حيث تكلّم فيها عن حصر المتكلمين لإعجاز القرآن من الناحية البلاغية ودراستهم لذلك ثم قال: (إلا أننا نرى أنها ليست هي الناحية الوحيدة لإعجازه، بل ولا هي أكثر نواحي إعجازه سلطاناً على النفس..

ولكن القرآن معجز لتسلطه على النفس والمدارك ... العلة في نظرنا واضحة ... وهي أن القرآن روح من أمر الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى: ٥٢) فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد.. فلا جرم كانت له روحانية خاصة هي عندنا جهة إعجازه.. نعم إن جهة إعجاز هذا الكتاب الإلهي الأقدس هي تلك الروحانية العالية، التي قلبت شكل العالم، وأكسبت تلك الطائفة القليلة العدد خلافة الله في أرضه... هذه الروحانية تنفذ إلى سريرة الإنسان وسويداء ضميره، وتستولي منها على أصل حياته، ومهب عواطفه وإحساساته.. إن للقرآن فوق البلاغة والحكمة والعذوبة والبيان (روحانية) يدركها من لاحظّ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة... هذا رأينا في جهة إعجاز القرآن.. ويمكن الاستدلال عليه بالحس والواقع) أ.هـ بتصرف يسير.

انظر: دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي، دار المعرفة، ط٣، ١٩٧١م، بيروت ـ لبنان ٧/ ٦٧٧-٦٨٠ باختصار..



الباب الأول

المنهج القرآني في عرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية

وفيه فصلان يسبقهما تقديم:

الفصل الأول: منهج القرآن في الاستدلال على التوحيد بالأدلة النفسية (الفطرية).

الفصل الثاني: منهج القرآن في الاستدلال على التوحيد بالأدلة العقلية.



فطرية الإيمان بالله والبحث عن إله :

قرر أهل العلم وجود عدة مناهج لغرس المعتقدات وتقويتها في النفس الإنسانية، ومن أهم وأول هذه المعتقدات العلم بالله والإيمان به، فهناك أربع طرق توصِّل إلى معرفة الله، جمعها ابن القيِّم رحمه الله في نونيته ـ قائلاً في بعض أبياتها ـ :

سافرتُ في طلب الهُدَى فدلني الـ ... هـادي عليه ومحكـمُ القـرآن
مـع فطـرة الـرحمن جـل جلالـه ... وصـريح عقلـي فـاعتلى ببيـان
فتوافق الوحيُ الصريحُ وفطرةُ الـ ... رحمــن ، والمعقــول في إيمــان
شـهدوا بـأن الله جـل جلالـه ... متفـردٌ بالملـك والـسلطان
وهـو الإلـه الحـق لا معبـود إلا ... وجهَـهُ الأعلى ، العظيم الـشان[1]

فذكر ابن القيم رحمه الله أن الهداية إلى الله وتوحيده تتم من خلال أربعة طرق، كل أدلتها تعتبر حججاً قطعية الدلالة على وحدانية الله وتوحيده، وهذه الطرق هي:

١ - هداية محمد ﷺ الهادي، وكذا كل الأنبياء والرسل من قبله ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد: ٧).

٢ - محكم القرآن، وهي آياته البينات الواضحة الدلالة على معانيها بلا احتمال ولا اشتباه، قال تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١).

---

(١) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم الموسومة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، تأليف أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت ـ لبنان، ١/ ٢٥٢.

٣ - فطرة الله الصافية التي فطر الناس عليها، كاعتراف النفس بوجود الله وحدانيته في ربوبيته سبحانه، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٣٠).

٤ - العقل الصريح بجميع إدراكاته الحسية، واستنتاجاته العقلية، عندما يخلو من موانع الهداية[1] كالجهل، والجمود، والتعصب والتقليد الأعمى، والكبر، والعناد بالباطل، والحسد ونحو ذلك.

وبناءً على ما ذكره ابن القيم أقول:

لم يكن الله عزو جل ليصف كتابه العظيم بالنور[2]، والبرهان[3]، والحق[4]، والذكرى[5]، والذكر[6]، والمبين[7]، والمفصل[8]، والموعظة[9]،

---

(١) انظر: موانع الهداية فيما يلي من فقرات هذا البحث في ص ٩٠٩ وما بعدها.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٧٤).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (النساء: ١٧٤).

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (يونس: ١٠٨).

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٢).

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

(٧) كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة: ١٥).

(٨) كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ (الأنعام: ١١٤).

(٩) كما في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٨).

والهدى[١]، بالبصائر[٢]، دون أن يكون فيها من أدلة التوحيد القطعية الدلالة، ما يكفي لتجسيد حقيقة تلك الأوصاف العظيمة المباركة، وصدق من قال:

لو تأمّلت في كتاب كريم   في معاني آياته المحكمات

في الضحى والأنعام والنحل فيض   من ضياء، والنور والذاريات[٣]

فالقرآن الكريم قد نصب من دلائل وحدانية الله وتوحيده في الأنفس والآفاق مما يحقق العلم بلا إله إلا الله مالا يعد ولا يحصى.

قال السعدي[٤] ـ رحمه الله ـ: «.. وهذا العلم الذي أمر الله به ـ وهو العلم بتوحيد الله ـ فَرْضُ عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائناً من كان، بل كلٌّ مضطرٌّ إلى ذلك، والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله، أمور ... ـ منها ـ ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، تنادي عليه بلسان حالها، بما أودعها من لطف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه، ...

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٣).

(٣) قائل الأبيات المذكورة أعلاه هو د/ ناصر بن مسفر الزهراني في كتابه: الله أهل الثناء والمجد، طباعة مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، الرياض ـ السعودية ص ٢١.

(٤) هو: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي، مفسِّر من علماء الحنابلة، من أهل نجد، ولد في عنيزة بالقصيم عام ١٣٠٧هـ، الموافق ١٨٩٠م، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها سنة ١٣٥٨هـ، له نحو ٣٠ كتاباً، منها: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن) و(القواعد الحسان في تفسير القرآن) و(التوضيح والبيان لشجرة الإيمان) و(توضيح الكافية الشافية لابن القيم) توفي عام ١٣٧٦هـ، الموافق ١٩٥٦م في عنيزة.
الأعلام، للزركلي ٣/ ٣٤٠.

وإذا نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير، وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته، فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجُمَله مالا يحصل في غيره»[١].

ورُوي عن أحد الحكماء أنه قال: «أعجب شيء رأيته، رجل بيده القرآن، ويطلب علماً سواه»[٢].

وللحق أنه عند التأمل في أدلة التوحيد القرآنية نجد فيها كفاية تامة لتحقيق هداية الخلق إلى الله، وهي كذلك تحقق للإنسانية تربية روحية إيمانية، ونفسية وجدانية، وعقلية فكرية، وتربطه بما حوله.

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «القرآن يوجه القلوب والعقول دائماً إلى مشاهد هذا الكون، ويربط بينها وبين تلك العقول والقلوب، ويوقظ المشاعر لاستقبالها بحسٍّ جديد متفتح، يتلقى الأصداء والأضواء، وينفعل بها، ويستجيب، ويسير في هذا الكون ليلتقط الآيات المبثوثة... المنثورة في أرجائه، المعروضة في صفحاته، ويرى فيها يد الصانع المدبِّر، ويستشعر آثار هذه اليد في كل ما تقع عليه عينه، وكل ما يلمسه حِسُّه، وكل ما يلتقطه سمعه، ويتخذ من كل هذا مادة للتدبُّر والتفكر، والاتصال بالله..»[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار المغني للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، الرياض ـ السعودية ص٨٦٤ باختصار.

(٢) نقلاً عن د/ عبد العلي الجسماني، في كتابه القرآن وعلم النفس (نداء الفطرة الإيماني) ٥/ ١٤٢، الدار العربية للعلوم، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، بيروت ـ لبنان.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٦٨ باختصار.

وما دام القرآن كذلك، فحقُّه أن نتأمل آياته ـ وخاصة آيات وحدانية الله وتوحيده ـ باستقراءٍ وتحليلٍ واستنباط، واستدلال، وغير ذلك مما يعرفنا بحقيقة الذات الإلهية.

إن القرآن الكريم قد انطلق في منهجه لعرض أدلة التوحيد النفسية والعقلية من فطرة الإنسان السليمة الصافية، المشرقة، التي فطرها الله فيه، وجَعَلَها (تتجه إليه من تلقاء ذاتها بغير كتاب منزَّل، ولا رسول مرسل[١] فمعرفة الله والإقرار بوجوده مسألة فطرية لدى الخلق أجمعين[٢] و«لم تكن مشكلة البشرية ـ من أول التاريخ إلى آخره ـ أنهم لا يعرفون وجود الله أو يعجزون عن الوصول إليه والتعرف عليه.. إنما مشكلتهم أنهم في ذلك لا يعرفونه المعرفة الحقّة، ومن ثم لا يعبدونه كما تنبغي له العبادة، وصدق الله في قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ (الزمر: ٦٧)»[٣].

وقد يعبدونه على غير هدي فيضِلُّون ويُضلُّون، ويتصوَّرون الله على غير حقيقته، ويشركون في عبادته، وعندئذ يُنزل الله كتبه، ويرسل رسله لتصحيح عقائد الناس المغروسة في أصل الفطرة[٤]، وتقويم التصوّر عن حقيقة الذات الإلهية، ومنهج عبادة الله وحده لا شريك له.

---

(١) دراسات قرآنية، لمحمد قطب، دار الشروق، ط٥، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان ص٢٦ بتصرف.

(٢) رُوي أن الفخر الرازي كان يمشي في الطريق وحوله مجموعة من طلاب علمه، فرأته امرأة عجوز مؤمنة في جانب الطريق، فسألَتْ عنه؟! فقالوا: هذا الفخر الرازي الذي يعرف ألف دليل ودليل على وجود الله تعالى، فقالت: لو لم يكن عنده ألف شك وشك لما احتاج إلى ألف دليل ودليل، ـ وصدقت بقولها هذا ـ فلم يملك الرازي عند سماعه ذلك إلا أن قال: اللهم إيماناً كإيمان العجائز. نقلاً عن عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني، في كتابه العقيدة الإسلامية وأسسها ص٤٦، دار القلم، ط٦، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دمشق ـ سوريا.

(٣) دراسات قرآنية، لمحمد قطب ص٢٦.

(٤) انظر المرجع السابق ص٢٧.

- والدهريون الذين حكى القرآن عنهم قولهم: ﴿.. مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية: ٢٤) ليس معنى قولهم هذا إنكارهم وجود الله، في الآية ما يدل دلالة قاطعة على إنكارهم وجود الله، إنما المفهوم من الآية أنهم ينسبون إهلاكهم إلى الدهر، وينكرون البعث، وينفون صلة المولى سبحانه بما يحدث لهم من حياة أو موت فقط، وبالتالي ينفون قدرته على إماتتهم وإحيائهم.

أضف إلى ذلك أن ظاهر مقالتهم يدل على إيمانهم بالدهر فليس هناك على الإطلاق ما يمنع من أن يكونوا مؤمنين بوجود الله[١].

- أما الشيوعيون سابقاً ولاحقاً الذين أعلنوا شعار «لا إله والحياة مادة»[٢]، وأعلنوا عدم إيمانهم بالله، وإلحادهم به، وتدريسهم ذلك في مدارسهم وجامعاتهم، فقد ثبت في الواقع أن الإلحاد فُرض عليه بالقوة ـ بالحديد والنار ـ كالنظام الشيوعي ذاته، ولو خُلِّي بينهم وبين أنفسهم لكان حالهم في شأن الإيمان بالله كحال المشركين والوثنيين ونحوهم الذين يبحثون عن الله[٣] أو يعرفونه

---

(١) المرجع السابق ص٢٧ اقتباس بالمعنى من زيادات.

(٢) مقالة الشيوعيين هذه تحتاج لدراسة العوامل التي قهرت الناس آنذاك حتى أذعنوا لهذه الفكرة المصادمة للفطرة، وهل كانوا فعلاً يؤمنون بها؟!

(٣) وقد ذكر محمد قطب في كتابه دراسات قرآنية ص٢٧-٢٨ أن رائد الفضاء الروسي جاجارين الذي تربى في الشيوعية والإلحاد منذ مولده إلى يوم انطلاقه للفضاء صرح بعد رجوعه واندهاشه لما رأى من عظمة الكون قائلاً: (حين صعدت إلى الفضاء أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله) فقد استيقظت فطرته لرؤية آيات الله الكونية.

ثم قال محمد قطب: «ومن الطريف أن الدولة غضبت من هذا التصريح، لأنه يهدم كل ما أنشأته خلال خمسين عاماً من الإلحاد! لذلك أَمَرَتْ جاجارين بتصحيح ذلك التصريح الخطير، فأضاف إليه في القراءة الثانية: «أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله، فلم أجده» ونشرت وكالات الأنباء هاتين القراءتين المختلفتين للتصريح الواحد بغير تعليق» أ.هـ.

ولكن على غير حقيقته، ويعبدونه ولكن على غير مِلَّته، وقد يؤمنون به كما يجب ويرضى، كما حصل من إيمان بعضهم في السنوات المتأخرة بعد تحلل الاتحاد السوفيتي وانهيار إمبراطوريته وسقوط الشيوعية في بعض جمهورياته.

أضف إلى ذلك أن تقديس الشيوعيين لرفاة مؤسسي الإلحاد والشيوعية[١] ووقوف الأحياء منهم أمام قبورهم ذليلين خاضعين لهم بكمال الحب والتعظيم، ملتزمين بنهجهم في نشر الإلحاد من بعد موتهم، كل هذا يعتبر مظهراً من مظاهر التعبد لغير الله، وبالتالي يكون دليلاً كافياً على وجود الفطرة التي تدفع صاحبها للبحث عن معبود مقدّس معظّم ـ سواء أصابت فوصلت إلى الله أو أخطأت فضلَّت بعبادة الحجر والبشر.

وأما النمرود وفرعون ومن نحى نحوهما الَّذين أنكروا وجود الله وربوبيته[٢] ـ فضلاً عن ألوهيته[٣] سبحانه وتعالى ـ فقد بيّن القرآن أن هذا الإنكار إنما كان من باب الجحود والاستكبار والظلم والعلو الذي أصابهم بعد أن استيقنت أنفسهم وعقولهم دلائل الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل: ١٤) وقال على لسان موسى مخاطباً فرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ... ﴾ (الإسراء: ١٠٢).

ثم إن القرآن حكى استيقاظ فطرة فرعون حال الشدائد التي أصابته وقومه معترفاً بربوبية الله بلسان الحال وإن أنكر ذلك بلسان المقال، حيث قال هو ومن

---

(١) مثل كارل ماركس، ولينين، وستالين.

(٢) كما سجَّل القرآن عن فرعون مقالته لموسى: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٣).

(٣) كما سجَّل القرآن عن فرعون مقالته لملئه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ (القصص: ٣٨).

معه لموسى عليه السلام عندما أصابهم الرجز[١]: ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ (الأعراف: ١٣٤).

بل إن القرآن قد حكى اعتراف فرعون بالله رباً وإلهاً واحداً مستسلماً له، وذلك في أحلك أوقات الشدة، وأضيق أحوال العبد عندما استيقظت فطرته التي طالما تنكّر لها وغطّى عليها، ثم انكشفت حينما أدركه الغرق في اليم، فنطق لسانه معبراً عن إيمانه بالله قائلاً: ﴿ .. ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٩٠).

- إذاً فمعرفة الله قضية فطرية في أصلها لا يتخلف عنها أحد من الخلق، وإن كان هناك فرق بين معرفة المشرك ومعرفة الموحّد، فمعرفة المشركين معرفة ذهنية «ناقصة.. باردة.. لا ينبض بها القلب، ولا تتحول إلى وجدان حي، ولا سلوك عملي في واقع الأرض، فرغم اعترافهم بأن الله هو وحده خالق السماوات والأرض لكن القرآن وصفهم بأنهم ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

فلم يعتبر معرفتهم هذه علماً، ولم يجعلها رصيداً يضيف لهم بيانات جديدة عن الله إنما محاها محواً، واعتبرها جهلاً وجهالة، وبدأ معهم من نقطة الصفر، باعتبار أنهم ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ... ـ بدأها ـ بطريقته الخاصة التي تحولها إلى نبض حي وسلوك واقعي!»[٣].

---

(١) الرجز هو: العذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ﴾ (الأعراف: ١٣٣).

(٢) (لقمان: ٢٥) وسأشرح الآيات المتعلقة بذلك فيما يلي من فقرات قادمة.

(٣) دراسات قرآنية، لمحمد قطب ص٢٨-٣٠ باختصار واختيار.

لقد كان القرآن ينشئ الإيمان بالله في القلوب، وليس معرفته الذهنية في العقول، والذين يعرفون الله على طريقة القرآن والإيمان هم الذين وصفهم كتابه بأنهم (يعلمون)[1] فما هي طريقة القرآن الكريم لإنشاء وإقامة الإيمان بالله في النفوس والعقول أو الأفئدة والقلوب؟ وما هو منهجه القويم في عرض أدلة التوحيد النفسية؟

هذا ما سأشرحه بالتفصيل في الفصل الأول من هذا الباب.

---

(١) المرجع السابق ص٣٠ بتصرف.

الفصل الأول

منهج القرآن في الاستدلال على التوحيد بالأدلة النفسية « الفطرية »

وفيه مبحثان يسبقهما تمهيد:

المبـحـث الأول: مقدمات وحقائق عن الفطرة.

المبحث الثاني: استشهاد القرآن على التوحيد بالأدلة النفسية (الفطرية).

تمهيد:

أدلة التوحيد الفطرية التي غرسها الله في الإنسان، كثيرة ومتنوعة، استخدمها القرآن لانتزاع اعتراف الباطن بوجود الله ووحدانيته عند إنكار الظاهر، وهي أدلة توحي بوجود أصل التوحيد في كل نفس بشريه صافية سليمة فطرها الله، وحفظ هذه الفطرة من تحريف الشياطين(١)، ولم تتعرض لإفساد البيئة من حولها(٢)، ولم تقع في أسر الغفلة واتباع الهوى، أو الإعراض عن ذكر الله(٣)، أو التكبر عن قبول الحق المنزل من الله سبحانه وتعالى(٤).

وأدلة التوحيد الفطرية هي أدلة سهلة ليست بالمعقدة، قريبة، محسوسة، ملموسة، في واقع الناس، لا تحتاج لمزيد نظر وبحث وتدقيق، فهي نابعة من النفس الإنسانية، ناتجة عن شعور فطري، وهداية فطريه، ونظر عقلي عادي، ميسرة للأميين وعوام الناس ونحوهم، ممن لا يفهم علم الكلام والفلسفة أو

---

(١) صح عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: «**خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمه عليه ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم أنزل به سلطاناً**» أخرجه مسلم في ٤/ ٢١٩٧ في كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: الصفات التي يعرف بها أهل الدنيا برقم ٢٨٦٥ عن عياض بن حمار.

(٢) صح عن النبي ﷺ قوله: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه..**» رواه البخاري ١/ ٤٥٦. في كتاب الجنائز، باب إذا سلم السبي..، برقم ١٢٩٢ عن أبي هريرة.

(٣) كما هو المفهوم من قوله سبحانه: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا**﴾ (الكهف: ٢٨).

(٤) كما هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾ (غافر: ٣٥).

مناهج الاستدلال العلمي العقلي الحديث، بل إن أدلة التوحيد الفطرية التي استدل بها القرآن الكريم على وحدانية الله وتوحيده هي أسبق من كل الأدلة العقلية القائمة على الاستقراء والاستدلال والبحث والنظر، ونحو ذلك، وأسبق أيضاً من الأدلة الشرعية النقلية التي جاء بها الأنبياء والرسل، وخاتمهم محمد ﷺ، ولقد جاء القرآن الكريم مذكراً بوجودها، وموقظاً لكل غافل عنها، ومؤكداً لاعتراف الباطن بها، وبالتالي مدللاً على وحدانية الله سبحانه وتعالى، فاستخدم في سبيل ذلك ما يسمي بالمنهج الفطري للدلالة على وحدانية الله وتوحيده، وحتى يتضح ذلك رأيت تقسيم هذا الفصل إلى المبحثين الآتيين:

المبحث الأول

مقدمات وحقائق عن الفطرة

للفطرة وجود ومعني في النفس الإنسانية، ولها علامات ودلائل تدل على ذلك، وهي ذات مترلة عظيمة في معرفة الخالق والاستدلال عليه والعلم ببعض صفاته سبحانه. كما أنها قد تتعرض للانحراف والفساد، ويمكن استعادة عافيتها وسلامتها لتبقى دليلاً ناصعاً مع العقل على أنه لا إله إلا الله، وحتى يتضح كل ما سبق رأيت تقسيم هذا المبحث إلى المطالب الأربعة التالية:

«المطلب الأول»

«حقيقة الفطرة»

أولاً: المقصود بلفظ (الفطرة) لغةً:

أصل كلمة (الفطرة) مشتقة من (فَطَرَ) كما هو واضح من معاجم اللغة العربية، وكتب غريب القرآن والحديث.

فالفاء والطاء والراء أصل صحيح و(فِطْرة) على وزن (فِعْلة) وهي حال من فَطَرَ، وتُجمع على (فطور) وقد تبين من كتب اللغة أنها تدور حول عدة معان منها:

١ ـ (فَطَر) بمعنى شق[1]، والفَطْر هو الشق، وتفطّرت يده أي تشققت[2]، وفي القرآن الكريم، ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾ (الانفطار: ١) أي انشقت، ونحو ذلك من الآيات[3]، وفي صحيح الحديث: أن النبي ﷺ **«كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه»**[4] أي تتشقق.

وفي أشعار العرب قول بعضهم:

شققتِ القلب ثم ذرَرْتِ فيه هواكِ فَلِيمَ، فالتَأَمَ الفُطُورُ[5].

ومن (فَطَرَ) أُخِذَ فِطْرُ الصائم لأنه يفتح فاه، وفطَّرتُ الرجل أي جعلتُهُ يترك الصوم، وفي الحديث: **«أفطر الحاجم والمحجوم»**[6].

---

(١) وفي المفردات أن أصل الفَطْر الشق طولاً، انظر المفردات، للراغب ص٣٨٢.

(٢) انظر: كتاب العين، للفراهيدي ٧/ ٤١٨، باب الطاء والراء والفاء، مادة (فطر).

(٣) كما في سورة الشورى: ٥، والملك: ٣، والمزمل: ١٨، وغيرها من الآيات.

(٤) أخرجه البخاري في ١/ ٣٨٠ في كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه، برقم ١٠٧٨ عن المغيرة بن شعبة، بلفظ «إن كان النبي ﷺ ليقوم ليصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه..» ومسلم في ٤/ ٢١٧١ برقم ٢٨١٩.

(٥) لسان العرب، لابن منظور ١٠/ ٢٨٥ مادة (فطر). والقائل هو: قيس بن ذريح، وهو قيس لبنى. انظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ٣/ ١١.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه ٢/ ٧٧٠ في كتاب الصوم، باب في الصائم يحتجم، برقم ٢٣٦٧، عن ثوبان رضي الله عنه وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى ٤/ ٢٦٥، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ٢٥٣ برقم ١١٣٦.

انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، الطبعة الجديدة والمزيدة والمنقحة، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، بيروت ـ لبنان.

٢ ـ وقد تأتي كلمة (فَطَرَ) بمعنى ابتدأ وأنشأ وأوجد وخلَق واخترع ونحو ذلك[١]، قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .. ﴾ الآية (فاطر: ١) أي خالقها ومبدعها، ونحو ذلك من الآيات[٢] وفي صحيح السنة قوله ﷺ في دعاء الاستفتاح للصلاة: «وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض.. إلخ»[٣].

وفي أشعار العرب قول بعضهم:

هوِّن عليك فقد نال الغِنَى رجلٌ … في فِطْرَةِ الكلب، لا بالدِّين والحَسَبِ[٤]

فالمقصود بـ(الفِطْرة) في بيت الشعر هنا: الخِلْقَة.

٣ ـ ويطلق (الفُطْرُ) على القليل من اللَّبن الذي يُحلب ساعتئذ، تقول: ما احتلبناها إلا فُطْراً[٥]، ويؤيد هذا ما ورد في حديث المعراج أن النبي ﷺ عندما اختار اللبن من بين العسل والخمر، قال له جبريل عليه السلام: «**أخذْتَ الفطرة..**»[٦]، مع أن أهل العلم قد فسّروا الفطرة ـ في الحديث ـ بالإسلام والاستقامة، وإنما جُعل اللبن علامة على ذلك لكونه سهلاً، طيباً، طاهراً، سائغاً للشاربين، سليم العاقبة[٧].

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور ١٠/ ٢٨٦.

(٢) كما في سورة الأنعام: ١٤، وهود: ٥١، والإسراء: ٥١.

(٣) أخرجه مسلم في ١/ ٥٣٤ كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، برقم ٧٧١ عن علي بن أبي طالب.

(٤) لسان العرب ١٠/ ٢٨٦. مادة فطر. ونَسب ابن منظور البيت الشعري لثعلب.

(٥) كتاب العين، للفراهيدي ٧/ ٤١٧، وفيه (فطرتُ العجين أي عجنتهُ واختبزْتَهُ من ساعَتِهِ، وإذا تركتَهُ ليختمر قلت: خمّرتُهُ، وهو الفطير والخمير).

(٦) أخرجه البخاري في ٣/ ١٢٤٤ في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ (النازعات: ١٥) عن أبي هريرة، وأخرجه مسلم في ١/ ١٤٥ برقم ١٦٨.

(٧) انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٢/ ٢١٢.

وقد ورد لفظ (فطر) ومشتقاته في القرآن الكريم في عشرين موضعاً، لكنها لم ترد بلفظ (فطرة) إلا في قوله سبحانه:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ﴾

(الروم: ٣٠).

وخلاصة ما سبق أن لفظ (الفطرة) في اللغة العربية يطلق على عدة معان، منها ما يتعلق بموضوع البحث ومنها غير ذلك[1]، فمن معاني (الفطرة) المتعلقة بالموضوع:

١ ـ الابتداء، الإيجاد من العدم، الاختراع، الإنشاء، الخلق، وكلها بمعنى واحد.

٢ ـ الاستعداد للقبول بالشيء.

ثانياً: المقصود بلفظ (الفطرة) اصطلاحاً:

تبين من خلال بعض المعاني اللغوية للفظ (الفطرة) أنه يمكن إطلاقها على النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق ـ بشكل عام ـ وفَطَرَهُ عليه، ليجلب لنفسه المصالح، ويدفع عنها المفاسد، أو يقوم في الحياة كما أراد الله واقتضاه.

وقد اختلف أهل العلم في المقصود (بالفطرة) اصطلاحاً إلى سبعة أقوال، ولكن قبل ذكرها أشير إلى أن من العلماء من وجه حديث الفطرة الذي قال فيه

---

(١) ومن المعاني للفظ (الفطرة): السُّنة ـ سواء سنة النبي ﷺ أو ما سنّه السابقون من الأنبياء والمرسلين، كما في قوله ﷺ: «خمس من الفطرة..إلخ الحديث» أخرجه مسلم في١/ ٢٢١ في كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، برقم ٢٥٧ عن أبي هريرة.

النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة..**» إلخ الحديث[١] واعتبره منسوخاً لا عمل عليه[٢]، وبالتالي عدم اعتراف هؤلاء بالمعنى الاصطلاحي الوارد في الحديث للفطرة، وهذا كله مردود عليه[٣].

أما أقوال العلماء في معنى الفطرة اصطلاحاً فهي كالآتي:

القول الأول: منهم من قال: إن الفطرة هي الخِلْقة والجِبِلّة التي خلق الله عليها المولود من المعرفة بربه، واحتج هؤلاء لقولهم بعدة حجج، ردّ عليها بعض أهل العلم[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في ١/ ٤٥٦، في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي.. برقم ١٢٩٢ عن أبي هريرة ومسلم في ٤/ ٢٠٤٧ برقم ٢٦٥٨.

(٢) وممن اعتبر الحديث منسوخاً محمد بن الحسن (صاحب أبي حنيفة) وقال: كان هذا القول من النبي ﷺ قبل أن تنزل الفرائض ويؤمر الناس بالجهاد).
انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي. الناشر دار الكتاب العربي، ط١، ١٣٩٦هـ ١٩٧٦، (طبعة مصورة) عن السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية ـ الهند، ٢/ ٢١-٢٢.

(٣) انظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ص١٩٤-١٩٦.

(٤) ومن أصحاب هذا القول ابن عبد البر كما في التمهيد ١٨/ ٧٠، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ٤/ ١٧-١٩، والسعدي في بهجة قلوب الأبرار ص٦٤، حيث قال الفطرة هي (الخلقة التي خلق الله عباده عليها، وجعلهم مفطورين عليها، وعلى محبة الخير وإيثاره، وكراهية الشر ودفعه، وفطرهم حنفاء مستعدين لقبول الخير، والإخلاص لله والتقرب إليه).
وانظر: تفاصيل الردود على أصحاب هذا القول في: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، لعثمان بن علي حسن، مكتبة الرشد، ط٤، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، الرياض ـ السعودية ص١٨٧-١٨٩.
و: الفطرة (حقيقتها ومذاهب الناس فيها)، لعلي بن عبد الله القرني، دار المسلم للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، الرياض ـ السعودية، ص٧٠-٨٤.

القول الثاني: من أهل العلم من قال: إن الفطرة هي البداءة التي ابتدأ الله الخلق عليها، فمن ابتدأ خلقه للضلالة والشقاوة صيّره إليها، ومن ابتدأ خلْقه للهداية والسعادة صيّره إليها[١]، واستدل هؤلاء بأدلة مردود عليها[٢].

القول الثالث: من العلماء من قال: إن الفطرة هي ما فطر الله عليه بني آدم من السلامة من المعرفة والإنكار والكفر والإيمان[٣]، واستشهد هؤلاء على مقالتهم هذه بعدة أدلة رد عليها بعض أهل العلم[٤].

القول الرابع: من أهل العلم من قال: إن الفطرة هي الميثاق الذي أخذه الله تعالى من ذرية آدم عليه السلام[٥]، ودلل هؤلاء على ذلك بعدة أدلة رد عليها بعض أهل العلم[٦].

---

(١) ومن أصحاب هذا القول (عبد الله بن المبارك، والإمام مالك).
انظر: التمهيد لابن عبد البر ١٨/ ٧٩.

(٢) راجع كتاب منهج الاستدلال السابق ذكره ص١٩٦-١٩٩، وكتاب الفطرة ص٨٥-١٠٦.

(٣) ومن أصحاب هذا القول إسحاق بن راهويه كما قال ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٨٣. وابن حبان في صحيحه ١/ ٣٣٧ برقم ١٢٩.

(٤) انظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان بن علي حسن ص١٨٨-١٨٩، و: الفطرة، للقرني ص١٠٧-١٢٤.

(٥) ومن أصحاب هذا القول الأوزاعي، كما في سنن أبي داود ٥/ ٨٥، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين، وحماد بن سلمة كما في فتح الباري ٣/ ٢٤٩. وأبو يعلى في إحدى الروايتين عن أحمد كما في درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣٦٠.

(٦) انظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ص١٨٩-١٩٣.
و: الفطرة، للقرني ص١٢٥-١٣٠.

القول الخامس: من أهل العلم من قال: إن الفطرة هي ما فطر الله عليه المؤمنين - فقط - من الإيمان به والاستسلام له[١]، واستدل هؤلاء بعدة أدلة مردود عليها[٢].

القول السادس: من أهل العلم من أكّد أن الفطرة تعني معرفة الله...

وتوحيده بدين الإسلام، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى - آمراً محمداً ﷺ أصلاً وأمته من بعده تبعاً - ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (الروم: ٣٠)، أي: «فسدِّد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك - وهو دين الإسلام - من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي[٣] هداك الله لها، وكمّلها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره»[٤].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٤/ ٢٦ تفسير الآية ٣٠ من سورة الروم.

(٢) انظر: المرجع السابق ص١٩٣-١٩٤.

(٣) الذي: هكذا في الأصل ولعل الأصوب التي.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٥٥.

وانظر: مختصر تفسير ابن كثير المسمى عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر، وأنور الباز، دار الوفاء، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، المنصورة، القاهرة، ٢/ ٨١٩ بإضافة يسيرة.

القول السابع: من العلماء من قال إنّ الفطرة هي استعداد الإنسان لمعرفة آيات الله والاستدلال بها عليه سبحانه.

قال ابن عطية الأندلسي[1]: «الفطرة: الخِلقة أو الهيئة التي في نفس الآية التي هي معدّة ومهيّأة لأن يميِّز بها مصنوعات الله ويستدل بها على ربه أو يعرف شرائعه»[2].

وسواء كان المقصود بالفطرة[3] هي الخلقه، أو البداءة، أو ما فطر الله عليه بني آدم من الإنكار والمعرفة والكفر والإيمان، أو الميثاق الذي أخذه الله من ذرية آدم عليه السلام، أو معرفة الله، أو دين الإسلام بمعناه الخاص الذي يُطلق على ما جاء به محمد ﷺ، ومعناه العام الذي اشتركت في أصوله العقدية جميع

---

(١) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، ومن محارب قيس، الغرناطي، أبو محمد، ولد عام (٤٨١هـ)، مفسر، فقيه، أندلسي، من أهل غرناطة، عارف بالأحكام والحديث، له شعر. ولي قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين. وتوفي بلورقة عام ٥٤٢هـ وقيل غير ذلك. له (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز).

انظر: نفح الطيب، للشيخ أحمد المقري التلمساني (١/ ٥٩٣).

و: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي ص٢٩٥.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٣٣٦).

(٣) قال ابن عاشور في تفسيره ٢١/ ٤٧: «والفطرة أصله اسم هيئة من الفطر، وهو الخلق مثل الخِلْقة».

وقال نقلاً عن ابن سينا من كتابه النجاة: فالفطرة الصادقة هي مقدمات وآراء مشهورة محمودة أوجب التصديق بها إما: شهادة الكل مثل أن العدل جميل وإما شهادة الأكثر، وإما شهادة العلماء أو الأفاضل منهم. أ.هـ.

انظر: التحرير والتنوير ٢١/ ٤٨.

الرسل عليهم سلام الله، أو استعداد الإنسان لمعرفة آيات الله والاستدلال بها عليه سبحانه[١] ـ وهذا الذي أقصده في حديثي عن أدلة التوحيد الفطرية[٢] ـ فإن الشاهد من هذا كله أن الفطرة حقيقة موجودة ومغروسة في نفس كل إنسان، دلت على ذلك عدة أدلة كالآتي:

---

(١) وهناك أقوال أخرى ضعيفة في معنى الفطرة. انظر: الفطرة، للقرني ص١٦٧-١٧٢.

وقد قسم الشيخ السعدي رحمه الله شرائع الفطرة إلى قسمين، حيث قال: «والمقصود أن الفطرة شاملة لجميع الشريعة، باطنها وظاهرها، لأنها تنقي الباطن من الأخلاق الرذيلة، وتحلّيه بالأخلاق الجليلة، التي ترجع إلى عقائد الإيمان والتوحيد.. وتنقّي الظاهر من الأنجاس والأوساخ وأسبابها، وتطهره الطهارة الحسية والطهارة المعنوية».

انظر: بهجة قلوب الأبرار، للسعدي ص٧٠-٧١. والمفهوم من كلام السعدي أن شرائع الفطرة تنقسم إلى قسمين:

أ ـ قسم يطهر الباطن (القلب والروح) وهو الإيمان بالله وما يتعلق بذلك من خوف ورجاء ومحبة وإنابة... إلخ.

ب ـ قسم يطهر الظاهر (الجسد) وهي أحكام الشريعة المتعلقة بسنن الفطرة الواردة في حديث النبي ﷺ كما في قوله: «عشر من سنن الفطرة ـ أي من سنن الأنبياء التي سنُّوها لأممهم ـ قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم ـ أي عقد الأصابع ومفاصلها ـ ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء يعني الاستنجاء، قال الراوي: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة» أخرجه مسلم في١/ ٢٢٣ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) وإن كان بعض الباحثين قد رجّح أن المقصود بالفطرة الإسلام ودلّل على ذلك وأكّد أنه قول أكثر أهل العلم، ورد على المعارضين لهذا القول.

انظر: الفطرة، للقرني ص١٣٢-١٥٩.

و: دليل الأنفس، لمحمد عزالدين ص٢٠-٢٤. و: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، لعثمان علي حسن ١/ ١٨٧-٢٠٥.

«المطلب الثاني»

«أدلة وجود الفطرة في النفس الإنسانية»

أولاً: أدلة القرآن الكريم على وجود الفطرة (الإيمان الفطري):

لو لم تكن الفطرة والإيمان الفطري قد غُرسا في نفس الإنسان وباطنه لما خاطب كل الرسل أقوامهم بقوله تعالى: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (إبراهيم: ١٠) لقد صرَّحت بعض آيات القرآن الكريم بوجود الفطرة في النفس الإنسانية، وأمرت بلزومها، وأوجبت اتباعها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[1] سبق تفسير هذه الآية[2]، والشاهد منها أنها تدل دلالة صريحة على أن الله تعالى قد فطر الناس جميعاً على معرفة الحق والقبول به، قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ «أي خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين، وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم، غير مجافية لها، غير نائين عنه، ولا منكرين له، مثل إثبات الوحدانية لله، لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح، حتى لو تُرك الإنسان وتفكيره ولم يُلقَّن اعتقاداً ضالاً لاهتدى إلى التوحيد بفطرته ... وفي الآية تصريح بأن الله خلق الناس سالمةً عقولهم مما ينافي الفطرة من

---

(١) (الروم: ٣٠) ويتضح من الآية أن أصل الفطرة ثابت لا يقدر أحد على تغييرها ولا تبد يلها، إلا ما كان من ظاهر، أما حقيقتها فلا.

(٢) انظر ص ٢٠١.

الأديان الباطلة، والعادات الذميمة، وأن ما يدخل عليهم من الضلالات ما هو إلا من جراء التلقي والتعود....»[(١)].

وقال أيضاً: «فوصف الإسلام بأنه فطرة الله معناه أن أصل الاعتقاد فيه جارٍ على مقتضى الفطرة العقلية»[(٢)].

وهكذا جاءت بعض آيات القرآن تصرِّح أن الله تعالى خلق الفطرة في نفس كل إنسان[(٣)] وجاءت آيات أخرى تشير إلى ذلك إشارة، منها قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية: ٢١) وغيرها من الآيات التي جاءت ألفاظها دالة على أن للإنسان سابق معرفة بشي معين قد نسيه واحتاج إلى تذكير به[(٤)]،

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٤٨-٥٠ بتصريف يسير. وانظر: (أصول النظام الاجتماعي) و(مقاصد الشريعة) لنفس المؤلف.

(٢) نفس المرجع ٢١/ ٤٩.

(٣) منها قولة تعالى في سورة الأعراف ١٧٢ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ وهذا على مذهب القائلين بأن الفطرة هي الميثاق الذي أخذه الله، ومن الآيات ما ورد في سورة المائدة ٧، يـسن ٦٠، الرعد ٦٠، الحديد ٨.

(٤) كما في قوله تعالى عن الكفار والعصاة: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ (المجادلة: ١٩). وقوله سبحانه عن المنافقين ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (التوبة: ٦٧).

وقوله سبحانه لمحمد ﷺ في أول ما نزل عليه من القرآن ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ١-٥) قال ابن تيمية رحمه الله معلقاً على ما جاء في صدر سورة العلق: ذِكْرُ ـ الرب ـ في الموضعين بالإضافة التي توجب التعريف، وأنه معروف عند المخاطبين، إذ الرب معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق، وأن المخلوقين مع أنه دليل وأنه يدل على الخالق، لكن هو معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال، ومعرفته فطرية، مغروزة في الفطرة، ضرورية بديهية أولية) انظر الفتاوى ١٦/ ٣٢٤.

فرسول الله ﷺ، وقبله كل الأنبياء والرسل إنما بعثهم الله للذكرى والدعوة إلى لا إله إلا الله كما تدل عليه أكثر آيات التوحيد[١]، ولم يبعثهم الله لإثبات وجوده، أو إنشاء العلم به في قلوب الناس بعد أن لم يكن معلوماً سبحانه، ومما يؤكد هذا الأمر أنه لم يثبت أن الرسل عليهم سلام الله كلفوا أقوامهم بمعرفة الله والاستدلال على وجوده سبحانه، فيقين الإنسان بوجود ربه وبعض صفاته، وعلمه بذلك مسألة فطرية جاء القرآن للتذكير بها فقط[٢].

ثانياً: أدلة السنة النبوية على وجود الفطرة (الإيمان الفطري):

وردت عدة أحاديث نبوية صرّحت بوجود الفطرة في نفس كل مولود خلقه الله من بني آدم عليه السلام، منها قوله ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء[٣] هل تُحسّون فيها من جدعاء[٤]**»[٥] قال أبو هريرة معقباً على هذا الحديث ـ بعد أن رواه ـ «فِطْرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم»، والشاهد أن تصريح النبي ﷺ بأن كل مولود يولد على الفطرة دليل على وجودها في نفس كل إنسان خلَقه الله، وكما صرّحت بعض الأحاديث بذلك، فقد ذكر البعض الآخر منها أن الله خلق الفطرة في النفس الإنسانية قبل أن يخلق أجساد العباد،

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

(٢) وانظر فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٣٣٠.

(٣) جمعاء أي: مجتمعة الأعضاء، سليمة من النقص.

(٤) جدعاء أي: مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء. انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٤/ ٢٠٤٧.

(٥) سبق تخريجه ص ١٩٩.

كقوله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: ألا تشرك بي (أحسبه قال) ولا أدخلك النار، فأبيت إلا الشرك»(۱).

ووجه دلالة الحديث: أن من أهل العلم من فسّر الفطرة بالميثاق الذي أخذه الله من بني آدم عليه السلام كما سبق ذكره(۲).

وهناك أحاديث أخرى أشارت إلى خلق الله للفطرة في نفوس البشرية قبل إيجادها(۳)، وفيما سبق الكفاية.

ثالثاً: شهادة العلماء بوجود الفطرة:

سبق ذكر اختلاف أهل العلم في المقصود بالفطرة(٤).

وكان من أقوالهم أن الفطرة هي: الخِلْقَة والجِبلَّة التي فطر الله خلقه عليها، ليهتدوا إليه بهداية فطرية، ضرورية، بدهية، أولية، كما قال ابن تيمية(٥).

---

(۱) أخرجه مسلم في ٤/ ۲۱٦۰-۲۱٦۱ في كتاب صفات المنافقين، باب طلب الكافر الفداء..، برقم ۲۸۰٥ عن أنس بن مالك، وأخرج أحمد نحوه في مسنده ۳/ ۳٦۹ برقم ۱٤۰۹۱.

(۲) انظر: ص ۲۰۰.

(۳) ومن ذلك ما ورد في قوله ﷺ في بعض خُطبه: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم ـ أي أزالوهم ـ عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً». أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ۲۱۹۷، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم ۲۸٦٥ عن عياض بن حمار المجاشعي.

(٤) انظر: ص ۱۹۹.

(٥) انظر: الفتاوى ۱٦/ ۳۲٤.

وبناء على ذلك فيمكن تقسيم شهادة أهل العلم بوجود الفطرة إلى قسمين:

القسم الأول: شهادة العلماء المعاصرين بوجود الهداية الفطرية.

القسم الثاني: شهادة علماء الشريعة بإجماع البشرية على معرفة الله فطرياً.

ولنبدأ بالقسم الأول:

أولاً: شهادة العلماء المعاصرين بوجود الهداية الفطرية:

لم يكن ابن القيم الجوزية ـ وهو من العلماء السابقين ـ هو الوحيد القائل بوجود هداية فطرية لبعض الطيور والحشرات[١] فقد قال بعض علماء الإسلام المعاصرين بوجود هداية فطرية وإلهام فطري لكل المخلوقات لتهتدي إلى مصالحها ومقتضى حياتها وما قدَّره الله لها في هذا الوجود بجلب الخير ودفع الشر عن نفسها ونحو ذلك مما فطرها الله عليه[٢]، وبمثل هذه الشهادة شهد بعض علماء العصر الحديث من فلاسفة عقلانيين[٣]

---

(١) انظر في ذلك كتابه (شفاء العليل) ٢/ ٢٣٢-٢٥١.

(٢) من هؤلاء القائلين بذلك: د/ عمر الأشقر في كتابه (العقيدة في الله) ص١٢٠ وما بعدها.
و: عبد الرحمن الميداني في كتابه (العقيدة الإسلامية) ص٨٥ وما بعدها.

(٣) العقلانيون مصطلح يختلف معناه حسب البيئة والثقافة التي انتشر فيها كما يلي:
أ ـ العقلانيون عند غير المسلمين يراد به الذين لا يؤمنون بخوارق العادات من وحي وغيره، ويردون الحقائق والأحداث إلى التحاكم العقلي ويرفضون ما لا يتوافق معه.
ب ـ العقلانيون عند المسلمين هم الذين قدموا العقل على النقل أي اعتمدوا على النظر العقلي لدراسة الحقائق، فما قبله العقل أقروا به، وما رده ردوه – وخاصة عند التعارض الظاهري بين العقل والنقل أو الدليل العقلي والدليل الشرعي. ومن هؤلاء العقلانيين المعتزلة، والفلاسفة المسلمين السابقين.

أو تجريبيين[١]، وعلماء نفس وغيره، والذي يهمنا هنا شهادة علماء النفس وأصحاب النظريات التربوية، لمناسبة ذلك مع عنوان البحث ـ فقد ذكر عدد من علماء النفس الدارسين للبنية الداخلية المتعلقة بالطبيعة النفسية لكل إنسان وسلوكه الصادر عنه، وجود عدة دوافع لها تأثير على سلوكه الشخصي والاجتماعي منها:

أ ـ الدوافع الفطرية هي دوافع تدفع الإنسان لسلوكٍ معيّن وهي «ما كانت مثيراتها فطرية، وأهدافها فطرية أيضاً»[٢] وتنتقل عن طريق الوراثة فلا تحتاج لتعلم واكتساب، وتظهر منذ ميلاد الإنسان، أو في سن مبكرة من حياته، وقد قسّمها علماء النفس إلى عدة أقسام كما يلي:

القسم الأول: دوافع تكفل المحافظة على بقاء الفرد، وتُسمّى بالحاجات العضوية أو الفسيولوجية، كالجوع والعطش والنوم، ونحو ذلك[٣].

القسم الثاني: دوافع تكفل المحافظة على بقاء النوع كالدافع الجنسي الغريزي، ودافع الأمومة.

القسم الثالث: دوافع الطوارئ، وهي دوافع وثيقة الصلة بالنوعين السابقين، وهدفها المحافظة على بقاء الفرد وبقاء النوع مثل: دوافع الهرب ودافع المقاتلة، ونحو ذلك.

---

(١) التجريبيون هم الذين يقابلون العقلانيين، وهم الذين يعتمدون على الملاحظة الحسية، والتجارب لدراسة الحقائق وإثبات صحة النظريات، ويرفضون ما سوى ذلك.
انظر: الفطرة، للقرني ص٤١١-٤٥٨.

(٢) أصول علم النفس، د/ أحمد عزت راجح، دار القلم، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ص٨٥ بتصرف يسير.

(٣) انظر المرجع السابق ص٨٨.

القسم الرابع: دوافع تمكّن الفرد من التعرف على البيئة المحيطة به، وتساعده على إعداد نفسه للحياة، مثل دافع الاستطلاع، ودافع اللّعب ـ كما عند الأطفال ـ .

وأكّد علماء النفس أن سلوك الإنسان قد ينتج عن:

ب ـ الحاجات النفسية الأساسية: كحاجة الإنسان للأمن النفسي، والتقدير الاجتماعي، وغير ذلك[١].

وقالوا بوجود ما يسمى بـ :

ج ـ الدوافع اللاشعورية: مثل: «الهفوات التي تقع من الإنسان، وفلتات اللسان، وزلات القلم، والنّسيان، وإضاعة الأشياء، وغير ذلك»[٢].

فالدافع اللاشعوري هو «الذي لا يشعر الفرد بوجوده وطبيعته أثناء قيامه بالسلوك الناتج عن هذا الدافع»[٣] كالأنانية والبُخل والغرور والتفاخر، والقسوة على شخص معين، والرحمة على غيره، والحب لفلان من الناس، وبغض آخر..إلخ.

وقال علماء النفس بوجود ما يُسمى بـ (العقل الباطن) لدى كل إنسان وهو عبارة عن: «مجموعة من العوامل والعمليات والدوافع التي تؤثر في سلوك الفرد وتفكيره ومشاعره دون شعوره بها أو بكيفية تأثيرها»[٤] ويدرس أيضاً ردود الفعل الناتجة عن:

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٨.

(٢) نفسه، ص١٣١-١٣٤.

(٣) نفس المرجع، ص ١٣٥.

(٤) نفس المرجع، ص١٣٧.

د ـ الانفعالات وهي عبارة عن: «حالة جسمية نفسية ثائرة يضطرب لها الإنسان كله جسمياً ونفسياً.. إلخ»[١] كالخوف والقلق والغضب والنشوة والهم والغم والاكتئاب وغير ذلك.

فكل ما سبق ذكره من دوافع وحاجات وانفعالات بناء عليها يكون سلوك الإنسان ـ وهي محاور أساسية في علم النفس الحديث ـ يشهد أن كل إنسان ولد وهو مفطور على ذلك، لا يستغني عنه، ولا يمكنه اقتلاعه ـ وإن أمكنه تهذيب ذلك وتوجيهه ـ.

ويشهد علم النفس الحديث أيضاً بوجود الفطرة في نفس كل إنسان من خلال دراسته لما يسمى بالفروق الفردية بين الناس، والاستعدادات الذاتية لكل فرد، وتميّز شخصية كل إنسان عن غيره،.. إلخ.

وهذا كله يدل على أن الله سبحانه وتعالى فطر كل إنسان على خصائص جسدية ونفسية تكوّنت معه منذ خلْقِ الإنسان عندما خلقه الله كما قال تعالى: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ ﴾ (الطارق: ٦، ٧). وعندما أرسل الله ملك نفخ أرواح الأجنة في بطون أمهاتهم، لنفخ روح كل إنسان سيولد على هذه الحياة، ثم ظهرت هذه الخصائص والمميزات لكل إنسان عندما أذن الله بميلاده في الحياة الدنيا، وصدق الله القائل ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١) ليس فقط لنعرف عظمة الخالق ووحدانيته في أنفسنا فحسب، ولكن أيضاً لنستدل من خلال علم النفس الحديث على وجود الفطرة في كل نفس خلقها الله.

---

(١) نفس المرجع، ص١٥٣.

هذه شهادة علماء النفس على وجود الفطرة في كل إنسان.

وبمثل هذه الشهادة شهد أصحاب النظريات التربوية الحديثة، وقالوا بوجود ما يمكن أن نسميه بـ(مبادئ الهداية الفطرية) لكل مخلوق خلقه الله ـ ومن ذلك الإنسان ـ وأكّد هؤلاء على ضرورة الاهتمام بها، وتحدث هؤلاء عن:

أ ـ الفطرة الخيرة: حيث قال بعضهم(١): «إن كل قوى الإنسانية الخيِّرة الطاهرة ليست ثمار الفن، أو نتاج الصُدفة، وإنما هي هبات طبيعية(٢) مُنحت لكل إنسان حي، ولذلك يجب أن يكون ارتقاؤها وتطورها هدف الإنسانية»(٣).

وقد اعتبر صاحب هذا القول الطفل في بيئته التربوية مثال بذرة شجرة قُرب ممر مياه غزيرة، احتوت البذرة على كل خصائص الشجرة وشكلها وجذورها وغير ذلك، وكما أنه بالمياه يمكن إظهار كل تلك الخصائص المودعة في البذرة، فكذلك بالتربية يمكن أن نربي ونُظهر في الطفل كل قواه وملكاته الأخلاقية والعقلية والعملية وغيرها، التي غرسها الله فيه وفطره عليها، وأن نُجنب نموه الطبيعي من أي تأثير سيئ عليه كالشجرة تماماً.(٤).

---

(١) القائل هو العالم التربوي بستالوتزي، انظر: مفهوم الفطرة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي (نظرة تربوية) ص ٨٧ لعبد الله زايد البيشي، جامعة أم القرى، ط (بدون) مطبوع على الآلة الكاتبة، ١٤١٦هـ، مكة ـ السعودية.

(٢) مصطلح (هبات طبيعية) لا يتوافق مع مصطلحات المعتقدات الإسلامية، والصحيحة (هبات إلهية) ويعذر القائل لعدم إيمانه بالله. وانظر مزيداً من التعليق على مثال ذلك في ص ٦٧٨.

(٣) انظر الفطرة، للقرني ص٤٦١.

(٤) انظر المرجع السابق (نفس الصفحة).

وما أقرب قوله هذا من حديث النبي ﷺ السابق ذكره الذي قرر فيه أن: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمجِّسانه... الخ الحديث**»(١).

وقال هؤلاء أيضاً بوجود ما يمكن أن نسميه بـ

ب ـ صوت الفطرة المحايدة، كما يتضح من العبارة الآتية: «الفرق بين الحيوان والإنسان هو أن الحيوان يتتبع الغريزة تتبعاً أعمى، بينما هناك صوت في الإنسان يأمره بالسيطرة عليها، ويوجهه حتى ينال مكانته في المستوى الأخلاقي»(٢).

وإذا كانت شهادة علماء النفس قد أكّدت وجود الخير في فطرة كل إنسان، وأخبرت عن نداء الفطرة لسلوك الأخلاق الحسنة(٣)، فإن شهادة غيرهم من العلماء الغرب قد أكدت فطرية الشعور بوجود خالق لهذا الكون ـ وإن لم تدرك هذه الفطرة حقيقة هذا الخالق وصفاته، حيث قال أحد علماء العصر الحديث: «إن كل إنسان يحمل في نفسه (فكرة العِلِّية)، وإن هذه الفكرة كافية لتكوين

---

(١) راجع تخريج الحديث ص ١٩٩.

(٢) مفهوم الفطرة، للبيشي ص ٨٨.

وانظر: الفطرة، للقرني ص٤٦١.

(٣) مع ملاحظة أن بعض علماء النفس قد أنكر وجود الفطرة الخيرة، أو المبادئ العقلية الفطرية في كل إنسان، واعتبر الشر متأصّل في كل ذات، وأن كل ما يظهره الإنسان من صفات حسنة إنما هو من باب المكر والخداع والحيل ليصل المرء لإشباع شهواته وغرائزه وخاصة التي يسيطر عليها الدافع الجنسي، ومن هؤلاء المنكرين لوجود الفطرة الخيرة (فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسي)، أ. هـ.

انظر: مفهوم الفطرة، للبيشي ص٩٧-٩٩، والفطرة، للقرني ص٤٤٦-٤٤٨، ص٤٦٢-٤٦٣، وأصول علم النفس، د/ أحمد عزت راجح ص٦٤.

العقيدة، إن ثمة آلهة صانعة وخالقة للكون، وإن كل إنسان لديه فكرة عن صنع الأشياء، إنه يعتقد في وجود صانع يفعلها،..»[١].

هذا الصانع هو الخالق سبحانه وتعالى كما قال عز من قائل: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الزمر: ٦٢) وقال في موضع آخر ـ على سبيل الاستفهام الانكاري ـ ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ (فاطر: ٣) ولهذا أرسل الله رسله وأنزل كتبه لتعريف الخلق بحقيقة هذا الخالق، وأسمائه وصفاته وما يحب وما يبغض، وما يقرب إليه وما يباعد عنه، سبحانه وتعالى..إلخ.

ثانياً: شهادة علماء الشريعة بإجماع البشرية على معرفة الله فطرياً (الإيمان الفطري):

ذكر أهل العلم إجماع كل البشر ـ سواء إجماعاً قولياً أو فعلياً ـ على وجود خالق للكون يملكه ويدبّر شئونه، وهذا ما يمكن أن نسميه بـ(الإيمان الفطري)، ولم ينكر هذا إلا شواذ الخلق وقد سبق التعليق على ذلك[٢]، أما بقية الخلق ممن لم تُطمس فطرتهم، ولم يُختم على قلوبهم فقد أجمعوا بلسان الحال أو لسان المقال على وجود الله ومعرفته وربوبيته سبحانه، وقد عبر عن هذا الإجماع ابن تيمية رحمه الله حيث قال: «ومعلوم أن أحداً من الخلق لم يزعم أن الأنبياء والأحبار والرهبان والمسيح ابن مريم شاركوا الله في خلق السماوات والأرض، بل ولا

---

(١) قائل هذه العبارة هو العلامة الإنجليزي أندريه لينج، مع ملاحظة أن مصطلح (خالق) أفضل من لفظ (صانع) لتوافق ذلك مع مصطلحات العقيدة الإسلامية. انظر: روح الدين الإسلامي، لعفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، ط٢٣، ١٩٧٢، بيروت ص١٠. وانظر تعليقنا على مثل هذه العبارات فيما يأتي ص ٦٧٨.

(٢) راجع ص ١٨١.

زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، بل ولا أثبت أحد من بني آدم إلهاً مساوياً لله في جميع صفاته، وقد ذكر أرباب المقالات ماجمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والأديان فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات، ولا مماثل له في جميع الصفات..»[١].

وقال ابن أبي العز الحنفي[٢] ـ في شأن إجماع الخلق بفطرتهم على وحدانية الله في ربوبيته ـ : «وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل فيما حكى الله تعالى عنهم: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠)»[٣].

وهكذا أجمعت البشرية بفطرتها على معرفة الخالق المالك المدبر سبحانه وتعالى.

---

(١) الفتاوى ٣/ ٩٦-٩٧ باختصار، وقال ابن تيمية أيضاً: (بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس شريكه مثله، بل عامتهم يقرون بأن الشريك مملوك له، سواء كان ملكاً أو نبياً أو كوكباً أو صنماً، كما كان مشركو العرب يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وماملك..» أ.هـ. انظر: الفتاوى ٣/ ٩٦-٩٧.

(٢) هو: القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الأذرعي الدمشقي، ولد عام ٧٣١هـ، فقيه، كان أقضى القضاة بدمشق، ثم بالديار المصرية، ثم بدمشق مرة أخرى، وامتُحن بسبب اعتراضه على قصيدة لابن أيبك الدمشقي. توفي عام ٧٩٢هـ، له كتب منها: (التنبيه على مشكلات الهداية) في الفقه و(النور اللامع فيما يُعمل به في الجامع) أي جامع بني أمية.
انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني ٣/ ٨٧.
و: شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ٦/ ٣٢٦ (وهو عنده باسم محمد بن علي).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٧٦.

فمثل الفطرة مع معرفة الحق سبحانه وتعالى كما قال ابن تيمية: «مثل ضوء العين مع الشمس، وكل ذي عين لو تُرِك بغير حجاب لرأى الشمس، والاعتقادات الباطلة العارضة من تَهَوُّدٍ، وتَنَصُّرٍ، وتَمَجُّسٍ، ـ ونحو ذلك ـ مَثَلُ حجاب يحول بين البصر ورؤية الشمس»[١]. والشاهد من كل ما سبق أن الفطرة موجودة مغروسة في كلِّ ذي روح خلقه الله سبحانه وتعالى[٢].

رابعاً: أدلة العقل والواقع على وجود الفطرة:

سبق القول أن الفطرة تعني «النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق»[٣]، ليهتدي إلى مصالحه ـ هداية فطرية ـ بجلب الخير لنفسه ودفع الشر عنها. وهي كذلك تعني معرفة الحق[٤]، والاستعداد للقول به، ومن هذا المنطلق يمكن القول بوجود الفطرة في كل ذي نفس، بدلالة عدة أدلة عقلية واقعية، منها:

---

(١) الفتاوى: ٤/ ٢٤٧.

(٢) بل سائر المخلوقات التي فطرها الله على تسبيحه والسجود له كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء: ٤٤). وكما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (الحج: ١٨)، وغيرها من الآيات.

(٣) انظر تفسير ابن عاشور ٢١/ ٤٨.

(٤) وقال ابن عطية الأندلسي «والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة ـ أي الفطرة ـ أنها الخِلقة والهيئة التي في نفس الطفل، التي هي معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله، ويستدل بها على ربه، ويعرف شرائعه».

انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣/ ٣٣٦، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (٤٨٠-٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، بيروت ـ لبنان ٣/ ٣٣٦.

١ ـ الشعور الفطري الوجداني المغروس في كل إنسان، والاندفاع الذاتي لما فيه مصلحته في واقعه فانسياق الطفل الحديث الولادة إلى ارتضاع ثدي أمه، دون تعليم معلِّم، ولا إدراكٍ عقلي، ولا حِسّ ظاهر، دليل وجود الهداية الفطرية[١]. وشعور الأم بعاطفة الأمومة نحو رضيعها سواء علمت السّر في ذلك أو لم تعلم، دليل وجود الفطرة.

ودفاعنا عن أرواحنا وحياتنا، وحرصنا على بقائها دليل وجود هداية فطرية لصرف الشر عن أنفسنا.

إننا نشعر بكثير من المعاني والمفاهيم والأحاسيس الوجدانية كالحب والبغض والرغبة والكراهية[٢]، ونُعجب بكثير من القيم والأخلاق الصحيحة النافعة الفاضلة كالصدق والأمانة والشجاعة والعدل ونحو ذلك، دون أن نتعلم في ذلك دروساً، أو نتلقّى توجيهاً بضرورتها وأهميتها لصلاح حياتنا، سوى ما أودعه الله فينا من هداية فطرية لحب الخير والسّعي إليه وبُغض الشَّر والنفور منه أو عنه.

٢ ـ ما نراه من استعداد النفوس الصافية، وأهل الفِطر السليمة ـ بدون استثناء ـ للتزكية وتعلُّم الخير واكتسابه، والتحلّي بالفضائل، وبالمقابل أيضاً استعداد كل نفس لانتزاع الشّر منها واقتلاع الرذائل، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

---

(١) وهناك هداية فطرية للحيوانات والحشرات هداها الله بها لما يُصلح لها حياتها.

انظر: العقيدة في الله للشيخ الدكتور/ عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، ط١٠، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، عمّان ـ الأردن. ص١١١ وما بعدها.

(٢) العقيدة الإسلامية، لعبد الرحمن الميداني ص٨٧ بتصرف.

ﵟٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖﵞ (الجمعة: ٢) وهذا ما ميّز الله به الإنسان عن الحيوان، فقد أكرمه بعقلٍ يعرف الحق، وفِطرة تقبله، ورسولٍ يُعلّمه ويزكّيه بدين عظيم يتوافق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

٣ ـ كثرة التساؤلات الفطرية عمّن خلق الكون بسمائه وأرضه وكل ما فيه ومن فيه؟ ومن أوجد الحياة؟ ومن خلق الإنسان؟...إلخ وخاصّة ما يكون من الطفولة البريئة ـ ذات الإضاءة الفطرية والإشراق الروحي ـ كما هو مشاهد وملموس في واقع كثير من الآباء والأمهات، فإذا اقترب الطفل البريء الصافي الفطرة من سن التكليف لمسنا تغيُّر أفكاره وسلوكه بل ربما مِلّته ومذهبه في هذه الحياة، نحو الخير أو الشر، أو اليهودية وغيرها من الملل، بحسب البيئة المحيطة به مِنْ وَالِدَيْنِ ومجتمع وتعليم وإعلام... إلخ.

٤ ـ ما نجده كلّ فترة في واقع الشعوب الغربية غير المسلمة من تقنينٍ وتشريعٍ لمبادئ ونظم، تنظّم حياتها، وتُسعدها، وتحقّق لها الأمن والأمان، بإيجاد المواطن الصالح في بلدانهم بين شعوبهم[1]، حتى اشتهر الأعاجم بالسبق الحضاري فيما يُسمّى بحقوق الإنسان، بل الحيوان.

وإذا تأملنا في واقع نظم وتشريعات هذه البلدان، نجدها اقتربت كثيراً ولا زالت تقترب يوماً بعد يوم من مبادئ الإسلام العظيمة المتعلقة بتكريم الله للإنسان، وضروراته الخمس المتعلقة بالدين والنفس والعقل والمال والعرض أو (النسب)، بل نجد كثيراً من دساتير بعض هذه البلدان اعتمدت على قواعد أصولية وفقهية مقتبسة

---

(١) ولكن الشريعة الإسلامية جاءت لإيجاد الإنسان الصالح ليس لشعبه وفي بلده فقط، بل لكل زمان ومكان ومع كل الشعوب المسالمة والمحاربة.

من دين الإسلام في تقنين قوانينها السياسية والاجتماعية والشخصية وغير ذلك[١]. ولا مبالغة لو قلنا إن نظم المجتمعات الغربية ودساتيرها الصالحة تقترب من خلاصة الفطرة الآدمية. وكلُّ هذا إن دلَّ فإنما يدل على وجود الفطرة في نفوس هؤلاء وأمثالهم، الفطرة التي تدفعهم إلى الاقتراب من دين الفطرة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٣٠).

٥ ـ اتفاق عقلاء البشرية وإنصاف المنصفين من الباحثين وعلماء الغرب بأن ما جاء به الإسلام من تعريف المعروف وإنكار المنكر هو حقٌّ، وقبولهم لذلك، بل أبدى بعضهم إعجابه الشديد بمعتقدات وتعاليم الإسلام ـ حتى وإن لم يُسلم هؤلاء ـ وكَتَبَ البعض الآخر عن عظمة الدين الإسلامي، وسجّلوا شهاداتهم بذلك[٢]. واعترف أكثر من (٢٤٠) عالم من علماء الغرب في الفلك والكيمياء والهندسة والطب وغيرها من العلوم بوجود الله[٣].

---

(١) ومن أفضل المؤلفات ـ حسب علمي ـ في مادة الفقه المقارن التي قارنت بين أحكام الشريعة الإسلامية، والقوانين الوضعية، وأثبتت اقتباس الأخيرة من القواعد الأصولية في الفقه الإسلامي مؤلفات د/ محمد سراج (مصري الجنسية) حيث درَّسنا ذلك في مرحلة البكالوريوس في كلية التربية في جامعة إب، عام ١٩٩٠م تقريباً.

(٢) انظر تفاصيل شهادات المنصفين من العرب في كتاب تربية الأولاد في الإسلام، لعبد الله بن علوان في ١/ ٦-٧.

(٣) وقال الشيخ عبد المجيد الزنداني ـ معلقاً على الإيمان الفطري لهؤلاء الذين حرمهم الله الإيمان الشرعي ـ : «وإذا تأملت إيمان هؤلاء العلماء وجدته قريباً من إيمان المسلم بربه، كما أنه بعيد جداً عن إيمان المشركين الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى ... فما أقرب هؤلاء العلماء إلى إيمان المسلمين، ولو عُرِض عليهم واضحاً بينا لآمن به أكثرهم» أنظر التوحيد، للشيخ الزنداني ص٦٢، دار الخير ط١، ١٤١١ هـ/ ١٩٩٠م بيروت. وانظر: القرآن يتجلى في عصر العلم، للشيخ نزيه القميحاء، دار الهادي، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، بيروت ـ لبنان، ص٢٣٤.

٦ ـ ظهور نزعة التدين لدى البشرية، وبحثها عن إله تعبده، وتتقرب إليه لتشبع هذه النزعة ـ بغضِّ النظر عن هذا الإله هل هو حق أم باطل؟ واحد أم متعدد؟ وعن هذا الدِّين الذي تتعبّد به البشرية، وعن الطريق الذي سلكه الناس للوصول لهذا الإله، وبغضّ النظر أيضاً عن صُوَر عبادة البشرية لهذا الإله، وقديماً علل المشركون عبادتهم للأصنام بقولهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (الزمر: ٣) فدلّ هذا على أنهم فُطِروا على عبادة معبود واتخاذ إله...، فنزعة التدين والتعبُّد نزعة فطرية لدى كل إنسان[١] حتى أن بعض الفلاسفة قد عرَّف الإنسان بأنه حيوان له دين[٢]، وأكد آخرون عدم وجود أُمَّةٍ بلا عبادة ومعابد، فقال أحدهم: «قد وُجِدت في التاريخ مدنٌ بلا حصون.. ولا قصور.. ولا مدارس.. ولكن لم توجد أمة بلا معابد»[٣].

لقد أثبت الواقع أن لدى كل إنسان شعور «بوجود قوّة كبرى مهيمنة على الكون تمنحه التدبير والتنظيم، وتتصرف فيه بالحياة، والموت، والبناء والفناء، والتغيُّر والتطور، والحركة والسكون، وجميع أنواع التغيرات الحكيمة التي تجري فيه، إن الإنسان يشعر بهذه الحقيقة، ويؤمن بها إيماناً عميقاً، سواء استطاع أن يقيم

---

(١) ولا يلزم من قولنا هذا أن كل من تدين بفطرته وصل للدين الحق الموافق للفطرة، فالفطرة ليست حجة في ذاتها مستقلة عن الأدلة الشرعية، قال الشوكاني في فتح القدير ٤/ ٢٩٥ (ولا اعتبار بالإسلام والإيمان الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان).

(٢) انظر: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين، لمصطفى صبري، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى الحلبي، ط (بدون)، ١٩٥٠م، البلد (بدون)، ٢/ ١٤.

(٣) انظر: بحوث في الثقافة الإسلامية، أ.د/ حسن عيسى عبد الظاهر، وآخرون، دار الحكمة، ط١، ١٤١٤هـ الدوحة ـ قطر ص٣٩.

الدليل البرهاني على صدق هذا الشعور أو لم يستطع، فدليل الفطرة، ودليل البداهة شاهد حق، يسبق الشواهد النظرية، وقد يكون أدق منها وأصدق..»[١] ولهذا وجدت العبادة، وظهرت المعابد.

و«عابد النار أو الحجر أو الحيوان أو الشمس أو غيرها إنما عبد معبوداته تلك بعد أن ملكت عليه زمام نفسه، وأخذت بمجامع قلبه، وتمثّلت له قوّة خارقة لا حد لها، إليها مصائر أموره، وعليها مدار ضرّه ونفعه، فآمن بها واستسلم لها، ووجّه إليها وجهه وقلبه وعقله.

وسواء أكان هذا الإيمان منبعثاً من أعماق النفس، أم ملقى إليها من طريق الإيحاء والإغراء، فهو على أية حال إيمان مَلك النفس وخالط المشاعر»[٢]، ودلَّ على وجود الفطرة.

وقد سجّل التاريخ حال أقوام هدتهم فطرتهم السليمة الصافية إلى معرفة رب الكون وحده لا شريك له، من هؤلاء قس بن ساعدة الجاهلية ـ من الحنفاء ـ[٣]، فقد روى ابن كثير رحمه الله عنه خطبة تدل على وصول فطرته لمعرفة الإله الحق بعد بحث واستقراء ونظر حتى قال ـ مخاطباً قومه: «...إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور،

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها، لعبد الرحمن الميداني ص٨٦.

(٢) العلم يدعو للإيمان، كريسي موريسون، دار القلم، ط(بدون)، د.ت ـ بيروت ـ لبنان ص٢٣. والنص المقتبس هو جزء من تصدير الكتاب للشيخ أحمد حسن الباقوري (مدير جامعة الأزهر سابقاً).

(٣) ومنهم أيضاً: ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وغيرهم ممن ترك عبادة الأصنام، ولم يشاركوا قومهم في الشرك بالله، انظر: سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٩-٢٦٨.

أيها الناس إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه..»[١]، أ.هـ. وقصة الأعرابي الذي عرف ربه من خلال آثار مخلوقاته معلومة للجميع.

إن هذا الشعور الفطري بوجود الله، ليس خاصاً بفرد دون آخر، أو قوم دون غيرهم، بل هو عام في كل مخلوق عاقل، إنه شعور «يقوم في نفس الطفل الصغير، والإنسان البدائي، والمتحضّر، والجاهل والعالم، والباحث، والفيلسوف، والعبقري، ...، والخبير في المعمل، كل هؤلاء يشعرون بشعور مشترك، أن الله حق، وأن القوة القابضة على ناصية كل شيء، العالمة بكل شيء، الحكيمة المريدة، لا شك فيها، ... هذه صبغة الله في كل مخلوق مدرك..»[٢].

ولكن كما قال صاحب العقيدة الإسلامية «قد تُظلم مرآة الفطرة في الإنسان، بدخان نار الشهوات، أو سحب الشكوك والشبهات، فتختفي عنها بعض الحقائق الظاهرة في الكون، وعند ذلك تدعو الضرورة إلى إقامة الأدلة النظرية[٣]، ليُزال بها عن طريق العقل الظاهر ما غُشِّي على مرآة الفطرة بظلمات الشهوات، والغرائز النفسية، والشكوك المادِّية..»[٤].

٧ـ ومن أعظم وأوضح الدلائل العقلية على وجود الفطرة في نفس كل عاقل، ما نلاحظه في واقع كل إنسان تعرَّض للشدائد والكوارث والمصائب التي لا طاقة له بها، أو ابتُلِي بشرٍّ أو حالة عُسرٍ لا مخرج له منها، فيفقد المرء حينها ثقته

---

(١) انظر: المعجم الكبير، للطبراني ١٢/ ٨٨-٨٩ برقم ١٢٥٦١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها، للميداني ص ٨٨ باختصار.

(٣) سأشرح الأدلة النظرية العقلية بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا الباب ص٢٧٧ وما بعدها.

(٤) العقيدة الإسلامية، للميداني ص٨٩ بتصرف.

وأمله في كل الأسباب المادية والبشرية التي كان يعتمد عليها سابقاً لجلب الخير لنفسه، ودفع الشر عنها، ويتجه إلى رب العالمين، ومسبب الأسباب، ومدبر الكون سبحانه، الذي يغيث كل مستغيث، وينصر كل مظلوم، ويجيب كل مضطر، كما قال سبحانه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ... ﴾ (النمل: ٦٢) ليترجم العبد بهذا الالتجاء لربه ـ بجسده وروحه، وكل أحاسيسه ومشاعره، ومعتقداته وتصوراته، إيمانه بربوبية الله وحده.

وأن الله وحده، هو النافع والضار، والمعطي والمانع، وهو على كلِّ شي قدير، لا يعجزه شيء في الكون، وأنه سبحانه هو الرحمن الرحيم، السميع البصير، العليم المجيب، وغير ذلك من أسماء الله وصفاته التي تتجلى في مثل هذه المواقف الشاقة والعسيرة التي يمر بها كل إنسان.

وهكذا نرى كل مهموم ومغموم يضطر ـ بدافع الفطرة الخالصة السليمة الصافية ـ للالتجاء إلى سعة رحمة الله، والاعتراف بربوبيته سبحانه بعد أن نسيها أو تغافل عنها حال اليسر والطمأنينة والنعمة، «فالشعور بوجود الله تعالى، والإذعان بخالقٍ وقادرٍ فوق المادة، محيطٍ من وراء الطبيعة، أمر غريزي في الإنسان، مفطور عليه، لا تغيِّره رِيَبُ المرتابين، ولا تزلزله شكوك المشككين»[1].

(١) كتاب دلائل التوحيد، للشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي (١٢٨٣-١٣٣٢هـ)، تقديم ومراجعة: محمد حجازي، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مطبعة المدني، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، القاهرة ـ مصر ص٢٤ باختصار.

«المطلب الثالث»

«علاقة الفطرة بالعقل»

سبق تعريف العقل لغة واصطلاحاً[١]، وبيان معنى الفطرة[٢]، وسبق أيضاً ذكر أربع طرق لمعرفة الله والهداية إليه[٣]، منها الفطرة الصافية والعقل الصريح.

وبناء على ذلك يمكن القول بوجود ارتباط وثيق بين فطرية معرفة الله والإقرار بوجوده، وبين النظر العقلي الموصِّل لذلك، وحتى يتضح هذا الأمر يمكن تقسيم هذا المطلب إلى الفقرتين التاليتين:

الفقرة الأولى: علاقة الفطرة بالعقل من حيث العموم:

كنت قد أشرت في الفصل التمهيدي من هذا البحث إلى وجود عدة تعريفات للعقل بناء على ما أضيف إليه، منها أن العقل هو الغريزة المدركة، ومنها أيضاً أن العقل هو المعارف الفطرية أو العلوم الضرورية. ومنها أيضاً أن العقل هو إدراك المعارف النظرية المستفادة من التجارب الحسية[٤].

وبناء على ما سبق أقول: إن علاقة الفطرة بالعقل من حيث العموم تتعلق به من ثلاثة أوجه:

---

(١) انظر ص١٠٠.

(٢) انظر ص١٩٥.

(٣) انظر ص١٨١.

(٤) انظر حاشية ص ١٠٨.

الوجه الأول: علاقة الفطرة بالغريزة المدركة:

تتضح علاقة الفطرة بالغريزة المدركة أو ما سماه بعض الباحثين بـ«العقل الغريزي»[١] من حيث:

اتفاق كل منهما ـ العقل الصريح والفطرة الصافية ـ في هداية الإنسان، هداية فطرية غريزية عقلية، لما فيه مصلحته بجلب الخير والسعي إليه، ودفع الشر والنفور منه، فالفطرة تدفع الإنسان لتحصيل أسباب العافية من طعام وشراب ونحو ذلك ـ كما سبق شرحه ـ[٢].

والعقل يؤكد للإنسان أن الضرره حتم لازم سيقع عليه لو تخلى عن أسباب حياته وعافيته، ومعنى هذا أن غرائز الإنسان فطرية خلقها الله في النفس البشرية دون سبق تعليم بأهميتها وضرورتها، أو سابق إنذار بأضرار التخلي عنها، كل هذا لتُساق النفس نحو مقتضياتها، فاتفقت الهداية الفطرية الناتجة عن الشعور الفطري مع النظر العقلي الصحيح.

الوجه الثاني: علاقة الفطرة بالعلوم الضرورية:

تتضح علاقة الفطرة بالعلوم الضرورية أو ما سماه بعض الباحثين بـ«مبادئ العقل الفطري»[٣] من حيث اتفاق كل منهما على تحسين الحسن وتقبيح القبيح، فنحن نجد أن الله تعالى قد غَرَس في فطرة كل إنسان عدّة معاني ومفاهيم وأخلاق فاضلة منذ طفولته كالصدق والأمانة والحياء ونحو ذلك، وأودع فيه

(١) كما أورده علي بن عبد الله القرني في كتابه (الفطرة، حقيقتها ومذاهب الناس فيها) ص٣٣.

(٢) انظر ص٢١٧.

(٣) كما أورده صاحب كتاب الفطرة، حقيقتها ومذاهب الناس فيها ص٣٣-٣٩.

حُبَّها والإعجاب بها، وكرّه إليه الكذب والخيانة ونحو ذلك[١]، كل هذا دون حاجة الإنسان ذوي الفطرة الصافية والعقل السليم لنظر عقلي ودروس وإرشادات عن فريضة وضرورة التحلي بفضائل الأخلاق، وحرمة وأضرار التمسك برذائلها، فكل إنسان مفطور على التسليم بكل ما سبق بمجرد تصوره، دون حاجة إلى برهان، فالغريزة العقلية تقتضيها بالضرورة، ويؤمن بهذا كله أهل العلم وغيرهم من الأميين ـ على حد سواء ـ ويتضح هذا جلياً من خلال اقتراب تشريعات وقوانين الشعوب الغربية وأنظمتها ـ القائمة على النظر العقلي من الفطر التي فطر الله خلقه عليها من حب الخير والسعي إليه، وبغض الشر والنفور منه، كما سبق ذكره[٢].

الوجه الثالث: علاقة الفطرة بالمعارف النظرية المكتسبة:

اعتمد الإنسان في الوصول إلى العلوم النظرية المكتسبة، والمستفادة من التجارب الحسية ـ قياساً أو اقتباساً أو استنباطاً أو غير ذلك ـ على أوليات ومقدمات اقتضت تلك النتائج والنهايات[٣].

---

(١) ومع هذا فلا يلزم من القول بفطريتها أن تكون متحققة بالفعل، بل يمكن أن تكون فطرية مع أن وجودها هو بالقوة لا بالفعل... وهي فطرية ليس بمجرد إمكانها فحسب، بل بوجوب تحققها مع سلامة الحواس والغريزة العقلية.

انظر: المعرفة في الإسلام، مصادرها ومجالاتها، لعبد الله بن محمد القرني، دار عالم الفوائد، ط١ ١٤١٩هـ، مكة المكرمة ـ السعودية ـ ص٣١٠-٣١١.

(٢) راجع ص٢١٥.

(٣) وهذا ما يسميه بعض العلماء بالعلوم الفطرية الضرورية أو البدهيات فالكتابة لابد لها من كاتب، والبناء لا بد له من بان، والجزء أصغر من الكل.. إلخ.

ومن أول هذه المقدمات والأوليات الصادقة اليقينية التي اعتمد الإنسان عليها لاكتساب العلوم هي المعارف الفطرية التي أودعها الله فيه أو ما سبق تسميته بـ«مبادئ العقل الفطرية» فهي أول دليل للمعرفة ـ سواء معرفة الله والإقرار بوجوده أو فهم أسرار الكون ونواميسه ـ وكلما صفت الفطرة وسلمت من أسباب الانحراف كلما كانت علوم العقل ومعارفه المكتسبة صحيحة صريحة.

قال ابن تيمية رحمه الله: «إن مبنى العقل على صحة الفطرة وسلامتها»[١].

ومن هنا يمكن القول إن الفطرة تُقدَّم على العقل عند التعارض، وهي تفيد مالا يفيده القياس[٢].

وتتضح علاقة الفطرة أيضاً بالمعارف النظرية المكتسبة أو العقل من حيث أن الأدلة العقلية تثمر جلاء الفطرة وإيقاظها من غفلتها وتقويم اعوجاجها وخاصة إذا أصابتها شائبة أدت إلى انحرافها وضعف نورها وهدايتها ـ كما سأشرحه فيما يلي من فقرات قادمة[٣] ـ فأدلة القرآن العقلية جاءت لتخاطب الفطرة مباشرة بعيداً على الأقيسة العقلية المعقّدة والطويلة.

---

(١) الرد على المنطقيين، لشيخ الإسلام أحمد عبد الحليم بن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) مصدّر بمقدمة العلامة السيد سليمان الندوي، نشره عبد الصمد شرف الدين الكتبي، المطبعة القيمة، ط (بدون)، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، بومباي، الهند ص٣٢٣.

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ)، تحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، مطبعة (بدون)، ط (بدون)، د.ت، البلد (بدون)، ٢/ ٢٥١ وما بعدها.

و: الرد على المنطقيين ص٣٨١ وما بعدها.

(٣) انظر: ص١١٤٤.

الفقرة الثانية: علاقة الفطرة بالعقل من حيث الاستدلال على الله:

سبق القول أن الإقرار بوجود الله تعالى وربوبيته أمر فطري[١]، وأصل سابق لكل الأصول العقدية القائمة على النظر والاستدلال العقلي.

فمعرفة الله تعالى ضرورة فطرية لا تتوقف فقط على نظر واستدلال واستقراء واستنباط ونحو ذلك بل «إن الله أودع في الفطرة أن تبحث عنه، وتتجه إليه، ...

وقد تهتدي فتعرفه على حقيقته وتعبده حق عبادته، وقد تضل فتتصوّره على غير حقيقته، وتتصور معه آلهة أخرى، ثم تعبده على غير ما ينبغي له سبحانه.. لكنها في الحالين تبحث عن الله وتتوجه إليه وتمارس لوناً من العبودية له»[٢].

ومعنى قولنا: إن معرفة الله ضرورة فطرية، أي فيما يتعلق بالذات الإلهية على سبيل الإجمال من حيث وجوده سبحانه وخَلْقِه وملكه وتدبيره لكل ما في الكون، وأما ما يتعلق بمعرفة الله سبحانه بجميع أسمائه وصفاته على سبيل البيان والتفصيل فلا سبيل لهذا الأمر إلا عن طريق الوحي.

وليس المقصود بقولنا أن معرفة الله مسألة فطرية عدم حاجتنا للنظر والاستدلال العقلي على ذلك، بل نحن بحاجة لهذا الأمر، والقرآن الكريم قد حشد من الأدلة العقلية على وحدانية الله وتوحيده، ما لا يُعد ولا يحصى، ودعا

---

(١) انظر: ص٢٠٤.

(٢) دراسات قرآنية، لمحمد قطب ص ٣٣ باختصار وتصرف يسير.

إلى إعمال العقل فيها، واعتبر ذلك من عوامل إيقاظ الفطرة ومعالجتها، وأسباب تحقيق وتقوية الإيمان وزيادته كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

(آل عمران: ١٩٠، ١٩١).

وهذا يعني: «أنه تعالى منح عباده فطرة فطرهم عليها، لا تقبل إلا الحق، ولا تُؤثر عليه غيره لو تُركت، وأيّدها بعقول تفرق بين الحق والباطل، وكملها بِشِرْعَةٍ تفصِّل لها ما هو مستقر في الفطر، فالفطرة قابلة، والعقل مُزَكٍّ، والشرع مُبصِّر مفصِّل لما هو مركوز في الفطرة، مشهود أصله دون تفاصيله بالعقل، فاتفقت فطرة الله المستقيمة، والعقل الصريح، والوحي المبصِّر المكمّل على الإقرار بوجود فاطر لهذا العالم..»[١].

وصدق ابن تيمية في قوله:

«إن معرفة الله، وإن كانت فطرية ضرورية في حق أهل الفطرة السليمة، لكن كثيراً من الناس يحتاج فيها إلى النظر»[٢] فلا غنى للإنسان عن النظر في كل الأحوال إذ لا يمكن أن يستوي الإيمان الفطري والإيمان القائم على النظر والاستدلال.

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم ٤/ ١٢٧٧.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية ٣/ ٣٠٤ بتصرف وزيادة.

وهذا النظر العقلي قد يكون واجباً في حال فساد الفطرة وانحرافها عن الحق، إذا لم يكن صلاحها إلا به[١].

ومن هنا تتأكد لنا أن علاقة الفطرة بالعقل هي علاقة اتفاق وتعاضد وتكامل وتظاهر في الدلالة على الذات الإلهية، إلا أن المعرفة الفطرية بالله هي أسبق وأهم من المعرفة العقلية، بل هي الأصل والأساس للأدلة العقلية.

(١) انظر المرجع السابق ٨/ ٣٥٨.

ولمعرفة المزيد عن دلالة الفطرة على الله انظر: براهين وأدلة إيمانية، تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، دمشق ـ سوريا ص١٣٧-١٥٢.

«المطلب الرابع»

«صلاح الفطرة وفسادها»

صح عن النبي ﷺ أنه قال فيما يرويه عن ربه: «**خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ...**الخ الحديث»[١] وصح عنه ﷺ قوله: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...**الخ الحديث»[٢] يتبين لنا من خلال الروايتين السابقتين أن الله تعالى خلق عباده حنفاء مائلين عن الباطل، وأودع في نفس كل مولود الفطرة الصافية الصالحة لمعرفة الحق والقبول به، لولا ما يكون من العوامل الخارجية التي تفسد فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وقد قرر أهل العلم أن الفطرة تصلح وتفسد، وأن صلاحها إنما يكون ويستمر ويقوى بعدة أمور منها:

أ ـ النظر في آيات الله القرآنية والكونية[٣]: قال ابن تيمية رحمه الله «الآيات المخلوقة والمتلوَّة فيها تبصرة، وفيها تذكرة، تبصرة من العمى، وتذكرة من الغفلة، فيبصر من لم يكن عرف، ويذكر من عرف ونسي...»[٤].

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٠٧.

(٢) سبق تخريجه ص ١٩٩.

(٣) سأشرح ذلك بالتفصيل فيما يلي من فقرات هذا البحث ص ٣٢٨ وما بعدها.

(٤) الإيمان، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١-٧٢٨)هـ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤١٣هـ، بيروت ـ لبنان ص٢٢٣

ب ـ إرسال الرسل وإنزال الكتب: قرر أهل العلم أيضاً أن إرسال الرسل وإنزال الكتب إنما كان لإيقاظ الفطرة الغافلة[1] وتذكيرها، قال ابن تيميه رحمه الله: «الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها، وتقويته وإمداده، ونفي المغيِّر لها، فالرسل بُعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها، ... والكمال يحصل بالفطرة المكمَّلة بالشِّرعة المنزلة»[2].

وقال تلميذه ابن القيم: «... جاءت الرسل لتذكُّر الفطرة بمعرفة الله ... وتنبهها عليه، وتفصِّل ذلك لها وتبيِّنه، وجاءت لبيان الأسباب المعارضة لموجب الفطرة، المانعة من اقتفاء أثرها، وهكذا شأن الشرائع التي جاءت بها الرسل، فإنها أمر بمعروف، ونهي عن منكر، وإباحة طيب، وتحريم خبيث، وأمر بعدل، ونهي عن ظلم، وهذا كله مركوز في الفطرة، وكمال تفصيله وتبيينه موقوف على الرسل، ونفس الأمر في باب التوحيد وإثبات الصفات، فإن الفطرة الإقرار بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه للخالق سبحانه، ولكن معرفة هذا الكمال على التفصيل مما يتوقف على الرسل»[3].

ج ـ والفطرة أيضاً تصلح بالتقوى التي تعنى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه اتقاءً لعذابه وسخطه، فبالتقوى تُحفظ الفطرة من كل ما يكدرها ويحرفها

---

(١) كما يدل عليه قوله تعالى في خطابه لموسى وهارون عن إرسالهما لفرعون ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه: ٤٤)، وكما في قوله سبحانه لمحمد ﷺ ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ ﴾ (الأعلى: ٩، ١٠).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٣٤٨.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١)هـ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٧هـ، بيروت ـ لبنان ص٤٩٧-٤٩٨ بتصرف يسير.

عن سواء الصراط كما هو المفهوم من قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

قال ابن تيمية مبيناً أثر التقوى في صلاح الفطرة: «... التقوى... تحفظ الفطرة وتمنع فسادها، ...»[١].

د ـ والفطرة قد تستيقظ وتصلح حال وقوع ابتلاءات الشر وما يتبع ذلك من خوف يعتري الإنسان أو أضرار تصيبه، كما هو المفهوم من قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ (الزمر: ٨).

وكما أن الفطرة قد تصلح وتصفو وتسمو وتقوى بعدة عوامل كما سبق بيانه، فإنها أيضاً قد تضعف وتتكدر وتغفل وتفسد لعدة أسباب أخرى، وكما يتضح من الحديث السابق، ومن ذلك:

أ ـ الشياطين التي تحول بين الإنسان وبين الدين الحق: وذلك من خلال تزيينها الباطل، كما يتبين من قوله سبحانه ـ مقسماً بنفسه بـ ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (النحل: ٦٣).

ب ـ البيئة الفاسدة المحيطة بكل مولود نقي الفطرة: فهي قد تفسدها سواء بتأثير الوالدين، أو بقية أفراد الأسرة أو المجتمع المحيط بالإنسان، فمن المعلوم أن الإنسان كائن اجتماعي يتأثر بكل من حوله وما حوله ويؤثر فيهما، ولولا قابلية الإنسان، للتأثير بذلك لما نهى الله عبده عن طاعة والديه في الشرك بالله بعد أن

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٤٣٨ باختصار.

خلقه الله على فطرة التوحيد كما يتضح من قوله سبحانه: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ (لقمان: ١٥).

ومن هنا قد يكون الولد يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً أوغير ذلك بسبب والديه، أو ما يحيط به من عوامل تؤدي إلى انحرافه عن الجادّة من وسائل تعليم وإعلام، وقرناء سوء، وغير ذلك، كما يتضح من نهيه سبحانه لنبيه ﷺ أصلاً وأمته من بعده تبعاً في قوله سبحانه ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (الكهف: ٢٨)، وقوله سبحانه للمؤمنين: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾ (النساء: ١٤٠). وكما يتضح من بقية الآيات التي تؤكد فساد الفطرة بسبب البيئة المحيطة بها سواء ما يتعلق بالعوامل البشرية[1] أو المادية، أو المعنوية، أو الوراثية[2] أو السياسية المتعلقة بولاة الأمر الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون[3].

---

(١) كما هو واضح من قصة بلقيس التي قال سبحانه وتعالى في شأنها ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ (النمل: ٤٣).

(٢) كما سجل القرآن ذلك في شأن الكفار القائلين: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٣).

(٣) كما حصل في جنوب اليمن سابقاً عندما فرض ولاة الأمر حينها الشيوعية على رعيتهم، وآذوا كل داعية إلى التوحيد ودين الحق من أهل العلم والدعاة والمصلحين.

وكما يدل عليه دعاء نوح عليه السلام على قومه الذين كذبوه، وسجل القرآن ذلك، فقال سبحانه على لسان نوح: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (نوح: ٢٦، ٢٧).

ج - ومما يفسد الفطرة أيضاً اتباع الهوى كما يدل عليه قوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (القصص: ٥٠) فقد دلت الآية على أن عدم الاستجابة للحق المغروس في فطرة النفس البشرية إنما هو بسبب اتباع الأهواء الباطلة.

د - ومما يفسد الفطرة أيضاً الكبر وهو: «بطر الحق وغمط الناس»[1]، فالكبر يدفع صاحبه لرد الحق وعدم قبول كل ما يوقظ الفطرة ويزيل ما أصابها من أكدار وشوائب، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر: ٣٥) وما منع إبليس من قبول الحق إلا أنه كما قال تعالى: ﴿ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤).

وصدق الله القائل: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ (الأعراف: ١٤٦).

هـ - ومما يفسد الفطرة ويطمسها الغفلة والإعراض عن ذكر الله وأوامره ونواهيه، ويتضح هذا من تحذيره سبحانه لأهل الإيمان قائلاً: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (الحشر: ١٩) قال ابن تيمية رحمه الله في شرح الآية: «إن الآية تقتضي أن نسيان الله كان سبباً لنسيانهم أنفسهم، ونسيانهم أنفسهم يتضمن إعراضهم وغفلتهم، وعدم معرفتهم بما كانوا عارفين به من قبل ذلك من حال أنفسهم..»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في ١/ ٩٣، في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم ٢٦١، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٣٤٨-٣٤٩.

المبحث الثاني

استشهاد القرآن على التوحيد بالأدلة الفطرية النفسية

تنويه:

قبل الخوض في دلائل التوحيد الفطرية وشرح استشهاد القرآن بها أقول:

تبين من خلال استقراء أدلة التوحيد الشرعية الخبرية (النقلية) أنها تنقسم إلى قسمين كما يلي:

القسم الأول: أدلة توحيد قرآنية.

القسم الثاني: أدلة توحيد نبوية.

وتبين من خلال التأمل في أدلة التوحيد القرآنية أنها تنقسم إلى نوعين كما يلي:

النوع الأول: أدلة توحيد قرآنية لا مجال للعقل لإدراكها، ولا طريق للنفس للشعور بها، ولا يمكن القبول بها وتصديقها إلا من خلال الإيمان الصادق، واليقين الكامل بما ورد في القرآن الكريم الذي قال تعالى فيه ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٢) ونحوها من الآيات.

ومن هذا النوع من الأدلة على وحدانية الله:

١ - الآيات التي صرحت بأن الله تعالى أخذ العهد والميثاق على بني آدم جميعاً عندما خلق آدم عليه السلام ألا يعبدوا إلا إياه[١].

٢ - الآيات التي صرحت بتسبيح الكون وسجوده وقنوته لله[٢].

٣- الآيات التي صرحت بعبادة الملائكة وحملة العرش لله[٣].

٤ - الآيات التي أكدت إرسال الله لرسله وإنزاله لكتبه للدعوة لتوحيد العبادة[٤].

٥ - الآيات المتعلقة بربوبية الله بعد الموت ويوم البعث وما فيه وما يتبعه.

فكل ما سبق من أدلة توحيد قرآنية ونحوها هي أدلة شرعية خبرية نقلية لا نستطيع إدراكها بالعقل ولا الإحساس بها، وعليه لن أتناول دراستها

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، ونحوها في سورة المائدة آية ٧، ويس ٦٠، والرعد٣ والحديد ٨.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الحديد: ١)، ونحوها في سورة الحشر١، ٢٤، والصف١، والإسراء٤٤، الرعد١٣، والنور١٤، والجمعة١، والأنبياء ٧٩ وغيرها كثير.

انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي ص٤١٥-٤١٧، ص٤٢٢-٤٢٣.

(٣) كما في قوله تعالى على لسان الملائكة ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ ﴾ (البقرة: ٣٠)، ونحوها في الرعد١٣، والأنبياء٢٠، الزمر٧٥، غافر٧، فصلت ٣٨، والشورى ٥، ونحو ذلك كثير.

(٤) كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وغيرها من الآيات.

انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد ص٤٧ وما بعدها.

لأني اشترطت على نفسي أن يكون البحث حول أدلة التوحيد القرآنية النفسية والعقلية[١].

أما الأدلة السابقة فقد ذكرها أهل العلم والباحثون في مصنفاتهم وفصلوا فيها، وأضافوا إليها أدلة السُّنة النبوية، واجتهادات علماء الإسلام والفلاسفة وأهل الكلام في أدلتهم العقلية فلتراجع في موضعها[٢].

النوع الثاني: أدلة توحيد قرآنية نفسية بمعنى أن النفس تشعر بها، أو هي نابعة من جسد الإنسان وروحه وفطرته، أو هي مثيرة لمشاعره وعواطفه الوجدانية.

وهي في نفس الوقت أدلة توحيد قرآنية عقلية بمعنى: أنها جاءت لمخاطبة ذوي العقول، وهي قابلة لإعمال العقل فيها ويمكن إدراكها وفهمها، كما أنها تثمر القناعات العقلية بما سيقت لأجله، وهي كثيرة جداً في آيات القرآن.

وهذا النوع من الأدلة هو ما سأقوم بعرضه ودراسته في هذا البحث.

---

(١) راجع ص ١١٠.

(٢) انظر: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، لسعود العريفي.

و: منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى، لخالد بن عبد اللطيف.

و: الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة، للدكتور عبد الكريم نوفان.

و: الفطرة (حقيقتها ومذاهب الناس فيها)، لعلي بن عبد الله القرني.

و: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، لعثمان علي حسن.. وغير ذلك.

ولنبدأ بأدلة التوحيد الفطرية:

الفطرة هي منطلق حجة الأنبياء والمرسلين في الدعوة إلى الله، وكلهم خاطب الفطرة[١].

ومن أول وأهم ما اعتمد عليه المنهج القرآني في التدليل على وحدانية الله وتوحيده مخاطبة الإنسان بما هو مقرر داخل ذاته، ومغروس في نفسيته، مما يشعر به، و يعترف بوجوده، بل مما تنطق به جوارحه، وتدل عليه سلوكياته في حياته العملية اليومية، وتشهد لسانه عليه أحياناً، ومما هو مستساغ عقلياً، فهي أدلة فطرية نفسية من حيث ظهورها من داخل ذات الإنسانية وفطرتها، ومن حيث استشعار الإنسان بها، وهي عقلية من حيث قبول العقل لها وقناعته بحقيقتها..

وقد استخدم القرآن الكريم هذا المنهج الذي سماه بعض الباحثين المعاصرين بـ(المنهج الفطري) في الدعوة إلى الإيمان بالله[٢]، كون الإنسان مفطوراً منذ خَلَقَه الله على عدة دلائل ذاتية تدل على وحدانية الله وتوحيده، وكونها أسهل وأوضح وأقرب وأسبق من غيرها دلالة على رب البرية.

لقد اعتمد القرآن على أدلة التوحيد الفطرية في مخاطبة الفطرة الصافية، وتذكير وغيرها الغافلة المشوبة بالشرك بالله، واستخدم دلائل التوحيد النفسية وإيحاءاته الفطرية للتأكيد على وجود الله وربوبيته للكون، واستدل على وحدانية

---

(١) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠).

(٢) انظر: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث (رسالة ماجستير) لمحمد عز الدين توفيق، دار السلام، ط٢، ١٤١٨، ١٩٩٨م، القاهرة ـ مصر ص١٩.

الله بمظاهر التوحيد الباطنة الكامنة في كل نفس بشرية عندما أنكر ظاهر الإنسان الاعتراف بألوهية الله وكثير من أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

استخدم القرآن ذلك كله لاستنباط دلائل التوحيد من داخل نفس الإنسان قبل أن يحشد الأدلة الخارجية على ذلك، لما لذلك من أثر عظيم في تقرير حق الله على عبيده بعبادته وحده لا شريك له، والرد على المشركين ودفع حججهم.

وقد تبين من خلال استقراء أدلة التوحيد الفطرية التي ساقها القرآن الكريم واستشهد بها أن منها ما يتعلق بالإنسان، ومنها ما يتعلق بالأكوان.

وبناء على ذلك فقد رأيتُ تقسيم هذا المبحث إلى المطلبين التاليين:

«المطلب الأول»

«استشهاد القرآن على التوحيد بالأدلة الفطرية المتعلقة بالإنسان»

هناك أدلة توحيد فطرية مغروسة في نفس كل إنسان، وردت في ثنايا آيات القرآن، ـ معظمها جاء بصورة مباشرة ـ استشهد بها الرحمن على استحقاقه لتوحيد العبادة ـ الذي أشرك فيه أكثر الناس، وتنكر له البعض الآخر ـ واستخدمها القرآن الكريم في منهجه القويم لإثبات وحدانية الله والدعوة لتوحيده كما يتضح مما يلي:

أولاً: دليل خلق الله للإنسان واعتراف الكفار بذلك:

تحدثت آيات القرآن الكريم عن عدة نعم ـ عامة وخاصة ـ أنعمها الله على عباده في أنفسهم وفيما حولهم، هذه النعم تدل على ربوبية الله لخلقه، أثبتها القرآن الكريم، وساقها لحمل الكفار والمشركين إلى توحيد الألوهية، ودعوتهم لتوحيد العبادة.

ومن ذلك نعمة خلق الله للإنسان في أحسن تقويم:

فكم من آية في القرآن وردت تقرع فكر الإنسان وشعوره وتطالبه بمقتضى ما اعترف به من ربوبية الله في إيجاده لعبده، وعلى سبيل المثال اعتراف الكفار بأن الله خالقهم كما في قوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (الزخرف: ٨٧).

قال ابن كثير: «أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله، العابدين معه غيره ﴿ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ أي: يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئاً، ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل، والسفاهة، وسخافة العقل..»(١).

فقد استشهد القرآن بفطرة الكافر التي تشهد وتعترف بأن الله وحده هو الذي خلقه، ليصل به إلى التوحيد (توحيد الألوهية)، وخاطبه قائلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ (الانفطار: ٦-٨) قال ابن عاشور: «... فالتعريف في الإنسان تعريف الجنس، ... والمعنى يا أيها الإنسان الذي أنكر البعث، ولا ينكر البعث إلا مشرك، لأن إنكار البعث والشرك متلازمان يومئذ ـ أي في عهد المشركين السابقين ـ ... وجمهور المخاطبين في ابتداء الدعوة الإسلامية هم المشركون...و(ما) في قوله: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ﴾ استفهامية عن الشيء الذي غر المشرك فحمله على الإشراك بربه ...أي لا موجب للشرك ...إلا أن يكون ذلك غروراً غرَّه ... كناية عن كون الشرك لا يخطر ببال العاقل، وإيثار تعريف الله بوصف (ربك) دون ذكر اسم الجلالة (الله) لما في معنى الرب من الملك والإنشاء والرفق، ففيه تذكير للإنسان بموجبات استحقاق الرب طاعة مربوبه...، وإجراء وصف (الكريم) دون غيره من صفات الله للتذكير بنعمته على الناس، ولطفه بهم، فإن الكريم حقيق بالشكر والطاعة...»(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٥/ ٢٨١.

(٢) تفسير ابن عاشور ٣٠/ ١٥٤/ ١٥٥ بتصريف واختصار.

وقال سيد قطب معلقاً على الآية السابقة: «إنه خطاب يهزُّ كل ذرة في كيان الإنسان حين تستيقظ إنسانيته، ويبلغ من القلب شغافه وأعماقه، وربُّهُ الكريم يعاتبه هذا العتاب الجليل، ويُذكِّره هذا الجميل، بينما هو سادر في التقصير، سيئ الأدب في حق مولاه الذي خلقه فسوّاه فعدله، إنّ خلْق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية.. أمر يستحق.. الشكر العميق والأدب الجم، والحب لربه الكريم..»[1] وليس بعد توحيد العبادة شكرٌ لله أعظم منه! ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ (الزخرف: ٢٦)، وقال غيره: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس: ٢٢).

وقال السعدي رحمه الله ـ مخاطباً كلَّ إنسان جحود لنعمة خلق الله له وإيجاده من العدم ـ : «أليس الله هو ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ ﴾ في أحسن تقويم؟ ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ وركبك تركيباً قوياً معتدلاً في أحسن الأشكال، وأجمل الهيئات، فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟ إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك، وغشمك، فاحمد الله إذ لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار أو نحوهما من الحيوانات»[2]. ومن هنا صرّحت بعض آيات القرآن بدعوة الإنسان ـ المعترف بخلق الله له ـ لتوحيد العبادة، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ٢١).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٥٠ باختصار.

(٢) تفسير السعدي ص٩٩٩.

إن الإنسان لو تأمل في نفسه التي بين جنبيه، وما فيها من عجائب صنع الله، والتي بدونها يصبح الإنسان جثة هامدة بلا حراك، لهداه تأمله هذا إلى رب حكيم خبير، يقول السعدي في تقرير هذا المعنى: «وعلى كل حال فالنفس آية كبيرة، من آياته التي يحق الإقسام بها[١]، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل والحركة والتغيير والتأثر والانفعالات النفسية من الهمة والإرادة، والقصد والحب والغضب، وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه ـ عرضة للفساد والتعفن ـ وتسويتها على ما هي عليه آية من آيات الله العظيمة»[٢].

والمقصود أن نفس الإنسان من أعظم الأدلة على وجود إله واحد هو الله، ومن ثم تفرده بالعبادة، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وهكذا نجد آيات القرآن الكريم لا تذهب بعيداً في الاستدلال على وحدانية الله وتوحيده، بل إنها تعتمد على دليل (نفسي عقلي) استخدمه سلف الأمة من أهل العلم والإيمان في الاستدلال على الله[٣] لمناسبته لمخاطبة العقول، والتأثير في النفوس، قال ابن تيمية رحمه الله: «فالاستدلال على الخالق في خلْق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة صحيحة، وهي شرعية دلّ القرآن عليها، وهدى الناس إليها، وبينها وأرشد إليها، وهي عقلية، فإن نَفْسَ كون الإنسان

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ .. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا .. ﴾ (الشمس: ٧).

(٢) تفسير السعدي المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص١٠١٢ بتصرف وزيادة يسيرة.

(٣) راجع منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في العقيدة، لجابر إدريس علي أمير ١/ ٢٠٢ وما بعدها.

حادثاً بعد أن لم يكن، ومولوداً مخلوقاً من نطفة، ثم من علقة، هذا لم يُعلم بمجرد خبر الرسول ﷺ فحسب، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم[١]، سواء أخبر به الرسول أو لم يُخبر، لكن الرسول أمر أن يُستدل به، وهو عقلي لأنه بالعقل تُعلم صحته»[٢] وهذا الدليل العقلي هو نفسي فطري في نفس الوقت لاشتراك كل الناس فيه، وموافقته لِفِطَرهم، «فإن الناس هم المستدِلون، وهم أنفسهم الدليل والبرهان والآية... وهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه ويَذْكره كلما تفكّر في نفسه، وفيما يراه من بني جنسه»[٣].

وقال ابن القيم في مقدمة كلامه عن دلالة خلق الله للإنسان على وحدانيته سبحانه: «وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى، ووحدانيته... وهذا كثير في القرآن الكريم يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره، إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه..»[٤]. ومن هنا فلا عجب أن يدعونا سبحانه إلى التفكر في أنفسنا قائلاً: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١) لأنه هو نفسه القائل: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين: ٤) والقائل: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ (غافر: ٦٤).

---

(١) وجاء العلم الحديث لتأكيد ذلك، انظر شريط فيديو (إنه الحق) للشيخ الزنداني.

(٢) النبوات، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ ـ بيروت ـ لبنان ص٩٢.

وانظر التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم ص١٩٠.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ٢٦٢-٢٦٣.

(٤) مفتاح دار السعادة ص١٩٣-١٩٤.

ولا غرو في استعمال القرآن لهذا الدليل، الذي اعترفت به ألسنة قوم طُمست فطرتهم، ثم استيقظت عند مواجهتها بصريح السؤال عن خالقها ومُبدعها الأول فسرعان ما أجابت الفطرة بتقرير الخالقية لله وحده، كما سجَّلته آيات القرآن ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (الزخرف: ٨٧)، والملاحظ في الآية التعبير بلفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ بدلاً من (الرب) أو (ربنا) إشعاراً بأن الخالق هو وحده المعبود بحق، والمستحق لذلك، وما عداه فباطل.

ثانياً: دليل رزق الله لكل دابة ومن ذلك الإنسان واعتراف الكفار بذلك:

لم يذكر التاريخ، ولم تُسطِّر آيات القرآن الكريم أن الذين كفروا أو أحدهم زعم أن أحداً غير الله يرزق خلقه، أو يبسط ويقدر، أو يعطي ويمنع، فالرزق ينزل من السماء كما قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٢)، ومن خلال هذا الإجماع السكوتي لأهل الشرك وغيرهم انطلقت آيات القرآن لتقديم دليل عظيم ملموس مهم على وحدانية الله وتوحيده، إنه دليل رزق الله لكل كائن حي خلَقَه الله كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا[1] وَمُسْتَوْدَعَهَا[2] ﴾[3] وكما في قوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (العنكبوت: ٦٠). وقوله سبحانه لخلقه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

---

(١) أي المكان الذي تقيم فيه وتستقر أو تأوي إليه.

(٢) أي المكان الذي تنقل إليه في ذهابها ومجيئها وعوارض أحوالها.

(٣) هود: ٦، وانظر: تيسير الكريم الرحمن ص٣٩٥.

(الروم: ٤٠) ففي هذه الآيات تقرير أن الله وحده هو الرزاق دون غيره من آلهة الكفار، وفي آيات أخرى يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (الحج: ٥٨) ويقول: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ (الحجر: ٢٠).

قال صاحب محاسن التأويل: «أي ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما مما تقتضيه ضرورة الحياة، ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ أي من الأنعام والدواب وما أشبهها..»[1].

إن البشرية كلها تؤمن بأن الله وحده هو الرزاق المعطي، الوهاب الكريم المنان، وهذا الدليل مغروس في فطرة كل إنسان، وملموس في حياة الأحياء كل آن، استشعرت به النفس، وآمن به العقل، ومن هنا جاءت آيات القرآن لتحاجج المشركين وتقررهم بمصدر أرزاقهم لكل ما يتمتعون به في هذه الحياة في أنفسهم وفيما حولهم، من زوجة ومال وولد، أو عقل وروح وجسد، أو سكن وبلد، أو علم وأخلاق وموهبة وجاه، أو عافية في ذلك كله وغيره.

جاءت آيات القرآن بنداء الفطرة الإيماني، لتوقظ فيهم حقيقة الإيمان بالله وتوحيده، بناء على اعترافهم بأنه خالقهم ـ كما سبق ذكره ـ واعترافهم بأنه رازقهم كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (يونس: ٣١، ٣٢).

---

(١) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، للشيخ محمد جمال الدين القاسمي (١٢٨٣-١٣٣٢هـ)، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨، بيروت ـ لبنان ١٠/ ٥٢.

لقد جاءت هذه الآيات وغيرها تأمر النبي ﷺ أن يسأل الكفار عمن يرزقهم من السماوات والأرض؟، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (سبأ: ٢٤) ثم تأمره بالإجابة عليهم بما أقر به باطنهم إن أنكر ظاهرهم وعجمت ألسنتهم عن الجواب به، قائلة له ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أي هو الرزاق لكم دون سواه، بل جاءت آيات أخرى تشير إلى نسيان الكفار لهذه النعمة التي أنعمها الله عليهم ونسوا صاحبها من الشكر عليها بتوحيده[١]، هذه الآيات تسأل هؤلاء الذين غفلوا عما فطرهم الله عليه، واحتاجوا لتذكير به من إقرار الخالق الرازق قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (فاطر: ٣) وفي موضع آخر قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (النمل: ٦٤) وفي موضع ثالث قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الروم: ٣٧).

---

(١) وهناك نعم خاصة أنعمها الله على كفار قريش وطالبهم بالشكر عليها بعبادته وحده، ومن أعظمها نعمة البيت الحرام وأمنه قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٧). وقال سبحانه: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (قريش: ٣، ٤).

قال ابن عاشور رحمه الله: «إن قوله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] قد تضمن الدعوة إلى النظر في دليل الوحدانية والقدرة والفضل.. ـ وفي الآية ـ.. انتفاء وصف الخالقية عن غيره تعالى، لأنه لو كان غيره خالقاً لكان رازقاً، إذ الخلْق بدون رزق قصور في الخالقية، لأن المخلوق بدون رزق لا يلبث أن يصير إلى الهلاك والعدم، فيكون خلقه عبثاً يُنَزَّه عنه الموصوف بالإلهية المقتضية للحكمة، فكانت الآية مذكرة بنعمتي الإيجاد والإمداد..»[2].

وقال في تفسير بقية الآية ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾: «هذا نتيجة عَقِبَ ذكر الدليل، إذ رتّب على انفراده بالخالقية والرازقية انفراده بالألوهية، لأن هذين الوصفين هما أظهر دلائل الإلهية عند الناس.. وفي الآية التعجيب من انصرافهم عن النظر في دلائل الوحدانية بجملة ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾»[3] أي يُصرفون عن عبادة الله وحده خالقهم ورازقهم.

وعند التأمل في آيات الرزق السابقة نجد أن الله تعالى ختم الآية الأولى بقوله سبحانه: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ وقال في الثانية: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ وختم الأخيرة بقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الروم: ٣٧)، كل هذا ليشير إلى أن مقتضى خلق الله ورزقه لعبيده هو تحقيق الإيمان به وتوحيده في ألوهيته سبحانه قال تعالى: ﴿ فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ١٧).

---

(١) (فاطر: ٣)، وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ (الملك: ٢١).

(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ١١٤ بتصرف وزيادة يسيرة.

(٣) نفسه بتصرف.

وخاصّة أن آلهة الكفار المزعومة تعجز عن رزقهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ١٧) ونحوها من الآيات[١].

قال سيد قطب: إن القرآن يواجه الكفار: «بواقع أمرهم، وحقائق حالهم، التي لا يملكون أن يُماروا في أن الله وحده هو موجدها؛ أو التي لا يملكون أن يزعموا أنّ لآلهتهم المدّعاة مشاركة فيها، يواجههم بأن الله هو الذي خلَقهم، وأنه هو الذي رزقهم.. فأما الخلْق فهم يُقرّون به، وأما الرزق فهم لا يملكون أن يزعموا أنّ آلهتهم المدّعاة ترزقهم شيئاً،.. وهو يسوقهم ضمن هذه المسلمات ليقرر ـ التوحيد ـ في وجدانهم بهذه الوسيلة الفريدة، التي تخاطب فطرتهم من وراء الانحراف الذي أصابهم..»[٢].

ثالثاً: قياس توحيد الله تعالى على رفض الذات البشرية لمن يشاركها فيما تملكه:

استدل القرآن الكريم على وحدانية الله وتوحيده بأمر آخر غير دليل خلق الله للإنسان، إنه قياس توحيد الله تعالى على رفض كل ذات بشرية لأي شريك لها فيما تملكه، وخاصة شراكة المماليك والعبيد، قال تعالى ـ مخاطباً المشركين ومستفهماً منهم على سبيل الإنكار، وكاشفاً عما رُكّب في فطرهم، ليثبت لهم منطقية التوحيد ـ

---

(١) كما في سورة النحل آية: ٧٣.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٧٢ بتصرف وزيادة يسيرة، وقد ذكر سيد قطب ذلك في تفسيره للآية الثالثة من سورة فاطر.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الروم: ٢٨).

وقال في موضع آخر: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (النحل: ٧١).

قال الآلوسي في تفسير الآية الأولى: «أي (ضرب لكم مثلاً) يتبين فيه بطلان الشرك ـ وإثبات التوحيد ـ (من أنفسكم) أي مُنتزعاً من أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم، وأعرفها عندكم، وأظهرها دلالة على ما ذُكر من بطلان الشرك.. والمقصود.. لا ترضون بأن يشارككم فيما رزقناكم من الأموال ونحوها مماليككم، وهم أمثالكم في البشرية، غير مخلوقين لكم، بل لله تعالى، فكيف تشركون به سبحانه في المعبودية[1] التي هي من خصائصه تعالى الذاتية..»[2].

وذكر الرازي في تفسير الآية الثانية قولين: قال في الثاني: «إن المراد من.. الآية الرد على من اثبت شريكاً لله تعالى.. رداً على عَبَدَة الأوثان والأصنام، كأنه قيل: إنه تعالى فضّل الملوك على مماليكهم، فجعل المملوك لا يقدر على مُلْكٍ مع مولاه،

(١) المعبودية هكذا في الأصل، ولعل الأصوب العبودية.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي (ت١٢٧٠)هـ، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، بيروت ـ لبنان ١١/ ٣٨-٣٩ بزيادة يسيرة.

فلمّا لم تجعلوا عبيدكم معكم سواء في المُلك، فكيف تجعلون هذه الجمادات معي سواء في المعبودية؟.»[١].

وعند التأمل في الآيتين السابقتين وتفسيرهما نجد أن الله تعالى خاطب فيهما الكفار مبيّناً لهم ضلال الشرك بالله وصواب توحيده سبحانه من خلال ضربه لمثل السادة منهم مع عبيدهم المملوكين لهم، فطبيعة النفس البشرية المالكة المهيمنة على الشيء أن ترفض من لمن يشاركها فيما تملكه إلى حد المساواة ـ وخاصّة إذا كان الشريك هو العبد المملوك لسيده، الذي لا يملك أمر نفسه فضلاً عما سوى ذلك ـ.

فإذا كانت نفوس المشركين تأبى أن يشاركها هؤلاء العبيد في شيء من رزق الله الذي أفاضه عليهم، وتخشى مشاركة العبيد كما تخشى مقاسمة الأحرار في الأموال، فكيف أَبَتْ لنفسها ما رَضِيَتْهُ للذات الإلهية العليّة من شرك وشركاء، بل ما وقعت فيه، وتواصت به، ودافعت عنه؟!

وهكذا تأتي آيات القرآن الكريم بأدلة توحيد فطرية منطقية مفصّلة مبيِّنة بالبراهين والحجج، لأصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بها.

رابعاً: دليل لجوء المضطر إلى الله وحده وإجابة الله للدعوات:

سبق ذكر أن من علامات وجود الفطرة، في الإنسان التجاء العبد إلى ربه وقت الشدائد[٢]، بينما كان وقت النعمة مُعرضاً مبتعداً مولياً عن طاعة الله كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٨٣)، وكان

(١) مفاتيح الغيب، للرازي ٢٠/ ٦٤.

(٢) راجع ص٢٢٠.

وقت الغنى متجاوزاً حدود الله متعدّياً حرماته كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾ (العلق: ٦، ٧).

لكن العبد عندما يتعرض للبلاء بالشر ـ سواء بالخوف أو الجوع أو نقص من الأموال والأنفس والثمرات، أو غير ذلك من الشدائد والكوارث التي لا حيلة له أمامها، ولا طاقة له باحتمالها، ولا نصير له تجاهها، فإنه يوقن حينها أنه لا مجيب له، ولا كاشف لضره وسوئه إلا رب الكون الذي لا يُعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى، فيتوجه حينها إلى ربه مضطراً مخلصاً بقلبه، مبتهلاً بلسانه كما قال تعالى عن كل من تعرّض لضُرٍّ وبأسٍ وشدة: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ (فصلت: ٥١) أي كثير طويل كما قال ابن كثير رحمه الله[1]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ (يونس: ١٢) وغيرها من الآيات[2].

إن الواقع الذي يحكي حال الكفار والمشركين ولجوئهم إلى الله وقت شدائد البر، يؤكد أيضاً لجوءهم إلى ربهم في شدائد البحر، من رياح عاصفة وأمواج عاتية، وغير ذلك مما يجعل هلاكهم محقّقاً لا مرية فيه، وهذا ما أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (يونس: ٢٢)

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٣٥.

(٢) كما في سورة الروم آية: ٣٣.

فقد صرّحت الآية بلجوء الكفار إلى ربهم، ودعوتهم له وقت الشدائد، وأكّدت أن مثل هذه الأحوال تُصفّي جوهر الفطرة، وتدفع صاحبها لإعلان التوحيد ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ بل مؤكّدين أنهم سيكونون كما قال تعالى: ﴿ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾.

وهكذا هي النفس البشرية عندما تقع في مأزقٍ لا تجد فيه من البشر عوناً، وتفقد كل أسباب النجاة سرعان ما تعود إلى ربها.

قال سيد قطب: «والمضطر في لحظات الكربة والضيق، لا يجد له ملجأ إلا الله، يدعوه ليكشف عنه الضّر والسوء، ذلك حين تضيق الحلْقة، وتشتد الخنْقة، وتتخاذل القوى، وتتهادى الأسناد، وينظر الإنسان حواليه، فيجد نفسه مجرداً من وسائل النصرة، وأسباب الخلاص..، وكل ما كان يُعِدُّه لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلّى، وكل ما كان يرجوه للكربة قد تنكّر له أو تولّى، في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة، فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء..»[1].

وصدق سيد قطب ـ رحمه الله ـ : فإن فرعون الذي لم يقر لموسى بربوبية الله وألوهيته ولم يؤمن به وقد جاءته تسع آيات بينات أعلن إيمانه وقت الشدة، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٩٠) وغيره كذلك التجاء إلى الله حال الاضطرار فقد رُوي أن النبيَّ ﷺ سأل أبا عمران

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٥٨.

بن حصين[١]: «كم تعبد اليوم إلهاً؟ قال سبعة، ستة في الأرض، وواحد في السماء. قال: فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟ قال الذي في السماء»[٢].

«ولما كان يوم الفتح ـ فتح مكة ـ فرّ عكرمة بن أبي جهل ـ أي من المسلمين ـ فركب البحر، فأصابتهم عاصفة، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً. فقال عكرمة: «لئن لم ينُجني في البحر إلا الإخلاص، ما ينجيني في البرّ غيره، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفواً كريماً»، قال سعد[٣]:

---

(١) هو عمران بن حصين بن عبيد،... الخزاعي الكعبي، يكنى أبا نجيد، أسلم عام خيبر، سنة سبع، وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات، بعثه عمر بن الخطاب إلى البصرة ليفقه أهلها، وكان من فُضلاء الصحابة، واستقصاه عبد الله بن عامر على البصرة، فأقام قاضياً فيها ثم استعفاه فأعفاه، قال محمد بن سيرين: لم نر في البصرة أحداً من أصحاب النبي ﷺ يفضل على عمران بن حصين، وكان مجاب الدعوة، ولم يشهد الفتنة، روى عن النبي ﷺ وروى عنه الحسن وابن سيرين. انظر: أسد الغابة، لابن الأثير ٤/ ٢٢٩-٣٠٠، ترجمة رقم ٤٠٤٢. و: سير أعلام النبلاء، للذهبي ٢/ ٥٠٨-٥١٢، ترجمة رقم ١٠٥. و: تقريب التهذيب، لابن حجر ١/ ٧٥٠، ترجمة رقم ٥١٦٦.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨/ ١٧٤، والترمذي في ٥/ ٤٨٥، في كتاب: الدعوات، باب: جامع الدعوات عن عمران بن حصين.

(٣) هو سعد بن مالك القرشي، وهو سعد بن أبي وقّاص، واسم أبي وقاص مالك بن وهيب، وقيل: أهيب بن عبد مناف بن زهرة،.. بن كنانة القرشي الزهري، يكنى أبا إسحاق، أسلم بعد ستة، وقيل: بعد أربعة، وكان عمره لما أسلم سبع عشرة سنة، وهو أحد الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، وأحد العشرة سادات الصحابة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين شهد لهم رسول الله ﷺ توفي وهو راض عنهم، شهد بدراً وأحد والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وأبلى يوم أحد بلاءً عظيماً، وهو أول من أراق دماً في سبيل الله، وأول من =

فجاء فأسلم»[١].

قال صاحب العقيدة في الله: «وقد سمعنا كيف آب ركاب طائرة ما إلى ربهم، عندما أصاب طائرتهم خلل، فأخذت تهتز وتميل، وتتأرجح في الفضاء، والطيار لا يملك من أمره شيئاً، فضلاً عن الركاب، هناك اختفى الإلحاد، وضجّت الألسنة بالدعاء، ورغبت القلوب إلى ربها بصدق وإخلاص، ولم يبق للشرك والإلحاد وجود في مثل هذا الموقف الرهيب»[٢].

وهكذا كلما لجأ العبد إلى ربه ودعاه استجاب الله له وكشف ضره، وباستجابة الله لدعوات المضطرين يتجسد لنا دليل آخر يدل على وحدانية الله في ربوبيته وبعض أسمائه وصفاته، فكم من داعٍ لله سِّراً وعلانية، فرادى وجماعات، مسلمين وكفاراً، مضطرِّين وغيرهم، ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً.. إلخ، استجاب الله دعاء كثير منهم.

فما من أحد تقريباً إلا وله مع الله موقف أُجيبت فيه دعوته، وقُضيت حاجته، وتحققت أُمنيتُه.

= رمى بهم في سبيل الله، توفي بالعقيق على بُعد سبعة أميال من المدينة، فحمل إلى المسجد، وصّلى عليه مروان وأزواج النبي ﷺ، قال ابن عامر: كان سعد آخر المهاجرين.

انظر: أسد الغابة، لابن الأثير ٢/ ٤٣٣-٤٣٧ ترجمة رقم ٢٣٠٨. و: سير أعلام النبلاء، للذهبي ١/ ٩٢، و: تقريب التهذيب، لابن حجر ١/ ٣٤٦.

(١) حديث سعد المذكور أصله في الصحيحين، ولكن قصة ركوب عكرمة للبحر أخرجها ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٤٠٧، والنسائي في السنن الكبرى، حكم المرتد ٢/ ٣٠٢ باب الحكم في المرتد برقم ٣٥٣٠، والطبراني في المعجم الكبير برقم ١٠١٩.

(٢) العقيدة في الله، د/ عمر الأشقر ص٧١.

لقد استجاب للرسل الذين دعوا على أقوامهم[١]، واستجاب لعبد المطلب دعاءه على أصحاب الفيل[٢] الذين جاؤوا لهدم الكعبة المشرَّفة، واستجاب لمحمد ﷺ في استسقائه. وفي كثير من دعائه ـ سواء على الكفار حال استضعافهم له، أو للمسلمين بالنصر يوم بدر، أو بهداية بعض الناس، أو غير ذلك ـ.

واستجاب أيضاً للصحابة دعاءهم في الاستسقاء، وطلب النصر، واستجاب كذلك لمن بعدهم من الداعين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٦).

وعلى مدار التاريخ البشري، والإسلامي ـ الماضي والحاضر ـ ، لا يزال الله يستجيب لخلقه ـ برحمته وفضله ـ وخاصّة المؤمنين، والمضطرين كالمرضى والمظلومين أو المهمومين والمكروبين.

وعلى سبيل المثال استجابته سبحانه لكثير من المسلمين دعاءهم عند انقطاع الأمطار، وضُمور الأشجار، فما أكثر الذين يستسقون ربهم ـ سواء في بلدنا اليمن أو سائر بلاد المسلمين ـ حال كفِّ السماء قطرها عن خلق الله، فما ردَّهم ربُّهم خائبين، ولا صفر الدين[٣]، ولا ينكر هذا أحد من المنصفين. فكان هذا دليلاً عملياً على وحدانية الله في وجوده، وربوبيته، وكثير من أسمائه وصفاته.

---

(١) كنوح ولوط وموسى وغيرهم.

(٢) وسجّل الله هذه الحادثة في سورة الفيل، وكان ذلك عام ٥٧١ للميلاد.

(٣) أذكر أنا كنا قد استسقينا عام ١٤٢٠هـ تقريباً، في مدينة إب ـ في الجامع الكبير ـ في يوم الجمعة، وأكثر الخطيب من الدعاء بسقيا الغيث، فلما بدأنا الصلاة نزلت أمطارٌ غزيرة منعت المصلين من الخروج من المسجد بعد الصلاة.

قال ابن عقيل[1] رحمه الله: «قد ندب الله تعالى إلى الدعاء، وفي ذلك معان:

أحدها: الوجود، فإنه من ليس بموجود لا يُدعى.

الثاني: الغني، فإن الفقير لا يُدعى.

الثالث: السمع، فإن الأصم لا يُدعى.

الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يُدعى.

الخامس: الرحمة، فإن القاسي لا يُدعى.

السادس: القدرة، فإن العاجز لا يُدعى»[2].

ويمكن أن نضيف لما سبق أن استجابة الله لدعاء خلقه تدل على أن الله:

العليم، فهو يعلم بحال الضمآى المتضرعين بدليل إغاثته لهم بالأمطار.

البصير، فهو ينزل الأمطار لمواقع الجفاف التي طلب الدعاة سقياها.

المجيب، فقد نزلت الأمطار، وقُضيت الحاجات، وفُرِّجت الكربات.

القريب: فما أسرع استجابته للدعوات.

---

(١) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي، أبو الوفاء الحنبلي، الفقيه المقرئ الأصولي، الواعظ المتكلم، ولد عام ١٤٣١هـ ، له تصانيف عدة منها «كتاب الفنون» وهو أكثر من ثلاثمائة مجلد، قال الإمام الذهبي (لم يُصنف في الدنيا أكبر منه) وفي هذا الكتاب فوائد جليلة في التفسير والفقه وغيرهما...، توفي عام ٥١٣هـ . أ.هـ .

انظر: سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٤٤٣، ترجمة ٢٥٩.

(٢) انظر: تقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، إعداد خالد فوزي عبد الحميد، دار التربية والتراث، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، مكة ـ السعودية، ١/ ٣٥٧-٣٥٨.

المنّان: فقد امتنّ على الناس، وأكرمهم بالغيث، فضلاً منه وتكرُّماً، لا ردّاً لنعمةٍ أسداها الخلق إليه فتُجزى، ولا حقّاً أوجبوه عليه فيُعطى. وغير ذلك من الأسماء والصفات.

وبالجملة فإن استجابة الله لدعاء خلقه عبر التاريخ البشري، وشعورهم بآثار ذلك ودلائله في واقعهم، بل يقينهم به علماً وعيناً وحقّاً دليل عظيم على أن الله وحده هو الحي القيوم.

فـ «كم أصاب المسلمين من جفاف: فنفروا ثـقالهم مع الخِفاف.

وطلبوا من الإله الفَرَجَا: فحقّقوا الفوز ونالوا المخرَجَا

فهل طبيعةٌ أجابَتْ أم وَثَن؟!: أم أنه السميع كشّاف المِحن»[1].

وختاماً أقول: إذا كانت البشرية ـ في العصر الحديث ـ لا تقبل الحقائق العلمية، ولا تعترف بها إلا بعد المشاهدة لآثارها من خلال إجراء التجارب عليها في المعامل والمختبرات، فإن مشاهدة الخلق أثر استجابة الله للدعوات[2] تعتبر دليلاً كافياً على وجوده ووحدانيته في ربوبيته، وبالتالي يتولد في نفوس المؤمنين به ضرورة توحيده في ألوهيته، قال تعالى: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ (النمل: ٦٢).

وثمة دليل فطري آخر استخدمه القرآن الكريم للاستدلال على وحدانية الله وتوحيده وهذا ما أشرحه بالتفصيل في الفقرة الخامسة من هذا المطلب.

---

(١) جزء من منظومة شعرية للشاعر عبد الرحمن القاضي. وانظر: علم الإيمان: للزنداني ١/ ١١٨.

(٢) انظر: علم الإيمان للزنداني ٢/ ٢٦.

خامساً: دليل توفّي الله للأنفس حين موتها:

وهناك دليل آخر يلمسه الإنسان في حياته، في نفسه والآخرين، ولا ينكره أحد من العالمين، وهو دليلٌ فَطَرَ الله الإنسان عليه، لا فكاك له منه، ولابد صائر إليه، إنه دليل الموت الذي لا يدع صغيراً ولا كبيراً ـ كائناً من كان ـ إلا أخذه، فقد استشهد القرآن الكريم بحادثة الموت التي تشمل كل الأحياء، للتدليل على وحدانية الله وتوحيده، وأخبر سبحانه عن نفسه أنه: ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (الدخان: ٨) وعلّم نبيه ﷺ أن يعلن للناس جميعاً تفرد عبوديته لله، وتحقيق إيمانه بالواحد الأحد الذي يتوفّى الأنفس حين موتها، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ (يونس: ١٠٤) وتخصيص التوفّي هنا من بين سائر الأفعال لم يأت عبثاً إنما كان لحكمة عظيمة، وقد حاول جمع من المفسرين معرفة هذه الحكمة، وخلاصة أقوالهم أن من حكمة ذكر التوفي في الآية:

١ - لتخويف الكفار بالموت لأنه لا شيء أشد عليهم منه[١].

٢ - للإيماء إلى الحشر الذي ينكرونه[٢]، والدلالة على البدء وهو الخلق، وعلى الإعادة[٣].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي ١٧/ ١٣٨، فتح القدير، للشوكاني ٢/ ٦٦٦، روح المعاني، للآلوسي ٦/ ١٨٤.

(٢) انظر: روح المعاني، للآلوسي ٦/ ١٨٤.

(٣) انظر: البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤-٧٥٤) هـ، طبعة جديدة بعناية الشيخ عرفات العشا حسّونة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط (بدون)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان ٦/ ١١١. وانظر: كذلك فتح القدير، للشوكاني ٢/ ٦٦٦.

٣- لتذكير الكفار بفقدانهم الأصنام التي كانوا يعبدونها في حياتهم ويعتقدونها ضارة ونافعة[١].

٤- لتذكير الكفار بما لا يشكُّون فيه من عاقبة أمرهم[٢].

وغير ذلك من الأقوال، إلا أن ابن عاشور وسيد قطب علّلا تخصيص لفظ الوفاة في الآية[٣] بأمر آخر، فقال ابن عاشور: «واختيار صفة التوفّي هنا في نعت اسم الجلالة لما فيها من الدلالة على كمال التصرف في المخلوق، فإن المشركين لم يبلغ بهم الإشراك إلى ادعاء أن الأصنام تحيي وتميت..»[٤].

وقال سيد قطب: «وإبراز هذه الصفة هنا له قيمته وله دلالته، فهو تذكير لهم بقهر الله فوقهم، وانتهاء آجالهم إليه، فهو أولى بالعبادة من تلك الآلهة التي لا تحيي ولا تميت»[٥].

والذي يبدو لي أن الآية خُصّصت بتوفّي الله للكفار وليس للنبي ﷺ مع أن السياق يقتضي أن يكون لفظ الآية «ولكن أعبد الله الذي يتوفاني» لتحاجج الكفار بالموت الذي يعتريهم ـ كما يعتري كل إنسان ـ ولا يستطيعون إنكاره، ولم يقل أحد منهم بقدرة آلهتهم الباطلة على إحداثه، وبالتالي دلّل القرآن على

---

(١) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي ٩/ ٩٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن الحكيم، المشهور بتفسير المنار، تأليف السيد الإمام محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥)م، خرّج آياته وأحاديثه وشرح غريبه إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، بيروت ـ لبنان ١١/ ٤٠٨.

(٣) أي قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ (يونس: ١٠٤).

(٤) تفسير ابن عاشور ١١/ ١٨٩.

(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٨٢٥.

استحقاق الرب لتوحيد العبادة بدليلٍ يعترف به لسان الكفار وحالهم، ولم يسبق إلى إنكاره أحد منهم، وبناءً على هذا فإن اعتراف الكفار بالمقدمة الأولى (الموت) يقتضي عند صاحب الفطرة السليمة الاعتراف بالنتيجة التالية وهي ضرورة عبوديته لله للنجاة من عذابه بعد الموت فلا شيء أعظم وأدلّ على ربوبية الله من الموت والحياة، وهذان لم ينكرهما أحد من الخلْق، فالموت أعظم صفة تدل على أن الله ضار، والحياة أصدق تعبير وأبلغه يدل على أن الله هو النافع، وهذا ما تعجز عنه آلهة الكفار المزعومة ومن هنا مجّد الله نفسه قائلاً: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝ ﴾ (الملك: ١، ٢) ولم يخلقهما أحد سواه، سبحانه وتعالى.

وختاماً أقول:

هذا هو القرآن الكريم في منهجه الفطري في عرض أدلة التوحيد المتعلقة بربوبية الله للإنسان، ونصبها أمام أعين المشركين وفي نفوسهم.

وهكذا هو في استشفافه ما تُكِنُّه نفوس الكفار، ويختلج في صدورهم، ويدور في خُلدهم، من شهادات التوحيد المتعدّدة، التي يؤكّد بعضها بعضاً، وتنطق بها ألسنتهم عندما يواجَهون بأسئلة الفطرة: من الخالق؟ من الرزاق؟ من المحيي؟ من المميت؟ وغير ذلك من الأسئلة المتعلقة بآيات الله في الأنفس ومظاهر ربوبيته ودلائل ألوهيته سبحانه وتعالى.

وحقيقة أنه عند التأمل فيما سبق شرحه من أدلة التوحيد القرآنية الفطرية، نجد أن القرآن الكريم قد توسّع واستفاض في الحديث عنها بشكل يؤكد للعقلاء تمام ربوبية الله، وحتمية ألوهيته.

والقرآن عندما تحدّث عن ربوبية الله في الخلْق والرّزق والإحياء[١] والإماتة إنما تحدّث عن (أصول صفات أفعال الله تعالى) كما قال ابن عاشور[٢]، وكما هو منهج القرآن في آياته التي وصفها الله بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

إن القرآن يقيم الحجة على المشركين بأن الله منفرد بالخلق والرّزق والإحياء والإماتة، وليس للأصنام شيء من ذلك في الكون كله، أو شرك مع الله فيها، (وهذه الأفعال هي أصول نظام ما على الأرض من الموجودات)، فكان ذلك موجباً لإبطال شركهم بالله، وإثبات التوحيد له سبحانه وتعالى[٣].

وكما استدل القرآن على التوحيد بأدلة فطرية نفسية فقد استدل على ذلك أيضاً بدلائل أخرىٰ (فطرية) تتعلق بالكون، انتزعها من باطن الإنسان، وأكّد اعترافه بها، واستشهد بذلك على توحيد الله تعالى، وهذا ما أشرحه بالتفصيل في المطلب الثاني من هذا المبحث.

---

(١) وقد استدل القرآن بإحياء الله للأرض بعد موتها على إحيائه الخلق مرة أخرى يوم البعث في آيات كثيرة، انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد ص٢٧٣-٢٧٧ مادة (حيي).

(٢) انظر: تفسير ابن عاشور ٢٠/ ٢٠٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٠١.

«المطلب الثاني»

«استدلال القرآن على التوحيد بالأدلة الفطرية المتعلقة بالكون»

يمكن تقسيم أدلة التوحيد الفطرية المتعلقة بالأكوان إلى أربعة أنواع كما يأتي:

أولاً: دليل خلق الله للسماوات والأرض واعتراف الكفار بذلك:

ثمة أدلة فطرية غرسها الله في نفوس الخلق أجمعين وفطرهم عليها، تدل على وحدانية الله في ربوبيته للكون.

استخدمها القرآن لنقل الكفار من توحيد الربوبية إلى توحيد الألوهية.

ومن ذلك دليل خلق الله للسماوات والأرض، واعتراف الكفار بذلك، فقد بيّنت بعض آيات القرآن أن جميع رسل الله ـ عليهم السلام ـ سألوا أقوامهم سؤال إقرار بربوبية الله وخلقه للكون، قائلين لهم: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (إبراهيم: ١٠)؟!؟ قال ابن كثير أي: «وهذا يحتمل شيئين، أحدهما أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، ولكن قد يعرض لبعضها شك؟ واضطراب فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه «فاطر السموات والأرض» الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سابق... والمعنى الثاني في قولهم: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له»[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٣/ ٣٥٩-٣٦٠.

وما كان استفهام الرسل لأقوامهم بما ورد في الآية السابقة إلا لما في نفوس الكفار من اعتقاد فطري بخلق الله للسماوات والأرض، كما يتضح من قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (العنكبوت: ٦١)، ورغم اعتراف الكفار بذلك إلا أن كثيراً منهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٦) والمقصود بشركهم الوارد في الآية هو شرك العبادة، فقد كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى في عبادتهم كما يدل عليه قوله سبحانه على ألسنتهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (الزمر: ٣).

ولهذا كله عقّبَتْ آيات القرآن على جوابهم واعترافهم بخلق الله للسماوات والأرض وتسخيره للشمس والقمر بقوله سبحانه: ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي «فأنى يصرفون عمن صنع ذلك، فيعدلون عن إخلاص العبادة له»[1].

قال ابن عاشور: «يعترفون بأن الله هو خالق ـ السماوات والأرض ـ ولا يثبتون لأصنامهم شيئاً من الخلق، فكيف يلتقي هذا مع ادعائهم الإلهية لأصنامهم»[2]؟

والقرآن الكريم الذي أنكر على الكفار انصرافهم عن عبادة خالق الكون رغم اعترافهم بخلقه له، ـ وهذا مالا يقبله عقل عاقل منصف ـ أخذ المشركين من مقتضى مقالتهم واعترافهم، وألزمهم بعبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ

---

(١) جامع البيان للطبري ٢١/ ١٦.

(٢) التحرير والتنوير ٢٠/ ١٩٨.

ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ (فصلت: ٣٧) ومعنى الآية «ومن آياته الدالة على وحدانيته ﴿ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ في تعاقبهما على حد معلوم، وتناوبهما على قدر مقسوم، ﴿ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴾ في اختصاصهما بسير مقدّر، ونور مقرّر ﴿ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ ﴾ فإنهما مخلوقتان ـ كما اعترفتم بذلك ـ ، إن كثُرت منافعهما، ﴿ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾..»[1].

وما كان هذا الأمر الصريح من خالق الليل والنهار والشمس والقمر للكفار إلا لأنه سبحانه كما قال عن نفسه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (الزخرف: ٨٤).

وبناء على ما سبق فلا غرابة أن يأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يعلن للناس قائلاً: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَ ﴾ (الأنعام: ١٤) وأن ينهاه قائلاً: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤).

وهكذا نجد القرآن الكريم ـ في آياته السابقة ـ يقرر المشركين بوحدانية الله في ربوبيته التي اعترفوا بها بلسان حالهم ومقالهم، ثم يطالبهم بمقتضى هذا الاعتراف بتوحيد العبادة، وينكر عليهم عبادة غير الله، أو إشراك أحد من خلقه معه، حتى وإن زعموا أنها تقربهم إلى الله ـ ويؤكد لهم أن

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ٢٣٧ بتصرف يسير.

رجاحة عقل العاقل كمحمد ﷺ تدعوه لعبادة فاطر السماوات والأرض، وتنوء به عن الشرك وأهله، وهذا كله ما يحكم العقل بمصداقيته وعقلانيته وأحقيته.

ثانياً: دليل ملك الله للأرض وسائر المخلوقات واعتراف الكفار بذلك:

لم يكتف القرآن بإلزام أهل الكفر بتوحيد العبادة لمجرد اعترافهم بخالق الكون، بل إننا نجد أن آيات القرآن قد استخدمت دليلاً فطرياً آخر، اعترف به الكفار، ولم يعملوا بمقتضاه، إنهم يعترفون بأن الله مالك كل شيء، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى ـ آمراً نبيه ﷺ أن يسأل الذين كفروا ليكشف عن حقيقة فطرتهم التي فطرهم عليها ـ ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (المؤمنون: ٨٤، ٨٥)؟ وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (المؤمنون: ٨٨، ٨٩)؟

قال صاحب الكشاف في تفسير ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ : «ومعناه: أفلا تتذكرون فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها اختراعاً.. كان حقيقاً بألا يُشرِك به بعضَ خلقه..»[1].

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف أبي القاسم محمود بن عُمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧-٥٣٨)هـ ، وفي حاشيته كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد، حققها وخرّج أحاديثها عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، بيروت ـ لبنان، ٣/ ٢٠٢.

وقال صاحب التحرير والتنوير: «استئناف استدلال عليهم، في إثبات الوحدانية لله تعالى.. والاستفهام تقريري، أي أجيبوا عن هذا، ولا يسعهم إلا الجواب بأنها لله، والمقصود إثبات لازم جوابهم وهو انفراده تعالى بالوحدانية»[١].

يتبيّن لنا من خلال النظر الدقيق فيما سبق من آيات، وبالذات في قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أن فيها «توجيهاً لعقول الكفار أن يتأملوا، فيظهر لهم أن الأرض لله، وأن من فيها لله، فإن كون جميع ذلك لله قد يخفى على الناس، لأن الناس اعتادوا نسبة المسبَّبات إلى أسبابها المقارِنة لها، والتصرفات إلى مباشريها، فَنُبِّهوا بقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إلى التأمل، أي: إن كنتم تعلمون علم اليقين»[٢].

ونُبهوا كذلك بقوله تعالى: ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ أي: تُخدعون عن توحيده وطاعته[٣] إلى أن مقتضى اعترافهم بأن الله وحده هو من بيده ملكوت[٤] كل شيء إفراده سبحانه بالإلهية.

ولم يكتف القرآن بالإنكار على الكفار انصرافهم عن عبادة من اعترفوا له بملك الأرض ومن فيها، وملكوت كل شيء، بل إننا نجده في آيات أخرى يدعو هؤلاء بصريح العبارة إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، كما يتضح من أمره تعالى

---

(١) تفسير ابن عاشور ١٨/ ٨٨-٨٩.

(٢) نفسه ١٨/ ٨٩.

(٣) الكشاف، للزمخشري ٣/ ٢٠٢.

(٤) قال ابن عاشور: «الملكوت: مبالغة في الملك، ـ بضم الميم ـ فالملكوت: الملك المقترن بالتصرف في مختلف الأنواع والعوالم».

انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٩١.

لنبيه ﷺ قائلاً له: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

ونجده في آيات أخرى يهدد ويتوعد المشركين بالعذاب الشديد كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (إبراهيم: ٢).

هذا هو القرآن الكريم في استدلاله بما يكمن في باطن الكفار من يقين بأن الله مالك ملك السماوات والأرض لا شريك له ليصل بالموقنين بذلك إلى توحيد العبادة.

ثالثاً: دليل إنزال الله الأمطار وإحيائه الأرض بعد موتها واعتراف الكفار بذلك:

من مظاهر ربوبية الله للكون التي اعترف بها المشركون واستدل بها القرآن على التوحيد دليل إنزال الله للأمطار في كل أصقاع الأرض، وفي كل وقت وحين، لإحياء الأرض من بعد موتها.

ولم يكن اعتراف الكفار بهذا الدليل اعترافاً ضِمنياً أو ظنيّاً أو باطناً لا ظهور له، بل كان اعترافهم بذلك صراحة ويقيناً وظاهراً مُعبّراً عنه بألسنتهم التي أنطقها الله ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (فصلت: ٢١) سبحانه وتعالى، ويتضح هذا من قوله تعالى ـ لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٣).

قال المراغي[١]: رحمه الله في تفسير الآية «أي ولئن سألتهم من ينزل من السحاب ماء فيحيي به الأرض القفر فتصير خضراء تهتز بعد أن لم تكن كذلك، لم يجدوا إلا سبيلاً واحدة، هي الاعتراف الذي لا محيص عنه بأنه الله.. ومن عجبٍ أنهم بعد ذلك يشركون به بعض مخلوقاته التي لا تقدر على شيء من ذلك.. والخلاصة: إن أقوالهم تخالف أفعالهم، فهم يُقرُّون بوحدانية الله وعظيم قدرته وجلاله، ثم هم يعبدون معه سواه مما هم معترفون بأنه خلَقه»[٢] وهذا مالا يفعله حكيم، ولا يقبله عاقل.

وقال ابن عاشور: «وأُدمج في الاستدلال عليهم بانفراده تعالى بإنزال المطر أن الله أحيا به الأرض بعد موتها ـ وإن كان أكثر المشركين ينسبون المسبَّبات إلى أسبابها العادية ـ لأنهم مع ذلك لا ينسبون الإنبات إلى أصنامهم، وقد اعترفوا بأن سبب الإنبات وهو المطر منزَّل من عند الله، فيلزمهم أن الإنبات من الله على كل تقدير... وقد أشار قوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا ﴾ إلى موت الأرض، أي موت

---

(١) المراغي هو: أحمد بن مصطفى المراغي، مفسِّر، مصري، من العلماء، تخرج من دار العلوم في القاهرة عام ١٩٠٩م، ثم عمل مدرِّساً فيها لمواد الشريعة الإسلامية، وولي نظارة بعض المدارس، وعيِّن أستاذاً للعربية والشريعة الإسلامية بكلية غور دون بالخرطوم، توفي في القاهرة عام ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

له مؤلفات منها: «الحسبة في الإسلام» و«الوجيز في أصول الفقه» و«تفسير المراغي» وغير ذلك.

الأعلام: للزِّركلي ١/ ٢٥٨.

(٢) تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي (ت ١٣٧١)هـ ، دار إحياء التراث العربي، ط (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ٢١/ ١٨.

نباتها يكون بإمساك المطر عنها في فصول الجفاف أو في سنين الجدب، لأنه قابَلَهُ بكون إنزال المطر لإرادته إحياء الأرض بقوله ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ فلا جرم أن يكون موتها بتقدير الله. فصارت الآية دالّة على أنه المتصرف بإحياء الأرض وإماتتها..»[١].

إننا نجد أن بعض آيات القرآن التي تسوق دلائل وحدانية الله وتوحيده الفطرية الكونية تُختم أحياناً بقوله تعالى ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ كما في الآية السابقة ذمّاً للمشركين، وإشارة إلى أن أكثرهم لا يتفطّنون لنهوض تلك الحجج الواضحة، فكأنهم لا عقل، لهم لأن وضوح تلك الحجج يقتضي أن يفطن لنتائجها كلُّ ذي مُسكة من عقل[٢].

بل نجد أن البعض الآخر من هذه الآيات تُختم بدعوة الكفار إلى الإيمان بالله واتقاء سخطه وعذابه بعد وضوح آياته ودلائل وحدانيته ووجوب توحيده كما في قوله تعالى ـ آمراً نبيه ﷺ أن يسأل الكفار بقوله: ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (يونس: ٣١، ٣٢).

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٠٠ باختصار.

(٢) انظر: المرجع السابق ٢٠/ ٢٠١، وقال ابن عاشور: «وإنما أُسند العقل إلى أكثرهم دون جميعهم لأن من عقلائهم وأهل الفِطن منهم من وضحت لهم تلك الحجج: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ (البقرة: ٢٥٣)». أ.هـ .

رابعاً: دليل ربوبية الله المطلقة للسماوات وما فوقها، وتدبيره للكون كله واعتراف الكفار بذلك:

سبق القول إن الكفار اعترفوا لله بمفردات معاني الربوبية مِنْ خلْق ومُلك وشيء من تدبير الكون كإنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها ونحو ذلك، وحاجّهم القرآن في ذلك كله ليدلّل على وحدانية الله وتوحيده، ولم يكتف القرآن بهذا فقط بل استخدم دليلاً آخر يشمل كل ما سبق وغيره، إنه دليل اعتراف المشركين بربوبية الله المطلقة للسماوات السبع والعرش العظيم، وتدبيره للكون كله. فقط سطّرت آيات القرآن تكرار الأمر للنبي ﷺ بلفظ ﴿ قُلْ ﴾ للمشركين لاستخراج توحيد الربوبية الباطن في أنفسهم، واستخدامه للوصول بهم إلى توحيد الألوهية، عندما أنكر ظاهرهم ولسان حالهم توحيد عبادتهم لله ظاهراً وباطناً، فقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ـ وفي قراءة أخرى ـ سَيَقُولُونَ اللهُ[1] قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٦، ٨٧) قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «نَبَّهَتْ هذه الآيات على أن من ابتدأ بالخلق والاختراع والإيجاد والإبداع ـ وكلها من معاني الربوبية ـ هو المستحق للألوهية والعبادة»[2] سبحانه وتعالى.

---

(١) وهي قراءة لأبي عمرو ويعقوب، وقال القرطبي في تفسيره ١٢/ ١٤٦: «وأما من قرأ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ فلأن السؤال بغير لام فجاء الجواب على لفظه». انظر: النشر في القراءات العشر، لأبي الخير الدمشقي ٢/ ٣٢٩.

ومصحف المعلم، بقلم الشيخ مشرف المحرابي ص٣٤٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ١٤٦ بتصرف وزيادة يسيرة.

وقال ابن عاشور في تعليقه على قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ «بلام جارّة لاسم الجلالة» «حكاية لجوابهم بمعناه لا بلفظه، لأنهم لمّا سُئِلوا بـ﴿ مَن ﴾ التي هي للاستفهام عن تعيين ذات المستفهمَ عنه كان مقتضى الاستعمال أن يكون الجواب بذكر اسم ذات المسئول عنه، فكان العدُول عن ذلك إلى الجواب عن كون السماوات السبع والعرش مملوكة لله عُدُولاً إلى جانب المعنى دون اللفظ مراعاة لكون المستفهَم عنه لوحظ بوصف الربوبية، والربوبية تقتضي الملك»[١] ولابن عاشور قول آخر وجيه في توجيه الآية[٢]، وعموماً أياً كان جواب الكفار الواقع أو المتوقع بلفظ ﴿ لِلَّهِ ﴾ أو ﴿ ٱللَّهُ ﴾ فإن الشاهد من ذلك كله أنهم أجابوا بما فيه تقريرهم لربوبية الله سبحانه وتعالى، فردّ القرآن على جوابهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ «باستفهامٍ غرضه الإنكار والتوبيخ لهم.. بمعنى: أفلا تحذرون عقابه، فلا تشركوا به بعض مخلوقاته، ولا تنكروا قدرته على كل مقدوراته»[٣] هذا هو القرآن في منهجه لتقرير الإيمان بالله والدعوة لتوحيده، إنه يتخذ من المعتقدات الصحيحة السابقة قاعدة للانطلاق إلى عقيدة جديدة فيها تكميل للبناء الصحيح وإضافة للجديد المطلوب.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٨٩.

(٢) حيث قال: «.. أرى أن ذلك لقصد التعريض بأنهم يحترزون عن أن يقولوا: رب السماوات السبع الله، لأنهم أثبتوا مع الله أرباباً في السماوات، إذ عبدوا الملائكة، فهم عدلوا عمّا فيه نفي الربوبية عن معبوداتهم، واقتصروا على الإقرار بأن السماوات ملك لله، لأن ذلك لا يبطل أوهام شركهم من أصلها، ألا ترى أنهم يقولون في التلبية في الحج (لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك)». انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٩٠ بتصرف يسير جداً.

(٣) انظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ.د/ وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، بيروت ـ لبنان ١٨/ ٨٥-٨٦ بتصرف واختصار.

قال محمد قطب[١]: «وإذا تتبعنا كل ما كان عند العرب من معلومات عن الله سبحانه، نجد القرآن قد عاملها ذات المعاملة، سجّل عليهم علمهم بها.. ليبدأ بطريقته الخاصة التي تحوِّلها إلى نبض حي وسلوك واقعي، إنه في الواقع يستنبت بذرة جديدة في قلوبهم، ـ يقصد الإيمان بالله ـ قد تكون فيها مشابهة من البذرة الأولى التي كانت موجودة من قبل، ولكنها غيرها على وجه التأكيد، إن القديمة أسِنت وتعفنت فما عادت تصلح للاستنبات، وهذه غيرها جديدة تماماً.. تنبت من جديد.. بعد تحريك القلب لينبض ليمد البذرة الجديدة بالقوة والنماء»[٢].

وهكذا هو القرآن الكريم في منهجه الفطري لتقرير التوحيد وإقامته في نفوس الخلق عامّة والمشركين خاصة، تارة باستدلاله بالأدلة الفطرية الإنسانية، وتارة أخرى باستشهاده بأدلة التوحيد الكونية، وكلها أدلة عقلية تحقق الذكرى لكل من ﴿ كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق: ٣٧).

---

(١) هو: محمد قطب إبراهيم (أخو سيد قطب)، ولد في ٢٦/ ٤/ ١٩١٩م، في بلدة موشا، من محافظة، أسيوط بمصر،... أتم المرحلتين الابتدائية والثانوية، ثم التحق بجامعة القاهرة، حيث درس اللغة الإنجليزية وآدابها، وتخرج منها عام ١٩٤٠م، ومن ثم تابع في معهد التربية العالي للمعلمين، فحصل على دبلومها في التربية وعلم النفس... وقد تأثر بأخيه سيد قطب الذي كان يتقدمه بأكثر من اثني عشر عاماً في الميلاد... وقد تعرّض للتعذيب في السجن الحربي في مصر، بعد عام ١٩٥٤م، لتمسكه بالحق الذي اقتنع به، وخالف حاكم مصر في ذلك الوقت، ثم أُفرج عنه بعد ذلك... وهو كاتب وأديب ومفكر إسلامي، له عدة مؤلفات، من أولها وأهمها: «الإنسان بين المادية والإسلام» ومنها: «جاهلية القرن العشرين» و«دراسات قرآنية» وغير ذلك من الكتب الفكرية التربوية. انظر: علماء ومفكرون عرفتُهم، لمحمد المجذوب ٢/ ٢٧٥-٢٩٣.

(٢) دراسات قرآنية ص٣٠ باختصار.

ورغم ذلك فإن أدلة التوحيد الفطرية[1] ـ سواء النفسية أو الكونية ـ لا تغني أبداً عن أدلة التوحيد الأخرى[2] التي وردت في القرآن الكريم ولها دلالات عقلية وإيحاءات نفسية تدفع المتأمل فيها لإحقاق حق التوحيد، وإبطال باطل الشرك، وهذا ما أقوم بشرحه بالتفصيل في الفصل الثاني.

---

(١) وقد استدل بعض أهل العلم على فطرية معرفة الله وتوحيد ربوبيته من خلال:

تصريح بعض آيات القرآن أن الله ما أرسل رسله إلا لدعوة أقوامهم لتوحيد العبادة وليس لمعرفة الله كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥). فلو لم يكن عند الخلق سابق معرفة بوجود الله وربوبيته لدعاهم الرسل لذلك قبل دعوتهم إياهم لتوحيد الألوهية.

إلزام القرآن لموحدي الربوبية (المعترفين بذلك) بتوحيد الألوهية مما يدل على أن الفطرة تعرف ربوبية الله كما سبق، وكما سيأتي شرحه ص٢٠٣.

وهناك أدلة أخرى (عقلية) تدل على فطرية معرفة الله وتوحيد ربوبيته.

انظر: الفطرة، للقرني ص٢٢٧-٢٤١.

(٢) راجع: التنويه المذكور في ص٢٣٦.

الفصل الثاني

منهج القرآن في الاستدلال على التوحيد بالأدلة العقلية

وفيه خمسة مباحث يسبقها تمهيد:

المبحث الأول: استدلال القرآن على التوحيد بالأدلة العقلية البدهية.

المبحث الثاني: استدلال القرآن على التوحيد بنقض الشرك وإبطال عبادة الشركاء.

المبحث الثالث: استدلال القرآن على التوحيد بالأدلة العقلية الافتراضية.

المبحث الرابع: أدلة التوحيد العقلية المستنبطة من الأحداث التاريخية.

المبحث الخامس: أدلة التوحيد العقلية المستفادة من الحقائق العلمية.

تمهيد:

سلكَتْ آيات القرآن المتعلقة بأركان الإيمان - ومن ذلك ركن الإيمان بالله عزوجل - عدة مسالك لإثبات وحدانية الله وتوحيده سبحانه وتعالى، فخاطبت العقل وأقنعته، وأثارت مشاعر النفس وهزَّتها، وتفننت في عرض أدلة التوحيد الكثيرة المتنوعة، الحاسمة القاطعة لكل أنواع الإنكار أو الشك أو الظن أو التردد والحيرة.

لقد جاءت أدلة التوحيد القرآنية كافية شافية محققة الهدف الذي سيقت لأجله، متعاضدة مع بعضها، فحصل بمجموعها قيام حجة التوحيد ودلائله على الخلق أجمعين.

ولا شك أن كل من طالت صحبته لكتاب الله، ورَزَقَهُ الله تدبراً وفهماً حسناً لكلامه سبحانه وتعالى سيجد القرآن ممتلئاً مفعماً بالحجج والبراهين الدالة على وحدانية الله، المحققة لتوحيده سبحانه في كل زمان ومكان وأمة.

وهذا ما اعترف به بعض أهل الكلام الذين سلكوا طرق الفلاسفة بحثاً عن الدليل الدَّال على الخالق، وابتدؤوا من الشك للوصول إلى اليقين، ولجئوا للحجاج المعقد، والاستدلال الغامض، وأرهقوا عقولهم وأفنوا كثيراً من جهودهم وأعمارهم وراء الحقيقة المنشودة التي ضلوا عنها، ثم رجعوا بعد ذلك كله إلى أدلة القرآن الكريم الجلية الناصعة، الجامعة لأعلى درجات الاستدلال العقلي، البليغة في أسلوبها ودلالتها ومعانيها، البالغة أغوار النفس وأعماق العقل في التأثير والإقناع[1].

---

(١) سأعقد مقارنة بين طريقة القرآن المتميزة وطرق الفلاسفة المعقدة في الاستدلال على وجود الله فيما يلي من فقرات قادمة ص١٠٥٥.

لقد اعترف هؤلاء بعد عودتهم من التيه، بأنهم كانوا بعيدين عن المنهج القويم الموصل لوحدانية الله وتوحيده، حتى قال أحدهم متحسراً على ما كان منه: «أفنيت عمري في الكلام أطلب الدليل، وأنا لا أزداد إلا بعداً عن الدليل، فرجعت إلى القرآن أتدبره وأتفكر فيه، فإذا أنا بالدليل حقاً معي، وأنا لا أشعر به، والله ما مثلي إلا كما قال القائل:

ومن العجـائب، والعجائب جمة قرب الحبيب، وما إليه وصول
كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والـماء فـوق ظهورها محمول

قال: فلما رجعتُ إلى القرآن إذا هو الحكم والدليل، ورأيت فيه من أدلة الله وحججه وبراهينه، ما لو جُمع كل حق قاله المتكلمون في كتبهم لكانت سورة من القرآن وافية بمضمونه، مع حسن البيان، وفصاحة اللفظ، وحسن الاحتراز، والتنبيه على مواقع الشُّبه، والإرشاد إلى جوابها..»[1].

عموماً يمكن توضيح كل ما سبق من خلال المباحث الخمسة الآتية:

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم ص١٥٠ باختصار.
و: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية ١/ ٢٠.

المبحث الأول

استدلال القرآن على التوحيد بالأدلة العقلية البدهية

مدخــل:

تنوعت آيات القرآن وأهدافه من حشد أدلة التوحيد القرآنية فمنها:

أ ـ آيات ساقها القرآن الكريم للتأكيد على توحيد الربوبية، وترسيخه في نفوس الناس، ولسنا بحاجة هنا لشرح ذلك بالتفصيل كون هذا النوع من التوحيد قد اعترف به كل الخلق تقريباً، حتى إبليس الذي سجل الله عنه قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر: ٣٩) فالآية تصرح باعتراف إبليس بربوبية الله[١]، ولم ينكر هذا النوع من التوحيد إلا الدهرية وفرعون والنمرود ومن نحى نحوهم كما سبق شرحه ـ وكان إنكارهم جحوداً واستكباراً وظلماً وعلواً.

ب ـ آيات ساقها القرآن الكريم للتدليل على توحيد الألوهية صراحةً، بأدلة نفسية عقلية تدفع ذوي الفطرة الصافية السليمة لتحقيق توحيد العبادة، الذي لأجله خلق الله الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وشرع الجهاد لبعض الأنبياء لإقامته ـ ومنهم نبينا محمد ﷺ ـ ولأجله تنصب الموازين ويكون الحساب والثواب والعقاب يوم النشور، لينال أهل الإيمان رضا الله وجنته، ويبوء أهل الكفران بسخطه والنار.

---

(١) ولا غرابة في اعتراف إبليس بربوبية الله لأن كفره إنما طرأ عليه بسبب استكباره وعدم سجوده.

ج ـ آيات ساقها القرآن الكريم ـ تتعلق بربوبية الله ـ واستدل بها صراحة أو ضمناً على توحيد الألوهية وعلى بعض أسماء الله وصفاته، أو ما يسمى بـ«توحيد الأسماء والصفات»[١].

وقد تبين من خلال التأمل في أدلة التوحيد القرآنية وخاصة توحيد الألوهية أن منها أدلة بدهية يفهمها كل عاقل لأول وهلة، ولا تحتاج لمزيد نظر أو إجهاد عقلي، فهي سهلة قريبة ملموسة في واقع كل إنسان ويمكن تصنيفها إجمالاً إلى نوعين من الأدلة استدل بهما القرآن لتقرير هذا النوع من التوحيد والدعوة إليه هي كما يلي:

أولاً: دليل تفرد الله بالربوبية والإنعام على خلقه.

ثانياً: دليل كمال الله وتفرده في أسمائه الحسنى وصفاته العظمى.

وحتى يتضح المنهج القرآني العقلي في الاستدلال على توحيد العبادة بالأدلة العقلية البدهية يمكن تقسيم هذا المبحث إلى المطلبين التاليين:

---

(١) سأشرح ذلك بالتفصيل في مبحث الأدلة العلمية العصرية على وحدانية الله وتوحيده ص ٥٩٠.

«المطلب الأول»

«دليل تفرد الله بالربوبية والإنعام على خلقه»

لقد أكثر القرآن الكريم من عرض مظاهر ربوبية الله للإنسان والأكوان ـ سواء في الخلق أو المُلك أو التدبير ـ وعدَّد صور نعم الله على خلقه الشيء الكثير، واستدل بذلك كله على استحقاق الله وحده لجميع أنواع العبادة، وأكد خطأ وبطلان صرفها لغير الله، وبيّن ضلال أهلها، ونبه إلى ضرورة ووجوب إفراد الله بالعبادة، ودعى لذلك في أكثر من موضع[1]، مذكراً الإنسان بنعم الله وآلائه عليه.

وقد ظهر لنا من خلال استعراض آيات القرآن المتعلقة بنعم الله على الإنسان، وربوبيته له وللأكوان، المسوقة لتقرير توحيد الألوهية أن نعم الله على الإنسان تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: نعم الله على الإنسان في نفسه.

القسم الثاني: نعم الله على الإنسان فيما حوله.

فقد أنعم الله على عبيده بعدة نعم خفية وجلية، لا تعد ولا تحصى، كما قال تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠) وقال: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨) وليس أحد أنعم ولا زال ينعم بأي نعمة سوى الله عز وجل، قال سبحانه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل: ٥٣).

---

(١) سأشرح أدلة ذلك في فصل أساليب القرآن في دعوته للتوحيد ص٩٠٥.

ومن هنا اعتبر القرآن هذه النعم العظيمة الكثيرة على الإنسان في ذاته وفيما حوله دليلاً على ربوبية الله، ثم استخدم هذا الدليل وسيلة لدعوة كل مشرك وكافر بالله إلى توحيد العبادة، وحتى يتضح الأمر جلياً أبدأ بذكر نعم الله على الإنسان في ذاته كما يلي:

أولاً: نعم الله على الإنسان في نفسه:

تجلى من خلال جمع ما أمكن من آيات القرآن المتعلقة بربوبية الله ونعمه على الإنسان في ذاته ودراستها أن منها ما بثّه الله في أماكن متفرقة من القرآن الكريم، ومنها ما جمعه في مواضع معينة، فمن نعم الله على العباد ـ المذكورة في أماكن متفرقة من القرآن:

١ـ خلق الله وإيجاده للإنسان من العدم، حيث أنشأه من نفس واحدة[1]، من تراب[2]، وطين[3]، وصلصالٍ كالفخار[4]، ومن نطفه وماء مهين[5].

---

(١) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (الزمر: ٦)، والمقصود بالنفس الواحدة آدم عليه السلام.

(٢) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ (غافر: ٦٧) ونحوها من الآيات كثير.

(٣) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ (السجدة: ٧).

(٤) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ (الرحمن: ١٤).
ومعنى صلصال كالفخار: أي طين يابس كالفخار.
انظر: فتح القدير، للشوكاني ٥/ ١٧٧.

(٥) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان: ٢).
وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ (المرسلات: ٢٠)، وغيرها من الآيات.

وهو الذي صوَّره في رحم أمه[١]، فأحسن صورته[٢]، وجعل له عينين ولساناً وشفتين[٣]، وسمعاً وبصراً وفؤاداً[٤]. وأبدعه في أحسن تقويم[٥]، ثم أخرجه بعد ذلك إلى الحياة الدنيا[٦]، وعلّمه ما لم يعلم[٧]، وخلق له زوجاً من نفسه، وجعل بينهما مودة ورحمة[٨]، وجعل له من زوجه بنين وحفدة[٩].

٢ ـ ومن نعم الله على الإنسان في ذاته أن ميزه ربه عن الجماد من الأحجار والأشجار ونحو ذلك، حيث منحه القدرة على الكلام[١٠] والبطش والحركة، وزوَّده بالأحاسيس والمشاعر، ومكنه من قضاء حوائجه وتدبير أموره بنفسه على أحسن وجه وأكمله.

---

(١) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ (آل عمران: ٦).

(٢) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ (غافر: ٦٤)، وغيرها من الآيات.

(٣) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ (البلد: ٨، ٩).

(٤) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨).

(٥) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين: ٤).

(٦) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ (النحل: ٧٨).

(٧) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ٥).

(٨) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١).

(٩) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ (النحل: ٧٢).

(١٠) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن: ١-٤).

٣ ـ ومن نعمه سبحانه على الإنسان في نفسه أن فضَّله على الحيوان، فجعل له عقلاً به يعي، ويعقل، ويفكر، ويدبر[١]، ويحلل، ويقارن، ويستنبط، ويستنتج.. إلخ، ونحو ذلك مما يوصله لمعرفة الحق والباطل، والخير والشر، وطريق النجاة وسبل الهلاك، في الدارين ـ الأولى والآخرة ـ وأسباب ذلك كله، وموانعه.

كما أعزَّ الله الإنسان عن كثير من الحيوان، فجعله يمشي على رجلين[٢]، منتصب القامة، مرفوع الرأس، حراً عزيزاً، كريماً. ودعاه لستر عورته، وإعمال عقله فيما ينفعه، وأنزل له شرعاً يهتدي به لمصالحه في المعاش والمعاد.

٤ ـ ومن أعظم نعم الله على الإنسان في ذاته أن هدى ذوي القلوب الحية والآذان الواعية الذين يتذكرون ويخشون وينيبون ـ هداهم إلى الحق[٣] بعد أن بيّن لجميع خلقه طريق الخير والشر[٤].

ولا يمكن أبداً أن تكون نعم الله على الإنسان في ذاته وفيما حوله نعماً على الحقيقة إلا بنعمة الهداية إلى الصراط المستقيم حتى يحسن العبد استغلال ذلك

---

(١) راجع ص١١١ حيث ذكرت مكانة العقل في الشريعة الإسلامية.

(٢) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور: ٤٥)، والإنسان من الدواب التي تمشي على رجلين كما هو معلوم.

٣ - كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (يونس: ٣٥)، ونحوها في البقرة: ٢١٣.

(٤) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد: ٨-١٠).

والاهتداء إلى الحق يضمن للعبد بإذن الله نعماً أخرى، منها: الوصول لمرضاة الله وجنته، والنجاة من سخطه وناره، بل يضمن له بلوغ كل خير في الدنيا والآخرة وما بينهما، والنجاة من كل شر.

كله في مرضاة الله ومحبته، وتمام شكره وحسن عبادته، وبالتالي يتحقق له دوام النعيم، والمزيد النعم في الدنيا، وعظيم الأجر والدرجات في الأخرى.

لقد أكرم الله الإنسان بنعم عظيمة كثيرة وفيرة فضّله بها على كل جماد وحيوان وقال: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٧٠).

وهي فيما حوله أكثر لا تعد ولا تحصى، وهذا ما أشرحه في القسم الثاني من نعم الله على الإنسان كما يلي:

ثانياً: نعم الله على الإنسان فيما حوله:

يمكن تقسيم نعم الله على الإنسان فيما حوله إلى النوعين التاليين:

النوع الأول: نعم الله على الإنسان في الأرض وما عليها.

النوع الثاني: نعم الله على الإنسان في السماوات وما فيها.

ولنبدأ بالنوع الأول:

أولاً: نعم الله على الإنسان في الأرض وما عليها:

من نعم الله الأرضية ـ التي عجز كل إنسان عن شكر المولى عليها ـ نعمة الرزق من الطيبات[1] كالعسل[2] والثمرات[3] والأنعام[4] وغير ذلك، فالله وحده

---

(١) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ (طه: ٨١).

(٢) كما يدل عليه قوله تعالى في سورة: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٦٩).

(٣) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقٗا لَّكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٣٢).

(٤) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (النحل: ٥).

هو الذي خلق المشتهيات كلها، ومكّن الإنسان منها، والله وحده هو الذي يسَّر للإنسان الحرث والزرع[١].

وأنزل الماء العذب من السماء[٢]، وشق الأرض[٣]، وفلق الحب والنوى[٤] وأنبت النبات من كل زوج كريم[٥]، وجَعَلها مختلفة الألوان[٦]، متفاضلة الأكل[٧].

لقد ذكّر الله خلقه بإنعامه عليهم بإخراج الماء والمرعى[٨]، وتفجير العيون من باطن الأرض[٩]، وإمساك الماء في جوفها[١٠]، وإنشاء الجنات[١١].

---

(١) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٣، ٦٤).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٨-٧٠).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ (عبس: ٢٤-٢٦).

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ (الأنعام: ٩٥).

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٧).

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾ (فاطر: ٢٧).

(٧) كما في قوله تعالى: ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٤).

(٨) كما في قوله تعالى: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ (النازعات: ٣١).

(٩) كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ (يس: ٣٤).

(١٠) كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٨).

(١١) كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٩).

وإحياء الأرض بعد موتها[١]، وبثّ دوابها[٢] وإخراج النار من أشجارها[٣].

ونبّه الله الإنسان أنه هو وحده الذي جعل على الأرض من كل زوجين اثنين[٤]، وأكرم العبد بنعمة الظل[٥] والأكنان[٦] والسرابيل[٧] وسكن البيوت[٨]، والليل[٩].

وامتنّ الله على خلقه بأنه هو الذي جعل لهم الأرض كفاتاً تحمل على ظهرها أحياء لا يحصيهم إلا الله، وتضم في بطنها أمواتاً لا يعلمهم إلا خالقهم ومميتهم[١٠]، وجعل فيها رواسي شامخات[١١]، مختلفة الألوان[١٢]، وفجاجاً

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (النحل: ٦٥).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ (لقمان: ١٠).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ (الواقعة: ٧١-٧٣).

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩).

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٥).

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ (النحل: ٨١).

(٧) كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ (النحل: ٨١).

(٨) كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ (النحل: ٨٠).

(٩) كما في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ (الأنعام: ٩٦).

(١٠) كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ (المرسلات: ٢٥، ٢٦).

(١١) كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ (المرسلات: ٢٧)، وغيرها من الآيات.

(١٢) كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر: ٢٧).

واسعات[١]، وهو الذي بَسَط الأرض[٢]، ومدها[٣]، ودحاها[٤]، ووضعها[٥]، وسطحها[٦]، ويسَّر قرارها[٧]، ومهادها[٨]، ومكّن الإنسان فيها[٩]، وأمسكها أن تزول[١٠]، وجعله خليفة عليها بأمر الله[١١].

وذكّر الله خلقه بنِعَمِهِ عليهم في البحر، فالله وحده هو الذي حمل ذرية آدم في الفلك المشحون[١٢]، وأجرى الفُلْك في البحار[١٣]، وسخر ما فيها من لحم طري، وحلية[١٤]،

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣١).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ (نوح: ١٩).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ﴾ (الرعد: ٣).

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ (النازعات: ٣٠).

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ (الرحمن: ١٠).

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠).

(٧) كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ (غافر: ٦٤).

(٨) كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ (النبأ: ٦).

(٩) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٠).

(١٠) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (فاطر: ٤١).

(١١) كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠).

(١٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ (يس: ٤١)، ونحوها في الإسراء: ٧٠.

(١٣) كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ (إبراهيم: ٣٢).

(١٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ١٤).

وغير ذلك وهو وحده الذي يهدي خلقه في ظلمات البر والبحر[١]، ويحفظهم ويرحمهم[٢]، ويستجيب دعاءهم، وخاصة المظلومين والمضطرين[٣].

ومن هنا جاءت آيات القرآن الكريم لمحاجة الخلق بمظاهر ربوبية الله ونعمه عليهم في الأرض معتبرة ذلك دلائل وآيات للموقنين كما قال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١) وقبل أن أشرح منهج القرآن في الاستدلال بكل ما سبق على توحيد الله أذكر النوع الثاني من نعم الله على الإنسان فيما حوله.

ثانياً: نعم الله على الإنسان في السماوات وما فيها:

كما أنعم الله على عباده بنعم أرضية لا تعد ولا تحصى فقد أنعم عليهم أيضاً بنعم أخرى سماوية لا تحصر ولا تستقصى، وأكثر هذه النعم إن لم نقل أجمعها إنما سخِّرت للإنسان ليشكر الرحمن حق شكره بعبادته سبحانه وحده كما يحب ويرضى.

فمن نعم الله على الإنسان في السماوات وما فيها: خلق الشمس والقمر[٤]، وتقديرهما، بحسبان[٥]، وجريانهما لأجل معلوم[٦]، ليعلم الخلق عدد السنين

---

(١) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ (النمل: ٦٣).

(٢) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾ (الأنبياء: ٤٢).

(٣) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (النمل: ٦٢).

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٣).

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (الأنعام: ٩٦).

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (الزمر: ٥)، وغيرهما كثير.

والحساب[١]، ومن نعم الله أن جعل في السماوات بروجاً[٢]، وزيّنها بالكواكب، والنجوم، فحفظها من كل شيطان مارد[٣].

وهو الذي جعل ليلاً ونهاراً[٤]، مقدَّرين[٥] مسخرين[٦].

وهو الذي فلق الإصباح[٧]، وأخرج الضحى[٨]، وأرسل الرياح[٩]، وأنشأ السحب[١٠].

ومن نعم الله على خلقه الدالة على ربوبيته، رفع السماء بغير عمد[١١].

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (يونس: ٥).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ (الحجر: ١٦).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ (الصافات: ٦-٧).

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (يونس: ٦٧).

(٥) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (المزمل: ٢٠).

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (إبراهيم: ٣٣).

(٧) كما في قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ (الأنعام: ٩٦).

(٨) كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ (النازعات: ٢٩)، والآية وردت في سياق الحديث عن مظاهر قدرة الله وربوبيته في السماء.

(٩) كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴾ (الحجر: ٢٢).

(١٠) كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ (الرعد: ١٢).

(١١) كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (الرعد: ٢).

وإحكام بنائها، وتسويتها[١]، وجَعْلِها سقفاً محفوظاً[٢]، وإمساكها أن تزول إلا بإذنه[٣]، وغير ذلك من النعم[٤].

وإجمالاً لكل ما سبق يمكن القول: إن الله تعالى قد أنعم على الإنسان بكل أسباب المعيشة وضرورات الحياة الكريمة، وحاجاتها، ومحاسنها.

ونوّع له في الأرزاق من السماء والأرض[٥]، وبَسَطَ ذلك[٦]، وسهّل ويسّر وصوله إليه، لقد سخّر[٧] الله لعبيده كل ما في السماوات والأرض[٨].

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ (الملك: ٣)، وقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ (النازعات: ٢٧، ٢٨).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٢).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (فاطر: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحج: ٦٥).

(٤) كنعمة تسخير الطيور ولحومها والاستخلاف على المال والذهب والفضة، ونعمة النوم والعافية، والمجيء بالضياء بعد الظلام والعكس.

(٥) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ٣١)، وقوله: ﴿ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ (الملك: ٢١).

(٦) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (العنكبوت: ٦٢).

(٧) سخّر، التسخير: سياقة إلى الغرض المختص قهراً، والمسخَّر هو المقيَّض للفعل، والسُّخريُّ هو الذي يُقهر فيتسخر بإرادته. انظر: المفردات، للراغب، ص٢٢٧.

(٨) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٣).

من شمس وقمر[(١)]، ونجوم[(٢)]، وليل ونهار[(٣)]، وفُلْك، وأنهار[(٤)]، وبحار[(٥)]، وسحاب[(٦)]، وطير[(٧)]، وأنعام[(٨)]، وغير ذلك.

وحقيقة أنه عند التأمل في واقع المسخرات السابق ذكرها، وضرورتها للإنسان، وحاجته إليها، يتبين لنا أنه كلما اشتدت الحاجة إليها أو إلى بعضها كلما كانت مسخّرة أكثر من غيرها، ويسر الله للإنسان الوصول إليها بصورة أقرب وأسرع وأسهل دون حاجته لبذل مزيد جهد وعناء.

---

(١) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآبِبَيْنِ ﴾ (إبراهيم: ٣٣) ونحوها في الرعد: ٢، والنحل: ١٢، والعنكبوت: ٦١ وغيرها.

(٢) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ (النحل: ١٢).

(٣) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (النحل: ١٢)، ونحوها في إبراهيم: ٣٣.

(٤) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ (إبراهيم: ٣٢).

(٥) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (النحل: ١٤) ونحوها في الجاثية: ١٢.

(٦) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

(٧) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل: ٧٩).

(٨) كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الحج: ٣٦).

فالحصول على الهواء المسخّر بين السماء والأرض أيسر بكثير من بلوغ الماء[١]، وذلك لشدة الحاجة إليه، وضرورته لحياة الإنسان ـ كما هو معلوم ـ.

والوصول إلى الماء ـ سواء ما نزل من السحاب فجرى على الأرض أو تجمع في قيعانها أو أمسكته في بطنها، وكذا ما نبع منها أو ذاب من جليد جبالها ـ بلوغ كل هذا وغيره من المياه أقرب من الحصول على الطعام مما تنبت الأرض أو تُنتجه الأنعام[٢] ـ كما هو مشاهد ومحسوس من الواقع ـ وهكذا في بقية المسخرات والنعم من كساء ودواء وسكن ومواصلات.. إلخ.

لقد أنعم الله على الإنسان بنعم عظيمة كريمة عجز كل فرد عن استقرائها وحصرها فضلاً عن شكرها.

وهناك من النعم الأخرى، ومظاهر ربوبية الله ـ الخفية والجلية ـ الدالة على وجود الله ووحدانيته وتوحيده وعظيم عنايته بخلقه مما يكتشفه علماء العصر الحديث يوماً بعد آخر ما يجلي حقيقة ما قاله صاحب دلائل التوحيد: «إن لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق»[٣].

---

(١) حيث قد يحتاج الحصول عليه إلى سير إليه، وتنقيب عنه في باطن الأرض وحفظ له إن نزل من السماء، وجمع له في الأوعية ونحو ذلك وهذا كله ليس للهواء.

(٢) حيث قد يحتاج الحصول على الطعام حرثاً للأرض وزراعة للشجر، ثم عناية تامة لذلك، ثم قطعاً لثمار تلك الأشجار، أو حصداً لمحصولها، ثم إعداداً لطعامها.. إلخ.

وكذا قد يحتاج الحصول على لحوم الأنعام أو لبنها وشعرها وصوفها وأوبارها رعياً لها، ثم حلباً لحليبها، أو قصاً لشعرها ونحو ذلك، أو ذبحاً لها وطباخة للحمها.. إلخ. وهذا كله أعسر من بلوغ الماء.

(٣) دلائل التوحيد، للقاسمي ص٢٣.

وصدق القائل:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد[1]

والذي يهمنا هنا أن القرآن الكريم أكثر من ذكر نعم الله على خلقه واستدل بذلك على توحيد الألوهية في غير ما آية وموضع[2]، في أماكن متفرقة من سور القرآن كما سبق شرحه، وأخرى مجتمعة، ومن أجمع وأعظم الآيات التي استدل بها القرآن على توحيد الله ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ما ورد في السور الثمان التالية:

أولاً: ما جاء في سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ

---

(١) سبق تخريجه ص١٤١.

(٢) وفي نفس الوقت جاءت بعض هذه الآيات للتأكيد على ربوبية الله للناس.

بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (الأنعام: ٩٥-١٠٢).

وقبل أن أذكر أقوال أهل التفسير وتعليقي على بعض ما ورد في الآيات السابقة، أُكمل بقية الآيات المتعلقة بالموضوع من السور الأخرى.

ثانياً: ما ورد في سورة يونس، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (يونس: ٣-٦).

ثالثاً: ما جاء في سورة النحل، ـ التي يسميها بعضهم سورة النِّعَم ـ: قال جل شأنه: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ

خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (النحل: ٤-١٥).

وقال تعالى ـ في موضع آخر في نفس السورة ـ ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا

حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (النحل: ٦٥-٧٢).

وقال تعالى في موضع أخير في نفس السورة: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ

لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (النحل: ٧٨-٨٣).

رابعاً: ما ورد في سورة الفرقان، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (الفرقان: ٤٧-٥٤).

خامساً: ما جاء في سورة النمل، قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن

يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (النمل: ٦١-٦٤).

سادساً: ما جاء في سورة الروم، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(الروم: ٢٠-٢٦).

سابعاً: ما ورد في سورة لقمان، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ ﴾ (لقمان: ٢٠).

وقال في موضع آخر ـ في نفس السورة ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

مُسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (لقمان: ٢٩-٣٢).

ثامناً: ما جاء في سورة يس، قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (يس: ٣٣-٤٢).

وقال تعالى في موضع آخر في نفس السورة: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (يس: ٧١، ٧٢).

وقال تعالى في موضع أخير في نفس السورة: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (يس: ٨٠).

وغيرها من الآيات التي تستعرض نعم الله على خلقه[1] فتحقق «حياة القلوب، ونور العقول، ـ وتنير الدرب ـ لرواد الطريق إلى الله، وتتوعد الكافرين بنعمه، الجاحدين لها»[2].

هذا هو منهج القرآن في تقرير وتحقيق الإيمان بربوبية الله وألوهيته، إنه يزيل الران عن القلوب والأبصار، ويوقظ الأحاسيس التي تبلّدت عن حقيقة معرفة الله وعبادته، إنه «لا يصنع ذلك من أجل تكوين (معلومات) جديدة عن الله سبحانه.. إنما من أجل أن يسوق المخاطب إلى (الإيمان بالله) ... وفرقٌ هائل بين إنشاء معلومات عن أي قضية من القضايا وبين الإيمان بتلك القضية»[3].

فكل ما سبق من نعم الله على خلقه الدالة على ربوبيته لهم اعتبرها القرآن دليلاً ناصعاً على ألوهية المولى عز وجل، ويمكن توضيح ذلك مما يلي:

وجه دلالة تفرد الله بالربوبية والإنعام على خلقه على توحيد الألوهية:

تتضح دلالة تفرد الله بربوبيته وإنعامه على خلقه على ألوهيته من خلال أمرين اثنين:

---

(١) كما في سورة غافر ٦١-٦٤.

(٢) التوحيد والشكر في سورة النحل، تأليف عبدالحميد محمود طهماز، دار القلم، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، بيروت، لبنان، ص١١، بزيادات يسيرة.

(٣) دراسات قرآنية، لمحمد قطب، ص٥٦.

أولاً: إذا تقرر أن الله سبحانه وتعالى هو وحده الذي أنعم بها على خلقه ـ كما هو المفهومَ من قوله تعالى ـ مخاطباً الإنس والجن ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ١٣). وكما اعترف الكفار ببعضها[١]. فيما سبق ذكره في مبحث الأدلة الفطرية على توحيد الله ـ ولم ينكر ذلك أحد من الخلق أجمعين، ولم يدّع أحد من المخلوقين أنه صاحب تلك النعم التي وردت في الآيات السابق ذكرها، فقد اقتضى ذلك استحقاق المنعم بها تمام الشكر وكل صور العبادة قال ابن تيمية: «إن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر.. بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصّره وهداه، وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسّه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره؛ وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه.. وإذا تدبّر اللبيب طريقة القرآن وجد أن الله يدعو عباده بهذا الوجه»[٢]. أي إلى توحيده في ألوهيته.

وإذا كانت عقول البشرية قد أجمعت الإنكار على كل مولود عقّ والده الذي كان سبباً في وجوده وتربيته والإنعام عليه، أليس بالأولى والأحرى أن يكون الأمر كذلك في حق كل من كفر بالله وعصاه، ولم يؤمن به ويطعه وهو سبحانه رب العالمين.

قال السعدي رحمه الله: «فإذا عُلم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً، عُلم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يُفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، وغير ذلك من الطاعات..»[٣].

---

(١) ولا يلزم من اعتراف الكفار ببعضها كما ذكر ذلك القرآن ألا يكونوا معترفين بغيرها. بل إن مجرد اعترافهم بأن آلهتهم لا تملك شيئاً من ضر أو نفع كاف في الاعتراف ضمناً بأن كل ما يحدث في الكون كله ما هو إلا من تدبير الله وبمشيئته سبحانه وحده.

(٢) مجموع الفتاوى ١/ ٢٧ بتصرف.

(٣) تفسير السعدي ص٦٥، تفسير الآية رقم ١٦٣ من سورة البقرة.

وقال في حديثه عن طريقة القرآن في الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد العبادة «وهذا من أعظم الأدلة على توحيد الألوهية، وهو الاستدلال بربوبية الله الذي لا يستحق الألوهية ولا شيئاً من العبودية غيره»[١].

ثانياً: ويتضح وجه دلالة الآيات السابقة على توحيد الألوهية من خلال ما ختم الله به تلك الآيات من استفهامات إنكارية للشرك وأهله، أو تقريرية لوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته، أو بعض أسمائه وصفاته، أو إشارات لذوي العقول وحثّهم على إعمال عقولهم وتوظيفها لما خُلقت له[٢] من تدبر آيات الله القرآنية والكونية للوصول إلى توحيد الله والإيمان به، وعبادته وحده لا سواه، عن طريق الاقتناع العقلي الحر والتأثر النفسي البالغ بآيات التوحيد وأدلته، وليس عن طريق الإجبار القسري كتوحيد السماوات والأرض اللائي خاطبهن المولى قائلاً: ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١).

فنحن نجد أن الله تعالى ختم بعض الآيات في السور السابقة وغيرها بدعوة ذوي الأسماع والأبصار والعقول إلى إعمال ذلك كله في الاستدلال بمظاهر ربوبية الله وإنعامه على خلقه لمعرفة وحدانيته وتوحيده في ألوهيته وأسمائه وصفاته كما يتضح من مثله قوله تعالى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٣]. وقوله سبحانه: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[٤]. وقوله عز من قائل:

---

(١) الحق الواضح المبين، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي (١٣٠٧-١٣٧٦)هـ، المطبعة السلفية، ط (بدون)، د.ت ـ القاهرة ـ مصر ص٥٨.

(٢) راجع ص ١١١.

(٣) الأنعام: ٩٧، ونحوها في يونس: ٥، والروم: ٢٢.

(٤) الأنعام: ٩٨، ونحوها في سورة النحل: ١٧.

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (يونس: ٣) وقوله تعالت عظمته: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١] وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٢] ونحوها من الآيات.

ونجد أيضاً أن الله تعالى ختم بعض الآيات السابقة معقباً على مظاهر ودلائل ربوبية الله فيها بما يدل على وحدانية الله في ألوهيته كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[٣]؟! أو بما يدل على ذلك ويدعو الخلق للإيمان به وشكره وحُسن عبادته، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (النحل: ١١٤) وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾[٤].. وقوله جل شأنه: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٥] وقوله: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (النحل: ١٥)، وغيرها من الآيات[٦].

ونجد أن القرآن يختم بعض الآيات التي ساق فيها شيئاً من مظاهر الربوبية بإنكاره على المشركين ـ الذين يتقلبون في نعم الله وقد اعترفوا بربوبيته ـ عبادة غير الله أو إشراك أحد معه سواه قائلاً باستفهام إنكاري في أكثر من آية ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ

---

(١) النحل: ١١، ونحوها في الروم: ٢١.

(٢) النحل: ١٢، ونحوها في الروم: ٢٤، وفي سورة الروم آية: ٢٣، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

(٣) الأنعام: ٩٥، ونحوها في يونس: ٣٢.

(٤) الأنعام: ١٠٢، ونحوها في يونس: ٣.

(٥) النحل: ١٤، ونحوها في الآية: ٧٨ من نفس السورة، والآية: ٣١ من سورة لقمان، والآية ٣٥، ٧٣ من سورة يس.

(٦) كما في سورة النحل ٨١، ويونس ٦.

﴿ ٱللَّهِ ﴾ (النمل: ٦٠) ثم منزّهاً للذات الإلهية عن شرك العبادة الذي أحدثه هؤلاء الكفار قائلاً: ﴿ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[١] طالباً منهم برهاناً على ما أحدثوه من الشرك بالله كما يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (النمل: ٦٤) أي: فيما تدّعون من عبادة غير الله المنعم المتفضل على الخلق أجمعين.

إننا نجد أن القرآن يقرر أن الكفار ﴿ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (النمل: ٦٠) عن الحق والتوحيد إلى الباطل والشرك ويصفهم بقلة الاتعاظ والتذكر قائلاً: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النمل: ٦٢) ويخبر أنهم ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (النحل: ٨٣) ومن هنا فلا عجب أبداً أن ينكر عليهم جحودهم وكفرهم بأنعم الله قائلاً: ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (النحل: ٧١)؟! وقائلاً أيضاً: ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٢)؟!

لقد بيّن القرآن أن الهدف الأعظم من إنعام الله على خلقه وإتمام النعم هو تحقيق إسلامهم لرب العالمين.

قال سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ (النحل: ٨١)، وهذا ما فعله الأنبياء والرسل الذين شكروا الله تعالى بالتوحيد[٢] والعمل الصالح[٣].

---

(١) النمل: ٦٣، ونحوها في النحل: ٢، وآيات أخرى كثيرة جداً.

(٢) حيث قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ (النحل: ١٢٠، ١٢١).

(٣) كما سجّل تعالى عن سليمان عليه السلام القائل ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ (النمل: ١٩).

هذا هو منهج القرآن الكريم في الاستدلال على ألوهية الله بتفرده بالربوبية[١] في: الخلق[٢]، والملك[٣]، والتدبير[٤] والتصرف في شئون الكون كله الذي يشمل الخلق والإفناء[٥]، والإنعام بالنعم الخاصة[٦]، والعامة، والنفع والضر[٧].

---

(١) ومن الآيات في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٩٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون: ٥٢). وقوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ (مريم: ٦٥)، وغيرها كثير جداً.

(٢) وردت عدة آيات في القرآن تستدل بتفرد الله بربوبية الخلق على ألوهيته، منها: ما سبق شرحه في ص١٨٩ في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (فصلت: ٣٧).

(٣) وردت عدة آيات قرآنية تستدل بتفرد الله بربوبية الملك على ألوهيته، منها قوله تعالى على لسان النبي ﷺ: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (النمل: ٩١، ٩٢) وغيرها كثير.

(٤) وردت عدة آيات تستدل بتفرد الله بربوبية التدبير على ألوهيته منها قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (يونس: ٣١، ٣٢).

(٥) سبق شرح ذلك في ص٢٦٠.

(٦) من النعم الخاصة ما أنعم الله به على قريش واستدل بذلك على وجوب عبادتهم له قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٧)، وقال سبحانه: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (قريش: ٣، ٤).

(٧) كما قال إبراهيم عليه السلام مخاطباً قومه عن معبوداتهم ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء: ٧٧-٨٠)، فإبراهيم قد علل عبادته لله وتبرؤه من معبودات قومه بقدرة الله على الشفاء والمرض وغير ذلك، وعجز معبودات الكفار عن هذا كله.

والهداية الكونية لسائر المخلوقات إلى ما قدّره لها[1]، وكذا هدايته المؤمنين إلى طريق الجنة[2]، وغير ذلك.

إننا نجد أن المولى جل وعلا يحاجج خلقه بآيات قرآنية، ذات دلالات عقلية ـ تخاطب العقل وتقنعه، وفي نفس الوقت تحمل دلالات نفسية تثير المشاعر الحية، وتحرك وجدان الإنسان وعواطفه، وتحقق الخشوع لله، والخشية منه[3]، قال الشنقيطي: «ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا، على وجوب توحيده في عبادته، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير ـ كما سبق شرحه ـ فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده، ووبخهم منكراً عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده، لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يُعبد وحده»[4] وقال: «إن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتَّب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار، لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية

---

(١) كما يتضح من أمر الله لنبيه أصلاً وأمته من بعده تبعاً بقوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى: ١-٣).

(٢) كما يتضح من تعليم الله لنبيه ﷺ وأمره له أن يخاطب الكفار قائلاً: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ (الأنعام: ٧١).

(٣) وصدق الله في قوله: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: ٢١).

(٤) أضواء البيان ٣/ ٤١٠ بزيادة يسيرة.

ضرورة[١]»[٢]، وكما شهد العقل بأحقية كل أب بطاعة ولده شكراً على إحسانه، فقد شهد أيضاً بأحقية رب العالمين بكل طاعة وعبادة من باب أولى.

ختاماً أقول:

إذا كان القرآن الكريم قد استدل بربوبية الله وتعدد نعمه لخلقه على ألوهيته[٣] سبحانه، فقد استدل على ذلك أيضاً بأمر آخر يتعلق بالربوبية[٤]، وهو

---

(١) كما يتضح من قوله تعالى للنبي ﷺ ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، والمقصود بالرب هنا الإله المعبود كما بينه سياق الآيات السابقة للآية المذكورة.
وكما يتضح من قوله تعالى في قصة الرجلين في سورة الكهف حيث أنكر أحدهم على الآخر قائلاً له: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٣٧، ٣٨).

(٢) أضواء البيان ٣/ ٤١٤.

(٣) مع ملاحظة أن الفطرة تدل على توحيد الألوهية، قال ابن القيم رحمه الله: «إن الله.. يجعل ما ركّبه في العقول من حُسن عبادة الخالق وحده وقبح عبادة غيره من أعظم الأدلة على ذلك.. ولولا أنه مستقر في العقول والفِطر حُسن عبادته وشكره لما احتج عليهم بذلك أصلاً» ثم ذكر ابن القيم عدة أدلة قرآنية عقلية استدل بها القرآن على توحيد الألوهية، واحتج بها على فساد من عبد غير الله، وقد شرحتُ معظم هذه الأدلة ضمن التقسيم الذي اعتمدته في خطة البحث ـ سواء في الأدلة الفطرية أو العقلية.

(٤) وما أحسن استدلال هدهد سليمان في زمانه على توحيد الألوهية ببعض مظاهر ربوبية الله في السماوات والأرض كإخراج كل مخبوء ومستور فيهما من مطر ونبات وغير ذلك، واستنكاره واستعظامه سجود ملكة سبأ وقومها لغير الله قائلاً لسليمان عليه السلام ـ كما سجل القرآن: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (النمل: ٢٤-٢٦).

دقة صنع الله وإحكامه لمخلوقاته، وسنؤجل الحديث عن تفاصيل ذلك لمبحث الأدلة العلمية على توحيد الله لمناسبته هناك[١].

واستدل على ذلك أيضاً بدليل آخر هو: دليل كمال الله، وتفرده في أسمائه الحسنى، وصفاته العظمى، وهذا ما أشرحه في المطلب الثاني:

---

(١) انظر ص٥١٨.

«المطلب الثاني»

«دليل كمال الله وتفرده بالأسماء الحسنى والصفات العظمى»

مما لا شك فيه أن ثبوت الكمال المطلق لله تعالى مسألة فِطرية، يُقِرُّ بها جميع الخلق، فهي رديفة للإقرار بالخالق من الأصل، إذ لا يُتصوَّر إثبات الخالق في الفِطَر إلا على وجهٍ يكون فيه موصوفاً بمنتهى الكمال وغايته، فكماله ـ سبحانه ـ ملازم لكونه خالقاً، قال ابن تيمية: «هذا المعنى مستقر في فطر الناس، بل هم مفطورون عليه، فإنهم كما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق فإنهم مفطورون على أنه أجل وأكبر وأعلى وأعظم وأكمل من كل شيء»[(١)].

وإذا كان القرآن الكريم قد استدل على كمال الله عز وجل بأفعاله في الكون، وبطريقة قياس الأولى، وأثبت صفات الكمال لله بنفي ما يناقضها، ونزَّه الله عزوجل عن المثل والنظير، وعن كل عيب ونقص مضاد للكمال ـ كاتخاذ الولد والصاحبة، أو الحلول في المخلوقات ومخالطتها، أو الظلم، وغير ذلك[(٢)] ـ.

إذا كان القرآن الكريم قد أثبت صفة الكمال لله بكل ما سبق[(٣)]، فإنه في نفس الوقت قد استدل بهذا الكمال على استحقاق الله لتوحيد الألوهية فقد ورد

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ٧٢.

(٢) سأشرح ذلك بالتفصيل في ص٣٢١ وما بعدها.

(٣) انظر شرح ذلك كله بالتفصيل في: الأدلة العقلية على أصول الاعتقاد، لسعود العريفي ص٣٤٣-٣٨٩. وانظر أيضاً: أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة، تأليف الدكتور عمر سليمان الاشقر، دار النفائس، ط٣، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، عمّان ـ الأردن ص١٠٣-١١٠.

الاستدلال في القرآن على توحيد العبادة بما يمكن تسميته بدليل الكمال[1]، ويُسمّى المثل الأعلى بمعنى أن كل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه قد ثبت للمخلوق فهو للخالق أولى وأحق، وكل نقص تنزّه عنه المخلوق فهو في حق الله أوجب وأولى أن يُنزّه عنه، ومن هنا جاءت بعض آيات القرآن الكريم تأمر النبي ﷺ أصلاً وأمته من بعده تبعاً بعبادة الله، كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾

(مريم: ٦٥).

ذكر أهل العلم في كتب التفسير عدة معان لقوله تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾؟ ويمكن إجمالها في الآتي: هل تعلم:

١- أنه سُمّي شيء بـ(الله) قط[2].

٢- أنه سُمّي شيء بـ(الرحمن) غير الله[3].

---

(١) قال ابن تيمية الفتاوى ٦/ ٧٢: «وإذا أخبر الله بالشيء ودل عليه بالدلالات العقلية:صار مدلولاً عليه بخبره ومدلولاً عليه بدليله العقلي الذي يُعلم به، فيصير ثابتاً بالسمع والعقل، وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تسمّى (الدلالة الشرعية)».
وثبوت معنى الكمال قد دلّ عليه القرآن بعبارات متنوعة، دالة على معاني متضمنة لهذا المعنى، فما في القرآن من إثبات الحمد له، وتفصيل محامده، وأن له المثل الأعلى، وإثبات معاني أسمائه، ونحو ذلك: كله دال على هذا المعنى.

(٢) انظر: الكشاف، للزمخشري ٣/ ٣٢ وفيه: «وكانوا يقولون لأصنامهم آلهة، والعزى إله، وأما الذي عُوّض فيه الألف واللام من الهمزة فمخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه».

(٣) نفسه، وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥: «وذلك أن الأمم والفِرق لا يُسمُّون بهذا الاسم وثناً ولا شيئاً سوى الله تعالى».

٣- تسمية أحد غير الله باسم (الله) على الحق دون الباطل، لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتد بها كلا تسمية[١].

٤- وجود مثيل وشبيه بالله[٢].

٥- أحد يستحق أن يقال له: خالق وقادر إلا هو[٣].

٦- متّصفاً بوصفٍ من أوصافه اتصافاً حقيقياً، أو مسمّى باسمه العلم[٤].

٧- شريكاً له في الاسم بـ(الجليل)، أو (الإله)[٥].

٨- له شريكاً في اسم (الرب)[٦].

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٤/ ٢٥ وقال ابن عطية بعد نقله لهذا القول عن ابن عباس: «وهذا قول حسن، وكأن السّمي بمعنى المسامي والمضاهي، فهو من السمو».
وعند أبي حيان في البحر المحيط ٧/ ٢٨٤: «يقال: فلان سمي فلان إذا شاركه في اللفظ، وسميه إذا كان مماثلاً في صفاته الجميلة ومناقبه».

(٣) زاد المسير، لابن الجوزي ٣/ ١٤١.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ)، مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، القاهرة ـ مصر ١٢/ ٢٣٢.

(٥) روح المعاني للألوسي ٨/ ٤٣٢، وقال: «فإن المشركين مع غلوهم في المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلاً».

(٦) الميزان في تفسير القرآن، للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (١٨٩٢-١٩٨١م)، صححه وأشرف على طباعته فضيلة الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، بيروت ـ لبنان ١٤/ ٨٣.
وقال الطباطبائي في تعليقه على لفظ (الرب): (لأن مقتضى بيان الآية ثبوت الربوبية المطلقة له تعالى على كل شيء، فهو يقول: «هل تعلم من اتصف بالربوبية فسمّى لذلك رباً حتى تعدل عنه إليه فتعبد دونه». انظر: الميزان ١٤/ ٨٣.

وغير ذلك من المعاني.

وعلى العموم فأياً كان المقصود بالآية فإن الشاهد من ذلك كله أن القرآن استدل بتفرد الله بالكمال المطلق على استحقاقه لتوحيد العبادة، قال ابن القيم: «فهذا الرب الذي قد كمُلت قدرته وسلطانه، ومُلكُه، وكمل علمه، فلا ينسى شيئاً أبداً.. فهذا الرب هو الذي لا سميّ له، لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال»[١].

وقال الشوكاني: «.. فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة، وتخلص له»[٢] وقال صاحب محاسن التأويل: «.. والجملة[٣] تقرير لوجوب عبادته وحده، أي إذا صحّ أن لا مثل له، ولا يستحق العبادة غيره، لم يكن بُدٌّ من التسليم لأمره، والقيام بعبادته»[٤].

وقال ابن عاشور: «وتفريع الأمر بعبادته.. يحصل منه التخلص إلى التنويه بالتوحيد، وتفظيع الإشراك، ... والاستفهام إنكاري، أي لا مُسامي لله تعالى، أي ليس من يساميه، أي يضاهيه، موجوداً.. والمعنى: لا تعلم له مماثلاً في اسمه (الله)، فإن المشركين لم يسموا شيئاً من أصنامهم (الله) باللام، وإنما يقولون للواحد منها إله، فانتفاء تسمية غيره من الموجودات المعظمة باسمه كناية عن اعتراف

---

(١) بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، جمعه ووثق نصوصه وخرّج أحاديثه يسرى السيد محمد، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، الدمام ـ السعودية، ٣/ ١٤٤.

(٢) فتح القدير ٣/ ٤٧٢.

(٣) يقصد قوله تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ (مريم: ٦٥).

(٤) محاسن التأويل، للقاسمي ١١/ ١٤٠.

الناس بأن لا مماثل له في صفة الخالقية، لأن المشركين لم يجترئوا على أن يدّعوا لآلهتهم الخالقية.. وبذلك يتم كون الجملة تعليلاً للأمر بإفراده بالعبادة..»[1].

وخلاصة ما سبق أن اتصاف المولى سبحانه بصفات الكمال من دون خلقه المتصفين بصفات النقص والعيب تعتبر دليلاً على وحدانيته في ألوهيته، قال ابن تيمية: «.. فمن لم يتصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والسمع والبصر والقدرة والكلام وغير ذلك فإما أن يكون قابلاً للاتصاف بذلك ولم يتّصف به، أو غير قابل للاتصاف به، فإن قَبِلَهُ ولم يتّصف به كان موصوفاً بصفات النقص: كالموت والجهل والعمى والصّمم والعجز والبكم باتفاق العقلاء؛ فإنهم متفقون على أن القابل لهذا وهذا متى لم يتصف بأحدهما اتصف بالآخر.

وإن قيل: إنه لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات كان أنقص من القابل الذي لم يتصف به، فالحيوان الذي يكون تارة سميعاً وتارة أصمّاً، وتارة بصيراً وتارة أعمى، وتارة متكلماً، وتارة أخرس، أكمل من الجماد الذي لا يقبل أن يكون لا هذا ولا هذا»[2].

وبناء على كلام ابن تيمية أقول: قد عُلم بالشرع والعقل اتصاف الله بصفات الكمال، وله وحده الأسماء الحسنى والصفات العظمى، فقد جاء في أعظم آية في القرآن الكريم ـ آية الكرسي ـ ما يؤكد ذلك، قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٦٥.

(٢) الفتاوى ١٢/ ٣٥٦.

يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، ونحو ذلك في أول سورة آل عمران[١]، وكما ورد في سورة غافر[٢]، وغير ذلك قال السعدي: «أخبر ﷺ أن هذه الآية ـ يقصد آية الكرسي في سورة البقرة ـ أعظم آيات القرآن[٣]، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة وسعة الصفات للباري تعالى، فأخبر أنه (الله) الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فألوهية غيره وعبادة غيره باطلة، وأنه (الحي) الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر، والقدرة والإرادة وغيرها، والصفات الذاتية، كما أن (القيوم) تدخل فيه جميع صفات الأفعال، لأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدها وأبقاها، وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها، ومن كمال حياته وقيوميته أنه ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ ﴾ أي نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ لأن السِّنة والنوم إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف والعجز والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.. ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ﴾ بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات،.. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء..»[٤].

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (آل عمران: ٢).

(٢) آية: ٦٥.

(٣) أخرج مسلم في صحيحه ١/ ٥٥٦ أن النبي ﷺ قال: «يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري وقال: «والله ليهنِك العلم أبا المنذر» أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين برقم ٢٥٨/ ٨١٠ عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٤) تفسير السعدي ص١٠٢ باختصار.

وما دام الله كذلك فقد اتصف بالصفات العظمى والأسماء الحسنى كما في قوله ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (الأعراف: ١٨٠) فحقه أن يُعبد وحده لا سواه.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : «والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص ـ يعني آيات الصفات بشكل عام ومنها ما ذكرناه في آية الكرسي ـ لمجرد تقرير صفات الكمال له، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون ما سواه، فأفاد الأصلين الذين بهما يتم التوحيد، وهما: إثبات صفات الكمال، رداً على أهل التعطيل، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو، رداً على المشركين، والشرك في العالم أكثر من التعطيل»[1].

- وليست آية الكرسي فقط هي وحدها التي ساقها القرآن الكريم للاستدلال بها على كمال الله وعظمته في أسمائه وصفاته وبالتالي الاستدلال على توحيد ألوهيته، بل هناك آيات كثيرة من هذا النوع ساقها القرآن الكريم لإثبات توحيد الألوهية وشيء من أسماء الله وصفاته، كقوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٦٣).

وقوله سبحانه: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦، ١٨) وقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (طه: ٨).

وقوله: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ (طه: ٩٨) وغير ذلك من الآيات التي أعقبها الله بذكر بعض أسمائه وصفاته بعد ذكره ألوهيته وحده.

---

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ١٨٣.

ـ ومن أدلّ الآيات على وحدانية الله في ألوهيته ما ورد في سورة الإخلاص كاملة وهي السورة التي تعدل ثلث القرآن[١]، كما جاء الاستدلال على ذلك أيضاً بذكر القرآن لبعض أسماء الله وصفاته التي ختم بها كثيراً من الآيات الدالة على كماله سبحانه بتنزيه الله عن كل شرك أحدثه المشركون[٢]، فدل هذا كله على وجوب إفراده بالعبادة، قال ابن السعدي ـ رحمه الله ـ في تفسير قول تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٦٣)،: «أي: متوحّد متفرّد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له شريك في ذاته، ولا سمِيٌّ له، ولا كفوءَ له، ولا مثلَ ولا نظيرَ، ولا خالقَ ولا مدبّرَ غيره، فإذا كان كذلك فهو المستحق لأن يؤلّه ويُعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه..»[٣].

وقال: «ومن الأدلة على ذلك ـ أي على توحيد العبادة ـ معرفة تفرد الرب بالكمال المطلق، وأن له كل صفة كمال، وأن المخلوقات كلّها كلّ وصف حميد فيها فإنه من الله تعالى،.. وهذا من أعظم البراهين على أنه هو المخصوص بالتألّه والعبودية»[٤] وقال ضمن تفسيره لقوله سبحانه: ﴿ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾:

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه ١/ ٥٥٦ عن النبي ﷺ أنه قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن»؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن».
انظر: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين برقم ٢٥٩/ ٨٨١عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) سأشرح ذلك بالتفصيل في فقرة استدلال القرآن على توحيد الأسماء والصفات فيما يلي ص٨٦٢.

(٣) تفسير السعدي، ص٦٥ بتصرف وزيادة يسيرة.

(٤) الحق الواضح المبين، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر عبد الله آل سعدي ص٥٨.

«.. ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري، وإلهيته.. وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم واندفاع جميع النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته..»[1].

لقد أكد القرآن الكريم منهجه العقلي في الاستدلال على توحيد الألوهية بكمال الله وتفرده بالأسماء الحسنى والصفات العظمى وانتفاء ذلك كله عما سواه بتسجيله لإنكار إبراهيم على أبيه وقومه عبادة آلهة اتصفت بالنقص والعيب قائلاً له: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ (مريم: ٤٢) وقائلاً لهم ﴿ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الشعراء: ٧٢، ٧٣).

وهكذا هو القرآن الكريم في عرضه لأدلة التوحيد ذات الدلالات العقلية، الواضحة الناصعة، القوية.

فالدليل السابق شرحه: «دليل كمال الله، وتفرده بالأسماء الحسنى والصفات العظمى» دليل تقبله العقول السليمة من الزيغ والضلال والأهواء، وتقتنع به، ولا ينكر ذلك إلا جاحد أو مكابر.

فإذا كان العقل يشهد بجمال كل كمال وحُسن وعظمة وعلو صاحبه، وإذا كان العقلاء يُعجبون بذوي المحاسن والخلال الحميدة والصفات العظيمة ويتقربون إليهم، ويحبونهم ويعظمونهم، بل قد يبالغ بعض الناس في ذلك إلى حد تقديسهم ونحت صورهم ونصب تماثيلهم لتخليد ذكراهم وعبادتهم ـ كما فعل

---

(١) تفسير السعدي، ص٦٥.

المشركون بعد عهد نوح عليه السلام ـ فإن العقل يدعو ذوي الألباب لتحقيق كمال الحب مع كمال التعظيم والتذلل لمن وصف نفسه بأنه: ﴿ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (طه: ٨) وأنه ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الروم: ٢٧) و﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١) وتلك هي العبادة بعينها.

المبحث الثاني

استدلال القرآن على التوحيد بنقض الشرك وإبطال عبادة الشركاء

توطئة:

سبقت الإشارة إلى أن القرآن الكريم لم يكتف بتقرير توحيد الألوهية والدعوة إليه من خلال الأدلة العقلية البدهية المتعلقة بربوبية الله، وكمال أسمائه، وعلو صفاته، بل قرر القرآن توحيد العبادة وأكد استحقاقه سبحانه لذلك من خلال نقضه للشرك، وإبطال استحقاق غيره لأي وجه أو صورة أو نوع من أنواع العبادة ـ سواء كانت فردية أو جماعية، قولية أو فعلية أو اعتقادية، قلبية أو بدنية أو مالية، وسواء كانت ظاهرة، أو باطنة، تتعلق بالشعائر أو المعاملات، أو الحكم والسياسة وما يتبع ذلك من تشريع وتحليل وتحريم ـ.. إلخ.

فجاءت آيات القرآن قويّة الحجة واضحة الدلالة على نفي تعدد الشركاء، وتقرير واحدية الإله الأحد، وهي في نفس الوقت داحضة لكل شرك أحدثه المشركون، وتواصوا بالصبر عليه، وتوريثه لأبنائهم بعد أن ورثوه من آبائهم بغير برهان.

ومن المعلوم أن القرآن إنما نزل في بيئة جاهلية يمارس أهلها ألواناً من الشرك بالله، المبني على اعتقادات باطلة فاسدة، ولقد صوّر القرآن الكريم ذلك، وسجّل افتراءات ومزاعم المشركين ـ سواء الأميين العرب أو أهل الكتاب أو غيرهم ـ في حق الذات الإلهية، منكراً عليهم شركهم، ثم داحضاً حجتهم، ومتوعِّداً إياهم بالعذاب الشديد إن أصرّوا على شركهم وكفرهم بعد إحقاق الحق وإزهاق الباطل وقيام الحجة عليهم.

فذكَرَ القرآن أن المشركين ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ (الأنعام: ٩١) فادّعوا شركاً، وعبدوا شركاء من دون الله ـ سواء من البشر أو الحجر أو غير ذلك ـ ووصفهم بأنهم ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (إبراهيم: ٣٠) فضلوا في أنفسهم، وأضلوا غيرهم.

فأما مشركو العرب فقد سجَّل القرآن عنهم أنهم ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ[1] وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[2] وأنهم ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ[3]

---

(١) أي: «جعلوهم شركاء لله في العبادة،.. فإن قيل فكيف عُبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن، وأمرهم إياهم بذلك..» وجعلوهم شركاء أيضاً باعتقادهم النفع والضر من الجن، كيف والله هو خالق المشركين وما يعبدون. انظر تفسير ابن كثير ١/ ٨٠٣.

(٢) الأنعام: ١٠٠ ومعنى خرقوا أي اختلقوا وائتفكوا، وتخرصوا وكذبوا. انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٨٠٣.

(٣) قال الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٤٦-١٤٧ «واختلفوا في المراد بالجنّة على وجوه:

الأول: قال مقاتل: أثبتوا نسباً بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله، وعلى هذا القول فالجنّة هم الملائكة سموا جنّاً لاجتنابهم عن الأبصار، أو لأنهم خزان الجنة وأقول هذا القول عندي مشكل، لأنه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله، ثم عطف عليه قوله ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ والعطف يقتضي، كون المعطوف مغايراً للمعطوف عليه، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم.

الثاني: قال مجاهد: قالت كفار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟! قالوا سروات الجن. وهذا أيضاً عندي بعيد لأن المصاهرة لا تُسمى نسباً.

الثالث: رُوينا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ (الأنعام: ١٠٠) أن قوماً من الزنادقة يقولون: الله وإبليس أخوان، فالله الخيّر الكريم، وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس، فقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ المراد منه هذا المذهب.

وعندي أن القول الأول أقرب الأقاويل، وهو مذهب المجوس..» أ.هـ.

نَسَبًا[١] ﴾ (الصافات: ١٥٨)، وأخبر أنهم: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ (الزخرف: ١٩) ونسبوها إلى الله معتقدين أن له البنات ولهم البنون[٢]، أو أن لهم الذكر وله الأنثى[٣].

وهكذا هم كما قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝ ﴾ (الصافات: ١٥١، ١٥٢) قال ابن كثير رحمه الله: «فذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولاً جعلوهم ـ أي جعلوا الملائكة ـ بنات الله، فجعلوا لله ولداً. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله»[٤].

ومشركو العرب أيضاً قد عبدوا الأوثان والأصنام وأنواع الجمادات وبرَّروا ذلك بقولهم كما قال سبحانه: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (الزمر: ٣)

وقد وافق ابن كثير الرازي في قوله الأول. انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٧.

(١) والمقصود بالنسب كما قال ابن عاشور في تفسيره ٢٣/ ٩٣: «أي ذوي نسب لله تعالى، وهو نسب البنوة لزعمهم أن الملائكة بنات الله، أي جعلوا لله تعالى نسباً للجنّة، وللجنة نسباً لله».

(٢) كما يتضح من قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ (الصافات: ١٤٩).

(٣) كما يتضح من قوله تعالى مخاطباً الكفار: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ (النجم: ٢١، ٢٢). ونحوها في سورة النحل: ٥٧، ٦٢.

(٤) وقال القرطبي: «أن جهينة وخزاعة وبني مليح وبني سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله».

انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٣٣. وتفسير ابن كثير ٣/ ١٥٦ بزيادة يسيرة.

ومما يدل على أن الكفار عبدوا الملائكة ما جاء في سورة الزخرف ٢٠ قال تعالى على لسان الكفار ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ﴾.

وقولهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (يونس: ١٨) لقد أخبر القرآن أنهم: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ[١] ﴾ (يس: ٧٤)، و﴿ لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾ (مريم: ٨١) وخصّصوا لها من الزروع والثمار والأنعام مالم يأذن به الله[٢].

- وأما مشركو أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ فمنهم من قال: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ (المائدة: ١٨) كما سجّل الله ذلك عنهم فنسبوا أنفسهم لله زوراً وبهتاناً.

ومنهم من نسب لله الولد كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣٠)، وعبدوا المسيح عيسى عليه السلام معتقدين ألوهيته[٣].

ومنهم من ثلّث في التوحيد فجعل عيسى وأمه مع الله شريكين[٤] بغير حق كما قال تعالى عنهم ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ

---

(١) قال ابن عاشور في تفسيره ٢٢/ ٢٧٤ معنى يُنصرون: «والمقصود الإشارة إلى أن الكفار يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله في أمور الدنيا».

(٢) كما هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٣٦).

(٣) كما يُفهم من قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة: ١٧).

(٤) كما يُفهم من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء: ١٧١).

إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٧٣)، ومنهم من قال الله تعالى عنهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١) فتصدى القرآن لكل ذلك، وجادل المشركين[١] بأقوى وأنصع الأدلة العقلية مبيناً أن الحق كلمة في توحيد العبادة لله وأن الله واحد لا شريك له، ومؤكداً أن: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٣) ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ (المجادلة: ٢).

فنزّه الذات الإلهية عن الشريك والصاحبة والولد[٢] ـ بشكل عام ـ سواء من الجن أو الملائكة أو البشر أو الحجر.. أو غيرها من الآلهة مصداقاً لقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (الإخلاص).

كما نزّه الذات الإلهية عن الشبيه والمثيل قائلاً: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١).

لقد جاءت آيات القرآن الكريم بينة في إحقاق حق التوحيد، ونقض الشرك، وهذا ما يمكن توضيحه في المطلبين التاليين:

---

(١) ومن هؤلاء المشركين: الصابئة الذين عبدوا نجوم السماء وكواكبها.
ومنهم أيضاً: المجوس القائلين بيزدان وإهرمن، أي: «الشر والخير، والنور والظلمة، وهذا المذهب هو المذهب المعروف بمذهب المانوية، نسبة إلى (ماني) أول من قال به، وهو مذهب باطل لما فيه من الإشراك بالله». انظر: تفسير الرازي (الحاشية) ٢٦/ ١٤٧.

(٢) واعتبر ذلك كفراً كما في سورة الزخرف ١٥ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾.

«المطلب الأول»

«نقض القرآن لشرك العرب (الأميين) وأمثالهم من المجوس والصابئين»

سبق ذكر شرك العرب الأميين بعبادتهم الأصنام والأوثان، واعتقادهم النفع والضر في الجن(١)، وغير ذلك من صور الشرك والعبادة التي أحدثها العرب في جاهليتهم.

وهناك من الطوائف الأخرى من أشرك بالله كالمجوس الذين عبدوا النار، والصابئة الذين سجدوا للشمس والقمر والنجوم والكواكب من دون الله.

فكرّ القرآن على عبادة هؤلاء ومعبوداتهم كراً، ونقض شركهم من أساسه، وذلك كما يلي:

أولاً: نقض القرآن لشرك عبادة الملائكة:

عُرف عن بعض القبائل العربية الجاهلية ـ سابقاً ـ واشتهر عنها ما يُسمى بشرك عبادة الملائكة معتقدين أنهم بنات الله، وقد أبطل القرآن ذلك(٢) من خلال النقاط التالية:

أولاً: مطالبته للكفار بالدليل والبرهان على صحة مقالتهم بأن الملائكة (بنات الله)، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ

---

(١) أي من تلقاء نفسها.

(٢) وأبطل أيضاً عبادتهم للجن كما سيتضح من الشرح القادم لنفس الفقرة.

صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (الصافات: ١٥٦، ١٥٧) قال ابن كثير رحمه الله: أي هل لكم: «حجة على ما تقولونه.. هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزّل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يُجوِّزه العقل بالكلية»[1].

ثانياً: أكد القرآن الكريم بأسلوب المستنكر على دعوى الكفار، أنهم ما كانوا موجودين عندما خلق الله ملائكته، وما شاهدوا ذلك أبداً، قال تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴾ (الصافات: ١٥٠)؟! فمن أين لهم ما يدّعون زوراً وبهتاناً، وقال سبحانه: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف: ١٩).

ثالثاً: نفى القرآن أن يكون عند هؤلاء الكفار أو آبائهم أيّ علم بشأن اتخاذ الله للولد ـ سواء من الملائكة أو غيرهم وحكم بكذبهم في ذلك ـ فقال تعالى مبيناً بعض أهداف الرسالة والرسول: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (الكهف: ٤، ٥)، وأكّد أن ادّعاء المشركين البنات لله إنما هو من قبيل الظن الذي لا يصح ولا يصدق ولا يقوى لدرجة الحق واليقين، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾

(النجم: ٢٧، ٢٨).

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٧ باختصار.

رابعاً: بيّن القرآن حقيقة الملائكة وعبادتهم لله فقال سبحانه ـ في ردّه على الذين قالوا: اتخذ الرحمن ولداً ـ : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝ ﴾ (الأنبياء: ٢٦-٢٨).

بل سجّل القرآن اعتراف الملائكة بعبوديتهم لله قائلين: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝ ﴾ (الصافات: ١٦٤-١٦٦).

وبين أنهم جميعاً شهدوا لله بالوحدانية كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ (آل عمران: ١٨).

خامساً: وضّح القرآن الكريم أنه لو تجرأ أحد من الملائكة على ادعاء الألوهية لكان جزاؤه جهنم كغيره من المتجاوزين لحدودهم قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٢٩).

سادساً: كَشَف القرآن الكريم عن إحضار الله لعُبّاد الملائكة يوم القيامة، وسؤاله لهم، ومحاسبته إياهم على ذلك، وإنكار الملائكة لذلك، بل تبرؤهم منه ومنهم، قال جل وعلا: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ (سبأ: ٤٠).

قال ابن عاشور رحمه الله: «والمقصد من هذه الآية إبطال قولهم في الملائكة: إنهم بنات الله، وقولهم: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾ (الزخرف: ٢٠)».

وقد كان حي من خزاعة يقال لهم: بنو مُلَيح ـ بضم الميم وفتح اللام ـ .. يعبدون الجن والملائكة، والاقتصار على تقرير الملائكة واستشهادهم على المشركين لأن إبطال إلهية الملائكة يفيد إبطال إلهية ما هو دونها ممن عُبد من دون الله بدلالة الفحوى، أي بطريق الأَوْلى، فإن ذلك التقرير من أهم ما جُعل الحشر لأجله، وتوجيه الخطاب إلى الملائكة بهذا الاستفهام مستعمل في التعريض بالمشركين، على طريقة المَثَل: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة».

ثم بيّن القرآن جواب الملائكة ـ يوم القيامة ـ قائلين: ﴿ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ (سبأ: ٤١).

قال ابن عاشور: «جواب الملائكة يتضمن إقراراً مع التنزّه عن لفظ كونهم معبودين كما يتنزه من يحكي كفر أحد فيقول قال: هو مشرك بالله، وإنما القائل قال: أنا مشرك بالله، فمورد التنزيه في قول الملائكة (سبحانك) هو أن يكون غير الله مستحقاً أن يُعبد.. فقول الملائكة (سبحانك) تبرؤ من الرضى بأن يعبدهم المشركون.. و(بل) للإضراب الانتقالي، انتقالاً من التبرؤ منهم إلى الشهادة عليهم وعلى الذين سوّلوا لهم عبادة الله تعالى، وليس إضراب إبطال لأن المشركين المتحدث عنهم كانوا يعبدون الملائكة، والمعنى: بل كان أكثر هؤلاء يعبدون الجن، وكان الجنُّ راضين بعبادتهم إياهم، وحاصل المعنى أنّا منكرون عبادتهم إيانا، ولم نأمرهم بها، ولكن الجن سوّلت لهم عبادة غير الله، فعبدوا الجن وعبدوا الملائكة»[١].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٨٤-٨٥ باختصار.

سابعاً: أوضح القرآن الكريم في سياق نقض شرك العرب بعبادة الملائكة بزعمهم أنهم بنات الله ـ أن الكفار لا يرضون لأنفسهم بالبنات ويكرهون ذلك فكيف نسبوها لله، قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾ (النحل: ٦٢) وقال سبحانه ـ مخاطباً نبيه ﷺ ـ: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ (الصافات: ١٤٩)؟! وقال: ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ (الطور: ٣٩)، وقال: ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ (الزخرف: ١٦)، وغيرها من الآيات التي أنكر الله فيها على المشركين نسبة البنات إلى الله[1].

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾: «أَمَرَ الله رسوله ﷺ باستفهام قريش.. في أنهم لِمَ أثبتوا لله سبحانه البنات ولأنفسهم البنين.. وذلك باطل، لأن العرب كانوا يستنكفون من البنت، والشيء الذي يستنكف منه المخلوق كيف يمكن إثباته للخالق؟! ... وباطل أيضاً لأن طريق العلم ـ لإثبات أن الملائكة بنات الله ـ إما الحسّ وإما الخبر وإما النظر، أما الحس فمفقود هاهنا لأنهم ما شهدوا كيفية تخليق الله الملائكة.. وأما الخبر فمفقود أيضاً لأن الخبر إنما يُفيد العلم إذا عُلم كونه صدقاً قطعاً، وهؤلاء الذين يُخبرون عن هذا الحُكم كذّابون أفّاكون، لم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ ﴾ (الصافات: ١٥١، ١٥٢)، وأما النظر فمفقود، وبيانه من وجهين:

---

(١) كما في الأنعام: ١٠٠، وانظر سورة النحل: ٥٧، والصافات: ١٥٢.

الوجه الأول: أن دليل العقل يقتضي فساد هذا المذهب، لأن الله تعالى أكملُ الموجودات، والأكمل لا يليق به اصطفاء الأخس ـ في نظرهم ـ، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ ﴾ (الصافات: ١٥٣، ١٥٤)؟! يعني إسناد الأفضل إلى الأفضل أقرب إلى العقل من إسناد الأخس إلى الأفضل، فإن كان حكم العقل معتبراً في هذا الباب كان قولكم باطلاً.

والوجه الثاني: أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم، بل نطالبم بالدليل الدال على صحة مذهبهم، فإذا لم يجدوا ذلك الدليل فضدّه يظهر، أنه لم يوجد ما يدل على صحة قولهم، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ ﴾ (الصافات: ١٥٦، ١٥٧) فثبت بما ذكرنا أن القول الذي ذهبوا إليه لم يدل على صحته، لا الحس ولا الخبر ولا النظر، فكان المصير إليه باطلاً قطعاً..»[١].

وقال ابن عاشور في تفسير قوله سبحانه: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ أن الآية تضمنت: «الإنكار على المشركين، وإبطال دعاويهم، وضرب الأمثال لهم بنظائرهم من الأمم، ... فأمر الله رسوله ﷺ بإبطال ما نسبه المشركون إلى الله من الولد.. والمراد: التهكم عليهم بصورة الاستفتاء إذ يقولون: ولد الله، على أنهم قسموا قسمة ضيزى[٢] حيث جعلوا لله البنات وهم يرغبون

(١) مفاتيح الغيب ٢٦/ ١٤٦ بتصرف.

(٢) قال تعالى مخاطباً المشركين: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ (النجم: ٢١، ٢٢). ومعنى ضيزى: (ظالمة جائرة) غير عادلة. انظر: تفسير السعدي ص٨٩٩.

في الأبناء الذكور، ويكرهون الإناث، فجعلوا لله ما يكرهون، وقد جاءوا في مقالهم هذا بثلاثة أنواع من الكفر:

أحدها: أنهم أثبتوا التجسيم لله لأن الولادة من أحوال الأجسام.

الثاني: إيثار أنفسهم بالأفضل، وجعلهم لله الأقل[١]..

الثالث: أنهم جعلوا للملائكة المقربين وصف الأنوثة وهم يتعيّرون بأبي الإناث..»[٢].

ثامناً: ومما سلكه القرآن الكريم في سبيل نقض شرك عبادة الملائكة بيانه استحالة أن يكون الله ولده لاستحالة اللازم: كما جاء في قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٠١) قال الشوكاني في معنى الآية: «.. فكيف يجوز أن (يكون له ولد)؟.. والاستفهام.. للإنكار والاستبعاد، أي من كان هذا وصفه، وهو أنه خالق السماوات والأرض وما فيهما، كيف يكون له ولد؟ وهو من جملة مخلوقاته؟ وكيف يتخذ ما يخلقه ولداً؟ ثم بالغ في نفي الولد فقال: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ أي: كيف يكون له ولد والحال أنه لم تكن له صاحبة، والصاحبة إذا لم توجد استحال منه أن يتخذ بعض مخلوقاته ولداً..»[٣].

---

(١) قال تعالى مبيناً احتقار الكفار للإناث وانتقاصهم لها، وتغيظهم من الحصول عليها: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (الزخرف: ١٧).

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ٨٩ باختصار.

(٣) فتح القدير ٢/ ٢٠٨.

وهذا ما أكّد عليه المؤمنون من الجن في تنزيههم لله قائلين: كما سجل القرآن عنهم - ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا[1] مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ (الجن: ٣).

تاسعاً: إخبار القرآن باستغناء الله عن الولد:

رغم ذكر القرآن لتأكيد الجن لعدم اتخاذ الله الصاحبة والولد ـ في معرض نقضه لشرك عبادة الملائكة ـ إلا أنه أورد عدة آيات تنفي نفياً قاطعاً اتخاذ الله للولد وتؤكد استغناءه عن ذلك، كما جاء في قوله تعالى ـ في معرض ردّه على الذين قالوا اتخذ الله ولداً - : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ٦٨)، وقوله سبحانه واصفاً نفسه: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢) وغير ذلك من الآيات التي تؤكد أن لله ما في الكون كلّه، وتنفي اتخاذه للولد[2]، وتخبر بوحدانيته وأحديته سبحانه كما في سورة الإخلاص حيث قال تعالى معلماً نبيه ﷺ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (الإخلاص).

وجاءت آيات أخرى تبيّن فظاعة وشناعة قول القائلين باتخاذ الله للولد ـ سواء من الملائكة أو من غيرهم - ، وتنكر أن يقع هذا في حق الله[3]، كما في ردّه

---

(١) أي: أ) فعله وأمره وقدرته. ب) آلاؤه ونعمته. ج) جلاله وعظمته. د) ذِكْرُهُ.
انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨٥.

(٢) كما في سورة البقرة آية: ١١٦، والنساء: ١٧١، والمؤمنون: ٩١.

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ (مريم: ٣٥)، ونحوها في سورة المؤمنون آية: ٩١.

تعالى على كفار قريش[١] القائلين: اتخذ الرحمن ولداً، حيث خاطبهم سبحانه بقوله: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ ﴾

(مريم: ٨٩-٩٣).

قال الزمخشري في تفسير الآية: «والإدُّ والأدُّ: العَجَبُ. وقيل: العظيم المنكر، والإدّة: الشدة. وأَدَنِيَ الأمر وآدَنِيَ: أثقلني وعظُم عليّ إدّاً، - ثم قال -: فإن قلتَ: ما معنى انفطار السماوات[٢] وانشقاق الأرض وخرور الجبال؟ ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات؟ قلتُ: فيه وجهان:

أحدهما: أن الله سبحانه يقول: كِدتُّ أفعل هذا بالسماوات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غَضَباً مني على من تفوّه بها لولا حلمي ووقاري، وإني لا أعجل بالعقوبة،..

والثاني: أن يكون استعظاماً للكلمة، وتهويلاً من فظاعتها، وتصويراً لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده»[٣].

وقال ابن عاشور في تفسيره للآية: «.. المقصود من حكاية قولهم ليس مجرد الإخبار عنهم..، ولكن تفظيع قولهم وتشنيعه، وإنما قالوا ذلك تأييداً لعبادتهم

---

(١) وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير ١٦/ ٨٤: «فصريح الكلام رد على المشركين، وكنايته تعريض بالنصارى الذين شابهوا المشركين في نسبة الولد إلى الله..».

(٢) أي تشققها. انظر: الكشاف، للزمخشري ٣/ ٤٦.

(٣) الكشاف، للزمخشري ٣/ ٤٦ باختصار.

الملائكة والجن، واعتقادهم شفعاء لهم.. والكلام جار على المبالغة في التهويل من فظاعة هذا القول بحيث أنه يبلغ إلى الجمادات العظيمة فيغيّر كيانها..»[١].

وقال سيد قطب في تعليقه على الآية السابقة وفظاعة قول المشركين ﴿ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ إنها: «مقولة منكرة من مقولات المشركين.. فينتفض الكون كله لهذه المقولة المنكرة التي تنكرها فطرته، وينفر منها ضميره.. وإن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض، وترتعش وترتجف من سماع تلك القولة النابية، والمساس بقداسة الذات العليّة، كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عندما يغضب الإنسان للمساس بكرامته أو كرامة من يحبه ويوقّره، هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال، والألفاظ.. ترسم حركة الزلزلة والارتجاف، وما تكاد الكلمة النابية تنطلق ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ حتى تنطلق كلمة التفظيع والتبشيع ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ ثم يهتز كل ساكن من حولهم، ويرتج كل مستقر، ويغضب الكون كلّه لبارئه، وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته، وتجافي ما وقر في ضميره، وما استقر في كيانه، وتهز القاعدة التي قام عليها واطمأن إليها: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ (مريم: ٩٠، ٩١)...»[٢].

وصدق القرآن في تعظيم جريمة الزاعمين اتخاذ الله للولد فإن ذلك يعني اتصاف الله بالنقص والحاجة، ويعني نفي كماله سبحانه، ويعني أيضاً مشابهته لخلقه فيما لا ينبغي له في قولهم ﴿ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾، ويعني كذلك الطعن في تسبيح

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٨٤-٨٥ باختصار.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٢٠-٢٣٢١ باختصار.

وتنزيه السماوات والأرض لباريها حيث اعتبر ذلك من أدلة وجوده وربوبيته وألوهيته سبحانه «فالمعتقد نسبة الولد إلى الله تعالى قد عطل دلالة هذه الموجودات على تنزيه الله وتقديسه»[١].

ولهذا كله وغيره قال تعالى معقباً على الآيات السابقة: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝ ﴾ (مريم: ٩٢، ٩٣)، ونحو ذلك من الآيات التي تنفي وتستبعد أن يتخذ الله الولد[٢].

هذا هو المنهج القرآني الكريم في نقضه لشرك عبادة الملائكة، وهذه هي حجج الله العقلية على خلقه في نفيه البنوة عنه سبحانه وتعالى.

إنه يأمر محمداً ﷺ بمطالبة الزاعمين لذلك بالدليل والبرهان على صحة وصدق مقالتهم، لقبول ذلك الادعاء، والحكم بصحته والاعتقاد به قائلاً ﴿ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ ﴾ (الأنعام: ١٤٨) وقائلاً: ﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة: ١١١) فـ«كل اعتقاد لا يقيم معتقدُه دليلَ اعتقاده فهو اعتقاد كاذب، لأنه لو كان له دليل لاستطاع التعبير

---

(١) الكشاف، للزمخشري ٣/ ٤٦.

(٢) كما في سورة مريم: ٣٥ وغيرها من السور.

وقال ابن عاشور في تفسيره ١٦/ ٨٦ في تعليقه على قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ (مريم: ٩٢، ٩٣): «والمعنى في هذه الآية: وما يجوز أن يتخذ الرحمن ولداً، بناءً على أن المستحيل لو طُلب حصوله لما تأتى لأنه مستحيل لا تتعلق به القدرة، لا لأن الله عاجز عنه».

عنه، ومن باب أَوْلَى لا يكون صادقاً عند من يريد أن يروّج عليه اعتقاده»[١]، وهكذا هي كل النظريات العلمية لا يمكن أن تكون حقائق صادقة حتى يدلل عليها أصحابها بأدلة عقلية علمية تخضع للبحث العلمي الذي يعني ـ كما عرفه أهله ـ «استخدام الطرق والأساليب العلمية للوصول إلى حقائق جديدة، والتحقق منها ـ أو هو ـ تقصٍّ وفحص دقيق لاكتشاف صحة معلومات وحقيقتها»[٢].

- إن الله تعالى يقيم التوحيد في نفوس العبيد من خلال منهج القرآن العقلي المعتمد على شواهد من واقع الحال لا ينكرها إلا جاحد أو مستكبر أو فاقد عقل، كتقرير الله عدم وجود الكفار ـ العابدين للملائكة ـ عندما خلقهم الله كراماً بررة، ونفيه وجود أي علم لدى الكفار من مصدر صحيح بشأن اتخاذ الله للولد، وتأكيده عدم رضى الكفار بالبنات لأنفسهم، وإنكاره واستبعاده وجود الولد بدون أب وأم ـ حسب مفهوم البشر ـ وإخباره باستغنائه سبحانه عن كل خلقه[٣] ـ وغير ذلك من استدلالات قرآنية ذات دلالات عقلية منطقية واقعية يؤمن بها الذين يعقلون.

هذا هو منهج القرآن الكريم في نقضه لشرك عبادة الملائكة، واعتقاد المشركين أنهم بنات لله، وهكذا هو في نفي البنوة عن المولى سبحانه وتعالى.

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١/ ٦٥٦.

(٢) مناهج البحث في التربية وعلم النفس، د/ جابر عبدالحميد جابر، ود/ أحمد خيري كاظم، الناشر: دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٨م، القاهرة ـ مصر ص٢٠ بتصرف يسير.

(٣) وقد شهد الكفار بربوبية الله المتضمنة لاستغنائه سبحانه عن كل خلقه. كما سبق شرحه، ص١٩٥.

ولهذا فلا غرو أن يُكثر القرآن الكريم من آيات التسبيح والتنزيه للذات الإلهية عن كل شريك وصاحبة وولد وعن كل ما لا يليق به سبحانه كما في تعقيبه تعالى على زعم الكفار بأن بين الله وبين الجنة نسباً حيث قال جلَّ شأنه: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الصافات: ١٥٩) وقال: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الصافات: ١٨٠) وغيرها من الآيات.

لقد أمر الله رسوله ﷺ أن يلهج بالحمد والثناء والتكبير لوحدانية الله في ذاته وصفاته وكماله، ولعدم اتخاذه الولد والشريك، ولكمال عزه سبحانه، فقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ (الإسراء: ١١١).

ثانياً: نقض القرآن وإبطاله لشرك عبادة الأصنام:

سبقت الإشارة إلى أنواع شرك العرب الأميين[1]، ومن ذلك شرك عبادة الأصنام والأوثان، فقد عبدوها لتقربهم إلى الله زلفى ـ كما يزعمون ـ، ولتكون لهم عزاً، ولعلهم ينصرون، ولتشفع لهم عنده، وغير ذلك مما لا حقيقة لأصله، ولا صحة لفعله.

ومن حججهم الباطلة التي استندوا إليها في عبادتهم الأصنام تقليدهم الأعمى لآبائهم وأسلافهم وهو ما أخبر سبحانه عنه بقوله: ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ٥٣) وزادوا ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ

---

(١) راجع ص٣٢٢.

أُمَّةٍ[١] وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٢) و﴿ مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٣) فرفضوا دعوة التوحيد، وحجتهم في ذلك كما قال تعالى على لسانهم: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا[٢] عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ .. ﴾ (البقرة: ١٧٠) واكتفوا به قائلين كما سجل الله: ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ (المائدة: ١٠٤) واستمروا كذلك حتى وصفهم الله بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾ (الصافات: ٦٩).

فأرسل الله رسوله محمداً ﷺ إليهم، وبيّن له الحكمة من ذلك بقوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (يس: ٦) فلما أنذرهم قالوا له كما أخبر الله: ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾[٣]؟ وردوا عليه ﷺ كما ردّ كل الأقوام السابقون على رسلهم الذين قالوا لهم كما قال تعالى: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ (إبراهيم: ١٠) ثم أنكروا رسالته قائلين: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ[٤] يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى[٥] وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[٦] وقائلين أيضاً: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٤).

---

(١) أي طريقة ومذهب، انظر فتح القدير ٤/ ٧٢١.

(٢) أي وجدنا عليه آباءنا، انظر تفسير ابن كثير ١/ ٢٠٧.

(٣) هود:٦٢، وبنحو ذلك قال قوم عاد لهود كما في سورة الأحقاف ٢٢، وقال قوم شعيب له كما في سورة هود:٨٧.

(٤) وفي سورة الصافات ٣٦: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾.

(٥) وفي سورة ص: ٧ قالوا: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾.

(٦) سبأ: ٤٣، ونحوها في القصص: ٣٦.

وهكذا تبع كفار قريش آبائهم بالشرك والكفر بالله، قال تعالى معجّباً من حالهم ومنكراً عليهم: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٤)، واستمروا في عبادة آلهتهم من الملائكة والجن والأوثان وغير ذلك معتقدين أن الله سبحانه اتخذ من كل أولئك أو بعضهم ولداً، رغم بطلان ذلك وفظاعته كما قال تعالى: ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (الكهف: ٥) ومعتبرين أن ما جاء به رسول الله ﷺ من التوحيد شيئاً غريباً يدعو إلى العجب، ومتسائلين: كيف وحّد الآلهة بإله واحد؟ قال سبحانه على لسانهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص: ٥). وصار حالهم كما وصفهم الله بقوله: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٥).

ولم يقتصر حال المشركين على هذا الأمر فحسب بل افتخروا بتمسكهم بشركهم معتبرين محمداً ﷺ ضالاً في طريقه مُضلاً لغيره فقالوا ـ كما سجّل الله عنهم ـ: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ (الفرقان: ٤٢).

وصاروا كبعض المشركين السابقين الذين تواصوا على الشرك وتوريثه لذريتهم[1] من بعدهم، فانطلق زعماؤهم وكبراؤهم يُحرِّضون أقوامهم على

---

(١) فقوم نوح قالوا: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (نوح: ٢٣).
وقال قوم هود له: ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ٥٣).

الاستمرار على الشرك، والصبر على تعدد الآلهة قائلين لهم: ﴿ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ (ص: ٦).

ولم يكتف المشركون بكل هذا بل تجرؤوا على دعوة النبي ﷺ إلى شركهم كما يُفهم من قوله تعالى ـ آمراً نبيه ﷺ بالرد والإنكار عليهم ـ: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ (الزمر: ٦٤)، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يُقدّم ما عنده من أدلة وبراهين على وحدانية الله وتوحيده في ألوهيته، فقالوا له كما قال الأقوام السابقون لرسلهم ـ مما حكاه القرآن ـ : ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (إبراهيم: ١٠) فجاءهم الرسول ﷺ بعدة براهين وأدلة على ذلك[1]، وزادهم أدلة وبراهين أخرى تنقض شركهم، وتبطل عبادتهم لآلهتهم المزعومة، وقبل أن أشرح منهج القرآن في إبطاله شرك الأوثان بنفيه تعدد الشركاء مع الله تعالى أقول:

لقد بيّن القرآن الكريم أن عبادة المشركين لآلهتهم إنما هو من قبيل طاعتهم لأهوائهم، فقال تعالى ـ داعياً محمداً ﷺ إلى التعجب من شأنهم: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾.

وأكد أنهم يعدلون عن طريق الحق والإيمان فيسوُّون بالله غيره في العبادة والتعظيم[2]، وأن أكثرهم لا يعلمون قدر عظمة الله فيشركون به تقليداً وظلماً

---

(١) كما سبق شرحه في فصل الأدلة الفطرية على وحدانية الله وتوحيده ص٢٣٦ وما بعدها.

(٢) كما في قوله تعالى في سورة النمل: ٦٠: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾.

وجهلاً[١]، وأنهم قليلاً ما يذكّرون[٢]، وأخبر أنهم لا يمتلكون برهاناً على شركهم، قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾[٣]، وأن كل معبوداتهم من دون الله عبارة عن أسماء لا حقيقة لها، قال تعالى مخاطباً الكفار: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ﴾[٤] كما أكد القرآن الكريم أنهم بالمقابل: ﴿ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الصافات: ٣٥) وإن آمنوا، آمنوا على شرك قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ﴾[٥].

أما منهج القرآن في إبطاله شرك الأوثان فقد تبين من خلال حصر واستقراء وتفسير وتحليل آياته المتعلقة بنقض الشرك لإقامة التوحيد أن الله تعالى أبطل ألوهية الشركاء من خلال طريقين رئيسين سلكهما القرآن لإقامة حق التوحيد وإزهاق باطل الشرك يمكن أن نعتبر كل واحد منهما محوراً خاصاً ارتبطت به عدة أدلة، وهذان المحوران هما:

المحور الأول: بيان القرآن بطلان ربوبية الشركاء.

المحور الثاني: تأكيد القرآن لنقص الشركاء، وكثره عيوبهم.

---

(١) كما في قوله تعالى في سورة النمل: ٦١: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النمل: ٦٢).

(٣) الأنبياء: ٢٤ ونحوها في سورة آل عمران: ١٥١، والحج: ٧١، والنمل: ٦٤.

(٤) النجم: ٢٣، ونحوها في الأعراف: ٧١، ويوسف: ٤٠.

(٥) غافر: ١٢، ونحوها في يوسف: ١٠٦.

ولنبدأ بالمحور الأول: بيان القرآن بطلان ربوبية الشركاء.

سبق تفصيل القول في أركان الربوبية[١]، والتي بناء عليها يستحق الرب أن يُفرد بالعبادة، وحده لا سواه.

ومن هنا يمكن القول: أن الله تعالى أبطل شرك العبادة ـ سواء شرك العرب بعبادتهم الأصنام والأوثان، أو شرك المجوس بعبادتهم النار، أو شرك الصابئة بعبادتهم نجوم[٢] السماء وكواكبها[٣] ـ من خلال إبطاله ربوبية الشركاء كما يلي:

١ ـ تأكيد القرآن عجز الشركاء عن خلق أنفسهم أو غيرهم:

بلغت صور عجز آلهة المشركين منتهاها، فهي لا تملك أي قدرة أو صفة من صفات رب العالمين، ومن ذلك النفع والضر ـ كما سيأتي شرحه ـ وإيجاد المعدوم، فقد بيّن القرآن وأكّد أن كل آلهة المشركين المزعومة من دون الله عاجزة كل العجز عن خلق أي شيء في هذا الكون، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[٤] وقال ـ بعد ذكره لخلقه السماوات والأرض والجبال وغير ذلك من مظاهر ربوبيته سبحانه ـ ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٥]، قال ابن جرير في تفسير الآية الأولى: «يقول تعالى ذكره مقرّعاً مشركي العرب، بعبادتهم ما دونه من

---

(١) راجع ص٢٨٣ وما بعدها.

(٢) وتدخل فيها الشمس كما هو معلوم ومتفق عليه عند علماء الفلك.

(٣) ويدخل فيها القمر كما هو مقرر لدى علماء الفلك.

(٤) الفرقان: ٣، ونحوها في النحل: ٢٠.

(٥) لقمان: ١١، ونحوها في فاطر: ٤٠، وسبأ: ٢٧، والأحقاف: ٤.

الآلهة، ومعجباً أولي النُّهى منهم، ومُنبِّهاً لهم على موضع خطأ فعلهم، وذهابهم عن منهج الحق، وركوبهم من سبل الضلالة مالا يركبه إلا كل مدخول الرأي، مسلوب العقل: واتخذ هؤلاء المشركون من دون الذي خلق كل شيء فقدره (آلهة) يعني: أصناماً.. يعبدونها لا تخلق شيئاً وهي تُخلق.. وتركوا عبادة خالق كل شيء وخالق آلهتهم..»[1] وهذا ما لا يقبله عقل عاقل، وفي موضع آخر نجد آيات القرآن تسأل الكفار وتنكر عليهم تسوية آلهتهم بالله، وعبادتها من دونه سبحانه قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٧)[2] وقال سبحانه: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[3].

وكما بيّن القرآن الكريم عجز الشركاء المزعومين عن خلق أي شيء من مخلوقات الكون العظيمة، فقد أكد أيضاً أن معبودات الكفار عاجزة عن خلق شيء من المخلوقات الحقيرة وخاصة ذوات الأرواح، وتحداهم في ذلك معلناً سبحانه لكل ذي عقل وسمع وبصر من جميع الخلق والبشر قائلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن

---

(١) جامع البيان ١٨/ ٢١٤-٢١٥ بتصرف يسير.

(٢) النحل: ١٧، ونحوها في الرعد: ١٦.

وقال ابن القيم في تعليقه على الآية المذكورة أعلاه: «فلله ما أحلى هذا اللفظ، وأوجزه، وأدله على بطلان الشرك، فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئاً مع الله طولبوا بأن يُرُوه إياه، وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت إلهيتها باطلاً ومحالاً». انظر: الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٥.

(٣) (الأعراف: ١٩١)، وتأمل قول نوح لقومه: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات: ٩٥، ٩٦).

تخلُقوا ذُبَابًا[١] وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الحج: ٧٣، ٧٤) قال السعدي رحمه الله: «هذا خطاب.. للكفار لتقوم عليهم الحجة فقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ شمل - كل - ما يُدعى من دون الله ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات..، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولى: ﴿ وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ ﴾ بل أبلغ من ذلك ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ وهذا غاية ما يصير من العجز ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ ﴾ الذي هو المعبود من دون الله ﴿ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما من يتعلقون بهذا الضعيف، ويُنزلونه منزلة رب العالمين»[٢].

وهكذا نجد الآية السابقة تبيّن وتؤكد لكل عاقل مبصر - بما لا يدع مجالاً للشك شدة عجزة ومهانة وضعف معبودات الكفار عن خلق الذباب بل عن رد ما استلبه منهم، وما أحسن تعليق ابن القيم على المثل المضروب في الآية حيث قال: «حقيق على كل عبد أن يستمع لهذا المثل ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع موارد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على

(١) وفي صحيح البخاري ٦/ ٢٧٤٧ في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات: ٩٦) رقم ٧١٢٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة أو شعيرة».

(٢) تفسير السعدي ص٥٨٨ بتصرف.

خلق ذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه، ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً.. وهو من أضعف الحيوانات.. فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله»[1].

قال سيد قطب: «والأسلوب القرآني يختار الذباب الصغير الحقير، لأن العجز عن خلقه يُلقي في الحِس ظِلَّ الضَّعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل..، والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه، سواء كانت أصناماً أو أوثاناً أو أشخاصاً»[2] أو غير ذلك.

ولم يكتفِ القرآن بالتأكيد على عجز آلهة المشركين عن الخلق بل أوضح أنها تعجز أيضاً عن الإعادة للمخلوقات يوم البعث والنشور فقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢١) وقال: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (يونس: ٣٤).

قال السعدي: «يقول تعالى مبيناً عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ﴾ أي يبتديه، ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ من غير مشارك، ولا معاون على ذلك ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي:

---

(١) الأمثال في القرآن الكريم، لمحمد بن أبي بكر الدمشقي، الشهير بابن قيم الجوزية، سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، بيروت ـ لبنان ص٢٤٧-٢٤٨.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٤/ ٢٤٤٤.

تصرفون، وتنحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون»[١].

ولم يكتف القرآن بإبطال ربوبية الله آلهة المشركين من خلال ذكره لعجزها عن خلق شيء في الكون، بل أبطل ذلك بأمر آخر وهو:

٢ ـ نفي القرآن امتلاك الشركاء أي شيء:

كما ثبت بالنقل والعقل عجز المشركين عن خلق شيء في الكون ـ سابقاً وحالياً ولاحقاً، في الأولى والآخرة ـ فقد جاءت نصوص القرآن لنفي امتلاك الشركاء أي شيء في السماوات والأرض، وأكدَّ الواقع ذلك ومن هذه النصوص قوله سبحانه مخاطباً المشركين ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ[٢] ﴾ (فاطر: ١٣).

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ (سبأ: ٢٢).

نلاحظ من الآية بلاغة ودقة التعبير القرآني فلم يقل «لا يملكون ذرة في السماوات..» بل عبّر بالمثقال وهو «ما يعدل الذرة فيثقل به الميزان.. فقد نفى عنهم مِلْك أحقر الأشياء وهو ما يساوي ذرة من السماء والأرض. ونفى أن يكون لآلهتهم مِلْكٌ مستقل، وأُتبع بنفي أن يكون لهم شرك في شيء من

(١) تفسير السعدي، ص٣٨١.

(٢) القطمير هو الأثر في ظهر النواة، أو الغشاء الذي على نواة التمر.
انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٤٠٨.

السماء والأرض»[١] كما في استفهامه الإنكاري سبحانه بقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[٢]؟

ومن هنا أنكر القرآن على الكفار عبادة من لا يملك شيئاً ـ صغيراً كان أو كبيراً، حقيراً أو عظيماً ـ معتقدين شفاعتهم يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الزمر: ٤٣) فآلهة المشركين لا تملك شيئاً، ولا تعقل عبادة عابديها فبأي دليل تستحق ذلك؟!

قال ابن القيم في تعليقه على قوله تعالى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ (سبأ: ٢٢) «فتأمل كيف أَخَذت ـ هذه الآية ـ على المشركين مجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدّتها عليهم أحكم سدّ وأبلغه، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه.. وحينئذ لابد أن يكون مالكاً للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكاً لمالكها، أو ظهيراً أو وجيهاً ذا حرمة وقَدْرٍ يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه، وبطلت، انتفت أسباب الشرك، وقُطعت موادّه»[٣].

وكما نفى القرآن امتلاك الشركاء لأي شيء في الكون مبطلاً ربوبيتهم في سبيل إبطاله لألوهيتهم، فقد سعى لذلك من خلال أمر آخر وهو:

---

(١) تفسير ابن عاشور ٢٢/ ٥٢ باختصار وتقديم وتأخير.

(٢) فاطر: ٤٠، ونحوها في الأحقاف: ٤٠.

(٣) الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦١-٤٦٢ بتصرف وزيادة يسيرة.

٣ـ تقرير القرآن لعجز الشركاء عن أي تصرف أو تدبير في الكون:

لم يقتصر منهج القرآن في نقضه لشرك عبادة غير الله وإبطاله ذلك على نفيه قدرة آلهة المشركين على الخلق، ولم يكتف بنفيه امتلاكها أي شيء في الكون، بل أضاف لذلك إثباته لعجز الشركاء عن أي تصرف أو تدبير في الكون، فهي ـ أي معبودات الكفار ـ لا تحيي ولا تميت، ولا تبدئ ولا تعيد[1]، ولا تعطي ولا تمنع، ولا ترزق ولا تنصر، وهي أيضاً لا تهدي للحق ولا تهتدي إليه، بل هي لا تعقل كما سبق بيانه، ولا تسمع ولا تبصر ولا تقدر ولا تضر ولا تنفع[2] نفسها أو أحداً غيرها كما سيأتي تفصيله في صفات نقصها وعجزها.

وبناءً على كل ما سبق فقد استدل القرآن بكل ذلك ونحوه لإثبات عدم استحقاقها لتوحيد الإلهية واستحقاق من يقدر على ذلك كله، الذي له تمام القدرة والكمال، وحسن التدبير للكون بمن فيه، وما فيه.

فاستدل القرآن بأجمع وأشمل آية تثبت ربوبية الله وحده، وتنفي ربوبية غيره، استدل على أنه لا إله إلا الله وحده كما جاء في قوله سبحانه: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ

---

(١) سبق ذكر الآيات الدالة على ذلك، والتعليق عليها ص٢٦٩.

(٢) أي من تلقاء نفسها.

خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (النمل: ٥٩-٦٤) سبق شرح دلالة الآية على وحدانية الله وتوحيد عبادته، والتعليق على ذلك[١].

والآية في نفس الوقت تدحض شرك المشركين بالله باستفهاماتها المتعددة عمن دبر وصرف كل ما ذُكر فيها من مظاهر ودلائل الربوبية، وتثبت عجز كل المخلوقات ـ ومن ذلك المعبودات الباطلة ـ عن أي تصرف وتدبير في الكون ـ سواء ما ورد ذكره في الآية كإنزال الماء من السماء، وإنبات الحدائق، وإقرار الأرض، وإجراء أنهارها، وإرساء جبالها، وحجز بحارها، وإجابة دعوة المضطر، وكشف السوء عمن نزل به، واستخلاف الإنسان على الأرض، وهدايته في ظلمات البر والبحر، وإرسال الرياح، وبدء الخلق ثم إعادته، ورزق العباد من السماء والأرض.

أو ما لم يرد ذكره في نفس الآية من مظاهر ودلائل تدبيرٍ وتصرفٍ في الكون عجزت عن أدنى شيء منه آلهة الكفار[٢] ـ ومن هنا خاطب الله العقلاء وكل من يصلح له الخطاب مستفهماً ومتهكماً بعبّاد الأصنام قائلاً: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾؟! قال الشوكاني رحمه الله: «أي: الله الذي ذُكرت أفعاله وصفاته

---

(١) راجع ص٣٠٣.

(٢) كما في سورة القصص: ٧١-٧٢.

الدالة على عظيم قدرته خير أما يشركون به من الأصنام؟ وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلي.. إذ لا خير فيهم أصلاً..»[١]، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ «أي: حجتكم على أن الله سبحانه شريكاً، أو هاتوا حجتكم أن ثم صانعاً يصنع كصنعه، وفي هذا تبكيت لهم، وتهكم بهم»[٢].

قال ابن عاشور في تفسيره للآيات السابقة أي لقوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾؟! «هذا مما أُمر الرسول ﷺ أن يقوله.. وأُمر أن يشرع في الاستدلال به على مسامع المشركين.. الذين أشركوا بالله مالا يخلق ولا يرزق ولا يفيض النعم، ولا يستجيب الدعاء.. والاستفهام مستعمل في الإلجاء، وإلزام المخاطب بالإقرار بالحق، وتنبيهه على خطئه، وهذا دليل إجمالي يُقصد به ابتداء النظر في التحقيق بالإلهية والعبادة،.. ثم تأتي بعده الأدلة التفصيلية، وقد ناسب إجماله أنه دليل جامع لما يأتي من التفاصيل، فلذلك جيء فيه بالاسم الجامع لمعاني الصفات كلها، وهو اسم الجلالة، فقيل: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ ﴾ وجيء فيما بعد بالاسم الموصول لما في صِلاته من الصفات.

وجاء ﴿ خَيْرٌ ﴾ بصيغة التفضيل لقصد مجاراة معتقدهم أن أصنامهم شركاء الله في الإلهية، بحيث كان لهم حظ وافر من الخير في زعمهم، فعبّر بـ ﴿ خَيْرٌ ﴾

---

(١) فتح القدير ٤/ ١٩٢ وقال أيضاً: «وقيل: المعنى: أثواب الله خير، أم عقاب ما تشركون به، وقيل: قال لهم ذلك جرياً على اعتقادهم لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيراً، وقيل: المراد من هذا الاستفهام الخبر..» اهـ.

(٢) المرجع السابق ٤/ ١٩٤.

لإيهام أن المقام لإظهار رجحان إلهية الله تعالى على أصنامهم استدراجاً لهم في التنبيه على الخطأ، مع التهكم بهم، إذ آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله. والعاقل لا يؤثر شيئاً على شيء إلا لداع يدعو إلى إيثاره، ففي هذا الاستفهام عن الأفضل في الخير تنبيه لهم على الخطأ المفرط، والجهل المورط لتنفتح بصائرهم إلى الحق إن أرادوا الاهتداء.

والمعنى: آلله الحقيق بالإلهية ـ أحق بالعبادة ـ أم ما تشركون معه؟!.. وهذا الكلام كالمقدمة للأدلة الآتية جميعها على هذا الدليل الإجمالي»[١].

إننا نجد أن القرآن الكريم يقرر عجز الشركاء عن التصرف والتدبير في أي شيء من أمور الكون من خلال إثابته ذلك لله وحده، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم: ٤٠). وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (يونس: ٣١، ٣٢)[٢] وغير ذلك من الآيات التي ختمها القرآن باستفهام تقريري للمشركين بالتوحيد، وإنكاري لما وقع منهم من شرك.

لقد جاء باستفهامات عديدة كثيراً ما كان يفوّض فيها الجواب لواقع المشركين بلسان حالهم أو مقالهم، ليكون أبلغ في الحجة وأوقع في النفوس.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/ ٢٨٣-٢٨٤ بتصرف.

(٢) يونس: ٣١-٣٢، وقد سبق شرح الآية والتعليق عليها ص١٧٧.

وهكذا توالت آيات القرآن الكريم لتبيّن عجز آلهة المشركين عن:

١- رزق عابديها كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾(١).

٢- تحقيق أمانيهم وطلباتهم كما هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ (القلم: ٣٩-٤١).

٣- نصر أنفسها ـ فضلاً عن نصرها لعُبّادها ـ كما في قوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾(٢).

٤- هداية نفسها وغيرها للحق، كما في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾(٣).

٥- ردّ أسماع وأبصار وقلوب عابديها لو أخذها الله وختم عليها، كما في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ (الأنعام: ٤٦).

---

(١) النحل: ٧٣، ونحوها في العنكبوت: ١٧، والروم: ٤٠، والملك: ٢١.

(٢) الأعراف: ١٩١-١٩٢، ونحوها في نفس السورة ١٩٧، وفي يس ٧٤-٧٥.

(٣) يونس: ٣٥، ونحوها في الأعراف: ١٩٣.

٦- دفع عقوبة الله أو كشف ضره لو مس المشركين كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾[(١)]، وقوله سبحانه: ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾[(٢)] وقوله تعالى عن حال الكفار يوم القيامة: ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الجاثية: ١٠) وقوله جل وعلا: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾[(٣)].

٧- استجابة دعاء عُبّادها في الدنيا والآخرة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[(٤)].

٨- إنقاذ عابديها عند سكرات الموت، كما في قوله سبحانه عن حال المشركين وقت قبض أرواحهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟

---

(١) الأنبياء: ٤٣، ومعنى يُصحبون (أي يُجارون ويُمنعون) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٥٥٧.

(٢) هود: ١٠١، ومعنى تتبيب: تخسير، انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٤.

ونحو هذه الآية ما جاء في سورة الأنعام ٤٠-٤١، والأحقاف: ٢٧-٢٨.

(٣) الزمر: ٣٨، ونحوها في الفتح: ١١.

(٤) الأعراف: ١٩٤، ونحوها في الرعد: ١٤.

كَٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٣٧) وقوله سبحانه على لسان الرجل الذي جاء من أقصى المدينة ـ مخاطباً قومه الكفار ـ : ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ (يس: ٢٢، ٢٣).

٩- الشفاعة لعُبَّادها يوم القيامة وإنقاذهم من عذاب النار، كما قال تعالى ـ مخاطباً الكفار يوم القيامة ـ : ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾[1].

وبالجملة فقد تتابعت آيات القرآن الداحضة لكل شرك أحدثه المشركون في حق الرحمن كما سبق بيانه وكما يتضح من كل الآيات التي تؤكد عجز آلهة المشركين عن أي نفع وضر للكفار ـ بل للخلق أجمعين ـ كما في قوله سبحانه: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (المائدة: ٧٦) وغيرها من الآيات[3] التي يقرر بعضها أن ضرر الآلهة على عابديها أسرع وأقرب من نفعها ـ إن كان لها نفع ـ كما في قوله تعالى عن كل مشرك بالله:

---

(١) الأنعام: ٩٤، ونحوها في يس: ٢٣.

(٢) يونس: ١٨، ونحوها في الفرقان: ٣، ٥٥، والرعد: ١٦.

(٣) كما في سورة الحج: ١٢.

﴿ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾[1].

وكما جاءت آيات كثيرة تكشف عن مصير الآلهة الباطلة مع عُبّادها يوم القيامة، بعد أن يجمعهم الإله الحق في موقف واحد، فقد وردت آيات أخرى

---

(١) الحج: ١٣.

وقد ظن البعض أن قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ (يونس: ١٨)، ونحو ذلك من الآيات يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ (الحج: ١٣).

وقد فصل القول في ذلك ابن تيمية في الفتاوى ١٥/ ٢٦٩-٢٧٤ وخلاصة ما قاله هناك:

أن المقصود: ﴿ يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ ﴾ (الحج: ١٢)، أي لا يضره ترك عبادته، وقوله ﴿ لَمَن ضَرُّهُۥٓ ﴾ أي ضر عبادته.

أن المقصود بقوله ﴿ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ أي يوم القيامة بدخول النار بسبب عبادته لها في الدنيا، فهي ضارة كونها معبودة، فضرها يوم القيامة أقرب من نفعها كونها شفيعة كما يزعمون.

أن المقصود بقوله ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُۥ ﴾ أي إن عصاه، ﴿ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ أي إن أطاعه.

أن المقصود بقوله تعالى ﴿ يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ النفي العام لنفع وضر كل ما سوى الله ممن ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ (طه: ٨٩)، لا لنفسه ولا لغيره سواء عُبِد أو لم يُعبد بخلاف الرب الذي يكرم عابديه ويرحمهم، ويهين من لم يعبده ويعاقبه، وإن كانت رحمته سبحانه قد وسعت كل شيء، وهو ينعم على كثير من خلقه وإن لم يعبدوه، فنفعه للعباد لا يختص بعابديه، أما ما دونه سبحانه فإنه لا ينفع لا من عَبَدَه ولا من لم يعبده. فالمقصود هنا أن نفي الضر والنفع عمن سواه سبحانه عام.

ويمكن أن يضاف لملخص كلام ابن تيمية رحمه الله. أن آلهة المشركين لا تضر ولا تنفع من تلقاء نفسها، لكنها تضر عابديها بسخط الله وعذابه بشؤم عاقبة شركهم الذي أوقعه الله عليهم.

تؤكد استسلام الجميع لله وحده[١]، وتعرّضهم للسؤال[٢]، والعتاب والتوبيخ[٣]، وجاءت آيات أخرى تبيّن كُفر الآلهة بعبّادها[٤]، وتكذيبها لهم[٥]، وتبرؤها مع وسطائها منهم[٦]، وعدم استجابتها لدعائهم[٧]، وتكشف أيضاً عن شدة العداوة والخصومة بين العابدين والمعبودين[٨] يوم الدين، وتؤكد تقطع الروابط التي كانت بينهم في الدنيا[٩]، وضلال ما كان المشركون يزعمونه ويفترونه من شفاعةِ

---

(١) كما في سورة الصافات ٢٦ قال تعالى: ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ ونحوها في يونس: ٢٨.

(٢) كما في سورة الصافات ٢٤ قال تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾.

(٣) كما في سورة الصافات ٢٥ قال تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ ونحوها في الأنعام: ٢٢، النحل ٢٧، القصص: ٧٤، وغافر: ٧٣-٧٤.

(٤) كما في سورة مريم: ٨٢ قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ ونحوها في الروم: ١٣، والعنكبوت: ٢٥.

(٥) كما في سورة النحل ٨٦، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ونحوها في الفرقان: ١٧، ١٩.

(٦) كما في سورة القصص: ٦٢-٦٣ قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾.

(٧) كما في قوله تعالى في سورة الكهف: ٥٢: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ ونحوها في القصص: ٦٤.

(٨) كما في قوله تعالى في سورة الأحقاف: ٦ ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾.

(٩) كما في قوله تعالى في سورة الأنعام: ٩٤ ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

ونصرةِ ونفعِ آلهتهم في اليوم الآخر(١)، وتبيّن حسرتهم في النار على ما كان من اعتقاد ذلك بغير الحق(٢) كما وردت آيات أخرى تؤكد أن المعبودات الباطلة تنزّه الله سبحانه عما كان من شرك البشر بعبادتها(٣)، وتكشف اعتراف المشركين ببطلان عبادتهم لها(٤)، وإنكار المشركين لما وقع منهم من شرك(٥) في الدنيا بل إقسامهم الأيمان ـ كذباً على أنفسهم ـ ما أشركوا بالله في دنياهم(٦)، ثم إقرار الجميع يوم القيامة

---

(١) كما في قوله سبحانه في سورة الشعراء: ٩٢-٩٣ ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ونحوها في الأنعام: ٢٤، والقصص: ٧٤، وغافر: ٧٤.

(٢) كما في سورة الشعراء: ٩٦-١٠٢، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

(٣) كما في سورة الفرقان: ١٧-١٨ قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾.

(٤) كما جاء في تفسير قوله تعالى في سورة غافر ٧٣-٧٤: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾.

(٥) كما جاء في تفسير قوله تعالى في سورة النحل: ٢٨ ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ٢٢، ٢٣).

لكنهم أحياناً كانوا يعترفون بشركهم كما يتبين من خطابه تعالى للثقلين يوم القيامة قال سبحانه: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام: ١٣٠)، ونحوها في الأعراف: ٣٧.

بوحدانية الله[1] سبحانه وتعالى، ولكن بعد فوات الأوان، حيث وجب عليهم العذاب كما قال سبحانه: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝ فَكُبْكِبُوا[2] فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ (الشعراء: ٩١-٩٥) وصدق فيهم جميعاً قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء: ٩٩).

وعندها أقسم المشركون لشركائهم معترفين بضلالهم في دنياهم الماضية عندما سوّوا المربوب برب العالمين فقالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء: ٩٧، ٩٨).

إن القرآن يتحدث عن عاقبة المشركين السيئة بلفظ الماضي إشارة إلى حتمية تحقق العذاب بهم وكأنه قد وقع عليهم.

وبعد أن أوقع الله بالمشركين عاقبة شركهم تمنوا حينها العودة للدنيا كرّة أخرى لتحقيق الإيمان والتوحيد، قائلين: ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] كما تمنى التابعون أن يعودوا إلى الدنيا ليتبرؤوا من متبوعيهم كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾ (البقرة: ١٦٧).

---

(١) كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٧)، حيث قال ابن كثير في تفسيرها «أي: أعلمناك ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ .. فليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكاً» انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٥/ ٢٣٤.

(٢) فكبكبوا: أي ألقي بعضهم على بعض، وكَبِبُوا فيها ـ والكاف مكرورة ـ فَهَوَوْا في نار جهنم، انظر: المرجع السابق ٢/ ٧١.

(٣) الشعراء: ١٠٢، ونحوها في الأنعام: ٢٧.

وهكذا بيّن الله في كتابه عجز آلهة المشركين عن نفع عُبّادها في دار الآخرة[١]، كما عجزت عن نفعهم في دار الدنيا[٢]، وأكد عدم نصرها لهم وقت الشدة والحاجة، وضعفها عن دفع العذاب عن نفسها وعنهم في اليوم العظيم[٣].

لقد قرّر القرآن عجز الآهلة الباطلة عن كل ما سبق، وقرّر أيضاً عجزها عن الكيد وإيقاع السوء والمكروه بكل من يحاربها وينقض شرك عبادتها، ويدعو للتوحيد، كما يتضح ذلك من تحديه ﷺ للمشركين وشركائهم على الكيد به وإيقاع السوء عليه كما في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾[٤].

وبناءً على كل ما سبق فقد خاطب الله رسوله ﷺ محذراً جميع الخلق بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (يونس: ١٠٦).

---

(١) كما في قوله سبحانه في سورة سبأ ٤٢ ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.

(٢) سبق شرح ذلك ص ٣٤٣.

(٣) كما يدل عليه قوله سبحانه عن المشركين يوم القيامة ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ (الشعراء: ٩٢-٩٥).

(٤) الأعراف: ١٩٥، وقال ابن كثير في تفسيرها: «أي استنصروا بها علي، فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم». انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦٢٣.
وتحدى نوح قومه كما جاء في سورة يونس: ٧١، وكذلك هود كما جاء في سورة هود: ٥٤-٥٦، وكذلك إبراهيم كما جاء في الأنعام ٨٠-٨٢.

ولقد أكثر الحق سبحانه من عرض وسرد حوارات الأنبياء مع أقوامهم في القرآن الكريم لهدم شركهم وإقامة التوحيد مكانه ـ سواء حوار نوح عليه السلام مع قومه[١]، أو حوار هود[٢]، أو صالح[٣]، أو إبراهيم عليه السلام، حيث تجلت في حواراتهم مع أقوامهم عدة دلائل عقلية لإبطال شركهم[٤]، وكذا حوار يوسف[٥] وشعيب[٦] وموسى[٧] مع أقوامهم، وغيرهم من المدعوين للتوحيد، كفرعون وملئه، وملكة سبأ[٨] في مأرب اليمن، وأخيراً حوار عيسى مع الحواريين[٩].

---

(١) انظر: سورة الأعراف: ٥٩-٦٤، وهود ٢٥-٤٩، والمؤمنون: ٢٣-٣٠، والشعراء: ١٠٥-١٢٢.

(٢) انظر: سورة الأعراف: ٦٥-٧٢، وهود: ٥٠-٦٠، والمؤمنون: ٣١-٤١، والشعراء: ١٢٣-١٤٠ والأحقاف: ٢١-٢٥.

(٣) انظر: سورة الأعراف: ٧٣-٧٩، وهود: ٦١-٦٨، والشعراء: ١٤١-١٥٩، والنمل: ٤٥-٥٣.

(٤) انظر: سورة الأنعام: ٧٤-٨٣، ومريم: ٤١-٥٠، والأنبياء: ٥١-٧٣، والشعراء: ٦٩-٨٣، والعنكبوت: ١٦-٢٧، والصافات: ٨٣-٩٨.

(٥) انظر: سورة يوسف ٣٥-٤٠.

(٦) انظر: سورة الأعراف: ٨٥-٩٣، وهود: ٨٤-٩٥، والشعراء: ١٧٦-١٩١.

(٧) انظر: سورة الأعراف: ١٠٣-١٣٧، ويونس: ٧٥-٩٣، وطه: ٤٢-٧٣، والشعراء: ١٠-٦٨، والقصص: ٣٦-٤٢.

(٨) انظر: سورة النمل: ٢٠-٤٤.

(٩) انظر: سورة المائدة: ١١٢-١١٥.

وانظر: تفاصيل وشرح كل حوارات الأنبياء مع أقوامهم في رسالة الدكتوراه للشيخ عبده عبد الله الحميدي، مكتبة الإرشاد، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، صنعاء ـ اليمن.

فقد تميزت حوارات الأنبياء مع من سبق ذكرهم بمخاطبة العقل والوجدان، وإثارة مشاعر الإنسان وانفعالاته، وخاصة ما جاء في محاورة إبراهيم لأبيه وقومه، وكذا محاورته للنمرود، ومحاورة موسى لفرعون زمانه.

ولم يكتف القرآن الكريم ببيان عجز آلهة المشركين من واقع حالها، بل ضرب الأمثلة المتعددة لإظهار ضعفها وشدة عجزها، وبالمقابل تنزه الواحد الأحد عن كل ذلك قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل: ٧٥، ٧٦).

أوردت الآيتان مثلين لتقرير التوحيد وإبطال الشرك، ولعل من المناسب تأخير شرح ذلك، والتعليق عليه لحين الحديث عن أساليب القرآن البلاغية في عرض أدلة التوحيد فيما يلي من فصول قادمة[1].

هذا هو منهج القرآن في بيان وتأكيد عجز كل ما عُبد من دون الله من الأصنام وغيرها بإبطال ربوبيتها خلقاً وملكاً وتدبيراً، فإذا أضفنا لذلك اعتراف المشركين بربوبية الله وحده للإنسان والأكوان ـ كما سبق شرحه[2] ـ فقد قامت الحجة وانتصبت أدلة وحدانية الله وتوحيده على كل جاهل، ومعاند ومستكبر،

---

(١) انظر ص٩٠٣.

(٢) راجع فصل: الأدلة الفطرية لوحدانية الله وتوحيده ص ١٨١ وما بعدها.

ولكن كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣) وليس كل الناس ينتفع بذلك، وإنما كما قال تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ (الأعلى: ١٠).

إن القرآن الكريم لم يقتصر في منهجه لإقامة التوحيد على إظهار عجز الشركاء عن فعل أي خير أو دفع أي شر عن عابديها، بل زاد فوق ذلك بيان نقصها في ذواتها كما يلي:

المحور الثاني: تأكيد القرآن لنقص الشركاء وكثرة عيوبهم:

سبق ذكر أن من أدلة استحقاقه سبحانه لتوحيد العبادة اتصافه بالكمال المطلق، ومن ذلك كمال الأسماء، وعلو الصفات[1]، ومن لم يتصف بذلك اتصف بالنقص، ويمكن القول ـ أيضاً ـ أن من أدلة استحقاقه سبحانه للإلهية ما اتصفت به آلهة المشركين من نقص وعيب أكدته آيات القرآن فقد تحدث القرآن عن حقيقة آلهة المشركين وحالها وأسمائها ـ سواء سُمّيت بأسمائها الحقيقية كالحجارة والأصنام ونحو ذلك، أو سُمّيت ـ بهتاناً ـ بأسماء الله الحسنى ووصفت بصفاته العظمى كالحي القيوم، ونحو ذلك، - فكل هذه الأسماء تُبطل ـ ضمناً ـ عبادة هذه المسميات، وتُظهر نقصها وعيبها، لأنها إنْ سُمّيت بأسماء الله ظهر زيفها وكذبها، وإن سميت بأسمائها الحقيقية دل ذلك على نقصها، فبطلت عبادتها، وهذا خلاصة ما ذكره ابن تيمية رحمه الله في تعليقه على قوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ (الرعد: ٣٣).

فالقرآن الكريم قد أكد اتصاف الشركاء بالنقص وتعدد العيوب كما يلي:

---

(١) راجع ص٣١١.

١ ـ فقدان الشركاء للأسماع والأبصار وعجزهم عن أي حركة أو بطش أو كلام:

قال تعالى مخاطباً المشركين، ومقرراً فقدان آلهتهم للسمع وعجزها عن الرد على من خاطبها: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٩٤، ١٩٥).

قال محمد رشيد رضا[٢]: «معناه: أنهم لفقدهم لجوارح الكسب، التي يناط بها في عالم الأسباب النفع والضر، قد هبطوا عن درجة مماثلتكم من كل وجه..

---

(١) فاطر: ١٤، ونحوها في الرعد: ١٤.

(٢) هو: محمد رشيد رضا، ولد في ٢٧ جمادى الأولى، عام ١٢٨٢هـ في بلدة القلمون، بالقرب من طرابلس الشام، ونشأ في رعاية والديه، في بيت علم وفضيلة، اجتهد منذ صغره في طلب العلم، وقد مدحه شيوخه بتفوقه على أقرانه، وهمته في طلب العلم، وقد تأثر بشكل كبير بمجلة «العروة الوثقى» التي كان يحررها الشيخ محمد عبده آنذاك.. وتحمّس للقيام بأعمال إصلاحية.. فقد كان يعقد جلسات أثناء دراسته.. للوعظ والإرشاد.. وأثمر في ذلك.. حتى اشتهرت بلدته «القلمون» بصلاح أكثر أهلها.. وكان له مجلس علم يعلّم فيه عدداً من العلوم..
وقد التقى بالشيخ محمد عبده مرتين في طرابلس الشام، وأُعجب به... وانتقل إلى مصر... واتفق معه على إصدار مجلة المنار... للمساهمة في الإصلاح، وقد عمل على إنشاء مدارس وجمعيات إسلامية في كثير من الأقطار. توفي في القاهرة، عام ١٣٥٤هـ.
من أهم مؤلفاته: «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار» إلى سورة يوسف فقط و«الوحي المحمدي» و«عقائد النصارى». =

فليس لهم أعين يبصرون بها حالكم، وليس لهم آذان يسمعون بها أقوالكم، ويعرفون بها مطالبكم، فأنتم تَفْضُلونها في الصفات والقوى التي أودعها الله في الخلق، فلماذا ترفعونهم عن مماثلتكم، وهم بدليل المشاهدة والاختبار دونكم؟»[(١)]
وغير ذلك من الآيات التي تنفي سماع الآلهة المزعومة لدعاء ونداء عابديها[(٢)]، وتؤكد عدم رؤيتها لهم[(٣)]، ولهذا فإن إبراهيم عليه السلام استدل على بطلان عبادة آلهة المشركين ـ في زمانه ـ بفقدانها للسمع والبصر، وعجزها عن إغناء عابديها شيئاً[(٤)]، فدعى والده وقومه إلى توحيد السميع البصير.

وكما أكد القرآن على فقدان الشركاء للأسماع والأبصار، فقد أكّد أيضاً على خلو الأصنام من أي مظهر من مظاهر الحياة كما شهد به العقل والواقع، فمعبودات المشركين ـ لا سيما الأصنام والأوثان ـ عاجزة كل العجز عن أي حركة أو بطش أو نُطق وكلام، وهذا ما أكدت عليه آيات القرآن في قوله تعالى

= انظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د/ محمد البيومي ١/ ٢٣٥-٢٥٠ باختصار.
و: المختار من المنار، لعبد العزيز بن محمد آل الشيخ، مطبعة (بدون)، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، البلد (بدون)، ١/ ٩/ ١٩ باختصار.

(١) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار ٩/ ٤٣٨ باختصار وتصرف.

(٢) كما في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ (الشعراء: ٧٢).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٩٨)، وقال ابن كثير في تفسير الآية: «أي يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، وهي جماد؛ ولهذا عاملهم معاملة من يعقل. وقال السّدي: المراد بهذا المشركون.. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير».
انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦٢٤ باختصار.

(٤) كما في سورة مريم: ٤٢ حيث قال إبراهيم لأبيه: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾.

متسائلاً: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ﴾ (الأعراف: ١٩٥) وبالتالي فهي عاجزة عن قضاء حوائجها، وحوائج عُبّادها، قال الشوكاني: «والاستفهام في قوله: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ ﴾؟ وما بعده للتقريع والتوبيخ، أي هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم ﴿ أَرْجُلٌ ﴾ يمشون بها في نفع أنفسهم، فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم، وليس لهم ﴿ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ﴾ كما يبطش غيرهم من الأحياء.. فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات، وبهذه المنزلة من العجز..»[١].

وبمثل هذه الحجة أسكت إبراهيم قومه ـ في زمانه ـ واستدل بها على بطلان عبادتهم لآلهتهم، حيث قال راداً عليهم عند ما سألوه ليقرروه بتكسيره لها: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٢].

وبمثل هذه الحجة أيضاً أنكر الله على قوم موسى عبادة العجل عندما ذهب لميقات ربه[٣].

---

(١) فتح القدير ٢/ ٣٩٧ باختصار.

(٢) الأنبياء: ٦٣-٦٤، وقال ابن كثير في تفسير الآية: «وإنما أراد إبراهيم ـ بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم، لأنه جماد».
انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٠٦.

(٣) قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٨).
وفي سورة طه آية: ٨٩ قال سبحانه ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾.

إننا نلاحظ أن القرآن الكريم قد ضرب الأمثال للأصنام الجامدة البكماء برجل أبكم لا يعقل ولا ينطق، ولا يقدر على نفع نفسه ولا غيره، ولا يأتي بخير أينما وُجّه[1].

ثم أكَّد بعد ذلك على نقص وعيب ما عُبد من خلْقه سبحانه، وبالتالي عدم استحقاق غير العلي العظيم الحي القيوم لتوحيد العبادة.

٢ ـ حقارة الشركاء، وشدة ضعف معبودات الكفار:

لم يكتف القرآن ببيان فقدان آلهة المشركين لكل وسائل الحياة والحركة والإرادة والنفع والضر، بل زاد فوق ذلك تأكيد شدة ضعفها، وَضَرب الأمثلة على ذلك، فقال سبحانه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤١) قال ابن عاشور: «...ضُرِب المثل لبيان حال المشركين في اتخاذهم ما يحسبونه دافعاً عنهم، وهو أضعف من أن يدفع عن نفسه، بحال العنكبوت تتخذ لنفسها بيتاً تحسب أنها تعتصم به من المعتدى عليها، فإذا هو لا يصمد ولا يثبت لأضعف تحريك فيسقط ويتمزَّق... فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدُّوه، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في عدم الغناء عمَّن اتخذوها ـ آلهة ـ وقت الحاجة إليها ...وأقصى ما ينتفعهون به منها نفعُ

(١) كما في سورة النحل ٧٦ قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. وسنأتي لشرح الآية في فصل أساليب القرآن في الدعوة للتوحيد ص٧٦٠.

ضعيف، .... وجملة ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ .... تجري مجرى المثل، فيضرب لقلَّة جدوى شيء، فاقتضى ذلك أن الأديان التي يَعبد أهلها غير الله هي أحقر الديانات، ....»[1] وكما أنَّ آلهة المشركين ضعيفة حقيرة لا تستحق العبودية فهي أيضاً كما قال تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ (النحل: ٢١). كونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تقدر على البطش والحركة والكلام والأكل والشرب وسائر صفات الأحياء، قال السعدي رحمه الله: «أَفَتُتَّخذ هذه آلهة من دون رب العالمين، فتبّاً لعقول المشركين، ما أضلها وأفسدها؟ حيث ضلت في أظهر الأشياء ....وسوَّوا بين الناقص من جميع الوجوه، فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه، الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء، والقدرة العامة، والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعضها....»[2].

وقد ذكر الله في كتابه ـ في معرض استدلاله على نقص وعيب آلهة المشركين لإبطال عبوديتها ـ قصة إبراهيم عليه السلام في مجاراته لقومه بعبادة الشمس والقمر والكوكب، لإثبات أُفُولها واحتجابها عن عابديها وغيبتها عنهم، وبالتالي بطلان استحقاقها العبادة[3].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/ ١٧٢-١٧٣ باختصار وتصرف.

(٢) تفسير السعدي ص٤٦٥ باختصار يسير جداً.

(٣) كما جاء في سورة الأنعام من آية ٧٤ -٨٣.

قال ابن كثير بعد تفسيره لتلك الآيات: «....وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟... والحق أن إبراهيم عليه السلام كان مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبيَّن في المقام الأول مع أبيه[1]. خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية ... وبين في هذا[2] المقام خطأهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب[3] السيارة السبعة ....وهي القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمرِّيخ، والمشتري، وزُحَل، وأشدهن إضاءةً وأشرفهن عندهم: الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فبين أوَّلاً أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، لأنها مسخَّرة مقدَّرة بسير معيَّن، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً... ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين في النجم[4] ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية بالدليل القاطع ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ٧٨) .... ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ٧٩). أي إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومسخِّرها ومقدِّرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه..»[5].

---

(١) يقصد ما ورد في سورة مريم من الآية ٤١-٤٨.

(٢) يقصد ما ورد في سورة الأنعام من الآية ٧٤-٨٣.

(٣) من المعلوم أن الشمس لا يدخل في الكواكب، وإنما هو نجم، ولكن هكذا جاء في الأصل.

(٤) هكذا في الأصل، ولعل الأصوب (فبين فيه مثل ما بين في الكوكب) لأن الزهرة كوكب وليس بنجم.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٢/ ٤٤٠.

وقد أكد الشنقيطي رحمه الله أن إبراهيم عليه السلام إنما قال في شأن الكواكب والقمر والشمس ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ (الأنعام: ٧٧). من باب المناظرة والمحاجة لقومه، والاستدلال على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وبطلان استحقاق تلك الأجرام لأي صورة من صور العبادة حيث قال[١]: «... قال ـ إبراهيم ذلك ...مناظراً ومحاجاً لقومه ...لأن الأفول الواقع في الكواكب والشمس والقمر أكبر دليل وأوضح حجة على انتفاء الربوبية عنها ...»[٢]. وذكر ابن عاشور أن إبراهيم عليه السلام هو أول رسول جادل في التوحيد، وناظر في إبطال الشرك بالحجة الدامغة، والمناظرة الساطعة فقد كانت حجته «أعدل حجة في تاريخ الدين إذ كانت مجادلة رسولٍ لأبيه ولقومه، وكانت أكبر حجة على المشركين من العرب بأن أباهم لم يكن مشركاً، ولا مقراً للشرك في قومه، ....فقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنعام: ٧٥). إشارة إلى حجة مستنبطة من دلالة أحوال الموجودات على وجود صانعها.. والمعنى: نكشف لإبراهيم دلائل مخلوقاتنا أو عظمة سلطاننا كشفاً يُطلعه على حقائقها، ومعرفة ألا خالق ولا متصرف فيما كشفنا له سوانا»[٣].

وكما ذكر القرآن محاجة إبراهيم لعبّاد الشمس والقمر والكواكب فقد ذكر أيضاً قصة تكسيره لأصنام قومه، لإثبات وتأكيد عجزها عن الدفاع عن نفسها، وضعفها عن مدافعة عدوها، وبالتالي بطلان عبادتها.

---

(١) أي الشنقيطي.

(٢) أضواء البيان ٢/ ٢٠١-٢٠٢ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ٦/ ١٦٩-١٧٤ باختصار وتصرف.

وحقيقة أنه عند التأمل في مجموع أدلة القرآن على التوحيد المتعلقة بنقضه الشرك، وإبطاله عبادة الشركاء ـ نجد أنها كلها ـ بدون استثناء أدلة عقلية يقبلها العقلاء، ويؤمنون بصدقها ـ وإن جحد الكفار بمضمونها وما تدل عليه ـ ، فلزوم العجز للشركاء عن خلق أنفسهم أو غيرهم، وعدم امتلاك آلهة الكفار أي شيء في الكون، وضعفها عن أي تصرف وتدبير ونفع وضر ـ كما دلت عليه شهادات الكفار بألسنتهم وأحوالهم[1] مما سبق شرحه ـ ، وفقدانها للأسماع والأبصار، وعجزها عن أي حركة وبطش وكلام، وشدة ضعفها ومهانتها وحقارتها وغير ذلك، كل هذه حقائق من واقع حالها، شاهَدَها الكفار بأبصارهم، ولمسوها بأنفسهم، وأدركتها عقولهم، ولم يجادل فيها أحد منهم.

فجاءت أدلة القرآن لنقض الشرك منطلقة مما هو مقرر في عقول الكفار، ومعروف ومحسوس ومجرب في حياتهم، فآمن من آمن منهم، وكفر من كفر ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (التغابن: ٦).

وختاماً أقول:

- لو لم يكن العقل يستحسن التوحيد، ويستقبح الشرك لما خاطب يوسف صاحبي السجن باستفهام تقريري لتوحيد الله، وإنكاري في نفس الوقت للشرك والشركاء قائلاً: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (يوسف: ٣٩).

---

(١) انظر قصة صنم عمرو بن الجموح، وإلقائه في حفرة فيها العذرة على يد معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل، وعجزه عن الدفاع عن نفسه، فلما تكرر ذلك، كفر به عمرو بن الجموح وأعلن التوحيد. راجع ذلك في سيرة ابن هشام ٢/ ٩٧-٩٨.

«المطلب الثاني»

«نقض القرآن لشرك أهل الكتاب»

في الوقت الذي كان العرب السابقون يشركون بالله في جزيرتهم العربية بعبادة الأصنام والأوثان وغير ذلك كانت ناحية المدينة المنورة ـ يثرب سابقاً ـ وكذا نجران ترزحان تحت شرك آخر فوق ما سبق ذكره، إنه شرك أهل الكتاب ـ اليهود المغضوب عليهم، والنصارى الضالين ـ وقد أخبر القرآن بذلك في أكثر من آيه، وأكد وقوعه، حيث ذكر القرآن من شركهم ما ظاهره أربعة أقسام كما يلي:

القسم الأول: اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله.

القسم الثاني: زعم أهل الكتاب بأنهم أبناء الله وأحباؤه.

القسم الثالث: زعم أهل الكتاب باتخاذ الله أبناءً من خلقه حيث زعمت اليهود بأن عزيراً ابن الله، وزعم النصارى بأن المسيح ابن الله.

القسم الرابع: اعتقاد أهل الكتاب النصارى بألوهية المسيح عيسى، وأمه مريم عليهما السلام.

وحقيقة الأمر أن شرك هؤلاء ليس أربعة أنواع بل هو إجمالاً ـ أقل من ذلك كما سنأتي له. وقد نقض القرآن كل ذلك في سبيل سعيه لإقامة التوحيد ونقض الشرك، وقبل أن أشرح منهج القرآن في نقضه شرك أهل الكتاب أذكر

الآيات التي قررت وأكدت ما وقع من شركهم، فمن ذلك قوله تعالى عنهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١). ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ (المائدة: ١٨). ومن ذلك أيضاً قوله جل شأنه: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠). ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ (المائدة: ٧٣). فدحض القرآن كل ذلك، وقدمَّ من الأدلة النقليه ذات الدلالة العقلية ما يقطع كل شك في ربوبية الله وألوهيته وحده سبحانه، ولكن قبل أن أسرد الردود القرآنية على مزاعم أهل الكتاب أذكر التوضيح التالي:

مقصود القرآن باتخاذ أهل الكتاب أرباباً من الأحبار[١] والرهبان[٢]:

ذكر ابن عاشور رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١)

---

(١) والأحبار جمع حبر ـ بفتح الحاء ـ وهو العالم من علماء اليهود.

(٢) والرهبان اسم جمع لراهب وهو التقي المنقطع لعبادة الله من أهل دين النصرانية، وقال ابن عاشور في تفسير ١٠/ ٧١: «وإنما خُص الحبر بعالم اليهود لأن عظماء دين اليهودية يشتغلون بتحرير علوم شريعة التوراة، فهم علماء في الدين، وخص الراهب بعظيم دين النصرانية لأن دين النصارى قائم على أصل الزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة».

ما نصه: «ومعنى اتخاذهم هؤلاء أرباباً أن اليهود ادعوا لبعضهم بنوة الله تعالى، وذلك تأليه، وأن النصارى أشد منهم في ذلك إذ كانوا يسجدون لصور عظماء ملتهم مثل صورة مريم، وصور الحواريين، وصورة يحيى بن زكريا، والسجود من شعار الألوهية[1]، وكانوا يستنصرون بهم في حروبهم، ولا يستنصرون بالله، وهذا حال كثير من طوائفهم وفرقهم، ولأنهم ـ أي طوائف اليهود والنصارى ـ كانوا يأخذون بأقوال أحبارهم ورهبانهم، المخالفة لما هو معلوم بالضرورة أنه من الدين، فكانوا يعتقدون أن أحباهم ورهبانهم يحللون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله[2]، وهذا مطَّرد في جميع أهل الدِّينين ... فحصل من مجموع أقوال اليهود والنصارى أنهم جعلوا لبعض أحبارهم ورهبانهم مرتبة الربوبية في اعتقادهم.

ومعنى اتخاذهم أرباباً من دون الله أنهم اتخذوهم أرباباً دون أن يفردوا الله بالوحدانية..»[3] فتحصّل من توضيح ابن عاشور رحمه الله أنه يمكن تقسيم شرك أهل الكتاب ـ تفصيلاً ـ إلى ما يلي:

أ ـ زعم الفريقين ـ اليهود والنصارى ـ اتخاذ الله لبعض الأبناء والأحباب ـ سواء منهم أو من أنبيائه ورسله سبحانه وتعالى.

ب ـ سجود النصارى لصور عظمائهم، واستنصارهم بهم في حروبهم من دون الله.

---

(١) في الأصل [الربوبية].

(٢) وقد سبق ذكر قصة عدى بن حاتم وما كان بينه وبين رسول الله ﷺ في شأن الآية المذكورة أعلاه ص ١٣٩ فلتراجع في موضعها.

(٣) التحرير والتنوير ١٠/ ٧١ باختصار.

ج ـ طاعة الفريقين للأحبار والرهبان فيما أحلوا وحرموا مما لم يأذن به الله.

- فأما ادعاء الفريقين الأول فينطبق عليه رد القرآن على مشركي العرب الأميين الذين نسبوا أولاداً لله ـ سواء من الملائكة أو الجن[١] ﴿ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٤٣).

إضافة إلى ما سأذكره في دحض القرآن ونفيه بنوّة الله لأحد من أهل الكتاب أو صالحيهم[٢].

- وأما سجود النصارى لصور عظمائهم، واستنصارهم بهم، فهذا شبيه بشرك العرب الذين عبدوا الأصنام والأوثان، ومن على شاكلتهم ممن عبد مخلوقات في السماء والأرض، معتقدين نفعهم وضرهم، فينطبق عليه رد القرآن على هؤلاء[٣].

- وأما طاعة الفريقين ـ اليهود والنصارى ـ لأحبارهم ورهبانهم بغير حق، فينطبق عليه أيضاً رد القرآن على مشركي العرب الذين أطاعوا شياطينهم من الإنس والجن في تحريم وتحليل بعض الأنعام والزروع والثمار مما لم يأذن به الله[٤].

وبعد كل ما سبق، وبناء عليه، يمكن رد شرك أهل الكتاب إلى نوعين رئيسين أبطلهما القرآن كما يلي:

---

(١) راجع ص٣٢٦ وما بعدها.

(٢) انظر ص ٣٧٧ وما بعدها.

(٣) راجع ص ٣٣٨ وما بعدها.

(٤) راجع حاشية ص ٣٢٤.

أولاً: إبطال القرآن لمزاعم أهل الكتاب بأن لله أبناءً منهم وأحباباً من عامتهم[١]:

سجل القرآن مقالة المشركين من أهل الكتاب الذين قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ[٢] وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ (المائدة: ١٨) وسجل أيضاً: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ[٣] ﴾ (التوبة: ٣٠).

ذكر الشوكاني في سبب نزول الآية الأولى: «عن ابن عباس قال: أتى رسولَ الله ﷺ نعمان بن أضاء، وبحري بن عمرو، وشاس بن عدي، فكلموه،

---

(١) قد يكون لله أحباباً من أهل الكتاب ومن غيرهم ممن اصطفاهم الله للإيمان واختصهم به.

(٢) قال صاحب المنار في تفسيره ٦/ ٢٦٠: «ومن قرأ كتب اليهود والنصارى رأى فيها لقب (ابن الله) قد أُطلق على آدم.. وعلى يعقوب وداود، مع لقب البكر.. وعلى المسيح عليهم السلام ولكن مع لقب الحبيب، فهو تفسير لكلمة ابن. وأُطلق مجموعاً على الملائكة، وعلى المؤمنين الصالحين، وهذا الاستعمال كثير في العهد الجديد.. ـ وبعد أن سرد صاحب المنار عدة نصوص من كتب أهل الكتاب استشهد بها على قوله ـ قال: فعُلم من هذه النصوص وأشباهها أن لفظ ابن الله يُستعمل في كتب القوم بمعنى حبيب الله الذي يعامله الله معاملة الأب لابنه من الرحمة والإحسان والتكريم، فعطف أحباء الله على أبناء الله للتفسير والإيضاح، وإنما تحكَّم النصارى بهذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقي بالنسبة إلى المسيح، وبالمعنى المجازي بالنسبة إلى غيره من الصالحين» ا.هـ.

وقال ابن عاشور في تفسيره ٥/ ٧٢: «وقد وقع في التوراة والإنجيل التعبير بأبناء الله.. فأما الإناجيل فهي مملوءة بوصف الله تعالى بأبي المسيح، وبأبي المؤمنين به،.. وذَكَرَ عدة شواهد على قوله ثم قال: وكلها ـ أي التسميات والأوصاف السابق ذكرها ـ جائية على ضرب من التشبيه، فتوهَّمَها دهماؤهم حقيقة، فاعتقدوا ظاهرها» اهـ. بتصرف يسير جداً.

(٣) وزادت النصارى بقولهم بألوهية مريم عليها السلام ـ أستغفر الله ـ.

وكلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله، وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد، نحن أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾»[1] فرد القرآن على إفكهم هذا بما يلي:

١ ـ أمر الله رسوله ﷺ أن يسألهم مباشرة بقوله سبحانه: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ قال ابن كثير «أي لو كنتم ـ كما تدّعون ـ أبناء الله وأحباءه فَلِم أُعِدّت لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم..»[2]، وقال الشوكاني: «أي إن كنتم كما تزعمون، فما باله يعذبكم ـ بما تقترفونه من الذنوب ـ بالقتل، والمسخ، وبالنار يوم القيامة، كما تعترفون بقولكم ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾[3]، وأنتم تذنبون، والحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم تعذبون، فهذا يدل على أنكم كاذبون في هذه الدعوى[4]»[5].

- وقال صاحب المنار: «أي قل لهم أيها الرسول: إذا كان الأمر كما زعمتم فلِمَ يعذبكم الله تعالى بذنوبكم، كما تعلمون من تاريخكم الماضي، وكما ترون في تاريخكم الحاضر، ومن هذا العذاب لليهود ما كان من تخريب الوثنيين لمسجدهم الأكبر، ولبلدهم المرة بعد المرة، ومن إزالة ملكهم من الأرض، ـ وما يعانونه الآن من خوف وقتل وعدم استقرار في فلسطين ـ.

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٦/ ١٩٧ وسكت عنه، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٥٣٥ ولم أعثر عليه في كتب أسباب النزول. وانظر: فتح القدير: ٢/ ٣٦

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٦٩.

(٣) البقرة: ٨٠، ونحوها في آل عمران: ٢٤.

(٤) وقال: «وهذا البرهان هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف». انظر: فتح القدير ٢/ ٣٦.

(٥) فتح القدير ٢/ ٣٦.

- ومن عذاب الله ـ للنصارى ما اضطهدتهم به الأمم وما نَكَّلَ به بعضُهم ببعض، وهو شرٌّ من تنكيلهم وتنكيل الوثنيين باليهود.. فلستم إذاً أبناء الله وأحباؤه..»[١].

- وقال ابن عاشور: «مقال مشترك بينهم ـ أي بين النصارى ـ وبين اليهود ـ يدل على غباوتهم في الكفر، إذ يقولون ما لا يليق بعظمة الله تعالى،..»[٢].

وقد علّم الله رسوله أن يبطل قولهم بِسُنَّتِهِ التي شرعها في عباده من إثابة الطائع، وعقوبة العاصي، وبما هو ثابت في شريعتهم، وهو قوله: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ يعني أنهم قائلون بأن نصيباً من العذاب ينالهم بذنوبهم.. والمقصود الرد عليهم بحصول عذابٍ يعتقدون حصوله في عقائد دينهم ـ سواء كان عذاب الآخرة أم عذاب الدنيا. فأما اليهود فكتبهم طافحة بذكر الغذاب في الدنيا والآخرة[٣].. وأما النصارى.. ـ فهم ـ قائلون في عقائدهم بأن بني آدم كلهم استحقوا العذاب الأخروي بخطيئة أبيهم آدم، فجاء عيسى بن مريم مخلِّصاً وشافعاً وعرّض نفسه للصلب ليكفِّر عن البشر خطيئتهم الموروثة، وهذا يَلزمهم الاعتراف بأن العذاب كان مكتوباً على الجميع لولا كفارة عيسى، فحصل الرد عليهم باعتقادهم به..»[٤].

---

(١) تفسير القرآن الحكيم ٦/ ٢٦١ بزيادة يسيرة. وانظر: جدول الأمم الذين عاقبهم الله لكفرهم وفسقهم في ص٣٧٦-٣٧٧.

(٢) وقال: «وعطف «وأحباؤه» على «أبناء الله» أنهم قصدوا أنهم أبناء الله محبوبون، إذ قد يكون الإبن مغضوباً عليه». انظر: التحرير والتنوير ٥/ ٧٢.

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ (آل عمران: ٢٤).

(٤) تفسير ابن عاشور ٥/ ٧٢ باختصار وتصرف.

بهذا الرد الأول أفحم القرآن أهل الكتاب في ادعائهم - زوراً وبهتاناً - أنهم أبناء الله وأحباؤه «فلو كانت المحبة قائمة - كما زعموا - لم يكن هناك ذنوب يستوجبون عليها العذاب، من المسخ قردة، وخنازير، وتسلط أعدائهم عليهم - خاصة اليهود - يستبيحونهم ويستعبدونهم، ويخربون متعبداتهم، ويَسْبُون ذراريهم، فالمحب لا يفعل هذا بحبيبه، ولا الأب بابنه، ومعلوم أن الرحمن الرحيم لا يفعل هذا بأُمّة إلا بعد أن فرط إجرامها وعتوّها على الله، واستكبارها عن طاعته وعبادته، وذلك ينافي كونهم أحبابه، فلو أحبوه لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك، ولو أحبهم لأدّبهم ولم يعذبهم، فالتأديب شيء، والتعذيب شيء، والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح، والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح، فهذا لون، وهذا لون»[1].

لقد افترى أهل الكتاب بهتاناً عظيماً بقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالوا قولاً يفسد الحياة ويُشقي البشرية ويطعن في عدل الله.

قال سيد قطب: «﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ فزعموا لله سبحانه أبوّة، على تصور من التصورات، إلا تكن أبوّة الجسد فهي أبوّة الروح، وهي أيّاً كانت تُلقي ظلاً على عقيدة التوحيد، وعلى الفصل الحاسم بين الألوهية والعبودية، هذا الفصل الذي لا يستقيم التصور ولا تستقيم الحياة إلا بتقريره. كي تتوحد الجهة التي يتوجّه إليها العباد كلهم بالعبودية؛ وتتوحد الجهة التي تُشرِّع للناس؛ وتضع لهم القيم والموازين والشرائع والقوانين، والنُظم والأوضاع، دون أن تتداخل الاختصاصات، بتداخل الصفات والخصائص،

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم ص٢٠١.

وتداخل الألوهية والعبودية.. فالمسألة ليست مسألة انحراف عقدي فحسب، إنما هي كذلك فساد الحياة كلها بناءً على هذا الانحراف! ـ ومعنى قول ـ اليهود والنصارى وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه.. أن عدل الله لا يجري مجراه! وأنه سبحانه يحابي فريقاً من عباده، فيدعهم يفسدون في الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين! فأي فساد في الحياة يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور؟ وأي اضطراب في الحياة يمكن أن ينشئه مثل هذا الانحراف؟..»[١].

٢ ـ ومما رد به القرآن على زعم أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحباؤه: قوله تعالى مخاطباً إياهم: ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ (المائدة: ١٨) أي: «لكم أسوة أمثالكم من بني آدم»[٢] فأنتم «من جنس خلْق الله تعالى، يحاسبهم على الخير والشر، ويجازي كل عامل بعمله»[٣]، «وهو عز وجل الحكَم العدل، لا يحابي أحداً، وإنما يغفر لمن يعلم أنه مستحق للمغفرة، ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب»[٤] فيحب أولياءه ويبغض أعداءه «فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم، فإنما العبرة بالإيمان الصحيح، والأعمال الصالحات، لا بما سلف من الآباء والأمهات»[٥].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٦٦-٨٦٧ بتصرف.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٢/ ٢٦٩.

(٣) فتح القدير ٢/ ٣٦.

(٤) تفسير المنار ٦/ ٢٦١-٢٦٢ مع ملاحظة أن مذهب السلف الصالح أن مرتكب الكبيرة الذي لا يستحلها إذا مات على ذلك فهو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

(٥) المرجع السابق ٦/ ٢٦٢.

وهكذا دحض القرآن شبهة أهل الكتاب بأنهم من أبناء الله المحبوبين، ودحض أيضاً افتراءهم ببنوة عزير[١] والمسيح لله، أو أبوّته لهما عليهما السلام، فرد عليهم[٢] بقوله سبحانه:

٣ ـ ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ (التوبة: ٣٠) قال الزمخشري في معنى الآية: «قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد أنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحته، كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونَغَم لا تدل على معان، وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب، وما لا معنى له مقولٌ بالفم لا غير..»[٣] ومقولة أهل الكتاب السابقة من هذا الصنف «فلم يحصل عند العقل من ذلك القول أثر، لأن إثبات الولد للإله مع أنه منزّه عن الحاجة

---

(١) قال ابن عاشور في تفسيره ١٠/ ٦٩: «وعزير: اسم حَبر كبير من أحبار اليهود الذين كانوا في الأسر البابلي، واسمه في العبرانية (عِزرا) ـ بكسر العين المهملة ـ بن (سرايا) من سبط اللاوين، كان حافظاً للتوراة، وقد تفضّل عليه (كورش) ملك فارس فأطلقه من الأسر.. وذلك في سنة ٤٥١ قبل المسيح، فكان عزرا زعيم أحبار اليهود الذين رجعوا بقومهم إلى أورشليم وجددوا الهيكل، وأعاد شريعة التوراة من حفظه، فكان اليهود يعظمون عزرا إلى حد أن ادّعى عامتهم أن عزرا ابن الله، غلواً منهم في تقديسه، والذين وصفوه بذلك جماعة من أحبار اليهود في المدينة، وتبعهم كثير من عامتهم، وأحسب أن الداعي لهم إلى هذا القول ألا يكونوا أخلياء من نسبة أحد عظمائهم إلى بنوة الله تعالى، مثل قول النصارى في المسيح، كما قال المتقدمون ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ (الأعراف: ١٣٨)» اهـ.

(٢) قال ابن عاشور في تفسيره ١٠/ ٦٩: «قال بهذا القول فرقة من اليهود فأُلصق القول بهم جميعاً لأن سكوت الباقين عليه وعدم تغييره يلزمهم الموافقة عليه والرضا به» اهـ.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٥١.

والشهوة والمضاجعة والمباضعة قول باطل..»[١] فالعقل يوقن تمام اليقين ـ حتى عقول المشركين ـ أن الله تعالى تنزّه عن هذا كله، ولم يقل أحد من الكفار بأن شيئاً مما سبق[٢] يجوز على الله قال تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ﴾ (الأنعام: ١٠١)؟! لقد حكم القرآن بمشابهة أهل الكتاب القائلين اتخذ الله ولداً لمن سبقهم من المشركين كما يتضح من بقية الآية السابقة حيث قال سبحانه: ﴿ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠).

قال ابن عاشور: «المضاهاة: المشابهة.. و ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ هم المشركون مِن العرب، ومن اليونان، وغيرهم، وكونهم من قبل النصارى ظاهر، وأما كونهم من قبل اليهود: فلأن اعتقاد بنوّة عزير طارئ في اليهود وليس من عقيدة قدمائهم.

وجملة ﴿ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ دعاء مستعمل في التعجيب.. من عمل شنيع ـ كقول هؤلاء ـ .. وجملة ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ مستأنفة، والاستفهام فيها مستعمل في التعجيب من حالهم في الاتباع الباطل، حتى شبه المكان الذي يُصرفون إليه باعتقادهم بمكان مجهول، من شأنه أن يُسأل عنه باسم الاستفهام عن المكان، ومعنى ﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي يُصرفون.. والإفك بمعنى الكذب.. فالكاذب يَصرف السامع عن الصدق..»[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي ١٦/ ٢٩.

(٢) أي: مشابهة الله لخلقه في الحاجة والشهوة والمضاجعة والمباضعة.. ونحو ذلك مما يجوز على البشر بل يلزمهم، ولا يجوز على الله سبحانه وتعالى..

(٣) التحرير والتنوير ١٠/ ٧٠.

وخلاصة كل ما سبق أن القرآن أنكر بنوّة الله لأحد من أهل الكتاب من خلال:

١- إخباره بتعذيب العصاة منهم في الدنيا والآخرة.

٢- تأكيده لبشريتهم المخالفة لألوهية الإله سبحانه وتعالى ذاتاً وصفات.

٣- تقريره أن زعمهم مقال كاذب لا صحة لوقوعه ولا دليل عليه.

٤- بيانه أن افتراءهم هذا يشابه قول الكفار السابقين، وهم بمنزلتهم في الشرك والكفر.

٥- تعجبه من انصرافهم عن الحق، ودعوته للتعجب من أمرهم هذا.

٦- إنكاره بنوّة أحد من الخلق لله بشكل عام من خلال نقضه لشرك العرب القائلين إن الملائكة بنات الله[1] وعموماً رغم أن القرآن قد رد على شرك أهل الكتاب بادعائهم أن لله أبناء منهم وأحباباً من عامتهم، فنفى ذلك، وأنكر عليهم، و ساواهم بالمشركين السابقين لهم من العرب أو اليونان ـ إذ لا فرق بين من نسب لله ولدا من الجن والملائكة، ومن نسب إليه ولداً من البشر ـ فكلا القولين يطعن في توحيد الله، إلا أننا لو تأملنا في شرك أهل الكتاب وشرك غيرهم لعلمنا «أن كفر عابد الوثن أخف من كفر النصارى، لأن عابد الوثن لا يقول إن هذا الوثن خالق العالم، وإله العالم، بل يجريه مجرى الشيء الذي يتوسل به إلى طاعة الله، أما النصارى فإنهم يثبتون الحلول.. وذلك كفر قبيح جداً»[2].

---

(١) راجع ص٣٢٦.

(٢) التفسير الكبير، للرازي ١٦/ ٢٧ باختصار.

ومشركو أهل الكتاب الذين ألصقوا بوحدانية الله بنوة عزير والمسيح، منهم من عبد المسيح عيسى بن مريم[1] عليهما السلام، معتقداً ألوهيته وألوهية أمه، فأبطل القرآن كل ذلك كما يتضح من النقطة الثانية من هذه الفقرة كما يلي:

ثانياً: إبطال القرآن لألوهية المسيح عيسى وأمه مريم عليهما السلام:

في الوقت الذي سعى فيه بعض أهل الكتاب لقتل المسيح عيسى بن مريم، وصلبه، أعتقد البعض الآخر منهم ـ وخاصة النصارى ـ بربوبيته وألوهيته عليه السلام، ولعل من أسباب ذلك:

---

(١) وقد كثر التعبير باسم (المسيح بن مريم) في القرآن الكريم أو (المسيح عيسى بن مريم) حيث عبر عن العلَم واللقب والوصف بالاسم لأن لثلاثتها أثراً في تمييز المسمى، فأما اللقب والعلَم فظاهر. وأما الوصف المفيد للنسب فلأن السامعين تعارفوا ذكر اسم الأب في ذكر الأعلام للتمييز وهو المتعارف، وتُذكر الأم في النسب إما للجهل بالأب كقول بعضهم: زياد بن سمية قبل أن يُلحق بابي سفيان في زمن معاوية بن أبي سفيان، وإما لأن للأم مفخراً عظيماً كقولهم: عمرو بن هند، وهو عمرو بن المنذر ملك العرب.
- والمسيح كلمة عبرانية بمعنى الوصف، ونُقلت إلى العربية علماً بالغلبة على عيسى، وقد سمى متنصرة العرب بعض أبنائهم (عبد المسيح) وأصلها مسِّيح ـ بميم مفتوحة ثم سين مهملة مكسورة مشددة ثم ياء مثناة مكسورة مشددة ثم حاء مهملة ساكنة، ونطق به بعض العرب بوزن سكِّين. ومعنى مسيح ممسوح بدهن المَسْحة، وهو الزيت المعطر الذي أمر الله موسى أن يتخذه ليسكبه على رأس أخيه هارون حينما جعله كاهناً لبني إسرائيل، وصارت كهنة بني إسرائيل يمسحون بمثله من يُملّكونهم عليهم من عهد شاول الملك، فصار المسيح عندهم بمعنى الملك..
- فيُحتمل أن عيسى سُمّي بهذا الوصف كما يُسمون بملك، ويحتمل أنه لقب لقّبه به اليهود تهكماً عليه، إذ اتهموه بأنه يحاول أن يصير ملكاً على إسرائيل، ثم غلَب عليه إطلاق هذا الوصف بينهم، واشتهر بعد ذلك، فلذلك سُمّي به في القرآن. اهـ.
انظر: تفسير ابن عاشور ٣/ ٩٧.

١ - أن الله تعالى خلَق المسيح عيسى بن مريم بكلمة منه[1] بدون أب، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران: ٤٥) وكما يتضح من قوله تعالى - على لسان مريم بعد تبشيرها بغلام لها ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ (مريم: ٢٠).

٢ - أن الله تعالى أيده ببعض المعجزات والخوارق التي لا يستطيع أحد من البشر المجيء بها، أو فعلها، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى[2] ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ

---

(١) في التحرير والتنوير لابن عاشور ٤/ ٣٣١ «ووصف المسيح بأنه كلمة الله وصف جاء التعبير به في الأناجيل، ... وقد حكاه القرآن وأثبته، فدل على أنه من الكلمات الإنجيلية، فمعني ذلك أنه أثر كلمة الله. والكلمة هي التكوين، وهو المعبر عنه في الاصطلاح بـ «كن» ... ووصف عيسى بذلك لأنه لم يكن لتكوينه التأثير الظاهر المعروف في تكوين الأجنة، ما فكان حدوثه بتعلق القدرة ...».

(٢) نلاحظ من الآيات أن الله تعالى يختم دلائل نبوة عيسى ومعجزاته التي اختصه بها بقوله سبحانه ﴿ بِإِذْنِى ﴾ وفي سورة آل عمران ٤٩ ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ نسبةً إلى الله للإشارة إلى عجز عيسى بن مريم عن ذلك كله لولا أن الله تعالى مكنه منه، وسخره له، وأذن له به، وهذه الإشارة حتى لا يتوهم متوهم ربوبية عيسى عليه السلام، ومن هنا جاءت هذه الآيات لنفي ربوبيته وألوهيته التي زعمها النصارى.

إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[١] فلذلك اعتقدت بعض طوائف النصارى أن عيسى بن مريم ابناً لله سبحانه وتعالى ـ وقالت بألوهيته عليه السلام، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[٢]. بل اتخذته وأمه إلهين من دون الله كما يدل عليه خطابه تعالى لهما يوم القيامة والمقصود الذين أشركوا منهم، قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ[٣] ﴾ (المائدة: ١١٦) فثلث النصارى في عبادتهم لله معتقدين وقائلين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ (المائدة: ٧٣) «فالمجموع ثلاثة، كل واحد منهم إله، ولكنهم يقولون: أن مجموع الثلاثة إله واحد، أو اتحدت الثلاثة فصار إلهاً واحداً [٤]»[٥] فأبطل القرآن

---

(١) المائدة ١١٠، ونحوها في سورة آل عمران ٤٩.

(٢) المائدة ١٧، وسنأتي لشرحها فيما يلي من فقرات قادمة ص ٢٩٨.

(٣) قال ابن عاشور في تعليقه على قوله تعالى: ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وقد شاع هذا في استعمال القرآن.. وذكر عدة أمثلة على ذلك ثم قال: «خوطب بها المشركون مع أنهم أشركوا مع الله غيره، ولم ينكروا إلهيته» التحرير ٥/ ٢٧٠.

وقال: «وليس المعنى أتعبدون معبوداً وتتركون عبادة الله، إنما المقصود: أتشركون مع الله غيره في الإلهية .. فالمشركون المخاطبون بذلك كلهم كانوا يعبدون الله ويشركون معه غيره في العبادة، حتى الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، فهم ما عبدوا المسيح إلا لزعمهم أن الله حل فيه، فقد عبدوا الله فيه». أنظر التحرير والتنوير ٥/ ١٧٦.

(٤) في الأصل «فصار إله واحد» ولعل الأصوب ما ذكرته أعلاه.

(٥) تفسير ابن عاشور ٤/ ٣٣٣. لمزيد من التفاصيل عن التثليث عند النصارى راجع: تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٦/ ١٧-٧٧، ٦/ ٢٥٥-٢٥٨، ٦/ ٣٩٩-٤٠٠. التحرير والتنوير، لابن عاشور ٤/ ٣٣٣- ٣٣٥.

شرك أهل الكتاب ـ أقصد النصارى منهم ـ ليرسخ عقيدة التوحيد في نفوس الموحدين ـ سواء منهم أومن غيرهم ـ ويقيم شهادة الحق في نفوس المشركين بشكل عام، مؤكداً عبودية المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ونافياً ألوهيته المزعومة[١]، لقد أبطل الله في كتابه بنوة عيسى له، مبطلاً في نفس الوقت ألوهيته[٢] وألوهية أمه كما يلي:

١ ـ بيان القرآن لأصل خلق عيسى من أمه المخلوقة عليه السلام:

أوضحت آيات القرآن الكريم أن عيسى مخلوق، وأن الذي خلقه الله خالق كل شيء، وأن مَثَلَه كمل آدم الذي خلقه الله من تراب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ ﴾ (آل عمران: ٥٩، ٦٠).

---

(١) وقد صرّحت بعض أناجيل النصارى بألوهية عيسى المزعومة في مواضع متعددة كما يلي:

جاء في رسالة بولس لأهل رومية: «.. ومنهم المسيح...، الكائن على الكل، إلهاً مباركاً إلى الأبد، آمين».

جاء في إنجيل يوحنا: «أجاب توما، وقال له: ربي وإلهي».

جاء في سفر أعمال الرسل قول بطرس: «المسيح هذا هو رب الكل»، وغير ذلك كثير.

انظر: الكتاب المقدس، رسالة بولس إلى أهل رومية، الإصحاح التاسع، رقم ٥، سفر أعمال الرسل رقم ٣٦.

و: إنجيل يوحنا، الإصحاح العاشر، رقم ٢٨.

(٢) كما أبطلت بعض الأناجيل ألوهية المسيح عيسى عليه السلام.

انظر: إنجيل يوحنا، الإصحاح السابع عشر. و: إنجيل مرقس، الإصحاح الثاني عشر، رقم ٢٨-٣٠.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾[1] بل لقد جاءت في القرآن قصة حمل أمه به، حتى وضْعِها له، بتفاصيلها الدقيقة، ابتداء من إرسال جبريل عليه السلام ـ بأمر الله ـ لنفخ أصل عيسى في بطن أمه، بعد بشارتها بذلك، وانتهاء بميلاده.

لقد سجل القرآن تعجب مريم واستغرابها من حملها وولادتها لعيسى من غير أب، وكَشَفَ عن معاناتها الشديدة في سبيل ذلك. وذكر مكان وضعها لمولودها عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ (مريم: ٢٣)، وسجل افتراء قومها عليها، واتهامهم لها بالبغاء، بعد أن رأوها تحمله إليهم[2].

وأخبر القرآن أن الله أنطق عيسى بن مريم وهو في مهد أمه قائلاً: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ (مريم: ٣٠) ليبطل بذلك افتراءهم عليها، ثم أشار في نهاية سرده لتفاصيل خلق الله لعيسى قائلاً: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (مريم: ٣٤) أي: «ذلك المذكور هو عيسى بن مريم لا كما تزعم النصارى واليهود»[3]، قال ابن عاشور: «ومعنى: ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾ أن تلك الصفات التي سمعتم هي قول الحق، أي مقول الحق، وما خالفها باطل، أو أن عيسى عليه السلام هو قول الحق، أي مقول الحق، أي

(١) النساء: ١٧١، ونحوها في الأنبياء: ٩١، والتحريم: ١٢.

(٢) انظر: سورة مريم: ١٦-٣٧.

(٣) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣٦.

المكوّن من قوله تعالى: «كن».. ـ ويجوز ـ نصب ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾[١] بتقدير: أحقُّ قولَ الحق..»[٢] هذا هو شأن عيسى عليه السلام في خلق الله له ﴿ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي: «يشكُّون، فيعتقدون اعتقاداً مبناه الشك والخطأ.. امتراءً وشكّاً في صفاته بين رافع وخافض»[٣].

وهذا هو حال عيسى في خلق الله له كحال آدم عليهما السلام، فإن كان الله تعالى قد خلق آدم من غير أب وأم فلا يعجز سبحانه عن خلق عيسى عليه السلام من أم فقط، كما خلق حواء أيضاً من أب فقط.

وإن لله قدرات شتى في تخليق البشر من أصول متباينة مختلفة[٤]، ترجع كلها إلى أصلها الأول ـ سواء التراب والطين[٥]، أو الماء كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ (النور: ٤٥) ـ.

فإذا كان عيسى مخلوقاً، فكيف يكون إلهاً؟! وأيضاً كيف يكون ابناً للخالق وهو في نفسه مخلوق؟!

---

(١) (قولُ الحق) قراءة الجمهور، و(قولَ الحق) بالنصب قراءة ابن عامر، وعاصم ويعقوب.
انظر: تفسير ابن عاشور ١٦/ ٣٥.
والنشر في القراءات العشر، لابن الجزري الدمشقي ٢/ ٣١٨.

(٢) تفسير ابن عاشور ١٦/ ٣٦ وذكر أقوالاً أخرى.

(٣) المرجع السابق، بتصرف.

(٤) فقد خلق حواء من آدم، وخلق زكريا من شيخين كبيرين، ونحو ذلك إسماعيل، عليهم السلام جميعاً.

(٥) انظر: ص٦١٢.

٢ ـ ذِكْر القرآن لشهادة عيسى على نفسه أنه مخلوق مربوب:

تضمنت آيات القرآن المتعلقة بخلق عيسى بن مريم شهادته على نفسه وذِكْره لحقيقة حاله أنه مولود وسيموت ثم يبعث حياً يوم القيامة، حيث قال تعالى على لسانه عليه السلام في سياق دفاعه عن أمه وطهارتها من إفك الفاحشة الذي زعمه قومها وإخباره لهم بحقيقة وصفات خلْقه البشرية ـ قال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ (مريم: ٣٣) فقد شهد عيسى على نفسه أنه:

أ ـ مولود، وكفى بهذا دليلاً على أنه مخلوق يجري عليه ما يجري على سائر البشر المولودين، بل الخلق أجمعين أما الله عز وجل الخالق فإنه سبحانه: ﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴾ (الإخلاص: ٣).

ب ـ يموت كما يموت الأحياء الذين يلحقهم الفناء وفقاً لسنة الله في جميع خلقه كما قال سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الرحمن: ٢٦، ٢٧).

وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ ﴾ (القصص: ٨٨) أما الله عز وجل فإنه سبحانه كما قال عن نفسه ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[١] وغيرها من الآيات[٢] التي وصف فيها نفسه بأنه: ﴿ ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان: ٥٨) سبحانه وتعالى.

---

(١) البقرة: ٢٥٥، ونحوها في آل عمران: ٢.

(٢) كما في سورة طه: ١١١، وغافر: ٦٥.

ج ـ يبعث يوم البعث والنشور، وسيبعثه غيره، وهو الله الباعث لمن في القبور مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (الزمر: ٦٨).

فإذا كان هذا شأن عيسى بن مريم أنه مخلوق مربوب يجري عليه ما يجري على سائر المخلوقات ـ كما شهد على نفسه ـ من فناء وبعث وغير ذلك على يد الخالق البارئ المصور، المبدئ المعيد، المحيي المميت الأول الآخر، الباقي الوارث، مالك الملك، فكيف يكون إلهاً؟ ولم تتحقق له صفات الربوبية ـ كلّها أو بعضها ـ بل تجسّدت فيه كل صفات العبودية لله كما يتضح من الفقرة التالية:

٣ ـ تسجيل القرآن لاعترافات عيسى بعبوديته لله وبنوّته لوالدته:

سجل القرآن الكريم في أكثر من آية شهادات عيسى عليه السلام لقومه ببشريته، وعبوديته لله، منذ طفولته، بل منذ ميلاده ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى على لسان عيسى ـ مدافعاً عن أمه عندما اتهمها قومها بالبغاء، ومعترفاً بنعم الله عليه بعد أن تعبّدت لله بالسكوت وعدم الرد على قومها، وأشارت لولدها عيسى ـ ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

(مريم: ٣٠-٣٣).

لقد نفت الآيات صراحة وضمناً ألوهية عيسى، ونفت أيضاً بنوته لله، وأكدت في نفس الوقت بشريته وعبوديته للواحد الأحد من خلال عدة أمور كما يلي:

أ ـ شهادة عيسى واعترافه بعبوديته لله بشكل عام.

ب ـ اعترافه بأن الله تعالى آتاه الكتاب[١] أي: «الشريعة التي من شأنها أن تُكتب لئلا يقع فيها تغيير، والمراد بالكتاب الإنجيل، وهو ما كُتب من الوحي الذي خاطب الله به عيسى[٢]»[٣].

واعترافه في نفس الوقت بأن الله جعله نبياً، فهو نبي[٤]، وليس بإله، ونبوته هبة من الله له، وليست باجتهاده.

ج ـ إخباره أن الله تعالى جعله مباركاً في كل مكان وُجِدَ فيه «والبركة: الخير واليُمْن..»[٥] فقد جاءت الآية بلفظ (جَعَلَ) الذي ينصب مفعولين، لتدل الآية لغوياً على أن الله سبحانه فاعل وعيسى وقع موقع المفعول به، ولا يمكن أبداً من يقع عليه الفعل أن يكون إلهاً.

---

(١) وانظر: سورة البقرة: ٨٧، ٢٥٣، وسورة النساء: ١٦٣، والحديد: ٢٧.

(٢) ويجوز أن يراد بالكتاب التوراة، فيكون الإيتاء إيتاء علم ما في التوراة. انظر: تفسير ابن عاشور ١٦/ ٣٤.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٤.

(٤) سنأتي لبيان نبوته ورسالته فيما يلي من فقرات قادمة ص٢٩٦.

(٥) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٤.

وبركة عيسى في أن الله أرسله برحمة لبني إسرائيل ليحل لهم بعض الذي حرم عليهم، وليدعوهم إلى مكارم الأخلاق، بعد أن قست قلوبهم وغيروا من دينهم، فهذه أعظم بركة تقارنه، ومن بركته أن جعل الله حلوله في المكان سبباً لخير أهل تلك البقعة من خصبها واهتداء أهلها وتوفيقهم إلى الخير، ولذلك كان إذا لقيه الجهلة والقساة والمفسدون انقلبوا صالحين، وانفتحت قلوبهم للإيمان والحكمة، ولذلك كان أكثر الحواريين من عامة الأميين من صيادين وعشارين، فصاروا دعاة هدى وفاضت ألسنتهم بالحكمة اهـ. انظر: تفسير ابن عاشور ١٦/ ٣٤.

د ـ إخباره عليه السلام أن الله تعالى أوصاه بالصلاة والزكاة ـ التي أمر الله بها كل خلقه ـ ، وأن الله تعالى ألزمه بذلك ما دامت فيه بقية حياة وقدرة وأهلية وشروط تكليف ليقوم بها، فدلّ هذا كله على عبوديته للإله الذي أوصاه بذلك.

هـ - تمدّحه بما أنعم الله عليه أن جعله باراً بوالدته مريم، ولم يجعله (متكبراً غليظاً على الناس في معاملتهم، ولم يجعله شقياً خاسراً ذا أحوال كَدِرَة مؤلمة له ـ سواء في الدنيا أو الآخرة[1]) والمنعَم عليه لا يكون إلهاً أبداً!

و ـ إضافته نفسه إلى والدته بقوله (والدتي) فدل هذا على أنه مولود له والدة من البشر، فكيف يكون عيسى المولود ذو الوالدة إلهاً؟! أما الله عزوجل فإنه كما وصف نفسه ـ آمراً محمداً ﷺ أن يعلنه للناس أجمعين ـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾

(الإخلاص).

ز ـ إعلانه وتنويهه بإكرام الله له، وكرامته عند الله ـ بقوله ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ «كناية عن تكريم الله لعبده عيسى بالثناء عليه في الملأ الأعلى وبالأمر بكرامته وإكرامه»[2] ولكن ليس إلى حد تأليهه وتقديسه، كما فعل غلاة النصارى من أهل الكتاب.

ورغم كل هذه الأدلة القرآنية على بشرية عيسى عليه السلام وبطلان بنوته لله وألوهيته، إلا أن نصارى أهل الكتاب كما قال ابن عاشور في تفسيره للآية

---

(١) نفس المرجع ١٦/ ٣٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٥.

السابقة: «كلام عيسى هذا ـ يقصد قوله: «إني عبد الله آتاني الكتاب.. الآيات»[١] مما أهملته أناجيل النصارى، لأنهم طووا خبر وصولها إلى أهلها ـ يقصد مريم عليها السلام ـ ، وهو طي يُتعجب منه. ويدل على أنها ـ أي الأناجيل ـ كُتبت في أحوال غير مضبوطة، فأطلع الله تعالى عليه نبيه ﷺ»[٢] لتكون هذه الآيات من دلائل وحدانية الله وتوحيده في رد القرآن على مشركي أهل الكتاب، ونقضه لشركهم بتأليه عيسى عليه السلام.

٤ ـ تأكيد القرآن لبشرية عيسى وأمه[٣]، وإرسال ربه له إلى بني إسرائيل:

وفي سياق إبطال القرآن لألوهية عيسى عليه السلام وردت آيات كثيرة تؤكد بشرية عيسى، وتؤكد في نفس الوقت ما كان قد اعترف به في مهده، سواء عبوديته لله، أو نبوته ورسالته التي اصطفاه بها. فمما يتعلق ببشريته قال تعالى في شأنه وشأن أمه: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ (المائدة: ٧٥).

ومَنْ كان هذا حاله لا يستغني عن طعام ولا شراب، ويحتاج لمقومات الحياة، ثم يكون منه فضلات الطعام والشراب التي تتأفف منها النفس ـ ولا بد من ذلك ـ كيف يكون إلهاً كالحي القيوم سبحانه وتعالى، ذكر ابن القيم رحمه الله أن الآية السابقة تدلل على بطلان ألوهية المسيح وأمه من وجهين، وخلاصة ما قال:

---

(١) مريم: ٣٠-٣٣.

(٢) المرجع السابق ١٦/ ٣٣.

(٣) ولقد أشار القرآن إلى بشريته من خلال كثرة الآيات الذي تذكر اسمه نسبة إلى أمه.
انظر: المعجم المفهرس، لمحمد فؤاد ص٧٦٢.

أن حاجة عيسى وأمه إلى الطعام والشراب ـ وكل ما يحتاج إليه البشر ـ يدل على ضعف بنيتهما، وبالتالي عجزهما عن القيام بنفسهما، والمحتاج إلى غيره لا يكون إلهاً، إذ من لوازم الإله أن يكون غنياً عن كل شيء.

أن الذي يأكل الطعام والشراب يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات التي تستقذرها النفس، ويستحيي الإنسان من نفسه ومن غيره حال انفصالها عنه، بل يستحيي من التصريح بذكرها، ولهذا ـ والله أعلم ـ عبّر الله عن بشريتهما بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منها إلى ما يلزمه من هذه الفضلة، فكيف بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة ولداً من هذا الجنس؟ ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى أن يكون من جنسٍ لا يأكل ولا يشرب، ولا يكون منه الفضلات المستقذرة[1].

عموماً لم يكتف القرآن ـ في تأكيده على بشرية عيسى، وإرسال الله له إلى بني إسرائيل بالآية السابق شرحها، بل وردت عدة آيات تعضدها كما في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ١٧١) وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾[2] وغير ذلك من الآيات[3]: وهناك آيات أخرى سجلت اعتراف عيسى بإرسال الله له إلى بني إسرائيل، وإعلانه ذلك لهم، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ (الصف: ٦)

---

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم ٢/ ٤٨٢.

(٢) المائدة: ١١١، ونحوها في الأنعام: ٨٥.

(٣) انظر: سورة المائدة: ٤٦.

وبينت دعوته لبني إسرائيل إلى عبادة الله ـ لا إلى عبادته هو ـ كما في قوله تعالى على لسان عيسى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[1] وكما يتضح من قوله لهم: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الزخرف: ٦٣) «أي: جئتكم بالنبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي»[2] ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أي: «اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وآمنوا بي، وصدقوني، وأطيعوني»[3].

- ويتضح تأكيد القرآن على نبوة ورسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل من خلال سرد القرآن لكثير من مشاهد دعوة عيسى لبني إسرائيل أو الحواريين من أنصاره إلى وحدانية الله وتوحيده[4]، بما في تلك الآيات من دلالات تدل على ربوبية الله، وعبودية وبشرية عيسى عليه السلام[5].

٥ ـ بيان القرآن عجز عيسى وضعفه لو أراد الله إهلاكه مع أمه:

وهذا أيضاً مما أخبر به القرآن لإبطال ألوهية المسيح، فما لا شك فيه أنه لا يقف أمام قدرة الله وإرادته سبحانه شيء في الكون أبداً، ومن ذلك لو أراد الله وحكم ـ ولا راد لأمره ولا معقب لحكمه ـ بإهلاك المسيح وأمه وكل الأحياء على الأرض بموتٍ أو بلاءٍ أو غير ذلك، فلن يقدر هذان المخلوقان ولا غيرهما من الخلق على رد أمر الله، و إرجاء حكمه، ولا يملك أحد غير الله المالك ذلك،

---

(١) مريم: ٣٦، ونحوها في الزخرف ٦٤.

(٢) تفسير السعدي ص٤٨٣.

(٣) نفسه.

(٤) كما جاء في سورة الصف: ١٤

(٥) كما ورد في سورة المائدة: ١١٤.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة: ١٧).

أي: «إن كان الأمر كما تزعمون فمن يمنع من قدرته تعالى وإرادته شيئاً، وحقيقته فمن يستطيع أن يمسك شيئاً منهما... ومن حق من يكون إلهاً ألا يتعلق به ولا بشأن من شئونه، بل بشيء من الموجودات قدرة غيره بوجه من الوجوه، فضلاً عن أن يعجز عن دفع شيء منها عند تعلقها بهلاكه[١]، فلما كان عجزها بيناً لاريب فيه ظهر كونه بمعزل مما تقولون في حقه»[٢].

لقد ماتت أم عيسى عليها السلام كما شهد الواقع بذلك ورفع الله عيسى عليه السلام إليه[٣]، فاستسلم الجميع لله فكلاهما لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله.

قال ابن كثير في تفسيره لقوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾: «أي جميع الموجودات مُلكه وخلْقه ـ ومن ذلك عيسى

---

(١) وقال أبو السعود: «وإظهار المسيح على الوجه الذي نسبوا إليه الألوهية في مقام الإضمار ـ أي ذكره باسمه لا بضميره فلم يقل يهلكه لزيادة التقرير، والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره وملكوته تعالى». إرشاد العقل السليم ٢/ ٤٤٨.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، للقاضي محمد بن محمد العمادي المتوفى سنة ٩٨٢هـ ٢/ ٤٤٨.

(٣) كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ... ﴾ (آل عمران: ٥٥).

وأمه ـ لا يُسأل عما يفعل، لقدرته وسلطانه، وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى ....»[١] وقال الشوكاني: «وإذا لم يقدر أحد أن يمنع من ذلك[٢]، فلا إله إلا الله، ولا رب غيره ولا معبود بحق سواه، ولو كان المسيح إلهاً كما يزعم النصارى لكان له من الأمر شيء، ولقدر على أن يدفع عن نفسه أقل حال..»[٣].

س: وهل يكون إلهاً من عجز عن دفع شرٍّ وبلاءٍ، أو جلب خير ورخاء؟!

جـ: اللهم لا، إلا الإله الحق، رب الأرض والسماء، الذي قال عن نفسه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (فاطر: ٤٤).

٦ ـ نفي القرآن واستنكاره أن يتخذ الله أحداً من خلقه ولداً:

بعد أن سرد القرآن قصة خلق عيسى وميلاده كما سبق شرحه، وبعد أن أكد أن ذلك هو الحق الذي امترى فيه مشركوا أهل الكتاب، نفت آيات القرآن واستعظمت واستنكرت أن يتخذ الله أحداً من خلقه ولداً ـ ومن أولئك عيسى عليه السلام ـ فقال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (مريم: ٣٥). وقد سبق شرح الآية مع غيرها في الحديث عن نقض القرآن لشرك العرب بقولهم عن الملائكة إنهم بنات الله. فليراجع في موضعه. فكل ما أستدل به القرآن لنقض عقيدة المشركين في ذلك هو عام لإبطال اتخاذ الله الولد ـ سواء كان من الملائكة أو البشر ـ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٢/ ٢٦٩ بزيادة يسيرة.

(٢) أي يمنع إهلاك الله لأحد من خلقه.

(٣) فتح القدير ٢/ ٣٥.

٧ـ كشف القرآن عن تبرؤ عيسى ـ يوم القيامة ـ ممن اتخذه إلهاً:

لم يكتف القرآن لنقض شرك النصارى بزعمهم ألوهية المسيح بالأدلة السابقة، بل نقل هؤلاء المفترين إلى مشهد من مشاهد يوم الفصل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الدخان: ٤٠) ففي ذلك اليوم لا يكون الحكم لأحد من الخلق إلا لله الذي ﴿ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٧) وفي ذلك اليوم يتحقق قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ (المائدة: ١٠٩). ومن بين هؤلاء الرسل عيسى عليه السلام يجمعه الله مع كل من ادعى ألوهيته، ويقول له كما جاء في القرآن ﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة: ١١٦) فينزه الله عن ذلك قائلاً ﴿ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ ثم يتبع تنزيهه مباشرة بقوله: ﴿ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (المائدة: ١١٦، ١١٧) تساءل الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قائلاً: «...كيف يليق بغلام الغيوب أن يستفهم كما هو وارد في الآية ؟»[١].

ثم قال: «والجواب ... أنه استفهام على سبيل الإنكار»[٢].

---

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ١١١ بتصريف واختصار.

(٢) مفاتيح الغيب ١٢/ ١١١.

وقال ابن كثير: «وهذا تهديد للنصارى، وتوبيخ، وتقريع على رؤوس الأشهاد»[١]. وقال ابن عاشور: «... والله يعلم أن عيسى لم يقل ذلك، ولكن أُريدَ إعلان كذب من كفر من النصارى. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ يدل على أن الاستفهام متوجَّه إلى تخصيصه بالخبر دون غيره، مع أن الخبر حاصل لا محالة، فقول قائلين: اتخذوا عيسى وأمه إلهين، واقع، وإنما أُلقي الاستفهام لعيسى، أهو الذي قال لهم ذلك تعريضاً بالإرهاب والوعيد بتوجيه عقوبة ذلك إلى من قال هذا القول إن تنصّل منه عيسى، فيعلم أحبارهم الذين اخترعوا هذا القول أنهم المراد بذلك.

والمعنى أنه إن لم يكن هو قائل ذلك فلا عذر لمن قاله، لأنهم زعموا أنهم يتبعون أقوال عيسى، وتعاليمه، فلو كان هو القائل لقال: «اتخذوني وأمي، ولذلك جاء التعبير بهذين اللفظين في الآية.

والمراد بـ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أهل دينه.

وقوله: ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ متعلق بـ﴿ ٱتَّخِذُونِي ﴾ ... وذِكْرُ هذا المتعلق إلزام لهم بشناعة إثبات إلهيةٍ لغير الله، لأن النصارى لما ادّعوا حلول الله في ذات عيسى توزعت الإلهية وبطلت الوحدانية...»[٢].

وبعد أن تبرأ عيسى ممن ادعى ألوهيته أكّد ما كان منه في دعوته إيَّاهم في الدنيا إلى التوحيد نافياً سوى ذلك، قائلاً: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة: ١١٧).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٩٣.

(٢) التحرير والتنوير ٥/ ٢٧٠-٢٧١باختصار.

وقبل أن أختم هذا المطلب أقول:

لو دققنا النظر في منهج القرآن في سبيل نقضه لشرك أهل الكتاب لوجدنا أن الله تعالى يحاجج مشركي اليهود والنصارى بحجج عقليه ـ من لا زم قولهم ومقتضاه، كزعمهم بأن لله أبناءً منهم وأحباباً من عامتهم، فأبطل افتراءهم هذا باستفساره عن سبب تعذيبه وإهانته لهم في الدنيا والآخرة وقد شهدوا بذلك وشهد تاريخهم أيضاً كما سبق شرحه، والعقل يقرأن المحب لا يعذب حبيبه، والأب لا يؤذى ولده، والحب للشيء يقتضي الرعاية له، والحرص ودوام الإنعام عليه، لا إيقاع الشر به، كما حصل لأهل الكتاب.

ثم إن واقع حالهم يؤكد بشريتهم، فإن كانوا لله أبناءً فكيف يختلف الإبن عن جنس أبيه وأوصافه، والعقل يشهد بخلاف ذلك، ثم إن قولهم هذا الذي افتروه بأفواههم لم يقدِّموا عليه دليلاً واحداً يشهد على صدقه وواقعيته، والعقل لا يقبل إلا ما دل الدليل على صحته وحقيقته ـ كأدلة وحدانية الله وتوحيده السابق شرحها ـ.

ونجد أن القرآن أبطل أيضاً ألوهية المسيح عيسى عليه السلام من خلال شرحه لأصل خلق عيسى وقصة ميلاده المشاهدة الملموسة في زمان من عاصر ذلك وحاور أمه مريم كما سبق بيانه ـ ومن خلال إخباره بعجزه وضعفه ـ كسائر البشر ـ فلا يقدر على دفع الشر عن نفسه فضلاً عن غيره ـ وهذا مقرر في عقول العقلاء، ومعروف لدى من عاشر عيسى عليه السلام من أهل الكتاب، ولم ينكره أحد منهم.

أخيراً أقول: إن القرآن الكريم قد استعمل طريقين لإبطال ألوهية المسيح، أحدهما مباشر وهو إقامة الأدلة والبراهين الساطعة على بطلان تلك الإلهية

المدعاة. والثاني غير مباشر، وذلك من خلال الحديث عن بشرية المسيح[١]، وعبوديته لله، ومن خلال ما سجله القرآن في عدة مشاهد وأحداث عن آباء النصارى السابقين، حيث أخبر أنهم عاشوا على التوحيد وماتوا عليه.

ووصّوا بذلك ذرياتهم كما يتضح من قوله تعالى لأهل الكتاب: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٣). وبعد هذا كله فلا عجب أن يحكم الله بكفر المشركين من أهل الكتاب قائلاً: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة: ١٧). وقائلاً أيضاً: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (المائدة: ٧٣).

ولا ظلم ولا حيف عليهم أبداً في قوله تعالى: ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٧٣) أما عبد الله ورسوله المسيح عيسى بن مريم فإنه كما قال تعالى عنه: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ

(١) بل إن نصوص الإنجيل التي لم تُحرَّف تنفي عقلاً ومنطقاً ألوهية المسيح عليه السلام أو بنوته لله، وتخبر بأنه نبي وليس إله، وتسجل اعترافه بأنه إنسان ومعلم ورسول، وليس له من صفات الألوهية أي شيء، كما فنّدت هذه الكتب كثيراً من عقائد النصارى الباطلة، مما يتعلق بالله، وألوهية المسيح وغير ذلك.

انظر: الحقيقة العظمى (إبرازها وتعريف أهل الكتاب بها)، تأليف أسماء عبدالمجيد الزنداني (رسالة ماجستير)، إشراف د/ عبد الكريم زيدان، مطبعة (بدون)، د.ت ـ صنعاء، اليمن ص١١٦-٢٣١.

أن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (النساء: ١٧٢) لقد جمع الله في الآية السابقة صنفين من خلقه ادّعى بعض الكفرة بنوّتهما لله ـ زوراً وبهتاناً ـ هما المسيح عيسى بن مريم، وملائكة الله العباد المكرمون.

فنفى القرآن ذلك، كما سبق شرحه بالتفصيل ـ مبيناً عدم تكبر أحد منهم أن يكون عبداً لله، ولو وقع منه ذلك فمصيره إلى الله ليجازيه بما يستحقه على ما كان منه.

هذا هو منهج القرآن في إبطاله ألوهية عيسى عليه السلام، وكذا ألوهية أمه، ليقرر مكان ذلك عقيدة التوحيد الخالص الصافي، من خلال الأدلة العقلية النقلية التي قدمها لنقض الشرك وأبطال عبادة الشركاء، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (إبراهيم: ٥٢).

وقوله سبحانه: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾ (البينة: ١-٥).

لقد نفي الله اتخاذ شريك له، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٢٦).

ونفي علمه بوجود شركاء له في الكون كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (يونس: ١٨) وانتفاء العلم يلزم منه انتفاء الوقوع حتماً لإحاطة علم الله بكل شيء[١].

وبناءً على ما سبق نَفَى ألوهية غيرة قائلاً: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[٢]، وحكم بألوهيته وحده للكون كله قائلاً: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف: ٨٤) أي أنه وحده المعبود في السماء والأرض.

ولم يقتصر منهج القرآن في استدلاله على وحدانية الله وتوحيده على الأدلة العقلية البدهية السابق شرحها، ولم يقتصر أيضاً على نقضه للشرك وإبطال عبادة الشركاء كما سبق بيانه، بل لقد استدل على ذلك بأدلة أخرى هي الأدلة العقلية الافتراضية، وهذا ما أشرحه بالتفصيل في المبحث الثالث.

---

(١) أنظر المعجم المفهرس الألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد ص ٤٦٦-٤٦٧.

(٢) المائدة ٧٣ وغيرها كثير.

المبحث الثالث

استدلال القرآن على التوحيد بالأدلة العقلية الافتراضية

تقديم:

مع أن القرآن الكريم قد حفل بعدة أدلة على وحدانية الله وتوحيده، قرّر الله فيها استحقاقه وحده لتوحيد العبادة، وذَكَر مسوغات ذلك وحيثياته، وأكد أهليته لتلك الإلهية[١]. ونَفَى استحقاق غيره لأي صورة من صور الإلهية ـ كما سبق شرحه ـ إلا أننا نجد أن القرآن الكريم قد استخدم منهجاً آخر ـ غير ما ذكرناه في الصفحات الماضية ـ لتقرير التوحيد وزيادة ترسيخه في نفوس العبيد، ويمكن أن نطلق على ذلك ونسميه بـ(المنهج الافتراضي)، حيث «يقوم الاستدلال فيه على التسليم بدعوى الخصم تسليماً جدلياً، ولو كانت دعواه مستحيلة ـ ثم يستدل على إبطال هذه الدعوى بالنتائج الخاطئة المتناقضة التي تترتب على هذه الدعوى»[٢].

فالقرآن الكريم يتدرج مع العقلاء في عرض الحقائق عليهم، وغرسها في عقولهم ونفوسهم، وإبطال ما سواها حتى لو استدعى الأمر التسليم الأولي لقائل ما بمقالته، والافتراض الجدلي لسلامة اعتقاده، ليكون ذلك التسليم والافتراض منطلقاً لدحض باطله، وإقامة الحق مقامه، كما فعل إبراهيم عليه السلام في

---

(١) وصدق الله في قوله عن نفسه ـ بضمير الغائب ـ ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (المدثر: ٥٦).

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي، أ. د/ مصطفى مسلم، دار القلم، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، دمشق ـ سوريا ص١٥٣.

مجاراته لقومه بقوله: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾[1] لبعض كواكب السماء ونجومها التي يعبدونها من دون الله، وكما علم الله نبيه ﷺ أن يقول للكفار ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (سبأ: ٢٤) مع علم رسول الله ﷺ ويقينه بأنه على الصراط المستقيم، وأن غيره ـ ممن كفر ـ في الضلال البعيد، وكما أمر الله نبيه أن يدعو أهل الكتاب للمباهلة[2] لتحل لعنة الله على الكاذبين[3] مع يقين رسول الله ﷺ أنه الصادق الأمين فهو كما قال تعالى قد: ﴿ جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ (الزمر: ٣٣) فشهد بذلك المنصفون، وعلم به الجاحدون، وآمن به المنيبون.

وقد تبين من خلال تأمل آيات القرآن الكريم المتعلقة بالتوحيد، التي جاءت بصيغة افتراضية لمجاراة الكفار وإيصالهم لبطلان شركهم وفساد اعتقادهم ـ أن الله تعالى ذكر في كتابه افتراضين للوصول بالمشركين إلى حقيقة التوحيد المبين، يمكن أن نعتبر كل واحد منهما دليلاً مستقلاً على وحدانية الله وتوحيده، كما يتضح من المطلبين التاليين:

---

(١) الأنعام ٧٦، وانظر بقية الآيات من ٧٧-٨٠.

(٢) المباهلة والابتهال افتعال من التبهل، وهو الدعاء باللعن، ويطلق على الاجتهاد في الدعاء مطلقاً، لأن الداعي باللعن يجتهد في دعائه، والمراد في الآية المعنى الأول.

ويقال بَهَلَهُ الله بمعنى لَعَنَه، واللعنة بَهْلَة، وبُهْلَة ـ بالضم والفتح ـ ثم استعمل الابتهال مجازاً مشهوراً في مطلق الدعاء.

انظر: تفسير ابن عاشور ٣/ ١١٤.

(٣) كما جاء في آل عمران: ٦١، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

«المطلب الأول»

«دليل التسليم الجدلي بدعوى الخصم ابتداء بأن الله اتخذ ولداً»

زعم المشركون أن الله تعالى اتخذ ولداً من خلقه، وقد سبق شرح ذلك في إبطال القرآن لشرك العرب وأهل الكتاب[١].

وأبين هنا كيف جعل الله عزوجل من افتراض تبنيه أحداً من خلقه دليلاً على وحدانيته، قال تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[٢] أي لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاختار من خلقه وعبيده ما يتناسب مع عظمته سبحانه وتعالى، «على سبيل التبني، ولكنه تعالى لم يشأ ذلك»[٣]، فاتخاذ الولد في حقه سبحانه ممتنع ومستحيل، لعدم المجانسة بينهما، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبداً، قال الزمخشري: «.. لو أراد الله اتخاذ الولد لامتنع، ولم يصح، لكونه محالاً، ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه[٤]، ويختصهم، ويقربهم، كما يختص الرجل ولده ويقربه، وقد فعل ذلك بالملائكة، فافتتنتم به[٥] ـ والخطاب للمشركين ـ وغركم اختصاصه إياهم،

---

(١) انظر: ص٣٢٦ وما بعدها.

(٢) الزمر: ٤، ونحوها في الأنبياء: ١٧.

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي ٩/ ١٨٤.

(٤) بعضه: هكذا في الأصل، ولعل الأنسب (بعضهم).

(٥) به: الضمير يعود إلى الاصطفاء والاختصاص.

فزعمتم أنهم أولاده جهلاً منكم به، وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض.. ـ فحسبتم اصطفاءهم: اتخاذهم أولاداً، ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات، فكنتم كذابين كفارين متبالغين[1] في الافتراء على الله وملائكته»[2].

وصدق الزمخشري، فإن اتخاذ الولد لا يجوز على الله، بل هو مما يحيله العقل، لأن ذلك لا يكون إلا لمحتاج، والإله لا يُتصور في عقل أن يكون محتاجاً أصلاً[3].

ولأنه لو كان له ولد لكانت له صاحبة، ولو كانت له صاحبة لكانت من جنسه، وإذا امتنع اتخاذ الصاحبة امتنع اتخاذ الولد بالضرورة، كما قال تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ﴾ (الأنعام: ١٠١).

وقول الزمخشري المذكور هنا مبني على معنى (لو) وما يقتضيه تركيبها مع جوابها، فهي حرف امتناع لامتناع، فقد رتب سبحانه إمكانية اصطفاء الولد مما يخلق على تقدير الاتخاذ، لكنه لم يتخذه فلا يصطفيه.

قال الآلوسي رحمه الله: «.. لو أراد الله اتخاذ الولد لامتنعت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع ـ أي ـ الاتخاذ، لكن لا يجوز على الباري إرادة ممتنعة لأنها ترجح بعض الممكنات على بعض، وأصل الكلام لو اتخذ الولد لامتنع لاستلزامه ما ينافي الألوهية، فعدل إلى لو أراد الاتخاذ لامتنع أن يريده، ليكون أبلغ وأبلغ، ثم

---

(١) متبالغين: هكذا في الأصل، ولعل الأنسب (مبالغين). انظر البحر المحيط، لأبي حيان ٩/ ١٨٤.

(٢) الكشاف ٤/ ١١٤ باختصار وتصرف.

(٣) انظر: نظم الدرر، للبقاعي ١٦/ ٤٥٠.

حذف هذا الجواب وجيء بدله (لاصطفى) تنبيهاً على أن الممكن هذا لا الأول، وأنه لو كان هذا من اتخاذ الولد في شيء لجاز الولد عليه سبحانه وتعالى شأنه عن ذلك، فقد تحقق التلازم وحُقّ نفي اللازم وإثبات الملزوم دون صعوبة»[1].

وعموماً لو كان الله متخذاً ولداً لاختار من مخلوقاته ما هو أجدر بالاختيار، ولا يمكن أبداً أن يكون ذلك من أحجار كما زعم الكفار[2]، فشأن الاختيار دائماً أن يتعلق بالأحسن من جملة المختارات.

بهذا رد القرآن على الكفار الزاعمين اتخاذ الله الولد، ولم يكتف سبحانه للتدليل على وحدانيته بالرد على الفرض الجدلي السابق ذكره لتصحيح تصور المشركين[3] عنه، بل اتبع ذلك بتنزيه نفسه قائلاً: ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (الزمر: ٤)، حيث استدل بهذا التنزيه على أحدية الله وتوحيده من خلال:

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٢٢٧، وله أقوال أخرى في المراد بالآية، فلتراجع في موضعها.

(٢) حيث زعموا أن اللات والعزى ومناة بنات لله، قال تعالى منكراً عليهم: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ (النجم: ١٩-٢١)، فأبطل القرآن كونها بنات لله، وأبطل ذلك أيضاً عن سائر الأصنام بحكم المساواة أو الأحرى.
انظر: تفسير ابن عاشور ٢٤/ ١٦-١٧.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب ٥/ ٣٠٣٧.
مع ملاحظة أن ابن عاشور لا يرى أن الآية تبطل مقالة بعض العرب:
إن الملائكة بنات الله، لأن ذلك لم يكن من عقيدة المشركين بمكة الذين وجه الخطاب إليهم.
ولا تبطل بنوة المسيح عند النصارى لأن ذلك غير معتقد عند المشركين المخاطبين، ولا شعور لهم به.
وليس المقصود محاجة النصارى، ولم يتعرض القرآن المكي إلى مخاطبتهم.
انظر: التحرير والتنوير ٢٤/ ١٧.

أ ـ لفظ (الواحد) الذي يفيد الانفراد بالذات والصفات، بينما اتخاذ الولد يقتضي:

١- التبعّض، وانفصال شيء من شيء، وهذا يعني التعدد للأجزاء، والولد جزء من أجزاء الشيء، والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه لأنه لو كان مركباً لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه، وجزؤه غيره، فكان يحتاج إلى غيره، والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته.

٢- المماثلة بين الوالد والولد، وهذا يعني التشابه، فإن كان الولد مماثلاً في تمام الماهية للوالد، فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية، محمولة على شخصين، وذلك محال، لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم ألا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية، كان ذلك التعيين معلوماً بسبب منفصل، فلا يكون إلهاً واجب الوجود لذاته، فثبت أن كونه إلهاً واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحداً في حقيقته، وكونه واحداً في حقيقته يمنع من ثبوت الولد له، فثبت أن كونه واحداً يمنع من ثبوت الولد.

٣- كما أن الولد لا يحصل إلا من زوجين من جنس واحد، فلو كان له ولد ـ سبحانه ـ لما كان واحداً بل كانت زوجته من جنسه. وهذا كله يستحيل في حق الله تعالى القائل عن نفسه آمراً محمداً ﷺ بإعلانه للمشركين والعالمين أجمعين ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (الإخلاص) والقائل أيضاً: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى: ١١).

إن الوحدة الذاتية الحقيقية التي هي في أعلى مراتب الوحدة الواجبة له تعالى بالبراهين القطعية العقلية تأبى التبعض والانفصال إباء ظاهراً لأنهما من خواص الكم. وهذا يعني أنه سبحانه واحد حقيقي، والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد[1].

ب ـ لفظ (القهار) الذي يفيد:

١ - كمال الغنى الذاتي لله، الذي هو أعلى مراتب الغنى، وهذا يقتضي كمال تجرده سبحانه عن المادة، قال تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ (يونس: ٦٨).

٢ - أن المحتاج إلى الولد هو الذي يُقهر بالموت، فيحتاج إلى ولد يقوم مقامه، والله عزوجل كما وصف نفسه بأنه: ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وأن ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (الحج: ٦٤) فليس محتاجاً إلى ولد ولا إلى أحد من خلقه.

٣ - أن انفصال الولد عن الله تعالى يقتضي أن يكون ـ أعني الله سبحانه وتعالى ـ متأثراً مقهوراً، وليس مؤثراً قهّاراً، وحيث أن الله تعالى قهّار كما هو مقتضي الألوهية استحال أن يكون له عز وجل ولد[2].

وهكذا نزه الله نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق، حيث أن جملة ﴿ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (الزمر: ٤) تبين تنزهه بحسب الصفات وتؤكد ذلك، بعد تنزهه

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي ٢٦/ ٢١١-٢١٢، وروح المعاني للآلوسي ١٢/ ٢٢٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي ٢٦/ ٢١١-٢١٢، وروح المعاني، للآلوسي ١٢/ ٢٢٨.

بحسب الذات عن اتخاذ الولد، لأن من استجمع صفات الكمال من الوحدانية والقاهرية استحال الولد في حقه ضرورة[١].

وعلى نحو هذا الافتراض من اتخاذ الرحمن للولد جاء قوله تعالى في آية أخرى ـ مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ (الزخرف: ٨١) وهذا التعقيب وارد على سبيل الإفحام للقائلين هذه المقالة حيث علم الله نبيه محمداً ﷺ أن يرد عليهم بإعلان عبوديته لله وسبقه فيها إذا ما قالوا ذلك إفحاماً لهم.

قال ابن عاشور في تفسير الآية السابقة: «.. أمر الله رسوله ﷺ أن ينتقل.. إلى مقام الاحتجاج على انتفاء أن يكون لله ولد، جمعاً بين الرد على بعض المشركين الذين عبدوا الملائكة، والذين زعموا أن بعض أصنامهم بنات لله مثل اللات والعزى، فأمره بقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ أي قل لهم جدلاً وإفحاماً ـ ولَقَّنَهُ كلاماً يدل على أنه ما كان يعزب عنه أي عن رسول الله ﷺ ـ أن الله ليس له ولد، ولا يخطر بباله أن له ابناً، والذين يقول لهم هذا المقول هم المشركون الزاعمون لذلك»[٢] وللمفسرين في المراد بقوله تعالى: ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ عدة أقوال يمكن إجمالها فيما يلي:

١- لو فرض أن للرحمن ولداً لعبدته، أي فأنا أول العابدين لله على هذا الحال[٣].

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني ٤/ ٥٩١.

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٩٦-٢٩٧ باختصار وتصرف.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٨٠.

٢- لو فُرض للرحمن ولدٌ لكنت أول مثبت لهذا الولد، ولعبدته، ولم يسبقني إلى ذلك أحد، فأنا أحق بهذا منكم[١] وهذا على قول من قال إن (إنْ) المذكورة في الآية شرطية[٢].

٣- إن (إنْ) المذكورة في الآية نافية، فيكون معناها: ما كان لله أو للرحمن ولد[٣]، وعلى هذا القول يكون معنى: ﴿ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴾ أي:

أ ـ أول الموحدين لله، المنزهين له عن الشريك والولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجماله[٤].

ب ـ أول المكذبين لكم، المستنكفين من قولكم هذا الباطل المفترى على ربنا ـ وهو ادعاء الولد له ـ[٥].

ج ـ أول الجاحدين النافين أن يكون لله ولد[٦]، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

---

(١) انظر: تفسير السعدي ص٨٤٥، و: أضواء البيان، للشنقيطي ٧/ ٢٨٧-٣٠٩، و: التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٩٦.

(٢) انظر: أضواء البيان، للشنقيطي ٧/ ٢٨٧، وجامع البيان، للطبري ٢٥/ ١٢١.

(٣) انظر: أضواء البيان، للشنقيطي ٧/ ٢٨٧، وقال قتادة بنحو هذا القول، انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٥/ ٢٨٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٥/ ٢٨٠، وقد قال بهذا القول مجاهد بن جبر.

(٥) انظر: أضواء البيان ٧/ ٢٨٨.

(٦) نفس المرجع والجزء والصفحة، وذكر ابن كثير أن من معاني (العابدين) الجاحدين، من عَبَدَ، يَعْبَد. انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٥/ ٢٨١، وقد اختار هذا المعنى الشنقيطي، وجزم به، ودلل على ذلك، ورد على الزمخشري في تفسيره للآية، ونبه على ما أورده ابن جرير في شأنها، فليراجع في أضواء البيان ٧/ ٢٨٧-٣٠٩.

فلو كان للرحمن ولد لكان محمد بن عبد الله ـ أفضل الرسل، وأكمل الخلق، وأعرفهم بالحق والباطل ـ أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون، فرسول الله ﷺ ليس أقل فهماً من أن يعلم شيئاً ابناً لله، ولا يعترف لذلك بالإلهية، ولم يزل حاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين قومه على التوحيد، داعياً إليه، ناهياً عن الشرك، فدل ذلك كله على وحدانية الله ووجوب عبادته.

وخلاصة القول: إن الدليل الافتراضي السابق شرحه «مركب من ملازمة شرطية، والشرط فرضي، والملازمة بين الجواب والشرط مبنية على أن المتكلم عاقل، داع إلى الحق والنجاة، فلا يرضى لنفسه، ما يورطه، وأيضاً لا يرضى لهم إلا ما رضيه لنفسه، وهذا منتهى النصح لهم، وبه يتم الاستدلال، ويفيد أن رسول الله ﷺ ثابت القَدَم في توحيد الإله..»[١]، فعُلم بذلك بطلان دعوى المشركين باتخاذ الله الولد، وفسادها عقلاً ونقلاً[٢].

إن الله تعالى يبطل إلهية معبودات المشركين[٣] على طريقة المذهب الكلامي بتقديمه حجج انفراده سبحانه، فقد بنى الدليل الافتراضي المذكور في الآية السابقة على قاعدة استحالة الولد في حقه، حيث بنى القياس الشرطي السابق شرحه على فرض اتخاذ الولد، لا على فرض التولد، فاقتضى أن المراد باتخاذ الولد

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٥/ ٢٩٦ باختصار.

(٢) انظر: تفسير السعدي ص٨٤٥.

(٣) وهو سبحانه كذلك ينفي التعدد بنفي أخص أحواله، وهو التعدد بالبنوة والأبوة.. وهو أصل التعدد فيبقى أيضاً تعدد الآلهة الأجانب بدلالة الفحوى، انظر التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٩٦.

التبني، وبإبطال التبني بهذا الاستدلال لزم إبطال تولد الابن بالأَوْلَى، قال ابن عاشور في تعليقه على الآية السابق شرحها:

«فقد اقتضى الكلام دليلين طُوِيَ أحدهما، وهو دليل استحالة الولد بالمعنى الحقيقي عن الله تعالى، وذكر دليل إبطال التبني لما لا يليق أن يتبناه الحكيم»[1].

هذا هو القرآن الكريم في منهجه العقلي الافتراضي لنقض شرك البنوة، وإقامة توحيد الإله، إنه يسلم بدعوى الخصم تسليماً جدلياً أولياً، ويعرضها، ويناقشها نقاشاً عقلياً مقنعاً، حتى يفندها، ويصل بصاحبها إلى التسليم والإذعان بنتائجها الحتمية.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ١٧.

«المطلب الثاني»

«دليل الافتراض الجدلي بأن للكون أكثر من إله (دليل التمانع والتوارد)»

استدل الله على وحدانيته ووجوب توحيده بما يسمى عند البعض بدليل انتظام الكون وعدم فساده، أو دليل (التمانع والتوارد)[1]، فقد جاءت في القرآن الكريم عدة آيات تتعلق بذلك، منها:

أ ـ قوله تعالى ـ بعد تقريره لملكه كل من في السماوات والأرض ـ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

ب ـ وقوله جل شأنه ـ بعد نفيه لاتخاذ الولد ـ ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩١).

---

(١) ووجه تسميته بدليل التمانع «أن جانب الدلالة فيه على استحالة تعدد الإله هو فرض أن يتمانع الآلهة، أي يمنع بعضهم بعضاً من تنفيذ مراده». انظر: تفسير ابن عاشور ١٧/ ٣١.
وسمي بدليل التوارد لورود مؤثرين معاً على أثر واحد، انظر شرح جوهرة التوحيد، للباجوري ص٩٩. وقد أورد بعض أهل العلم عدة انتقادات على دليل التمانع والتوارد، سُلب بموجبها وصف القطعية، وَوُصِف بمقتضاها بأنه حجة إقناعية ظنية لا يقينية.
انظر هذا النقد والجواب عليه في درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٥/ ١٥٦ وما بعدها، وشرح المقاصد، للتفتازاني ٤/ ٣٥-٣٦، وشرح العقائد النفسية له أيضاً ص٢٩، والدين الخالص، لمحمد صديق حسن القنوجي، والتحرير والتنوير، لابن عاشور ١٧/ ٤٢.

ج ـ وقوله عز وجل ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٤٢).

وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى وقوع الفساد في الكون لو تعددت الآلهة، ووقع الشرك بالله[١].

فكل الآيات السابقة ذات دلالات عقلية استدل بها العلماء على وحدانية الله وتوحيده ـ وإن اختلفوا في بعضها من حيث مضمون دلالتها، هل تدل على توحيد الربوبية أو الألوهية؟ وكيفية تقرير تلك الدلالة[٢] ـ لكن الشاهد من كل هذا أن جميعهم اعتبروها أدلة قرآنية نقلية، ذات دلالات عقلية، على وحدانية الله وتوحيده، واستدلوا بها على ذلك.

وقبل أن أشرح ذلك، أبين معنى الآية الأولى، وهي قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ[٣] لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

---

(١) كما في سورة المؤمنون ٧١، والروم ٤١، وغيرها.

(٢) وقد فصل القول في ذلك ابن عاشور في تفسيره ١٧/ ٣١-٣٣ وقبله الآلوسي في روح المعاني ٩/ ٢٣-٢٨. وانظر: ما كتبه سعود العريفي في كتابه: «الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد» ص٣١١-٣٤٢.

(٣) قال الشوكاني: «.. قال الكسائي وسيبويه والأخفش والزجاج وجمهور النحاة: إن (إلا) هنا ليست للاستثناء، بل هي بمعنى (غير) صفة لآلهة، ولذلك ارتفع الاسم الذي بعدها، وظهر فيه إعراب غير التي جاءت (إلا) بمعناها، ومنه قول الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه ... لعمر أبيك، إلا الفرقدان

وقال الفراء إن (إلا) هنا بمعنى (سوى) انظر فتح القدير ٣/ ٥٥١، وروح المعاني، للآلوسي ٩/ ٢٣-٢٥، وشرح جوهرة التوحيد، للباجوري ص١٠٠.

فقد وردت الآية في سياق الرد على المشركين الذين كانوا يعبدون مع الله آلهة أخرى - وهي الملائكة[1] -.

وذكر الشوكاني رحمه الله أنها تعني: «لو كان في السماوات والأرض آلهة معبودون غير الله (لفسدتا) أي لبطلتا.. بما فيهما من المخلوقات..

ووجه الفساد أن كون مع الله إلهاً آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادر على الاستبداد بالتصرف، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف، ويحدث بسببه الفساد[2]..»[3].

وبناء على ذلك فإنه لا بد للكون (الواحد المُحْكَم) من مدبر واحد لا شريك له، حتى لا يفسد بتعدد الإرادات والأفعال، وتناقضها، أو تعارضها[4].

---

(١) تأمل في سياق الآية مما يلي: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٦-٢٢).

(٢) قال ابن عاشور في تفسيره ١٧/ ٣٠ : «والفساد هو اختلال النظام، وانتفاء النفع من الأشياء، ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين، ولا منسَّقتي النظام، بأن يبطل الانتفاع بما فيهما، فمن صلاح السماء نظام كواكبها، وانضباط مواعيد طلوعها وغروبها، ونظام النور والظلمة، ومن صلاح الأرض مهدها للسير، وإنباتها الشجر والزرع، واشتمالها على المرعى والحجارة، والمعادن والأخشاب، وفساد كل من ذلك ببطلان نظامه الصالح».

(٣) فتح القدير ٣/ ٥٥١ باختصار.

(٤) ومن المعلوم أن شأن ملوك الدنيا التنازع والاختلاف بسبب تعدد الإرادات حتى كادت الأرض أن تهلك بمن عليها بسبب تنازعهم على خيراتها وثرواتها.

وحقيقة أنه من خلال تأمل العقل ونظره في واقع الكون الفسيح المنظّم بما فيه من إبداع وإتقان، نستنتج أنه يقوم على إرادة واحدة، لمريد واحد، بتدبير واحد، قال سيد قطب رحمه الله: «ويعرض السياق القرآني دليل الوحدانية من المشهود في نظام الكون، وناموسه الواحد، الدال على المدبر الواحد، فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعاً، وينسّق بين أجزائه جمعياً، وبين حركات هذه الأجزاء، وحركة المجموع المنظم.. هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد ـ قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٤) فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات، ولتعددت النواميس تبعاً لها ـ فالإرادة مظهر الذات المريدة، والناموس مظهر الإرادة النافذة ـ ولانعدمت الوحدة التي تنسّق الجهاز الكوني كله، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه؛ ولوقع الاضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق.. هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس، وإن الفطرة السليمة التي تتلقى إيقاع الناموس، ووحدة الإرادة التي أوجدته، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون، المنظَّم المنسَّق، الذي لا فساد في تكوينه، ولا خلل في سيره»[1].

لقد استدل الله بالآية السابقة[2] على بطلان عقيدة المشركين إذ زعموا شركاء له فجاءت: «مسوقة لإثبات الوحدانية لا لإثبات وجود الصانع، إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين، ولا لإثبات انفراده بالخلق، إذ لا نزاع فيه كذلك،..»[3].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٣-٢٣٧٤ باختصار.

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا... ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٧/ ٢٩ بتصرف.

وبعد أن ذكرتُ شيئاً من أقوال أهل التفسير في معنى الآية ومرادها وغاية استدلالها أشرح دليل التمانع والتوارد المذكور في الآية، بإبطال التثنية أصلاً، فإن بطلت بطل التثليث وما بعده تبعاً.

فلو كان للعالم إلهين أو أكثر فإنه يلزم من ذلك أن يتفقا أو يختلفا، حسب الاحتمالات التالية:

أ- أن يتفقا على إيجاد شيء ما مثلاً (كإيجاد العالم)، فهذا يقتضي:

١- أن يوجداه معاً، وعندئذ يجتمع مؤثران تامّان على أثر واحد، وهذا باطل بداهة ولا يمكن أن يتم أبداً، كمطرقتي الحداد فإنهما لا تقعان معاً.

٢- أن يوجداه مرتباً، بأن يوجده كل واحد منهما بعد الآخر، وهذا تحصيل حاصل، وهو باطل بداهة، لأنه إن أوجده الأول فالثاني لا محل له.

٣- أن يوجده أحدهما دون الآخر، فالموجد هو الإله، والثاني باطل.

٤- أن يوجد كل واحد منهما بعض الشيء ويختص به دون البعض الآخر، وهذا يلزم منه عجزهما معاً، لأن كل واحد منهما لا تنفذ إرادته وقدرته في الجزء الذي تعلقت به إرادة وقدرة الآخر، فاقتضى ذلك عدم ألوهية أحد منهما.

إذاً بطل وجود إلهين حال اتفاقهما على إيجاد العالَم، وهذا يسمى برهان التوارد[1].

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية ٥/ ١٥٦-١٥٧. و: شرح جوهرة التوحيد، للإمام العلامة الشيخ إبراهيم الباجوري (ت ١٢٧٧هـ)، نسقه وخرج أحاديثه محمد أديب الكيلاني، وعبد الكريم تتان، راجعه وقدم له: عبد الكريم الرفاعي، مطبعة (بدون)، ط (بدون)، د.ت، البلد (بدون) ص٩٩-١٠٠. و: روح المعاني، للآلوسي ٩/ ٢٥.

ب ـ أن يختلفا بأن يريد أحدهما إيجاد (العالَم)، ويريد الآخر إعدامه، فهذا يلزم منه:

١ - أن ينفذ مرادهما معاً، فيلزم منه اجتماع الضدين، كالحركة والسكون، أو الوجود والعدم، وهو باطل عقلاً.

٢ - أن ينفذ مراد أحدهما فقط، فهذا يعني عجز من لم ينفذ مراده، والعاجز لا يصلح إلهاً والذي نفذ أمره هو الإله.

٣ - ألا ينفذ مرادهما معاً، فيلزم من ذلك عجز كل واحد منهما، ويلزم منه أيضاً ارتفاع النقيضين ـ كوجود العالم وعدمه، أو الحركة والسكون ـ وهو أيضاً باطل، لأن العالم موجود محسوس وجوده، فبطل ما أدى إلى ارتفاع النقيضين، وهو وجود إلهين مختلفين. ويسمى هذا البرهان: برهان التمانع.

فإذا بطل وجود إلهين متفقين[1] أو مختلفين وجب أن يكون الإله واحداً لا شريك له[2]، وإذا بطلت التثنية ابتداء بطلت بقية صور التعدد من باب أولى وأحرى.

---

(١) مع ملاحظة أنه يجوز اتفاق الإلهين ـ على فرض التعدد ـ إنما ببادئ الرأي، وعند التأمل لا يصح الاتفاق، لأن مرتبة الألوهية تقتضي الغلبة المطلقة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون: ٩١). انظر: شرح جوهرة التوحيد، للباجوري ص١٠٠.

(٢) راجع تفصيل دليل التمانع والتوارد في: أ ـ إحياء علوم الدين، للغزالي ١/ ١١٥.

ب ـ المواقف في علم الكلام، للقاضي عبدالرحمن بن أحمد الايجي، عالم الكتب، ط(بدون)، دت، بيروت ـ لبنان ص٢٧٩-٢٧٩.

ج ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، القاهرة ـ مصر ٣/ ٣٣٣-٣٣٤. د ـ شرح جوهرة التوحيد الباجوري ص٩٩-١٠٠.

هـ - روح المعاني، للآلوسي ٩/ ٢٤-٢٦.

و ـ مباحث في التفسير الموضوعي، أ.د/ مصطفى مسلم ص١٥٢.

فتبين لنا من كل ما سبق أن العقل والحس يقرران حتمية وجود إله واحد، لوجود هذا الكون واستمراره، وأن التعدد يستلزم بالضرورة فساده وعدم وجوده.

وهكذا كان برهان التمانع والتوارد المذكور في قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢) يدل دلالة عقلية منطقية على وحدانية الله ووجوب توحيده، يقول الآلوسي: إن في الآية «قياس استثنائي استُثنى فيه نقيض التالي لينتج نقيض المقدَّم، فكأنه قيل: لو تعدد الإله في العالم لفسد، لكنه لم يفسد، فينتج أنه لم يتعدد الإله.. ففي الآية دليل عقلي إقناعي من وجه، ودليل قطعي من وجه آخر..»[١].

لقد ختم الله الآية السابقة بتنزيه نفسه عن كل شرك وصفه به المشركون، مذكراً جميع خلقه بربوبيته سبحانه للعرش الذي حوى السماوات والأرض المنتظمة أحوالها، قائلاً: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

هذا هو منهج القرآن الكريم، وهذه هي طريقته في مخاطبة العقلاء لإقناعهم بالتوحيد، إنه كما قال ابن تيمية رحمه الله يستخدم «هذه الطرق، وأمثالها، لبيان التوحيد.. وهي طرق صحيحة عقلية، لم يهتد.. المتأخرون إلى معرفة توجيهها وتقريرها..»[٢].

وبعد أن شرحت استدلال القرآن بدليل التمانع والتوارد على وحدانية الله وتوحيده في الآية الأولى، أعود لشرح معنى الآية الثانية المتعلقة بدليل افتراض

---

(١) روح المعاني ٩/ ٢٤-٢٦ باختصار.

(٢) منهاج السنة النبوية ٣/ ٣١٢-٣١٣ باختصار.

وجود عدة آلهة[1]، وهي قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩١).

قال أبو جعفر ابن جرير الطبري في تفسيرها: «يقول تعالى ذكره ما لله من ولد، ولا كان معه في القديم ولا حين ابتدع الأشياء من تصلح عبادته، ولو كان معه في القديم أو عند خلقه الأشياء من تصلح عبادته ﴿ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا ﴾ لاعتزل كل إله منهم ﴿ بِمَا خَلَقَ ﴾ من شيء، فانفرد به، ولتغالبوا، فلعلا بعضهم على بعض، وغلب القوي منهم الضعيف، لأن القوي لا يرضى أن يعلوه ضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً، فسبحان الله ما أبلغها من حجة، وأوجزها لمن عقلها وتدبر..»[2].

وصدق الطبري رحمه الله ففي الآية السابق تفسيرها حجة قوية ودليلاً ناصعاً على وحدانية الله وتوحيده، حيث ذَكَرَتْ أنه يلزم من تعدد الآلهة اتصافها ـ جميعاً ـ بصفات الربوبية المذكورة في الآية التي من أبرزها: الاستقلال بتدبير الخلق، والقدرة، والعلو على كل شيء، ويمكن بيان وجه دلالتها العقلية على توحيد الربوبية من خلال الوجهين التاليين:

---

(١) نلاحظ أن الفرق بين الدليلين أن دليل التمانع يستلزم اختلال الكون لو تعددت الآلهة وهو ما تبطله المشاهدة، ودليل افتراض وجود عدة آلهة وذهاب كل إله بما خلق يستلزم النقص في ذات الإله، وهذا محال لأن الإلهية تقتضي الكمال المطلق. انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، أ.د/ مصطفى مسلم ص١٥٤.

(٢) جامع البيان ١٨/ ٦٢.

الوجه الأول: تدل الآية على وحدانية الله تعالى من خلال قوله سبحانه: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ وهذا لم يحصل طبعاً في الكون كما هو مشاهد ومحسوس في الواقع، فلو كان مع الله إلهاً آخر، امتنع أن يكون الله مستقلاً بخلق العالم، مع أن الواقع يشهد بأنه سبحانه مستقل بخلقه من خلال انتظام الكون وعدم فساده كما سبق شرحه.

وامتنع أيضاً أن يكون كل من الإلهين مشاركاً للآخر ومعاوناً له، لأن ذلك يستلزم عجز كل منهما، والعاجز لا يفعل شيئاً، فلا يكون رباً ولا إلهاً، لأن أحدهما إذا لم يكن قادراً إلا بإعانة الآخر، لزم عجزه حال الانفراد، وامتنع أن يكون قادراً حال الاجتماع، وحينئذ يمتنع وجود ربين، كل منهما قادر بنفسه على الفعل، لأنه إذا كان كل منهما قادراً بنفسه، أمكنه أن يفعل دون الآخر، وأمكن الآخر أن يفعل دونه وهذا ممتنع. وإذا افترضنا أن كلاً منهما عاجز غير قادر على الفعل، لزم الجمع بين النقيضين لأنه لابد لواحد منهما أن يكون قادراً[1].

وهذا خلاصة ما ذكره ابن تيمية رحمه، وقد ختم كلامه قائلاً: «فتبين أن الخالق لابد أن يكون قادراً بنفسه على الاستقلال بالفعل،.. وإذا كان ذلك الإله لابد أن يكون قادراً على الاستقلال بالفعل، فاستقلاله بالفعل يمنع أن يكون غيره فاعلاً له، ومشاركاً له فيه،..»[2]، وهذا ما هو كائن لرب العالمين.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص٨٧.

و: الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، للدكتور عبد الكريم نوفان عبيدات ص٣١٢-٣١٣.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٥/ ١٦٥-١٦٦ بتصرف وزيادة. وانظر ٥/ ١٥٣-١٧٧ من نفس المرجع حيث علّق ابن تيمية على استدلالات ابن رشد التوحيدية.

الوجه الثاني: تدل الآية السابقة على وحدانية الله تعالى من خلال قوله سبحانه: ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (المؤمنون: ٩١) ووجه الاستدلال على ذلك أنه إذا تقرر لدينا امتناع استقلال كل من الإلهين بالفعل، وامتناع ذلك أيضاً عند اجتماعهما واتفاقهما، كما تقدم شرحه، إذا تقرر ذلك في العقول فلا بد إذاً من تقدير إلهين، أحدهما أقوى وأقدر من الآخر، وبالتالي سيكون أعلى منه قوة وقدرة، ولو كان الأمر كذلك للزم حينها علو الأقدر والأقوى على من هو أدنى منه، كما نصّت الآية عليه، ولو وقع ذلك لم يكن المستقل بالفعل إلا العالي وحده، لأن المقهور إن كان سيقوم بفعل معين لا يخلو حاله من أحد أمرين:

أ ـ إما أن يكون محتاجاً في فعله إلى إعانة الأقوى والأقدر (الأعلى) فيكون حينها عاجزاً بدون الإعانة، وتكون قدرته من غيره، لا من تلقاء ذاته، ومن كان حاله هكذا لا يصح أن يكون إلهاً بنفسه.

ب ـ وإما أن يكون المقهور مستقلاً في فعله ولا يحتاج لإعانة الأقوى والأقدر (الأعلى) فيعجز الأخير عن منعه مما هو مستقل به، فيكون العالي حينها عاجزاً عن منع المقهور، فلا يكون عالياً عندها، وهذا جمع بين نقيضين.

فتبين من كل ما سبق أنه مع علو بعض الآلهة على بعض لا يكون المغلوب إلهاً بأي وجه من الوجوه[1]، وهذا خلاصة ما قاله ابن تيمية في شرحه لقوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (المؤمنون: ٩١).

---

(١) انظر: الدلالة العقلية في القرآن، د. عبد الكريم عبيدات ص٣١٣.

وخلاصة القول: استحالة تعدد آلهة الكون بالتثنية أو التثليث أو أكثر من ذلك[١].

وما قال من قال بالتعدد إلا عن عقلية ابتدائية، وفكرة وثنية، وتصورُ خيالي مصطنع، بعيد عن التحقيق، مصادمٍ للعقل.

ولم يبق في الدنيا ممن يلتزم العقل والمنطق يقول بالتعُدد. بل إن التحقيق لا يرشد إلا إلى التوحيد، بريئاً من صفات الحوادث، كالإلصاق والتفريع والولادة.

---

(١) وقد أبطل سعيد حوى في كتابه (الله جل جلاله) ص١١٤ التثنية في الألوهية بشكل خاص وتعدد الآلهة بشكل عام فقال: «القول بالتثنية يلزم بوجود صفة مميزة بين الاثنين، لأن التساوي التام من جميع الوجوه باطل، ولا يصح بالتصور إلا إذا أنطبق الأول على الثاني تمام الإنطباق، فيبقى في النتيجة كائن واحد، ولما انعدمت الصفة المميزة انعدم التمييز. فإن قال مكابر بإمكان التمييز بين اثنين حال التساوي التام، قلنا له: أقمت الحجة على نفسك حينما ميزت، وما ميزت الابإدراك صفة مميزه، ووجود صفة مميزة يبطل التساوي التام، وإذا أبطل التساوي التام حصل التفاضل بين الاثنين، فسقط المفضول، وبقي واحد.

والقول بالتثنية من الجهة الرياضية يفيد وجود إطلاقين، وذلك محال، لأن وجود أحدهما ينافي إطلاق الآخر، فهو أما أن يدخل في إطلاق الأول، فلا يبقى إلا الأول. وإما أن يخرج عن نطاق الأول، فيسقط إطلاق الأول المفترض، ويبقى الثاني، أي أن الإطلاق محيط، ولا يُحاط به، والنتيجة أنه لم يبق إلا إطلاق واحد ...

وإذا أردنا أن نجلِّي معنى هذا البرهان المتعلق بفساد الكون لو تعددت الآلهة قلنا: حين وجود أثنين يتَّرتب على أحدهما أن يحيط بالثاني قُدرةً وعلماً، فإن عجز عن ذلك، فهو ليس بإله، وبقي واحد.

وإن قدر على ذلك، سقطت ألوهية الثاني، وبقي واحد..

إذاً لم يبق إلا الواحد المطلق الذي قال عن نفسه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (فاطر: ٤٤)».

فكما أنَّ التعدد باطل، فطُرُوؤه من بعد أشد بطلاناً وأقبح، وهكذا ينهار التعدد بجميع صوره: «كالتثنية، والتثليث، وغيرهما...»[1].

- وبعد أن شرحت الدلالة العقلية في الآية السابقة على وحدانية الله وتوحيده، أختم هذا المبحث بشرح ذلك في الآية الأخيرة المتعلقة بذلك وهي قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٤٢).

يتضح من سياق الآية أنها جاءت ردّاً على زعم المشركين كذباً وزوراً ـ أن الملائكة بنات الله[2]، وجعلوا ذلك مسوّغاً لاتخاذهم آلهة يعبدونها مع الله[3].

فردَّ الله عليهم بإبطال اعتقادهم هذا مستدلاً بأن ألوهية الملائكة ـ وغيرهم ـ يستلزم ابتغاءها سبيلاً إلى الله ـ تعالى ـ ذي العرش.

وقد أختلف المفسرون في مقصود قوله تعالى ﴿ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ على قولين ـ كلاهما يحتمله السياق[4] ـ ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

---

(١) الله جل جلاله، لسعيد حوَّى ص١١٤.

(٢) كما يتضح من التأمل في سياق الآيات الآتية حيث خاطب سبحانه المشركين قائلاً: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (الإسراء: ٤٠-٤٤).

(٣) راجع ص ٣٢٦ حيث شرحت ذلك عند الحديث عن شرك العرب بعبادة الملائكة.

(٤) كما صرّح بذلك السعدي في تفسيره ص٤٨٨، وابن عاشور في التحرير والتنوير ١٤/ ٨٩-٩٠.

القول الأول[١]: أن معنى الآية: «لطلبوا السبيل وسَعَوْا في مغالبة الله تعالى، فإن عَلَوْا عليه، فيكون مَنْ علا وقهر هو الرب والإله....»[٢].

وبناءً على هذا القول فإن دلالة الآية عقلياً على واحدنية الله وتوحيده كدلالة قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩١) وقد سبق شرح ذلك بما يغني عن الإعادة هنا[٣].

وقد رجح هذا القول جمع من أهل العلم والمحققين[٤]، مستندين إلى عدة أدلة[٥] منهم الشوكاني[٦] رحمه الله، والشنقيطي حيث قال الأخير: «وهذا القول في معنى الآية هو الظاهر عندي وهو المتبادر من معنى الآية الكريمة.. ولأن فيها فرض المحال والمحال المفروض الذي هو وجود آلهة مع الله مشاركة له لا يظهر

---

(١) وينسب هذا القول إلى ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومقاتل، وأبي علي الفارسي، والنقاش، وأبي منصور، وغيره من المتكلمين.
انظر أضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٥٩٤.

(٢) تفسير السعدي ص٤٨٨، وانظر: أضواء البيان، ٣/ ٥٩٤، والتحرير والتنوير، لابن عاشور ١٤/ ٨٩.

(٣) راجع ص٤٢٤.

(٤) ومنهم البغوي في تفسيره ٥/ ٤٢٧، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم ٥/ ٨٠.

(٥) وقد ذكر ذلك وناقشه صاحب كتاب: «الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد» ص٣٢٤ وما بعدها.

(٦) حيث قال أن معنى الآية: «لاتخذوا طريقاً للمغالبة.. وقيل معناه: إذاً لابتغت الآلهة إلى الله القربى والزلفى عنده..، والظاهر المعنى الأول...».
انظر: فتح القدير ٣/ ٣١٩.

معه أنها تتقرب إليه، بل تنازعه لو كانت موجودة، ولكنها معدومة مستحيلة الوجود»[١] واستشهد لاختياره هذا بالآيتين السابق شرحهما.

القول الثاني[٢]: أن معنى الآية: «لاتخذوا سبيلاً إلى الله بعبادته، والإنابة والتقرب وابتغاء الوسيلة إليه»[٣].

وقد اقتصر على هذا القول ابن جرير الطبري[٤] وابن كثير الدمشقي[٥]، واختاره ابن تيمية ورجحه وقال: (وهو الصحيح) ودلل على صحة اختياره[٦]، وتبعه على ذلك شارح العقيدة الطحاوية.

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٥٩٣-٥٩٤ باختصار.

(٢) وممن نسب إليهم هذا القول قتادة. ومجاهد، انظر: جامع البيان، للطبري ١٥/ ١٠٦.

(٣) تفسير السعدي ص٤٨٨.

(٤) انظر: جامع البيان ١٥/ ١٠٦.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥١٦-٥١٧.

(٦) حيث قال: «فإنه قال ـ تعالى ـ ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ (الإسراء: ٤٢).. وهم لم يكونوا يقولون: إن آلهتهم تمانعه وتغالبه، بخلاف قوله: ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا ﴾ (المؤمنون: ٩١)، فهذا في الآلهة المنفية، ليس فيه أنها تعلو على الله، وأن المشركين يقولون ذلك.
وأيضاً فقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ (الإسراء: ٤٢).. يدل على ذلك، فإنه قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ (المزمل: ١٩)، والمراد به اتخاذ السبيل إلى عبادته وطاعته، بخلاف العكس، فإنه قال: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ (النساء: ٣٤)، ولم يقل إليهن سبيلاً، وأيضاً فاتخاذ السبيل إليه مأمور به، كقوله: ﴿ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ (المائدة: ٣٥).. وقوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ (الإسراء: ٥٦، ٥٧) فبين أن الذين يدعون من دون الله يطلبون إليه الوسيلة، فهذا مناسب لقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٤٢).

وقال: «وهو الصحيح المنقول عن السلف»[١]، واستند أصحاب هذا القول إلى عدة أدلة[٢].

وعموماً أياً كان المراد بالآية ـ سواء القول الأول أو الثاني ـ فالشاهد من كل ما سبق أنها دلت على بطلان اتخاذ آلهة تُعبد من دون الله تعالى من خلال إبطال ربوبيتها، وذلك ببيان اللازم لتعدد الأرباب، فإنه يلزم من ذلك:

أ ـ إما حتمية المغالبة بينها، وبالتالي خراب العالم ـ على عكس واقع الحال ـ فدل ذلك على وحدانية الله ووجوب توحيده، «لأن من شأن أهل السلطان في العرف والعادة أن يتطلبوا توسعة سلطانهم، ويسعى بعضهم إلى بعض بالغزو، ويتألبوا على السلطان الأعظم ليسلبوه ملكه أو بعضه.. فلو كان مع الله آلهة لسلكوا عادة أمثالهم..»[٣].

ب ـ أو الخضوع والاستعطاف والتقرب لذي العرش، للوصول لمرضاته، لأن هذه الآلهة ـ المعبودة مع الله ـ إنما عُبدت لتكون شفيعة لعابديها عند الله، فلو كانت كذلك، لكانت لا غنى لها عن الخضوع إلى الله، ـ فكيف يُجعل العبد الفقير إلى الله، المحتاج لعبوديته إلهاً مع الله[٤]؟! فالإلهية تقتضي عدم الاحتياج، وكفى بهذا دليلاً على فساد قول الكفار بإلهية الأصنام[٥].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص٨٨.

(٢) قد تحدث عنها سعود العريفي في كتابه: «الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد». ص ٣٢٣ وما بعدها.

(٣) تفسير ابن عاشور ١٤/ ٨٩.

(٤) انظر: تفسير السعدي ص ٤٨٨.

(٥) انظر: تفسير ابن عاشور ١٤/ ٩٠.

هذا هو منهج القرآن الكريم في استدلالاته على وحدانية الله وتوحيده إنه يستدل على ذلك بما سبق شرحه مما أسميته وعنونت له بـ«الأدلة الافتراضية على وحدانية الله وتوحيده».

حيث سلم الله ابتداء للمشركين بدعواهم أن له ولداً، ومعه شركاء يستحقون العبادة، ثم أبطل تلك الدعاوى بمناقشة عقلية هادئة حكيمة لمقتضاها ولوازمها، أو نتائجها الخاطئة المتضاربة الضالة، وفنّدها بوضع قواعد من جوامع الكلم، لو أعمل فيها الخلق عقولهم لشهدت بوحدانية الله، كما شهدت فطرتهم في سابق الأزمان.

إننا نجد أن القرآن الكريم ـ كما قال السعدي رحمه الله ـ «يُصرِّف الآيات والأدلة، ويقدم من الحجج العقلية والنقلية شيئاً كثيراً، لإقامة التوحيد الذي هو أصل الأصول، بحيث أن من أصغى إليها، أو إلى بعضها، لا تدع في قلبه شكاً ولا ريباً»[1].

وصدق الله في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ (الإسراء: ٤١).

ورغم ذلك كله لم يكتف الله عزوجل بتقديم ما سبق شرحه من أدلة التوحيد، بل نصب في كتابه أدلة أخرى على ذلك، ودعا خلقه العقلاء للإصغاء لها بإذن واعية، وتأمُّلٍ ودراسةِ آثارها في الواقع بعين باصرة، وهذا ما أشرحه بالتفصيل في المبحث الرابع من هذا الفصل.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي ص ٤٨٨ بتصرف.

المبحث الرابع

أدلة التوحيد العقلية المستنبطة من الأحداث التاريخية

تمهيد:

سبق القـول: إن الإسلام دعى العقلاء لإعمال عقولهم وتوظيفها فيما خُلقت له من: تأمل، ونظر، وتدبر، وتفكر، وفقه، وتذكر، واعتبار وتبصر، لما في الأنفس، ولما في السماوات والأرض، فكل ما في الكون من آيات.. تدل على باريها[1].

ومن هنا دعى الله خلقه لاستكشاف دلائل ومظاهر وحدانيته وتوحيده في كل شيء فيجدوا كل شيء يدل عليه سبحانه قال تعالى ـ مخاطباً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو الكفار إلى النظر فيما يرشدهم إليه ـ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس: ١٠١) قال الشوكاني رحمه الله: «والمراد بالنظر: التفكر والاعتبار»[2] ودعى الله خلقه أيضاً للاتعاظ والاعتبار من كل ما فيه عظة وعبرة، ومن ذلك تاريخ الأمم الماضية ـ الكافرة منها والمؤمنة ـ وسنن الله فيها، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ

---

(١) راجع ص١١١، وانظر: التربية الربانية القرآنية للنبي محمد ﷺ (رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم الدراسات الإسلامية ـ كلية التربية ـ جامعة صنعاء، ونوقشت سنة ٢٠٠٣هـ)، للباحث رشيد منصور الصباحي ص٢٢٨ وما بعدها (التربية العقلية).

(٢) فتح القدير ٢/ ٦٦٥.

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[١] وكما أن الله تعالى قد سجل في كتابه أخبار تلك الأمم، وأحوالها مع رسله عليهم السلام وذكر أيامه في أولئك الأقوام بحفظه للمؤمنين الموحِّدين ونصره لهم في عاقبة الأمر، وإهلاكه للكافرين المشركين ـ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[٢] فإنه سبحانه وتعالى قد أبقى آثار بعضهم من ديار أو قفار أو غير ذلك، ماثلة للعيان في الواقع المشاهد المحسوس ليتأمل الخلف ما فعل الله بأسلافهم المكذبين الظالمين، الذين كفروا بالله ورسله، قال تعالى ـ مخاطباً نبيه ﷺ وأمته تبعاً له ـ بعد سرده سبحانه لقصص نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى مع الأقوام الكافرين، وإهلاك الله لهم: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (هود: ١٠٠) والمرد بـ(القرى) هي القرى التي قصَّ الله من أنبائها في القرآن، وهي بعضها قائم كآثار قوم لوط، وفرعون، وسبأ، ونحو ذلك...

وبعضها بائدة مثل ديار عاد، وثمود، وقرية مدين ونحو ذلك.. والمقصود من هذه الجملة الاعتبار[٣].

ولم يكن الله ليهلك القرى إلا بعد إقامة الحجة على أهلها بإرسال رسله وإنزال كتبه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥).

---

(١) آل عمران ١٣٧، ونحوها في الأنعام ١١، النحل ٣٦، والنمل ٦٩.

(٢) الأنبياء ١٠٥، ونحوها في النور ٥٥، وغافر ٥١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٥/ ٣٣٤، و١١/ ٣٢٦.

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[١].

لقد شرح الله لنبيه ﷺ وللخلق أجمعين سبب إهلاكه لتلك القرى وصوّر حصده لها، مبيناً أنه ما ظلمهم بذلك، ولكن كانوا هم الظالمين فقال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٢].

ولقد أكثر الله من الآيات التي تبين عوامل تدميره للكفار ـ سواء تكذيبهم الأنبياء والمرسلين[٣]، أو ظلمهم لأنفسهم[٤] بعدم الإيمان بالله[٥] وإسقاطها في الشرك الأكبر[٦] المفضي لعذاب الله وعقابه في الدنيا والآخرة، أو غفلتهم عن الله وآياته[٧]، أو إفسادهم[٨] وعدم إصلاحهم في الأرض[٩] ـ أو غير ذلك.

---

(١) القصص ٥٩، ونحوها في الشعراء ٢٠٨، وغيرها كثير.

(٢) العنكبوت ٤٠، ونحوها في الكهف ٥٩، والقصص ٥٩، وغيرها كثير.

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الأنعام: ١١)، ونحوها في الملك ١٧، وغيرها كثير.

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (الكهف: ٥٩).

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: ٦).

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ (الروم: ٤٢).

(٧) كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٣١).

(٨) كما في قوله تعالى: ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٥).

(٩) كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود: ١١٧).

وأخبر بكثرة القرى التي قصمها[(١)] لشدة فسق أهلها[(٢)]، وإسرافهم في فجورهم[(٣)]، وظلمهم[(٤)]، وتماديهم في كفرهم كما اعترفت بذلك ألسنتهم، وشهد به لسان حالهم[(٥)]، فحاسبهم الله على ذلك حساباً شديداً ـ في الدنيا قبل الآخرة ـ وأوقع عليهم عذاباً نكراً[(٦)]، وأخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون[(٧)]، وأتاهم بأسه بياتاً أو هم قائلون[(٨)]، فترك قراهم كما وصفها سبحانه بأنها: ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ (الحج: ٤٥) وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (القصص: ٥٨)، وأخبر أنه ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ (الأحقاف: ٣٢).

ومن هنا خاطب الله المشركين من هذه الأمة مبيناً لهم قوته وقدرته المطلقة التي أيقن بها الجن[(٩)] قبل الإنس فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ (الأنبياء: ١١).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ (البقرة: ٥٩).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩).

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ (يونس: ١٣).

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (سبأ: ٣٤).

(٦) كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ (الطلاق: ٨).

(٧) كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٨).

(٨) كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ (الأعراف: ٤).

(٩) كما في قوله تعالى على لسانهم: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ (الجن: ١٢).

﴿فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (العنكبوت: ٢٢)، كما لفت أنظارهم إلى الذين كانوا أعتى وأشد منهم، كيف كان مصيرهم؟ وبيّن أنه أهلك كفار الأمم الماضية الذين كانوا ـ مقارنة بمن بعدهم ـ كما قال تعالى: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ (الروم: ٩) فقال: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝﴾ (غافر: ٢١، ٢٢).

فتلك سنن الله ـ الغالب القهار ـ، في المؤمنين والكفار، قال تعالى ـ آمراً نبيه ﷺ بمخاطبة المشركين ـ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ (الروم: ٤٢)، وغير ذلك من الآيات.

وقال تعالى تعجيباً من عدم اتعاظ الكفار واعتبارهم مما فعل الله بالمكذبين السابقين رغم مرورهم من بعدهم ببقايا ديارهم ـ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾[1].

إننا نجد أن الله تعالى يدعو أولي الألباب لتدبر سننه سبحانه في الأمم والجماعات والأفراد، وهي دعوة «جديرة بالدراسة والفهم.. فالنظر لسنن الله في ذلك من الأمور الهامة.. والواجبة ديانة، لأن معرفتها معرفة لبعض الدين»[2] واستجابة لنداء رب العالمين.

---

(١) طه ١٢٨، ونحوها في السجدة ٢٦.

(٢) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، أ.د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، بيروت ـ لبنان ص١٦ بتصرف يسير.

وهكذا فكل «الدعوات المتكررة.. ـ في كتاب الله ـ التي تلح على الناس أن ينظروا في تاريخ مَنْ قبلهم، ويدرسوا عوامل البقاء والفناء في المجتمعات، دراسة واعية متفتحة، بصيرة معتبرة، ليس دعوة لحفظ التاريخ ـ دونما هدف أو حكمة ـ وليست دعوة للتفكه بدراسته، والتظاهر بالعلم.. بل هي دعوة للاستفادة من تجارب البشرية السابقة.. فتاريخ الأمم وحياة المجتمعات في نظر الإسلام.. لم تكن أطواراً متعاقبة بغير معنى ولا هدف، ولا غاية، ولا نظام معروف.

إنها تَتْبَعُ سنة معينة.. في تمكين الموحِّدين على الأرض، تمكيناً يتبعه الخير والبركة.. وإقصاء المشركين الضالين.. وليس للبشرية في تاريخها كله سوى أحد هذين الطورين المتغايرين»[1].. وهذه هي سنة الله القائل: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (فاطر: ٤٣).

ومن هنا حكم الله بعمى البصائر قبل عمى الأبصار على الذين لا يسيرون في الأرض للاتعاظ والاعتبار من أخبار الكفار ـ المسموعة بالآذان، وبقايا ديارهم المعروضة للأعيان ـ فقال سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦).

وبعد أن ذكرتُ شرعية السير في الأرض، وضرورة استرجاع تاريخ الأمم الماضية، وأهمية ذلك في أخذ الدروس والعبر، وخاصة فيما يتعلق بعاقبة الذين كفروا.

---

(١) منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب ١/ ٩٤-٩٥ بتصرف يسير.

أقول: لا شك أن بقايا وآثار بعض الذين أهلكهم الله بكفرهم تعتبر دليلاً قوياً على وحدانية الله وتوحيده، وقبل أن أشرح ذلك مبينا وجه دلالتها العقلية على ألوهية الله أؤكد بأن موضوع قصص الغابرين من الموضوعات القرآنية الهامة، ولأهميتها هذه تكررت في كتاب الله حتى شغلت حيزاً كبيراً منه، قد يصل إلى الثلث تقريباً، وذلك ليتحقق اتعاظ واعتبار أولي الأبصار بما كان لهؤلاء الغابرين الذين كذّبوا الرسل، وناصبوهم العداء، وعتوا وتكبروا على الحق، بل صدوا عنه فاستحقوا التدمير الإلهي[1].

ونحن عندما نتأمل ما لحق بأولئك الأقوام وأماكن عيشهم من دمار وخراب إنما ننأى بأنفسنا عن غفلة قوم قال تعالى عنهم: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[2] فبعض أحداث الدمار التي سجلها الله ووثقها في أصدق كتاب عَرَفَتْهُ البشرية، قد أصبحت ظاهرة للعيان، وأمكن تحديد أماكنها بفضل هداية الله لذوي الكشوفات والدراسات الأثرية إلى مواقعها، لتكون عبرة لمن اعتبر، ويتحقق فيها نظر الإبصار إضافة إلى ما أمر الله به من نظر التفكر والاعتبار، فيزداد الذين آمنوا إيماناً ويُقمع الذين جحدوا كفراناً، ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ (النمل: ٩٣).

إن في تاريخ الأمم الماضية البائدة بسبب شركها وكفرها دلائل على وحدانية الله وتوحيده، يمكن أن نسميها بـ: «أدلة التوحيد العقلية المستنبطة من الأحداث

---

(١) انظر: الأمم البائدة، هارون يحيى، ترجمة: ميسون نحلاوي، مراجعة أورخان محمد علي، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، بيروت ـ لبنان ص١٠ بتصرف.

(٢) يوسف: ١٠٥، ونحوها في الفرقان ٤٠.

التاريخية»، ولكن قبل أن أبدأ بشرحها أُنوِّه إلى أن سوق مثل هذه الأدلة ليس لغرض إثبات صحة ما جاء في القرآن، فهذا الأمر بدهي لكل مؤمن، وإنما المقصود من ذلك الارتقاء بالإيمان من علم اليقين إلى عين اليقين، كما أن هذا الأمر هو نوع من الدعوة لغير المسلمين إلى الإسلام الدين الخاتم لكل الديانات السابقة والخالد إلى قيام الساعة.

وحتى يتضح ذلك رأيت تقسيم هذا المبحث إلى المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: دلائل التوحيد العقلية المتعلقة بالبقايا البشرية.

المطلب الثاني: دلائل التوحيد العقلية المستفادة من الآثار المعمارية.

«المطلب الأول»

«دلائل التوحيد العقلية المتعلقة بالآثار البشرية»

اشتملت الكشوفات الأثرية في العصر الحديث على نوعين من البقايا البشرية كالآتي:

النوع الأول: بقايا بشرية فردية محنطة[١] «كجسد فرعون[٢] موسى».

النوع الثاني: بقايا بشرية جماعية متحجرة «كأجساد سكان مدينة بومباي الإيطالية التي اشتهرت بالفجور»[٣].

واقتصر هنا على شرح النوع الأول، وبيان ما فيه من دلالة على وحدانية الله ووجوب توحيده.

---

(١) المحنطة: حَنَّطَ الميت: جعل عليه الحنوط، وهو كل دواء يمنع الفساد، والمقصود: البقايا البشرية التي لم تتعرض للتحلل الكامل أو الفساد المُغيِّر لهيئتها.
انظر: دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي ٣/ ٦٢٥.

(٢) فرعون: علَم جنس لملك مصر في القديم، أي قبل أن يملكها اليونان، وهو اسم من لغة القبط.. وهذا الاسم نظير (كسرى) لملك الفرس القدماء، و(قيصر) لملك الروم، و(نمروذ) لملك كنعان، و(النجاشي) لملك الحبش، و(تبع) لملك اليمن، و(خان) لملك الترك.
واسم فرعون الذي أُرسل موسى إليه: منفطاح الثاني، ويقال: منبتاح ومنفتاح ومنبتاج، وهو أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر، قيل أنه حكم مصر من سنة ١٢٣٠ ق.م حتى ١٢١٥ ق.م، (وقيل من عام ١٢٧٩-١٢١٢ق.م) ويدعى رمسيس الثاني. انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٨/ ٢٢٢، و:أطلس القرآن، للدكتور شوقي أبو خليل ص٨١.

(٣) انظر: الأمم البائدة لهارون يحيى.

إهلاك الله لفرعون موسى، وإبقاؤه لجسده آية للعالمين:

ذكر الله قصة موسى مع فرعون في أكثر من موضع في كتابه الكريم[١]، حيث أرسل الله موسى عليه السلام إلى ملك مصر آنذاك (فرعون) لدعوته للتوحيد، فأبى الاستجابة لذلك، بل سعى لقتل موسى ومن آمن معه، ولست هنا بصدد شرح تفاصيل ذلك، فقد ذكر أهل التفسير في هذا ما يكفي ويغني[٢].

إنما الذي يهمنا من هذا الأمر أن فرعون عندما استكبر عن الإيمان بالله وتوحيده وأصر على كفره، قائلاً لموسى: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٩) وقائلاً لقومه: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (النازعات: ٢٤) ومعلناً لملئه بقوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ (القصص: ٣٨) أهلكه الله غرقاً في البحر، كما قال سبحانه: ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ[٣] ﴾ (الذاريات: ٤٠) ثم نجّى بدنه ليكون عبرة لمن بعده، قال سبحانه: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾ (يونس: ٩٢).

---

(١) انظر: البقرة: ٤٩-٥٠، وآل عمران ١١، والأعراف: ١٠٣-١٣٠، ويونس ٧٥-٩٢ وغيرها كثير.

(٢) انظر ذلك في تفسيرهم للآيات الواردة في الحاشية رقم (٤) في جميع كتب التفسير، وخاصة:

أ ـ تفسير ابن كثير.　　ب ـ تفسير الشوكاني.

ج ـ تفسير الظلال لسيد قطب.　　د ـ تفسير ابن عاشور.

(٣) مُليم: أي ملوم، كافر، جاحد، معاند.

انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٥/ ٤٢٤.

هكذا اقتضت حكمة الله الذي أزهق روح فرعون، ولم يقبل إيمانه عندما أدركه الغرق[1]، وحفظ جسده بعد ذلك من التلف ليكون عظة وعبرة لكل كافر بعده، قال ابن عاشور: «والبَدَنُ الجسم بدون روح.. والمعنى ننجيك وأنت جسم.. و﴿ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ أي مَنْ وراءك.. والمراد من يخلفه من الفراعنة ومن معهم من الكهنة والوزراء، أي لتكون ذاتهُ آية على أن الله غالبٌ من أشركوا به، وأن الله أعظم وأقوى من فرعون وآلهته، لكل من يرى هذه الآية، إذ يرون فرعون الإله عندهم طريحاً على شاطئ البحر غريقاً، فتلك ميتة لا يستطيعون معها الدجل بأنه رُفع إلى السماء، أو أنه لم يزل يتابع بني إسرائيل، أو نحو ذلك من الأكاذيب، لأنهم كانوا يزعمون أن فرعون لا يُغلب، وأن الفراعنة حين يموتون إنما يُنقلون إلى ـ نعيم ـ في دار الخلود[2].. فموته بالغرق وهو يتبع أعداءه ميتة لا تُؤوَّل بشيء من ذلك، فلذلك جعل كونه آية لمن خلفه عِلَّةً لإخراجه من غمرة الماء ميتاً كاملاً، فهم مضطرون إلى الاعتراف بأنه غرق إذا نظروا في تلك الآية.. والظاهر أن الأمواج ألقت جثته على الساحل الغربي من البحر الأحمر، فعثر عليه الذين خرجوا يتقصّون آثاره ممن بقوا بعده بمدينة مصر، لما استبطؤوا رجوعه، ورجوع جيشه، فرفعوه إلى المدينة، وكان عبرة لهم»[3].

---

(1) وقد سجل الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس: ٩٠، ٩١).

(2) قال ابن عاشور في تفسيره ١١/ ١٧٢: «ولذلك كانوا يموهون على الناس فيبنون له البيوت في الأهرام، ويودعون بها لباسه وطعامه ورياشه، وأنفس الأشياء عنده».

(3) التحرير والتنوير ١١/ ١٧٣ بتصرف يسير.

وزاد ابن عاشور قائلاً: «قال ابن جريج كان فرعون هذا قصيراً أحمر، فلا نشك أن منفطاح الثاني مات غريقاً في البحر، وأنه خرجت جثته بعد الغرق، فدُفن في وادي الملوك في صعيد مصر».

وهكذا أنجى الله بدن فرعون لحكمة عظيمة بعد إغراقه، ثم جاء العلم الحديث، وكشف الفحص الطبي لجثة فرعون عن تطابق ما ورد في القرآن الكريم ـ بشأن مصير فرعون موسى بعد إغراقه في اليم ـ مع الواقع المتمثل في وجود جثته إلى يومنا هذا.

فقد قال صاحب كتاب «القرآن والعلم الحديث»[(١)]:

«إن التوراة تذكر أن الجثة ابتلعها البحر، ولكنها لا تعطي تفصيلاً بشأن ما حدث لها لاحقاً.

أما القرآن فيذكر أن جثة الفرعون.. سوف تُنْقَذ من الماء كما جاء في الآية السابقة، وقد أظهر الفحص الطبي.. أن الجثة لم تظل في الماء مدة طويلة، إذ أنها لم تظهر أية علامات للتلف التام بسبب المكوث الطويل في الماء»[(٢)] وعندما التقى

---

(١) هو الدكتور موريس بوكاي، طبيب فرنسي جراح من أشهر أطباء فرنسا، اعتنق الإسلام بعد دراسة مستفيضة للقرآن الكريم وإعجازه العلمي.
انظر علم الإيمان، للزنداني ١/ ٢٢٤.

(٢) نقلاً عن الشيخ عبدالمجيد الزنداني من كتابه علم الإيمان ١/ ٢٢٤.
وقد جاء ذكر غرق فرعون في التوراة في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج بعبارات مختلفة.
انظر: الكتاب المقدس أي كتب العهد القديم والعهد الجديد، وقد تُرجم من اللغات الأصلية، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، الطبعة (بدون)، د.ت البلد (بدون) ص١٠٩-١١١.
وانظر: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، لموريس بوكاي، ترجمة الشيخ حسن خالد (مفتي لبنان)، المكتب الإسلامي، ط، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، بيروت ـ دمشق ص٢٧٦-٢٨٠.

الشيخ عبد المجيد الزنداني[1] بالدكتور موريس بوكاي ـ صاحب الكتاب المشار إليه وسأله عن حقيقة جسد فرعون، وغرقه في الماء، أكد بوكاي أنه كان أحد الأطباء الذين قاموا بالكشف على جثة فرعون، فوجدوا فيها:

---

(١) هو الشيخ عبد المجيد بن عزيز بن حمود الزنداني، من قبيلة أرحب اليمانية المحيطة بصنعاء، ولد في مديرية السَّدة بمحافظة إب ـ وسط اليمن ـ عام ١٩٤٢م، له إسهامات كبيره في الدعوة إلى الله، ونشر كلمة الحق، وتصحيح مسار الثورة اليمنية، ودستور الوحدة، كان قد بدأ دراسة الصيدلة في مصر، ثم تخصص في أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة محاولاً إثبات السبق العلمي للقرآن الكريم، وعمل أميناً عاماً للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في مكة، استشهد بأعماله كبار العلماء والمختصين في الطب والعلوم الكونية، شارك في بعض الأبحاث والدراسات الجامعية العالمية، أسلم على يده عدة علماء وأطباء، أسس جامعة الإيمان عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، في صنعاء ويعمل حالياً رئيساً لها ومحاضراً فيها، يُعتبر أحد أعلام الإسلام المجددين في الحياة المعاصرة، وهو قوى الحجة والبرهان، جريء في قول كلمة الحق، نذر نفسه ووقته وصرف جهده للعمل للدين، كان له إسهام كبير في مقارعة الشيوعيين والقوميين بعد الثورة اليمنية عام ١٩٦٢م، ألف كتباً في مجال التوحيد، منها ما دُرِّس في المدارس الحكومية مثل توحيد الخالق، ومنها ما يدرس في جامعة الإيمان مثل علم الإيمان الجزء ١، ٢. وغير ذلك من الكتب وأشرطة الكاسيت والفيديو وأقراص الليزر التي تتحدث عن أركان الإيمان وبراهينه – بأسلوب عصري حديث، من أبرز أشرطة الفيديو التي صدرت له شريط (إنه الحق) حيث ناظر فيه ما يقرب من أربعة عشر عالماً من علماء الغرب، أسلم بعضهم على يديه. وأكثر الدول العربية تنشر محاضراته عبر القنوات التلفزيونية تم تعيينه عضواً في مجلس رئاسة الدولة عام ١٩٩٣م.
لا يزال يواصل أبحاثه العلمية الإيمانية حالياً عبر جامعة الإيمان، وله محاولات ناجحة إلى حدٍ ما في تصنيع دواء لبعض أمراض السكر وفيروس الكبد والإيدز وغيرها.
ومن مؤلفاته: ـ علم الإجنة في ضوء القرآن والسنة (بالتعاون مع مجموعة علماء غرب)، وبينات الرسول ﷺ ومعجزاته. وغيرها كثير.
مصدر الترجمة: من خلال مقابلتي الشخصية له في منزله في ٣/ ٣/ ١٤٢٦هـ ـ ١٢/ ٤/ ٢٠٠٥م.

١- آثار الموت غرقاً. ٢- آثار ملح ماء البحر.

٣- ما يدل على تكسّر العظام دون تمزق الجلد واللحم ـ كما أظهرت أشعة (×) ـ مما يدل على أن كسر العظام كان بسبب ضغط الماء.

وبيّن الدكتور بوكاي وجه الإعجاز في هذه القضية قائلاً: «وفي العصر الذي وصل فيه القرآن للناس عن طريق محمد [ﷺ]، كانت جثث كل الفراعنة.. مدفونة بمقابر وادي الملوك بطيبة على الضفة الأخرى للنيل أمام مدينة الأقصر الحالية ـ بمصر ـ في عصر محمد [ﷺ] كان كل شيء مجهولاً عن هذا الأمر، ولم تكتشف هذه الجثث إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

وبالتالي فإن جثة فرعون موسى التي ما زالت ماثلة للعيان إلى اليوم[١] ـ انظر شكل (١) ـ تُعدُّ شهادة مادية في جسد محنط رفض صاحبه دعوة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام، فأماته الله وأبقى جسده، وحفظه من التلف التام ليصبح آية للناس، ودليلاً ناصعاً على وحدانية الله وتوحيده.

---

(١) يمكن رؤية جثة فرعون حالياً في صالة المومياءات الملكية في المتحف المصري في القاهرة في ميدان التحرير وقد ذهبت بنفسي لرؤيته ورأيته محنطاً داخل تابوت زجاجي، باسم رمسيس الثاني، وكان ذلك في تاريخ ١٨/ ٥/ ٢٠٠٥م وتفيد المعلومات التي استقيتها من القائمين على المتحف والوثائق المتعلقة بفرعون موسى أنه حكم مصر من عام ١٢٧٩ ـ ١٢١٢ق. م، حيث استمرت مدة حكمه ٦٧عاماً، وغرق وعمره ٩٢عاماً، مع ملاحظة أن بعض أهل التفسير يذكرون أنه حكم مصر من عام ١٢٣٠-١٢١٥ق. م، ولكن يبدو أن قول المفسرين غير صحيح، والذي يدل على عدم صحة هذا القول، أنَّ موسى عليه السلام كانت ولادته في زمن حُكم فرعون، واستمر على ذلك إلى أن جاءه موسى يدعوه إلى الله، وكان الرسول لا يكلف بالرسالة إلاّ بعد بلوغ أربعين سنة، والله أعلم متى بدأ حكمه لمصر.

وتتضح وجه الدلالة العقلية لهذا الدليل الحسي التاريخي على وحدانية الله وتوحيده من خلال التوضيح التالي:

إذا تقرر لدينا شرعاً من القرآن أن الله تعالى أهلك فرعون وأبقى جثته آية وعبره لمن خلفه، وتأكد لنا أن سبب إهلاك الله له هو كفره بالله وادعاؤه الربوبية والألوهية من دون لله سبحانه، وإصراره على ذلك ـ كما سبق شرحه حتى لحظة الغرق، حيث أنجى الله المؤمنين الموحدين (كموسى ومن آمن معه) وأغرق الكافرين المشركين (كفرعون وملئه وجنوده)، وثبت لنا حسا من الواقع وجود جثة فرعون موسى، ثم جاءت الدراسات والفحوص الطبية فأكدت أن هذا الجسد قد مات غرقاً، وأثبتت أنه جسد فرعون موسى.

إذا تقرر ذلك فقد دل هذا بما لا يدع مجالاً للشك على أنَّ الله تعالى ينصر أولياءه الذين يدعون لتوحيده بعد أن يبذلوا ما في وسعهم لتعبيد الخلق لرب العالمين، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف: ١١٠) ويخذل أعداءه وخاصة الذين ينازعونه الكبرياء والعظمة (كفرعون موسى). قال تعالى عن نصره لموسى ومن معه على فرعون وملئه وجنوده: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٧) فكان هذا دليلاً تاريخياً حسياً على وحدانية الله وتوحيده.

شكل: (١)

قال تعالى:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ (يونس: ٩٢).



«فرعون موسى»

توجد جثته الآن في صالة المومياءات الملكية في المتحف المصري في القاهرة

وهكذا جاء الواقع مطابقاً تماماً لسنة الله في الأمم، الكافرة منها والمؤمنة، ونواميسه المذكورة في القرآن المثبتة في واقع الإنسان.

حتى أن موريس بوكاي الذي فحص جثة فرعون لم يتمالك بعد هذا التطابق بين الواقع والقرآن إلا أن يتلفظ بشهادة التوحيد معلناً إيمانه برب العالمين(١).

لقد اقتضى تطابق الحقائق التاريخية المسجلة بأقلام الصادقين الأمناء مع الواقع المشاهد المحسوس عن الجسد الفرعوني انتقال دليل التوحيد الحسي التاريخي ـ المذكورة نصوصه وقصص أهله في القرآن ـ من علم اليقين إلى عين اليقين إن لم تكن قد ارتقت إلى حق اليقين، فكان هذا دليلاً عظيماً على وحدانية الله وتوحيده ـ وخاصة توحيد الربوبية ـ.

وهكذا هو منهج القرآن في تقديمه وعرضه لأدلة التوحيد التاريخية، إنه ينصب معالم وشواهد على ذلك من التاريخ الإنساني، فيأتي الله بقوم يكتشفون ذلك، فيدللون ـ بقصد أو بغير قصد ـ على صدق ما قاله الرحمن، وما آمن به أهل الإيمان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣) إن عقل العاقل الذي قرر صدق المقدمات السابق شرحها لا يتردد أبداً في اليقين بصدف النتائج أو الدلالات المراد إيصالها والوصول إليها.

---

(١) انظر علم الإيمان، للزنداني ١/ ٢٢٤.

«المطلب الثاني»

«دلائل التوحيد العقلية المستفادة من الآثار المعمارية»

سبقت الإشارة إلى إهلاك الله للمشركين بسبب شركهم رغم توعدهم لأنبياء الله ورسله بالطرد من بلادهم أو موافقتهم على ملتهم قائلين لهم ـ كما سجله القرآن ـ:

﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ (إبراهيم: ١٣، ١٤).

وحقق الله وعده للمؤمنين الموحدين، ووعيده للكافرين المشركين، فأخذهم، وأسكن المرسلين وأتباعهم الأرض من بعدهم، وأبقى أطلال ديار بعضهم، وآثار عمرانهم شاهدة على ذلك كله، فكانت شهادة من التاريخ على وحدانية الله وتوحيده ـ وخاصة ما يتعلق بتوحيد الربوبية ـ.

ومن هؤلاء الذين أبقى الله آثار وجودهم، وحَفِظَ بقايا مساكنهم:

«قوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط وقوم سبأ، وغيرهم».

وأكتفي هنا بشرح ما يتعلق بالأقوام المشار إليهم:

أولاً: الكشوفات الأثرية المتعلقة بعاد(*) (قوم هود):

ذكر الله في كتابه قصة قوم عاد في أكثر من موضع، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ[1] أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ (هود: ٥٠).

وقوله سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (الشعراء: ١٢٣-١٢٦) وغيرها من الآيات التي تشير إلى دعوة هود قومه للتوحيد، وتذكيره لهم بنعم الله عليهم[2]، وتخويفه إياهم من عاقبة تماديهم في كفرهم.

وقوم عاد كانت مساكنهم بالأحقاف، وهي جبال الرمل، ويسميها المؤرِّخون من غير العرب (أوبار جزيرة الرمال)[3]، وتقع الأحقاف جنوبي الجزيرة العربية، وتحديداً في اليمن، وهذا ما ذكره ابن كثير[4]، ووافقه عليه جمع من المفسِّرين: بل حدَّد ابن عاشور أن منازلهم كانت بالشِّحْرِ ـ بكسر الشِّين المعجمة، وسكون الحاء المهملة.. وهي الرمال التي بين حضرموت

(*) هم أبناء عاد بن عُوص بن إرم بن سام بن نوح، كانوا عشر قبائل وقيل ثلاث عشرة.
انظر: تفسير ابن عاشور ٨/ ١٥٤.

(١) أي أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً.

(٢) وهي مذكورة في سورة هود ٥٠-٦٠، والشعراء ١٢٣-١٤٠.

(٣) انظر: الأمم البائدة، لهارون يحيى ص٧١ وما بعدها.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣١٨-٣١٩.
وذكر معاني أخرى للأحقاف.

وعُمان[١]. فقد عاش قوم هود في شمال حضرموت حيث كان يحدهم من الشمال صحراء الربع الخالي، ومن الشرق عُمان ـ انظر الخريطة رقم(أ) ـ .

وعاد أمة عظيمة من العرب البائدة[٢] وصفها الله في أكثر من آية، من ذلك قوله لرسوله ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ ﴾[٣]، وقوله على لسان نبيهم هود عليه السلام: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً[٤] ﴾ (الأعراف: ٦٩)، وقوله أيضاً: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ (الشعراء: ١٣٠).

---

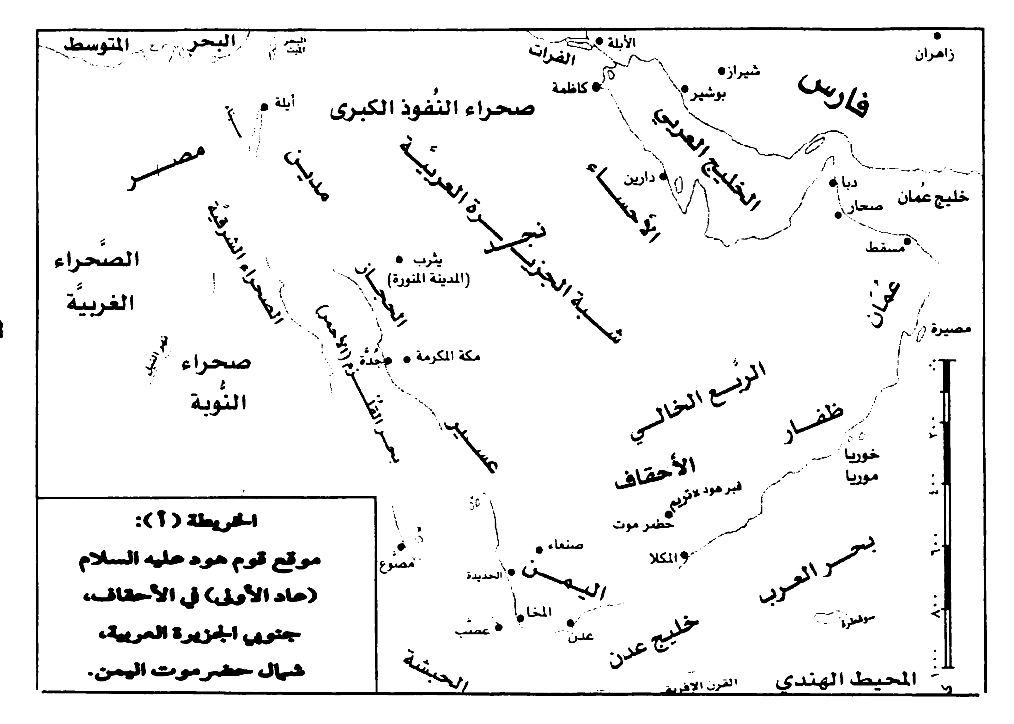
(١) التحرير والتنوير ٨/ ١٥٥. وقد أقرَّ ابن كثير الروايات التي تنص على أن قبر هود عليه السلام هناك في الأحقاف ـ والله أعلم بصحة ذلك ـ انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٤٨ وذات مرة كنت في تريم حضرموت فوجدت الناس يشدون الرحال إلى الأحقاف لزيارة قبر هود ـ كما يقولون ـ وهذا طبعاً مخالف للسنة، إضافة إلى عدم ثبوت صحة قبر هود هناك، وعدم تأكيد ذلك بالراويات الصحيحة.

(٢) تفسير ابن عاشور ٨/ ١٥٤ وقال في موضع آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ (النجم: ٥٠): «... ومعنى كونها أولى لأنها أول العرب ذكراً، وهم أوَّل العرب البائدة، وهم أوَّل أمة أُهلكت بعد قوم نوح، وأما القول بأن عاداً هذه لما هلكت خلفتها أمة أخرى تُعرف بعاد إرم أو عاد الثانية كانت في زمن العماليق فليس بصحيح، ويجوز أن يكون الأُولى وصفاً كاشفاً، أي عاداً السابقة وقيل الأُولى صفة عظمة، أي الأولى في مراتب الأمم قوَّة وسعة». التحرير والتنوير ٢٧/ ١٥١

(٣) الفجر٦ -٨، وسنأتي لمعنى (العماد) فيا يلي ص٣٤٧.

(٤) ذكر البغوي في تفسيره أن المقصو بالآية المذكورة أعلاه أي: زاد كم في الخلق «طولاً وقوة... كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع، وقامة القصير منهم ستين ذراعاً..» وذكر أقوالاً أخرى. انظر: تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل) لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (٤٣٣-٥١٠)هـ ، حققه وخرَّج أحاديثه محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م ـ الرياض ـ السعودية ٣/ ٢٤٢-٢٤٣.

الخريطة (أ)


البحر المتوسط
البحر الميت
أيلة
الأبلة
الفرات
كاظمة
شيراز
بوشير
زاهران
فارس
صحراء النفود الكبرى
مصر
مدين
الخليج العربي
دارين
الأحساء
شبه الجزيرة العربية
نجد
دبا
صحار
خليج عمان
مسقط
الصحراء الغربية
الصحراء الشرقية
يثرب (المدينة المنورة)
الحجاز
بحر القلزم (الأحمر)
جدة
مكة المكرمة
عمان
مصيرة
صحراء النوبة
الربع الخالي
ظفار
عسير
خوريا
موريا
الأحقاف
قبر هود بتريم
حضر موت
صنعاء
المكلا
مصوع
الحديدة
اليمن
بحر العرب
المخا
عصب
عدن
خليج عدن
سوقطرة
الحبشة
القرن الأفريقي
المحيط الهندي
الخريطة (أ):
موقع قوم هود عليه السلام
(عاد الأولى) في الأحقاف،
جنوبي الجزيرة العربية،
شمال حضر موت اليمن.

لقد اغتروا بقوتهم حتى قالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ (فصلت: ١٥) قال تعالى عنهم وعن أمثالهم ـ مخاطباً رسول الله ﷺ في سياق التهديد لكفار قريش ـ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ (ق: ٣٦) تشير الآية إلى أن الأمم السابقة ـ ومنهم عاد قوم هود ـ كانوا متصفين بصفتين:

اولاهما: شدة البأس، وذلك نتيجة لقوة أبدانهم وأنظمتهم القتالية، حتى تمكنوا من السيطرة على الأرض بالقوة.

الثانية: الثراء الفاحش والنعيم العظيم حتى تمكنوا من بناء القصور والحصون فوق الجبال.

ورغم ما كان يتمتع به قوم عاد من القوة العظيمة والنعيم العظيم، إلا أن الله تعالى أهلكهم لعدم إيمانهم به، وإصرارهم على كفرهم، قائلين لهود عليه السلام: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ ﴾ (هود: ٥٣، ٥٤).

فأوقع الله عليهم العقوبة وسجّل تفاصيل ذلك في كتابه قائلاً سبحانه: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝ ﴾ (الحاقة: ٦-٨)، وغير ذلك من الآيات التي تشرح

ما فعل الله بهم[1]، حتى صار حالهم كما قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ (الأحقاف: ٢٥).

والشاهد من كل ما سبق أن الله تعالى أهلك عاداً لكفرهم وعدم إيمانهم به وحده، ولم تغن عنهم قوّة أجسادهم وكثرة أموالهم من الله شيئاً.

ثم جاءت الكشوفات التاريخية الحديثة، والاكتشافات الأثرية عن مدينتهم (إرم) فأكدت ما أنزله الله بهم، مما سجّله المؤرخون، وتناقلته الأجيال حتى عصرنا هذا، فإن التنقيبات المتأخرة لعلماء الآثار قد أثبتت وجود بقايا عاد (قوم هود) في جنوب الجزيرة العربية، بل تمكنت الأقمار الصناعية لوكالة ناسا الأمريكية من تصوير موقعهم، ثم جاءت الحفريات بعد ذلك فأظهرت آثارهم وأكدت وجود مدينتهم تحت ناحية من صحراء الربع الخالي على عمق أثنى عشر متراً ـ انظر الشكل(٢) ـ .

وقد استدل علماء الآثار على أن هذه المدينة هي عاد المذكورة في القرآن الكريم من خلال:

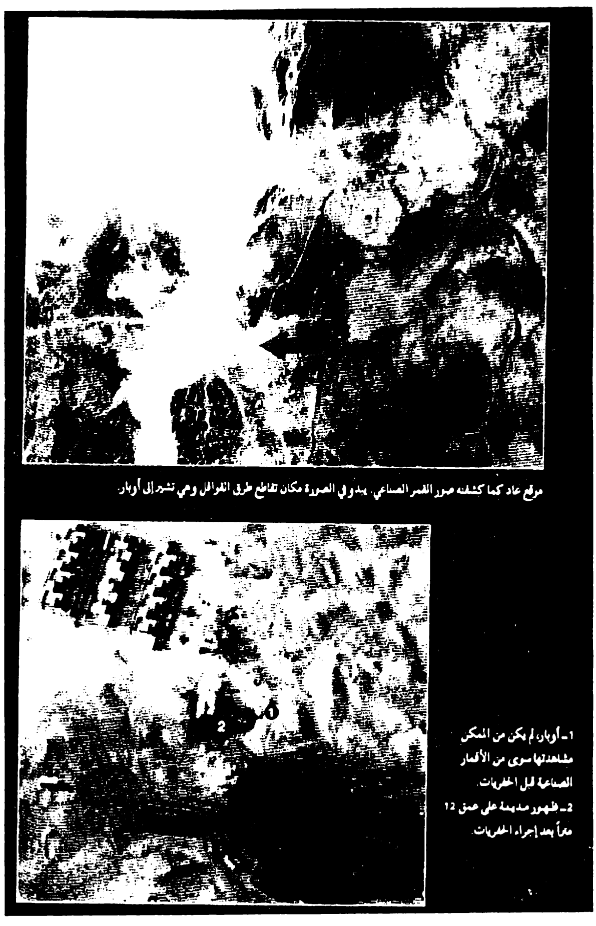
أ - الأبراج والأعمدة التي ظهرت أثناء التنقيبات، وميَّزت هذه المنطقة عن غيرها من المناطق، وهذا مطابق تماماً لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ ﴾ (الفجر: ٦، ٧) والمقصود بـ ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ أي ذات الأعمدة الطويلة القوية ـ الدعائم ـ أو الأعلام التي بنوها في طرقهم ليهتدي بها المسافرون كما قال المفسرون[2].

---

(١) كما في سورة القمر ١٩-٢٠.

(٢) انظر التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣٠/ ٢٨٢.

شكل (٢)



موقع عاد كما كشفته صور القمر الصناعي. يبدو في الصورة مكان تقاطع طرق القوافل وهي تشير إلى أوبار.

١ ـ أوبار، لم يكن من الممكن مشاهدتها سوى من الأقمار الصناعية قبل الحفريات.

2 ـ ظهور مدينة على عمق 12 متراً بعد إجراء الحفريات.

ملاحظة: المقصود بلفظ (أوبار) المذكور في الصورة: جبال الرمل التي غطّت موقع قوم هود (عاد).

ب - فخامة وعظمة بعض قصورها كما ذكر المنقبون، وهذا موافق لما جاء في قوله تعالى على لسان هود مخاطباً قومه:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾

(الشعراء: ١٢٨، ١٢٩).

والمقصود بقوله ﴿ رِيعٍ ﴾ المكان المرتفع، أو الطريق والفج بين الجبلين، ومعنى ﴿ ءَايَةً ﴾ أي علامة دالة على الطريق، و﴿ مَصَانِعَ ﴾ جمع مصنع، وهو الجابية المحفورة في الأرض أو المبنية بالجير حيث تُتخذ لتخزين الماء، وتسمى صهريجاً[(١)] وماجلاً[(٢)].

وقيل إن المقصود بـ ﴿ مَصَانِعَ ﴾ القصور التي بناها قوم عادٍ فكانت آية وعلامة على إتقان صانعها وعظمة صاحبها[(٣)].

جـ ـ السجلات التاريخية الجغرافية لصحراء الربع الخالي التي كشفت أن جزءاً منها كان في يوم من الأيام حدائق غناء، وكانت أرضها شديدة الخصوبة، (ذات ينابيع عذبه ـ رغم إحاطة الصحراء بها ـ وقد كشفت صور الأقمار الصناعية الحديثة لهذه المنطقة عن استخدام أهلها في سابق الأزمان لنظام ريٍّ واسع يتألف من قنوات وسدود عديدة استخدمت للري.

---

(١) يوجد في عدن صهاريج عظيمة كما رأيناها يقال أنها من عهد عاد وقوم هود.

(٢) ماجلاً: المجْل: أثر العمل في الكف... وقيل: المجل أن يكون بين الجلد واللحم ماء... والماجل هو مستنقع الماء... والماجل هو الماء الكثير المجتمع.أ.هـ. لسان العرب، لابن منظور ١٣/ ٣٢، مادة: مجل.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٩/ ١٧٥.

ثم ذهب هذا كله بفعل التغيرات المناخية الصحراوية[1] المصاحبة واللاحقة لإهلاك الله قوم عاد.

وعند التأمل فيما سبق ذكره ومقارنته بما جاء في القرآن الكريم نجد أن هذه الكشوفات التاريخية ونتائج صور الأقمار الصناعية لمنطقة إرم ذات العماد تتوافق مع ما ذكره الله عز وجل وسجله في كتابه قبل مئات السنين وخاصة ما يتعلق بحدائق قوم عاد، قال تعالى على لسان هود مخاطباً قومه: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ ﴾ (الشعراء: ١٣١-١٣٤) فأكّد ذلك صدق ما آمن به الموحدون مما جاء في القرآن الكريم، وصِدْق النبي الذي جاء به، وقبل أن أشرح وجه الدلالة العقلية لذلك كله على وحدانية الله وتوحيده، أذكر ما يتعلق بقوم ثمود ولوط وسبأ.

---

(١) ذكر هارون يحيى نقلاً عن بعض الأبحاث التي قام بها معهد سميث سونيان smithosonian في الباكستان أن بعض الصحاري ـ ومنها صحراء الربع الخالي التي فيها بقايا قوم عاد ـ كانت تمتد بمعدل ١٥سم يومياً، وبهذه السرعة يمكن للرمال ابتلاع الأبنية الشاهقة.

انظر: الأمم البائدة، ص٧١.

ثانياً: المنحوتات الحجرية المتعلقة بديار ثمود(*) (قوم صالح):

جاءت ثمود بعد عاد، فأرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام ومساكن ثمود هي الحِجْر(١). وتسمى «مدائن صالح» وتقع بين الحجاز والشام جنوب شرق أرض مدين(٢) ـ شمال غرب المملكة العربية السعودية ـ انظر الخريطة رقم (ب).

«وثمود أمة عظيمة من العرب البائدة»(٣)... وقد كانوا مشركين بالله كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٧٦) والخطاب هنا لمن آمن من المستضعفين، وغير ذلك من الآيات(٤). يقول ابن عاشور: «الظاهر أنهم عبدوا الأصنام التي عبدتها عاد لأن ثمود وعاداً أبناء نسب واحد..، وقد قال المفسرون إن ثمود قامت بعد عاد فنمت وعظمت، واتسعت حضارتُها، وكانوا موحِّدين، ولعلهم اتعظوا بما حلَّ بعاد، ثم طالت مدَّتُهم، ونَعِمَ عيشهم، فعتوا، ونسوا نعمة الله، وعبدوا الأصنام، فأرسل الله إليهم صالحاً رسولاً يدعوهم إلى التوحيد، فلم يتبعه إلا قليل مستضعفون، وعَصَاهُ سادتُهم وكبراؤهم»(٥).

(*) هم أبناء ثمود بن جَاثَر ـ بجيم ومثلثة ـ ابن إرم بن سام بن نوح، فهم يلتقون مع عاد في إرم. انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٨/ ١٦٦.

(١) انظر: صحيح البخاري بشرح د/ مصطفى البُغا ٣/ ١٢٣٦، والرحيق المختوم، للمباركفورى ص٤٣٤.

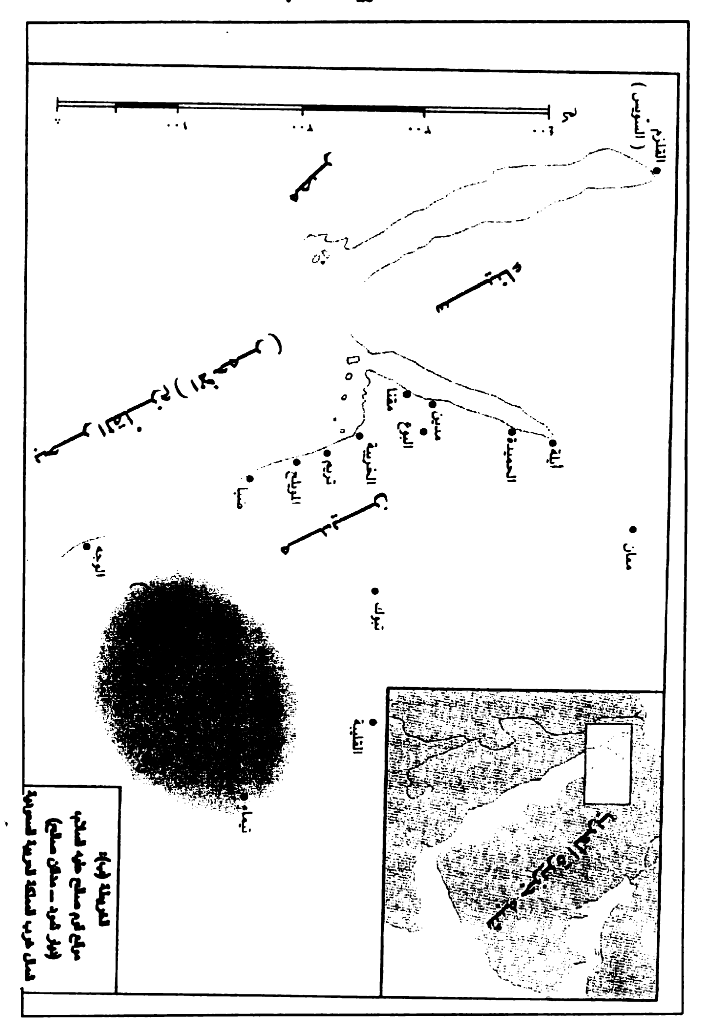
(٢) تقع حالياً شرق خليج العقبة ومساكنهم ظاهرة منحوتة في الصخر. انظر أطلس القرآن، للدكتور شوقي أبو خليل ص٣٦ وتفسير ابن عاشور ١٩/ ٢٧٤

(٣) تفسير ابن عاشور ٨/ ١٦٦.

(٤) كما في نفس السورة آية: ٧٣.

(٥) التحرير والتنوير ٨/ ١٦٧.

الخريطة (ب)


القلزم (السويس)
أيلة
الحميدة
مدين
مقنا
البدع
الخريبة
ضبا
الوجه
معان
تبوك
تيماء

وقد ذكر الله قصة صالح مع قومه في أكثر من موضع في كتابه، وذكر أنه جاءهم بآية من عند الله ـ بناء على طلبهم ـ كما يدل عليه قوله سبحانه على لسانهم: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (الشعراء: ١٥٤) فجاءهم بناقة الله دلالة على صدق رسالته إليهم، وقال لهم كما سجّل القرآن ـ : ﴿ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ[1] فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ ﴾ (الأعراف: ٧٣، ٧٤) وقال أيضاً: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود: ٦١) وقال كذلك: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ ﴾ (الشعراء: ١٤٦-١٥٢).

لكنهم أصروا على كفرهم، واستمروا في شكّهم[2]، وتشكيكهم بنبوة صالح عليه السلام[3] وتآمروا على قتله، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ

---

(١) وفي سورة الفجر: ٩ ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ أي: قطعوا الصخر واتخذوا منه بيوتاً. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٥/ ٥٨٢.

(٢) كما يتبين من ردهم عليه قائلين: ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (هود: ٦٢)، ونحوها في إبراهيم: ٩.

(٣) كما يتبين من قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ (الأعراف: ٧٥).

رَهْطٍ(*) يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ(١) لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(النمل: ٤٨، ٤٩).

والمعنى: أنه كان في مدينة صالح وهي الحِجْر تسعة رجال من أبناء أشرافهم، رؤساء، يتبع كلَّ واحد منهم رهط، قال بعضهم لبعض: اقسموا الأيمان بالله ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ أي لنأتينه بغتة في وقت البيات، فنقتله وأهله، ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ ﴾ لرهط صالح الذي له ولاية الدم ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾ أي ما حضرنا، ولا ندري من قتله وقتل أهله(٢).

قال الشوكاني: «ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدل على نفي شهودهم لنفس القتل بالأَوْلى»(٣).

قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل: ٥٠) وكان مكر الله بهم أن بادرهم باستئصالهم قبل أن يتمكنوا من تبييت صالح وأهله(٤).

(*) الرهط: العدد من الناس حوالي العشرة، وهو مثل النفر، وإضافة تسعة إليه ـ في الآية ـ من إضافة الجزء إلى اسم الكل على التوسع..، وقد تشاءم بعض الناس بعدد التسعة بسبب قصة ثمود، وهو من التشاؤم المنهي عنه.ا.هـ. انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٩/ ٢٧٤.

(١) يتضح من خلال قولهم (تقاسموا بالله) أنهم كانوا يعترفون بالله، ولكنهم يشركون به في توحيد الألوهية.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٣/ ٢١٦.

(٣) فتح القدير ٤/ ١٩٠، وقد فسّر بعضهم (مهلك) بالهلاك وهو المصور.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٩/ ٢٧٦.

قال ابن عاشور:

«المراد بالمكر المسند إلى الجلالة هو ما دلت عليه جملة: ﴿ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النمل: ٥١).

ولم يكن تدمير الله لثمود ـ قوم صالح ـ إلا بعد أن عقروا الناقة ـ التي طلبوها آية على صدقه ـ ، كما قال تعالى: ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ[1] فَعَقَرَ ﴾ (القمر: ٢٩)، فلما عقروا الناقة توعّدهم نبيهم صالح بالهلاك كما يدل عليه قول الله: ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (هود: ٦٥) فأمهلهم ثلاثة أيام مجيء عذاب الله الذي طلبوه.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ[2] فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (هود: ٦٦، ٦٧).

---

(١) فتعاطى: أي خسر، وتعاطى مطاوع عاطاه، وهو مشتق من عطا يعطو، إذا تناول، وصيغة تفاعل تقتضي تعدد الفاعل، شبَّه تخوف القوم من قتلها لما أنذرهم به رسولهم من الوعيد وترددهم في الإقدام على قتلها بالمعاطاة، فكل واحد حين يحجم عن مباشرة ذلك ويشير بغيره كأنه يعطي ما بيده إلى يد غيره حتى أخذه قدار بن سالف.
انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٦/ ٤٤.
و: التحرير والتنوير ٢٧/ ١٩٢-١٩٣.

(٢) وقال في سورة الحاقة: ٥ ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾، والصيحة هي الصاعقة، والرجفة هي الزلزلة، والطاغية هي ما تجاوزت الحال المتعارف عليه في الشدة، فشبَّه فعل الصيحة والرجفة بفعل الطاغي المتجاوز الحد في العدوان والبطش.
انظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ١٠٧.

وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ[١] ﴾ (الأعراف: ٧٨) وقال أيضاً: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝ ﴾ (النمل: ٥٢، ٥٣).

هذا مختصر قصة نبي الله صالح مع قومه ثمود ـ في دعوته إياهم للتوحيد، والشاهد من كل ما سبق أن الله تعالى أهلكهم لكفرهم، وجعلهم آية وعبرة لمن بعدهم.

وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ والمسلمين مروا بديار ثمود «مدائن صالح»، وهي بقايا تلك المدينة من أطلال وبيوت منحوتة في الجبال ـ وكان ذلك أثناء سيرهم إلى غزوة تبوك في طريق الشام، فقال ﷺ لأصحابه: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين» ثم قنّع رأسه، وأسرع بالسير حتى جاز الوادي[٢].

---

(١) الجاثم هو المكب على صدره في الأرض مع قبض ساقيه كما يجثو الأرنب، ولما كان ذلك أشد سكوناً وانقطاعاً عن اضطراب الأعضاء استُعمل في الآية كناية عن همود الجثة بالموت، ويجوز أن يكون المراد تشبيه حالة وقوعهم على وجوههم حين صُعقوا بحالة الجاثم تفظيعاً لهيئة ميتتهم، والمعنى أنهم أصبحوا جثة هامدة ميتة على أبشع منظر لميت، انظر: التحرير والتنوير ٨/ ١٧٦.

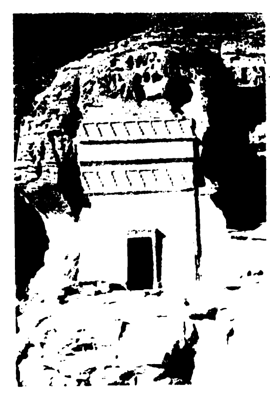
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١٢٣٧، في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ (هود: ٦١) برقم ٣٢٠٠، عن ابن عمر ما، ورواه في مواضع أخرى، في كتاب التفسير، باب: ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين، ورواه مسلم في ٤/ ٢٢٨٥ برقم ٢٩٨٠.

وختاماً: أقول: رغم أن الله تعالى أخبر بما فعله بثمود قوم صالح، ووثّق ذلك في كتابه الخالد فاستمرت آيات الله، وشواهد قدرته ووحدانيته معروضة للناس ومحفوظة إلى قيام الساعة، إلا أن الله تعالى أبقى مدائن صالح عليه السلام ماثلة للعيان عبر غابر الأزمان حتى الآن، فكان ذلك تأكيداً تاريخياً جغرافياً على ما آمن به أهل الإيمان مما جاء في القرآن عن قوم ثمود. ـ انظر الأشكال (٣، ٤) ـ.

وصدق الله عز وجل في قوله ـ عن إهلاكه لعاد وثمود من بعدهم لتكذيبهم الرسل ـ: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ (العنكبوت: ٣٨).

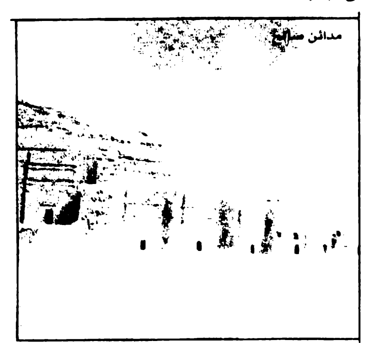
فإن في إهلاك الله للقرى الظالم أهلها، وتحقيقه النجاة لأهل الإيمان ما قاله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل: ٥٢) أي: يعلمون أن الله تعالى واحد لا يرضى بالشرك، ولا يأذن بدوامه وبقاء أهله على الأرض دون أن يمسهم عذاب من ربهم الديان، وكان ذلك آية أيضاً على أنه لا نجاة ولا أمان إلا بالمبادرة إلى عبادة الرحمن.

شكل (٣)

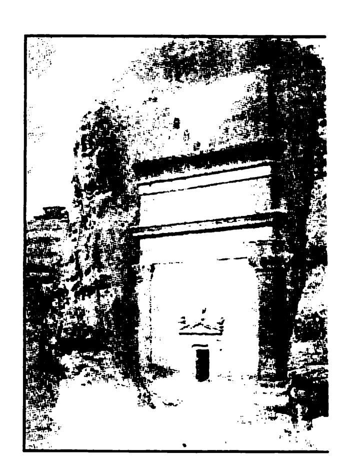


مدائن صالح

لقد أخبر تعالى عن إهلاك كفار الأمم الماضية مؤكداً أن منهم قوم صالح (ثمود): ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ (الفجر: ٩) أي قطعوه واتخذوا منه بيوتاً.

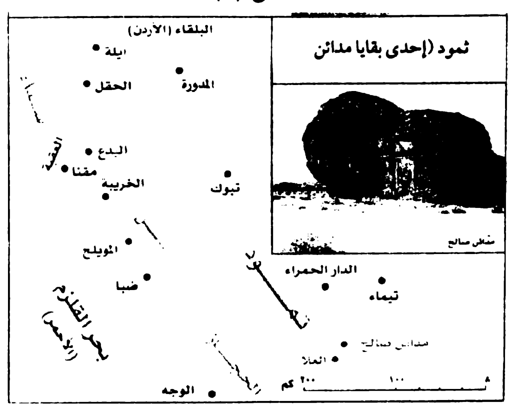


قال تعالى: على لسان صالح عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٤).

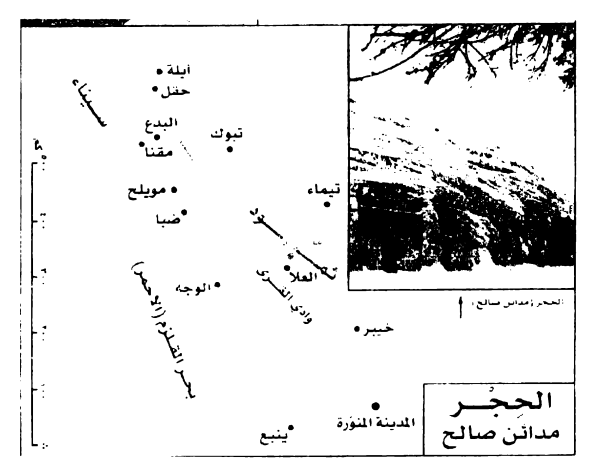


إحدى بقايا آثار قوم ثمود في (مدائن صالح) في شمال غرب المملكة العربية السعودية (انظر الخريطة ب)

شكل (٤)



لقد امتن صالح على قومه بنعم الله عليهم قائلاً لهم: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ (الشعراء: ١٤٦-149)



قال تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل: ٥٢)

ثالثاً: بقايا قرى قوم لوط عليه السلام:

قصّ الله علينا في القرآن الكريم قصص أقوام كذبوا المرسلين، وأسرفوا في الفجور والفواحش، ومن هؤلاء قوم لوط الذين قال لهم رسول الله لوط ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ ﴾ (الشعراء: ١٦٢، ١٦٣) وحذّرهم من فعل الفاحشة قائلاً: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ ﴾ (العنكبوت: ٢٨، ٢٩) لكنهم كانوا كما قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾[1] فدعى عليهم رسولهم لوط بالهلاك قائلاً ـ كما في القرآن ـ : ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣٠) فاستجاب الله له، وأرسل رسل العذاب عليهم، قال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ (هود: ٧٧) لقد قدّر الله إهلاكهم وسجل ذلك قائلاً: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝ ﴾ (هود: ٨٢، ٨٣) وغير ذلك من الآيات التي تشرح ما فعل الله بهؤلاء القوم[2].

---

(١) الشعراء: ١٦٠، وجاء القرآن بصيغة الجمع (المرسلين) مع أن المرسل إليهم هو نبي واحد ـ لوط عليه السلام ـ للإشارة أن التكذيب برسول واحد والكفر به يعني التكذيب بالجميع.

(٢) كما في سورة القمر ٣٧-٣٨، والحجر ٧٣-٧٦، والشعراء ١٧٢-١٧٥، وغيرها.

والشاهد من كل ما سبق أن قوم لوط عليه السلام عندما كفروا به وكذبوه وتحدوه أن يأتيهم بعذاب من عند الله الذي أرسله إليهم لدعوتهم للتوحيد فأبوا، دعا ربه فاستجاب الله دعوته قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ (القمر: ٣٨) فأصابهم العذاب ودمر قراهم (سدوم) و(عمورة) من أرض كنعان (فلسطين)، وهاتان القريتان على شاطئ البحر الميت[١] أو ما يُسمى (ببحيرة لوط) قرب أورشليم (فلسطين)[٢] ـ انظر الخريطة رقم (ج) ـ[٣] ولا تزال البحيرة ماثلة للعيان حتى الآن ـ انظر الشكل(٥) ـ بل لا تزال بقايا قرى قوم لوط قائماً بعض آثارها حتى اللحظة ـ انظر الشكل (٦) ـ وفي هذا قال تعالى ـ مخاطباً كفار قريش ـ ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٤٠)!! وفي إهلاك الله لقوم لوط[٤] على كفرهم من الدلالة على التوحيد ما في غيرهم ممن أهلكه الله.

وسأشرح وجه الدلالة العقلية على ذلك، بعد ذكر ما يتعلق بقوم سبأ.

---

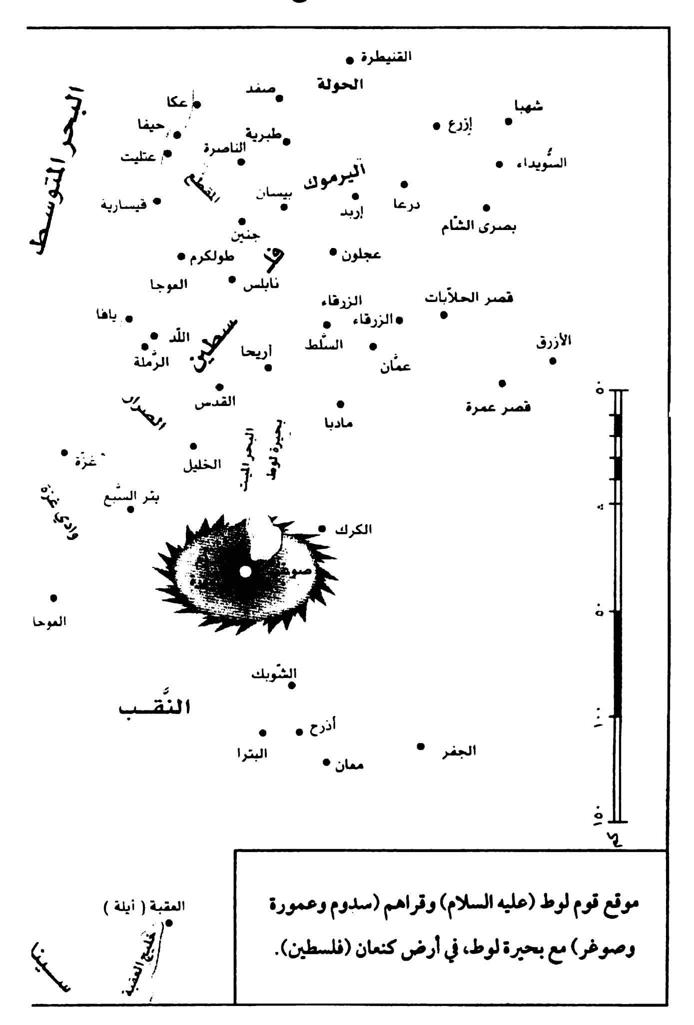
(١) وقال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ الآية (التوبة: ٧٠): «المؤتفكات: جمع مؤتفكة، اسم فاعل من الائتفاك، وهو الانقلاب، أي القرى التي انقلبت، والمراد بها، قرى صغيرة كانت مساكن قوم لوط، وهي: سدوم، وعمورة، وأدمة، وصبويم، وكانت قرى متجاورة، فخسف بها، وصار عاليها سافلها..». انظر: التحرير والتنوير ١٠/ ١٥٠-١٥١، و٢٩/ ١١٢.

(٢) المرجع السابق ٨/ ١٧٨.

(٣) ويلاحظ في الخريطة قرية صوغر، وهي المنطقة التي يقال: إن بعض قوم لوط لجؤوا إليها عندما حل العذاب بهم. انظر: أطلس القرآن، للدكتور شوقي أبو خليل ص٦١.

(٤) لمزيد من التفصيل عن قوم لوط، انظر الاكتشافات العلمية التاريخية الحديثة عنهم ـ على أيدي علماء الغرب ـ مع صور للأحجار الكبريتية التي أنزلها الله عليهم، في موقع Sadoom باللغة الإنجليزية في شبكة المعلومات العنكبوتية العالمية (الإنترنت).

الخريطة (ج)



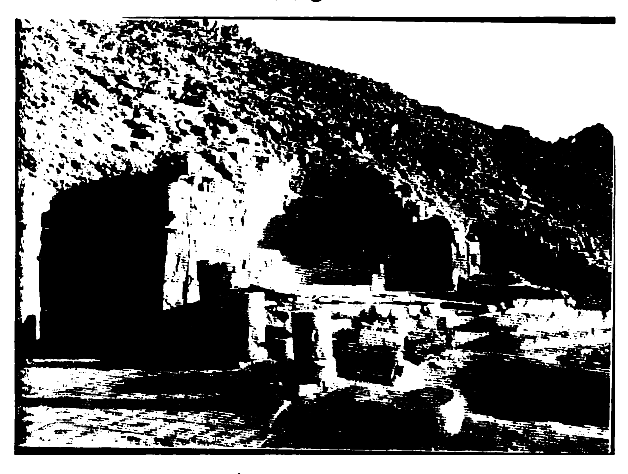
موقع قوم لوط (عليه السلام) وقراهم (سدوم وعمورة وصوغر) مع بحيرة لوط، في أرض كنعان (فلسطين).

شكل (٥)

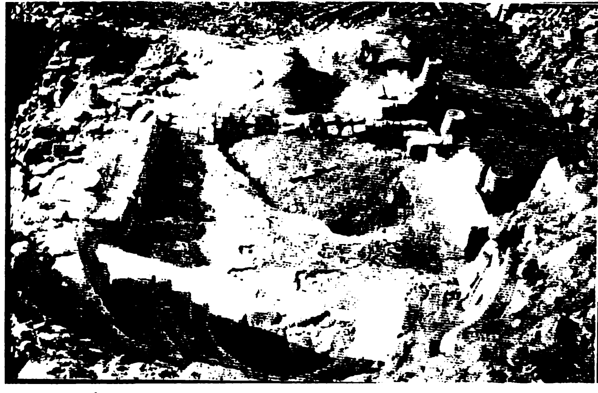


صورة التقطها القمر الصناعي لمنطقة قوم لوط قرب البحر الميت (بحيرة قوم لوط) ويلاحظ في الصورة موقع القدس الشريف.

شكل (٦)



بقايا المدينة التي انزلقت إلى بحيرة لوط، والتي عثر عليها على ضفاف البحيرة وتدل هذه البقايا على أن قوم لوط كانوا على مستوى معيشي راقي



بقايا قرى قوم لوط ـ قال تعالى مخاطباً كفار قريش: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ... ﴾ (الفرقان: ٤٠)

رابعاً: الآثار المتعلقة بسبأ وجنّتيها:

تضمن القرآن سورة كاملة سُميت بسورة سبأ ـ أشار الله فيها إلى قوم سبأ الذين تحدث عنهم في أكثر من موضع في كتابه[١].

وقد سبق الحديث عن إنكار هدهد سليمان ما وقع من شرك مَلِكة سبأ وقومها بسجودهم للشمس ـ من دون الله، ثم استسلامها لسليمان عليه السلام، ومجيئها إليه، وإسلامها على يده[٢].

وأتحدث هنا عن طائفة من قوم سبأ بأرض اليمن كانت لهم حضارة عريقة جنوب الجزيرة العربية، في مدينة سبأ[٣] المعروفة اليوم باسم مأرب

---

(١) في سورة النمل ٢٣-٤٤ وسبأ ١٥-٢١.

(٢) راجع ص ٣١٠.

(٣) «اسم سبأ يُطلق على الأمة كما في سورة سبأ، ويطلق على بلادهم كما في سورة النمل، وسبأ (بهمزة في آخره، وقد يُخفف، هو: اسم رجل يقال له: عَبْشَمْس ـ وقيل عبد شمس ـ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، لُقِّب بسبأ لأنه أول من سبي في غزوة.. وهو جد من أجداد العرب. وذريته كانوا باليمن ثم تفرقوا ـ انظر الخريطة رقم(هـ)، واسم سبأ غلب على القبيلة المتناسلة من سبأ المذكور وهم من الجذم القحطاني المعروف بالعرب المستعربة، أي الذين لم ينشأوا في بلاد العرب، ولكنهم نزحوا من العراق إلى بلاد العرب، وأول نازح منهم هو يعرب (بفتح الياء وضم الراء)، بن قحطان (وبالعبرانية يقطان) بن عامر بن شالخ بن أرفخشد (وبالعبرانية أرفكشاد) بن سام بن نوح.. ولما انتقل يعرب سكن جنوب البلاد العربية اليمن، فاستقر بموضع بني فيه مدينة ظَفَار (بفتح الظاء المشالة المعجمة وكسر الراء) فهي أول مدينة في بلاد اليمن، وانتشر أبناؤه في بلاد الجنوب الذي على البحر وهو بلاد (حضرموت)، ثم بنى ابنه يشجب (بفتح التحتية وضم الجيم) مدينة صنعاء، وسمّى البلاد باليمن، ثم خلفه ابنه عبّشمس (بتشديد الموحدة) وساد قومه، ولُقّب سبأ، واستقل بأهله =

«بمعنى الماء الغزير»[1]، وهي تقع شرق صنعاء على مسافة ١٧٠كم ـ انظر الخريطة رقم(د) ـ.

= فبنى مدينة مأرب حاضرة سبأ.. وقد انفردت سبأ بالملك في حدود القرن السابع عشر قبل الهجرة، وكان أشهر ملوكهم أو أولهم: الهدهاد بن شرحبيل، ويُلقب اليَشْرَح (بفتح التحتية وفتح الشين المعجمة وفتح الراء مشددة وبحاء مهملة في آخره، ثم وليت بعده بلقيس ابنة شرحبيل أيضاً أو شراحيل.. وكان أهل سبأ صابئة يعبدون الشمس».

انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٩/ ٢٤٦-٢٤٨.

وعن عبد الرحمن بن وعْلَة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «بل هو رجل وَلَدَ عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون فَمَذْحِجْ، وكِنْدَه، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحِمْيَر، وأما الشامية فلخم، وجذام، وعاملة، وغسّان» رواه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٣٩٢ برقم ٢٨٩٨ وقال ابن كثير: وهذا إسناد حسن انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٣٨. وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

انظر: عمدة التفسير ٣/ ٨٤.

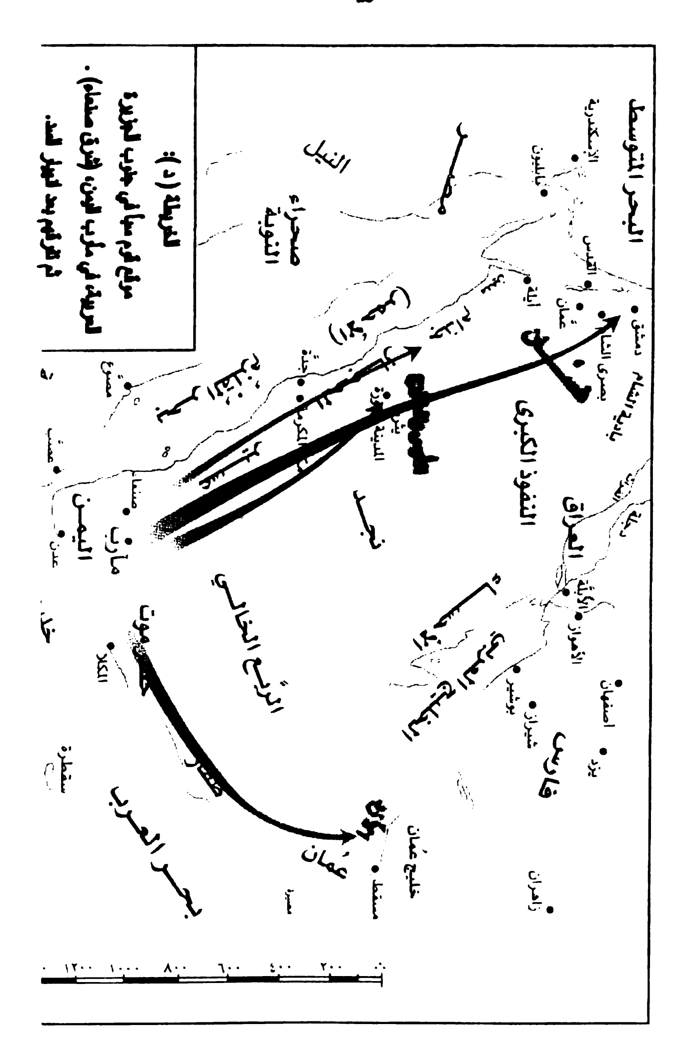
وأخرج ابن جرير في تفسيره ٢٢/ ٩٢ نحو الحديث السابق، وذكره الترمذي في ٥/ ٣٣٧ في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة سبأ، برقم ٣٢٢٢ عن فروة بن مسيك المرادي، وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب.

قال ابن كثير في تفسيره ٣/ ٨٥: «ومعنى قوله ﷺ [ولد له عشرة من العرب] أي كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم وُلِدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينهم الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر.. وبعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها». أ.هـ.

انظر: تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٧.

(١) انظر: أطلس القرآن، للدكتور شوقي أبو خليل ص١٤٧.

الخريطة (د)


البحر المتوسط
الإسكندرية
بابليون
القدس
عمّان
أيلة
دمشق
بصرى الشام
بادية الشام
الفرات
دجلة
العراق
الأبلّة
الأهواز
اصفهان
يزد
فارس
زاهران
شيراز
بوشير
النفوذ الكبرى
الخليج العربي
الأحساء
مصر
النيل
صحراء النوبة
جذام
(الأحمر)
يثرب
المدينة المنورة
نجد
مكة المكرمة
جدّة
بحر القلزم
الربع الخالي
خليج عُمان
مسقط
عُمان
بحر العرب
حضرموت
مأرب
صنعاء
اليمن
عدن
مصوّع
المكلا
سقطرة
الخريطة (د):
موقع قوم سبأ في جنوب الجزيرة العربية، في مأرب اليمن، (شرق صنعاء).
ثم تفرقهم بعد انهيار السد.

فقد كانت مياه السيول تتجمع في وادي يجري بجوار سبأ، وهناك بُني السد الشهير بسد مأرب، ومنه كان يستقي أهلها، وتُروى بساتينها، قال تعالى عما أنعم به على هؤلاء القوم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ[1] كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سبأ: ١٥) كانوا في حدائق غنّاء، وأراضي خصبة، قال ابن كثير رحمه الله يصف حالهم: «وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم، وعيشهم، واتساع أرزاقهم، وزروعهم، وثمارهم»[2]، وقال عن سد مأرب: «وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً[3] حتى ارتفع الماء، وحُكم على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا

---

(١) وقد أشار هارون يحيى إلى أحد الكتاب الإغريق (بلين) ـ في الزمان الماضي ـ الذي زار منطقة سد مأرب حينها وأسهب في مدحها وقال: (إنها أراضي واسعة وخضراء). انظر: الأمم البائدة لهارون يحيى ص١١٨، و: المكتشفات في أرض الإنجيل، هوميل، طبعة عام ١٩٠٣م، فيلادلفيا. ص٧٣٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٥.

(٣) قال ابن عاشور في تفسيره ٢٢/ ٣٧: وقد (شرع في بنائه سبأ أول ملوك هذه الأمة، ولم يتمه فأتمه ابنه حمير، وأما ما يقال من أن بلقيس بنته فذلك اشتباه إذ لعل بلقيس بنت حوله خزانات أخرى فرعية، أو رممت بناءه ترميماً أُطلق عليه اسم البناء، فقد كانوا يتعهدون تلك السدود بالإصلاح والترميم كل سنة.. وهذا السد حائط طوله من الشرق إلى الغرب ثمانمائة ذراع وارتفاعه بضع عشرة ذراعاً وعرضه مائة وخمسون ذراعاً..

وذكر هارون يحيى بنحو ما ذكر ابن عاشور حيث أشار إلى أن ارتفاع سد مأرب القديم كان ١٦ متراً، وعرضه ٦٠ متراً، وطوله ٦٢٠ متراً، وهذا يعني أنه حسابياً يمكن أن يروي ٩٦٠٠ هكتاراً من الأراضي،.. وقال: ويعتبر سد مأرب الذي كان أحد أهم معالم هذه الحضارة دليلاً واضحاً على المستوى الفني المتقدم الذي وصل إليه هؤلاء القوم، انظر: الأمم البائدة ص١٧، ١٨.

الأشجار، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحُسن...، حتى أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار، وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه، من غير أن يحتاج إلى كلفة أو قُطَّاف[(١)]، لكثرته ونضجه واستوائه..»[(٢)].

وإضافة لما أنعم الله به على قوم سبأ بالجنات عن يمين وشمال سدهم أو مدينتهم، فقد أنعم عليهم أثناء سفرهم بتقدير سيرهم فجعله لا يتجاوز أياماً معدودات بلياليها كما قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ (سبأ: ١٨).

قال ابن عاشور أي: «أنهم كانوا إذا خرجوا من مأرب إلى بلاد الشام للتجارة.. وغيرها.. يجدون قرية أو بلداً[(٣)] للاستراحة والتزود، فكانوا من أجل ذلك لا يحملون معهم أزواداً.. فهذه القرى (ظاهرة) أي متقاربة بحيث يظهر بعضها لبعض، ويتراءى بعضها من بعض،.. أو هي ظاهرة للسائر من بُعد.. كونها مبنية على الآكام والظراب يشاهدها المسافر، فلا يضل طريقها[(٤)].

---

(١) لكن ابن عاشور نبه في تفسيره ٢٢/ ٣٥ إلى أن هذا من المبالغات ـ ولعله مصيب في ذلك.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٥.

(٣) احتمل ابن عاشور في تفسيره ٢٢/ ٤١-٤٢ أن سبأ هم الذين أقاموا تلك المباني عند كل مرحلة من مراحل أسفارهم، واستنبطوا فيها الآبار والمصانع، وأوكلوا بها من يحفظها، ويكون لائذاً بهم عند نزولهم، فيكون ذلك من جملة ما وطد لهم ملكهم من أسباب الحضارة والأمن على القوافل.

(٤) وقيل في معنى آخر أن المقصود من قوله تعالى (ظاهرة) أي خارجة عن المدن، فهي في ظواهر المدن،.. وذلك كناية عن وفرة المدن حتى أن القرى كلها ظاهرة منها. انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية ١٣/ ١٣١.

لقد كان سيرهم لا يتجاوز مقدار مرحلة، فكان الغادي يقيل في قرية، والرائح يبيت في قرية..»[١].

ومن نعم الله أيضاً على قوم سبأ أن جعلَهم أصحاب قوة وقتال شديد إلى حد إعجابهم وافتخارهم بذلك، كما يتضح من رد قواد جيشهم على مَلِكَتهم ـ زمن سليمان عليه السلام ـ عندما أخبرتهم بوصول رسالته إليها المتضمنة دعوتهم جميعاً للاستسلام له[٢]. ثم قالت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ (النمل: ٣٢) فردوا عليها بقولهم: ﴿ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (النمل: ٣٣) .

لكنهم رغم هذا كله لم يشكروا الله عزوجل ـ ربهم ـ الذي أنعم عليهم بكل ما سبق وغيره، وقال لهم: ﴿ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ[٣] بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ[٤] ﴾ (سبأ: ١٥).

---

(١) المرجع السابق ٢٢/ ٤١-٤٢٢ بتصرف واختصار.

(٢) كما جاء في قوله تعالى على لسانها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل: ٢٩-٣١).

(٣) جملة: ﴿ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ﴾ مقولة قول إما:

أ ـ من دلالة لسان الحال. ب ـ وإما أبلغوه على لسان أنبياء بُعثوا منهم.

ج ـ أو من غيرهم مما قاله سليمان بلقيس عليه السلام.

د ـ أو مما قاله الصالحون من رسل سليمان إلى سبأ. انظر: التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٥.

(٤) «غفور» أي متجاوز عن كفرهم الذي كانوا عليه قبل إيمانهم مع بلقيس بدين سليمان ـ عليه السلام ولا يُعلم مقدار مدة بقائهم على الإيمان ـ أو غفور إن شكرتم على ما رزقكم.

انظر: المرجع السابق، ٢٢/ ٣٦، و: فتح القدير ٤/ ٤٢٢-٤٢٣.

ولم يوحدوه، بل أعرضوا عن ذلك وعبدوا الشمس[1] والقمر، واتخذوا لذلك المعابد ـ انظر الشكل (٧) ـ.

وبطروا النعمة، وقالوا ﴿ رَبَّنَا بَٰعِدْ[2] بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (سبأ: ١٩).

(١) قال ابن عاشور في تفسيره ٢٢/ ٣٦: «أعرضوا عن الاستجابة لدعوة التوحيد بالعودة إلى عبادة الشمس بعد أن أقلعوا في زمن سليمان وبلقيس، فلعل بلقيس كانت حوّلتهم من عبادة الشمس، فقد كانت الأمم تتبع أديان ملوكهم ـ ولا زالت ـ . وقد قيل إن بلقيس لم تعمر بعد زيارة سليمان إلا أربع سنين».

(٢) قال الشوكاني في تفسيره ٤/ ٤٢٥: «وكان هذا القول منهم بطراً وطغياناً لما سئموا النعمة ولم يصبروا على العافية، فتمنوا طوي الأسفار، والتباعد بين الديار، وسألوا الله تعالى أن يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة والماء والشجر والأمن: المفاوز والقفار والبراري المتباعدة الأقطار.. فكانت دعوتهم هذه كدعوة بني إسرائيل حيث قالوا لموسى: ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا ﴾ (البقرة: ٦١)، مكان المن والسلوى».

وبنحو قول الشوكاني قال ابن عاشور في تفسيره ٢٢/ ٤٣.

شكل (٧)



بقايا معبد الشمس في مأرب القديمة حيث كانت ملكة سبأ وقومها يعبدون الشمس ـ قبل إسلامها على يد سليمان عليه السلام قال تعالى على لسان الهدهد ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (النمل: ٢٤)

فأنزل الله عليهم عقوبته، قال تعالى ـ مبيناً ما أنزله بهم من عذاب وعقاب لظلمهم بعدم الإيمان بالله وحده[١]، وعدم شكرهم له على نِعَمِه التي أسبغها عليهم ـ : ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ[٢] جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ[٣] وَأَثْلٍ[٤] وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ[٥] قَلِيلٍ ﴾ (سبأ: ١٦).

وقال أيضاً: ﴿ ... فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (سبأ: ١٩).

والمقصود أنهم لما كفروا بالله بعد دعوتهم للتوحيد أذن الله بعقوبتهم، بأن قدّر أسباب انهدام السد[٦]، فاندفع ما فيه من الماء فكان لهم غرقاً وإتلافاً للأنعام

---

(١) أشار الشوكاني إلى أن الله تعالى بعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم، وكذا ابن عاشور قال بنحو ما قاله الشوكاني. انظر فتح القدير ٤/ ٤٢٣، والتحرير والتنوير ٢٢/ ٣٥.

(٢) قال ابن عاشور في تفسيره ٢٢/ ٣٩: «وإطلاق اسم الجنتين على هذه المنابت مشاكلة للتهكم.. كقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الانشقاق: ٢٤)»، وانظر فتح القدير ٤/ ٤٢٣.

(٣) خمط: الخمط هو الأراك، أو هو كل شجرة مرة ذات شوك، أو هو كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله، أو كلُّ شيء تغيّر إلى ما لا يشتهى.

(٤) وأثل: الأثل هو الطَّرفاء أو الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء، وقيل هو الخشب أو شجر النطار، أو السّمُر، ولا ثمر للأثل.

(٥) سدر: معروف، وهو ذو ثمر قليل وشوك كثير، انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ١٨، و:فتح القدير ٤/ ٤٢٣-٤٢٤.

(٦) ذكر ابن كثير أن من الأسباب المادية لانهدام السد الجُرَذ (الجرذان)، لكن ابن عاشور رد ذلك وقال: (ولا تُعرف.. أسباب انهدام السد، والظاهر أن سبب انهدامه اشتغال ملوكهم بحروب داخلية بينهم ألهتهم عن تفقد ترميمه حتى تخرب، أو يكون قد خربه بعض من حاربهم من أعدائهم، وأما ما يُذكر في القصص من أن السد خربته الجرذان فذلك من الخرافات). انظر: تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٨، و: التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٨.

والأشجار، ثم أعقبه جفاف باختلال نظام تساقط الأمطار، وانعدام الماء وقت الحاجة إليه، وهذا جزاء على إعراضهم وشركهم[1].

لقد عبّر الله عز وجل عن إغراق أرض سبأ بلفظ (فأرسلنا عليهم) وتعدية الفعل (أرسل) بحرف (على) في قوله (عليهم) للإشارة بأنه «إرسال نقمة، فإن سيل العرم كان محبوساً بالسد.. فكانوا يرسلون منه بمقدار ما يسقون جناتهم..»[2] لكنهم عندما أعرضوا عن شكر الله جعله عليهم سيلاً عارماً، و(العرم) «يجوز أن يكون وصفاً من الشدة والكثرة.. ويجوز أن يكون اسماً للسيل الذي كان يَنْصَبُّ في السد.. ـ والخلاصة أن ـ المعنى: أرسلنا السيل الذي كان مخزوناً في السد»[3] فدمّره الله[4]، وأبقى آثار ذلك ـ انظر الشكل رقم (٨).

وهكذا كانت عاقبة القوم الذين أعرضوا عن الله، وترفعوا عن شكره، وهلكت تلك المنطقة بكاملها.

وبدأت أراضي المنطقة بالتصحر ـ انظر الشكل رقم (٩) ـ.

وتفرق القوم بعد هذه الكارثة إلى جنوب بلاد الشام، وتهامة، وعُمان، ويثرب، وغيرها. ـ انظر الخريطة رقم (هـ) ـ.

واليوم تقف آثار مأرب المهجورة، التي كانت في يوم من الأيام موطناً للسبئيين، آية من آيات الله بتعذيب أولئك الذين يُعرضون عن التوحيد.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٧ بتصرف.

(٢) نفسه: ٢٢/ ٣٦.

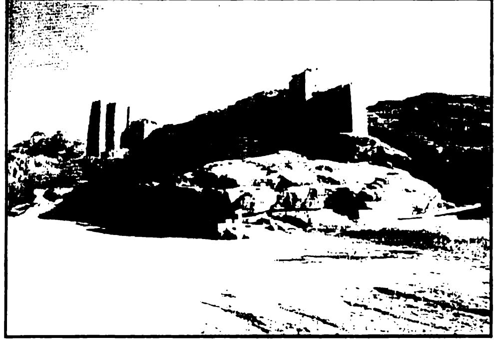
(٣) نفسه ٢٢/ ٣٧.

(٤) بينما يذكر ابن عاشور أنه لا يعرف وقت انهدام السد، يرى هارون يحيى أن ذلك كان عام ٥٤٢م. انظر التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٨، والأمم البائدة ص١١٨.

شكل (٨)



بقايا سد مأرب القديم وحوله أشجار الخمط والأثل

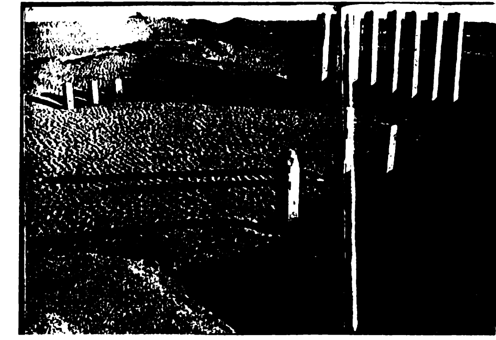


بقايا سد مأرب القديم ويلاحظ في الصورة مجرى السيول والأودية التي كانت تتجمع فيه



قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سبأ: ١٥).

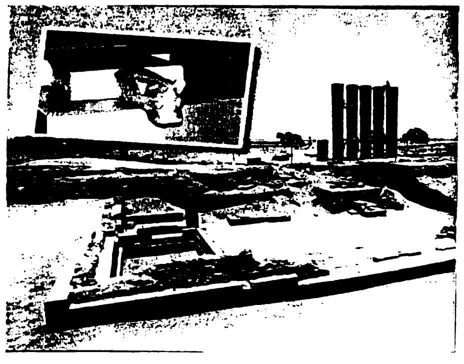
شكل (٩)



موقع مأرب القديمة وقد
صارت صحراء قاحلة

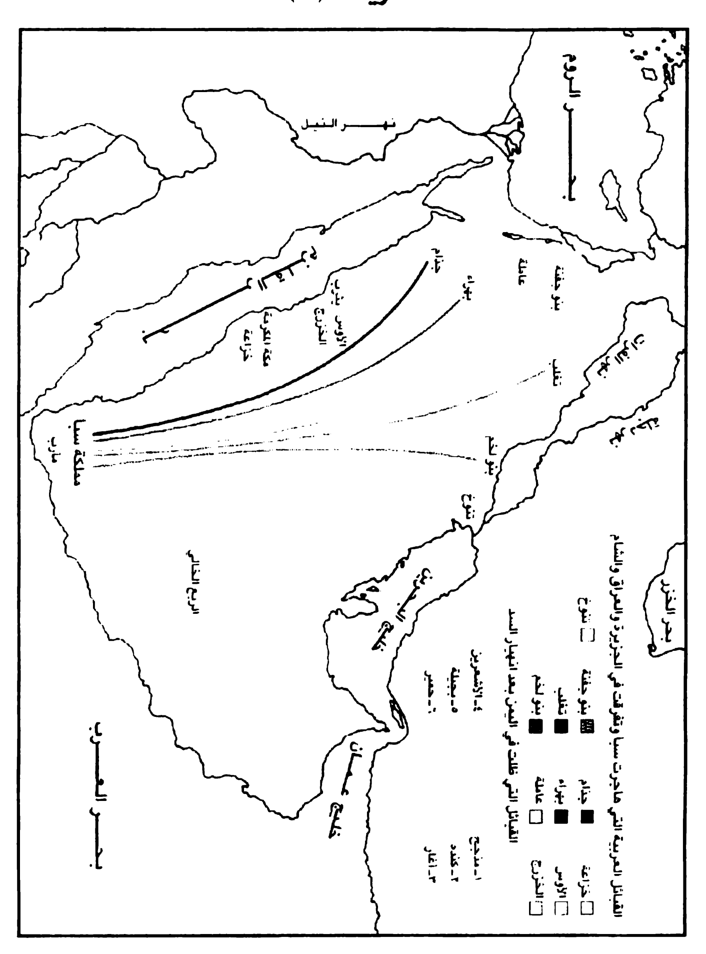


أطلال مأرب القديمة وحولها
أشجار السدر القليل
قال تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ (سبأ: ١٦، ١٧).



بقايا الحضارة السبئية في مأرب قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾
(القصص: ٥٨).

الخريطة (هـ)



انتشار القبائل العربية اليمنية بعد انهيار سد مأرب

قال ابن عاشور:

«لقد كان لسبأ في حال مساكنهم ونظام بلادهم آية.. على تصرف الله، ونعمته عليهم، فلم يهتدوا بتلك الآية، فأشركوا به، وقد كان في إنعامه عليهم ما هو دليل على وجوده، ثم على وحدانيته..»[١].

«وذلك يقتضي منهم أن يعبدوا الله ويشكروه»[٢].

فلم يفعلوا فأهلكهم سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل: ١١٢).

وقال سبحانه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (القصص: ٥٨).

وقال أيضاً: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ (سبأ: ١٧).

وهكذا أهلك الله المشركين، كما قرأنا تفاصيل ذلك فيما سبق من آيات تحدَّثت عن عاد وثمود وقوم لوط وسبأ، ورأينا آثاره وحقائقه في واقع الإنسان، وأهلك معبودات الكفار التي صنعوها بأيديهم[٣].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٤، وانظر نفسه ٢٢/ ٤٦-٤٧.

(٢) تفسير السعدي ص٧٣٨.

(٣) كالأصنام البشرية والحجرية، وعجل قوم موسى وغير ذلك كثير.

لقد استأصل الله الكفار السابق ذكرهم، واستأصل أيضاً قوم نوح، وقوم إبراهيم، وقوم شعيب وجالوت وجنوده[١]، وأصحاب الرس[٢]، وأصحاب الأيكة[٣] وقوم تُبّع[٤]، وأصحاب القرية[٥] ـ انظر الجدول رقم (١) ـ وهو جدول توضيحي للأقوام الذين عاقبهم الله لكفرهم وفسقهم وذَكَرَهم في القرآن الكريم ـ.

---

(١) فقد ورد ذكره في القرآن ثلاث مرات في سورة البقرة ١٤٩، ٢٥٠، ٢٥١.

(٢) انظر سورة الفرقان ٣٨، و: ق: ١٢.

(٣) أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب، وقيل: هم قوم آخرون ساكنوا في ليكة جوار مدين، أُرسل شعيب إليهم وإلى أهل مدين، وإلى هذا مال كثير من المفسرين، ورجحه ابن عاشور في تفسيره.

والأيكة: هي الشجر الملتف.

انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٣٣.

و: التحرير والتنوير ١٩/ ١٨٩.

وقد ورد ذكرهم في سورة الحجر: ٧٨، والشعراء: ١٧٦، و: ق: ١٤.

(٤) ذكرت ما يتعلق بهم في الجدول رقم (١) ص ٤٨٨.

(٥) ذكرت ما يتعلق بهم في الجدول رقم (١) ص ٤٨٨.

جدول: (١)

ـ كشف توضيحي للأقوام الذين عاقبهم الله لكفرهم أو فسقهم، وذكرهم في القرآن الكريم:

م	اسم القوم	موقع العقوبة	نوع العقاب الذي حل بهم	بعض الآيات التي تحدثت عن ذلك	رقم الآية والسورة	ملاحظات
١	قوم نوح	جنوب العراق	الإغراق بأمطار السماء وعيون الأرض	﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾	نوح: ٢٥	
٢	قوم هود (عاد)	الأحقاف (شمال حضرموت)	الريح الصرصر العاتية[1]	﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾	الحاقة: ٦	
٣	قوم صالح (ثمود)	الحِجْر (بين الحجاز والشام	الصيحة (الصاعقة) والرجفة (الزلزلة)	﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾	هود: ٦٧ الأعراف: ٧٨	سماها الله في سورة الحاقة (بالطاغية) لأنها تجاوزت الحال المتعارف عليه في الشدة، فشبه فعلها بفعل الطاغي المتجاوز الحد في العدوان والبطش، انظر: تفسير ابن عاشور ٢٩/١٠٧.
٤	قوم إبراهيم	أور (جنوب العراق)	تسليط الأشوريين وغيرهم على بلادهم حتى زال ملكهم			قال ابن عاشور١٧/ ٧٨: (الظاهر أن الله سلط عليهم الآشوريين فأخذوا بلادهم، وانقرض ملكهم.. وقد أثبت التاريخ أن العيلاميين من أهل السوس تسلطوا على بلاد الكلدان في حياة إبراهيم في حدود سنة ٢٢٨٦ قبل المسيح)
٥	قوم لوط	سدوم وما جاورها من قرى (في فلسطين) على شاطئ الميت	خسفها وقلبها رأساً على عقب، وإمطار أهلها بحجارة من طين متحجر ملتهب	﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾	هود: ٨٢	قال ابن عاشور ١١/ ٣٠٨ (ولعل الخسف ـ أي بقرى قوم لوط ـ هو تفجير الأرض براكين قذفت عليهم حجارة معادن محرقة كالكبريت..)

(١) الريح الصرصر العاتية: أي الباردة التي لها صوت شديد مزعج.

م	اسم القوم	موقع العقوبة	نوع العقاب الذي حل بهم	بعض الآيات التي تحدثت عن ذلك	رقم الآية والسورة	ملاحظات
٦	قوم فرعون	مصر	الغرق في البحر	﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾	الذاريات: ٤٠	
٧	قوم موسى	سيناء	التيه[1] في الصحراء أربعين سنة	قال تعالى عن قوم موسى بشأن الأرض المقدسة ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	المائدة: ٢٦	كان فسوق قوم موسى بعصيانهم له وعدم دخولهم الأرض المقدسة بالجهاد والقتال حيث قالوا له ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾
٨	بني إسرائيل (الإفساد الأول) من عام ٧٢١ قبل ميلاد المسيح إلى عام ٥٥٨ ق.م	أورشليم (إيليا ـ بيت المقدس)	تسليط البابليين عليهم وتقطيعهم أمماً في الأرض، حيث غزاهم أولاً تلمناصر ملك بابل ونقلهم إلى جبال أنشور وبابل ثم غزاهم ملك بابل وآشور بختنصر أكثر من مرة وأسر كثيراً منهم ثم غزاهم ملك يهوذا وأسر جمعاً غفيراً منهم، ولم يُبق إلا الفقراء والعجزة، وأخذ الذهب الذي في هيكل سليمان وما فيه من الآنية النفيسة، ثم سبى في الغزو الثالث كل شعب يهوذا، وأحرق هيكل سليمان وبقيت أوشليم خراباً يباباً.	﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.	الإسراء: ٤، ٥	كان غزو ملك باب ثلمناصر لأورشليم عام ٧٢١ قبل ميلاد المسيح وكان الغزو الأول لبختنصر عام ٦٠٦ق.م ويسمى الأسر البابلي الأول. وكان الغزو الثاني للملك بختنصر سنة ٥٩٨ ق.م وقيل٥٧٨ ق.م. وكان الغزو الثالث لنفس الملك بختنصر سنة ٥٥٨ق.م. انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٨/ ٣٣٦-٣٣٧ و ١٤/ ٢٤-٢٥.
	بني إسرائيل	أورشليم	تسليط الرومان عليهم وذلك أن اليهود بعد	كان الإفساد الثاني لبني إسرائيل هو تكذيب الرسل		من الآيات التي ذكرها الله في شأن بني إسرائيل قوله

---

(١) التيه: أي الضلال في الصحراء، وتسمى المفازة تيهاء وتيها. انظر: المرجع السابق ٥/ ٨١.

م	اسم القوم	موقع العقوبة	نوع العقاب الذي حل بهم	بعض الآيات التي تحدثت عن ذلك	رقم الآية والسورة	ملاحظات
	(الإفساد الثاني) من عام ٣٣٠ ق.م إلى ١٣٥ بعد ميلاد المسيح		أن عادوا إلى أرشليم[1] وجدّدوا مُلكم ومسجدهم في زمن (داريوس)... مكثوا على ذلك مائتين سنة، من عام ٥٣٠-٣٣٠ ق.م، ثم أخذ مُلكهم في الانحلال بهجوم البطالسة (ملوك مصر) على أورشليم فصاروا تحت سلطانهم إلى سنة ١٦٦ ق.م، إذ قام قائد من إسرائيل اسمه (ميثيا) وكان من اللاويين فانتصر لليهود... وفي سنة ٤٠ق.م دخلت مملكة أورشليم تحت نفوذ الرومانيين بسبب كثرة الفتن في أبناء الملك ميثيا، فأقام الرومان عليها أمراء من اليهود كان أشهرهم (هيرودس) ثم تمردوا للخروج على الرومانيين، فأرسل قيصر رومية القائد (سيسيانوس) مع ابنه	مثل عيسى بن مريم عليه السلام والاعتداء عليه وعلى أتباعه. انظر: تفسير ابن عاشور ١٤/ ٣١-٣٢		تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقد ورد كثير من أخبار بني إسرائيل المشار إليها هنا في كتاب التوراة في سفر يوشع الإصحاح ٢٣، وفي كتاب أشعيا في الإصحاح ٥، ١٠، ١٥، ٢١ وفي كتب أرميا الإصحاح ٢٩ وفي كتاب ملاخي الإصحاح ٣، ٤ وغيرها من الكتب والإصحاحات. انظر: الكتاب المقدس.

(1) كانت عودتهم بعد أن قضوا نيفاً وأربعين سنة في أسر البابليين وتابوا إلى الله وندموا على ما فرط منهم. حيث سلط الله ملوك فارس على ملوك بابل الآشوريين... ففتحوا بابل سنة ٥٣٨ ق.م، وأذنوا لليهود في سنة ٥٣٠ ق.م بالرجوع إلى أورشليم وتجديد دولتهم. انظر تفسير ابن عاشور ١٤/ ٧.

م	اسم القوم	موقع العقوبة	نوع العقاب الذي حل بهم	بعض الآيات التي تحدثت عن ذلك	رقم الآية والسورة	ملاحظات
			القائد (طيطوس) بالجيوش في حدود سنة أربعين بعد ميلاد المسيح فخربت أورشليم واحترق المسجد، وأسر (طيطوس) نيفاً وتسعين ألفاً من اليهود، وقُتل من اليهود في تلك الحروب نحو ألف ألف، ثم استعادوا المدينة وبقيت منهم شرذمة قليلة بها إلى أن وافاهم الإمبراطور الروماني (إدريانوس) فهدمها وخربها، ورمى قناطير الملح على أرضها كيلا تعود صالحة للزراعة وذلك سنة ١٣٥ بعد ميلاد المسيح، وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرض، وتفرقوا في الأرض، ولم تخرج أورشليم من حكم الرومان إلا حين فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب سنة ١٦هـ صلحاً مع أهلها وهي تسمى يومئذ (أيلياء). انظر تفسير ابن عاشور ١٤/ ٣١-٣٢. و: اليهودية، للدكتور أحمد شلبي.			

م	اسم القوم	موقع العقوبة	نوع العقاب الذي حل بهم	بعض الآيات التي تحدثت عن ذلك	رقم الآية والسورة	ملاحظات
٩	قوم شعيب (ومنهم أصحاب ليكة[1])	مدين (شرق خليج العقبة) في الأردن	صواعق وزلازل	﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾	الشعراء: ١٨٩	قال ابن عاشور ٨/ ٢٠٢: (والأظهر أن يكون أصابهم زلزال وصواعق فتكون الرجفة الزلزال، والصيحة الصاعقة). وقال عن أصحاب الأيكة في ١٩/ ١٨٩: (وقد اختلف في أن أصحاب ليكة هم مدين أو هم قوم آخرون ساكنون في ليكة جوار مدين، أرسل شعيب إليهم وإلى أهل مدين، وإلى هذا مال كثير من المفسرين.. والأظهر أن أهل ليكة قبيلة غير مدين.. واستشهد لقوله بشواهد من القرآن فلتراجع في موضعها..
١٠	قوم سبأ	اليمن (مأرب)	الهلاك والدمار بسيل العرم	﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ	سبأ: ١٦	

(١) الأيكة: الشجر الملتف وهي الغيضة، انظر المرجع السابق ١٩/ ١٨٨.

م	اسم القوم	موقع العقوبة	نوع العقاب الذي حل بهم	بعض الآيات التي تحدثت عن ذلك	رقم الآية والسورة	ملاحظات
				سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾		
١١	أصحاب الرس[١]	قرب مدين من بلاد اليمامة (وقيل غير ذلك)[٢]	قيل أهلكهم الله بالصواعق، وقيل خسف بهم وبديارهم	﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا[٣]﴾	الفرقان: ٣٨، ٣٩	قال ابن عاشور في ١٩/ ٥٢-٥٣: (واختُلف في المعنيّ من أصحاب الرس.. فقيل هم قوم من بقايا ثمود، وقال السهيلي هم قوم كانوا في عَدَن أرسل إليهم حنظلة بن صفوان رسولاً.. ـ فلم يؤمنوا ـ وقد عبدوا الأصنام وقتلوا نبيهم فأهلكهم الله.. وقيل هم قوم شعيب، وقيل قوم كانوا مع قوم شعيب.. وقيل هم أنطاكية.. وقيل الرس واد في أذربيجان.. وقيل غير ذلك..).
١٢	قوم تُبَّع[٤]	اليمن	أهلكهم الله بأمر لا يعلمه إلا هو	قال تعالى عن كفار قريش: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ[١] إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.	الدخان: ٣٧	

(١) الرس: هو البئر العظيمة أو الحفير الكبير، وإضافة (أصحاب) إلى (الرس) إما لأنهم أصابهم الخسف في رس، وإما لأنهم نازلون على رس، وإما لأنهم احتفروا رسا. انظر: التحرير والتنوير ١٩/ ٥٢.

(٢) انظر التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٩/ ٥٢-٥٣.

(٣) تبَّرنا تتبيراً: التتبير هو التفتيت للأجسام الصلبة كالزجاج والحديد، وأُطلق على الإهلاك على طريق الاستعارة، والمعنى دمرنا وأهلكنا إهلاكاً شديداً. انظر: المرجع السابق ١٩/ ٥٣.

(٤) تُبَّع: لقب لمن يملك جميع بلاد اليمن حميراً وسبأ وحضرموت...قيل سموه تبعاً باسم الظل لأنه يتبع الشمس كما يتبع الظل الشمس، ومعنى ذلك أنه يسير بغزواته إلى كل مكان تطلع عليه

م	اسم القوم	موقع العقوبة	نوع العقاب الذي حل بهم	بعض الآيات التي تحدثت عن ذلك	رقم الآية والسورة	ملاحظات
١٣	أصحاب القرية	أنطاكية (مدينة بالشام متاخمة لبلاد اليونان، تقع على نهر العاصي قبيل مصبه في السويدية في البحر المتوسط)	صاعقة من السماء	﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾(٢)	يس: ٢٩	
١٤	أصحاب السبت	أيلة (بلدة على خليج صغير من البحر الأحمر في أطراف مشارف الشام، وتعرف	مسخهم لقردة وخنازير	﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾	البقرة: ٦٥	قال ابن عاشور ١/ ٥٢٧: (يحتمل أن يكون بتصيير أجسامهم أجسام قردة مع بقاء الإدراك الإنساني، وهذا قول جمهور العلماء والمفسرين، ويحتمل أن يكون بتصيير عقولهم كعقول القردة مع بقاء الهيكل الإنساني.. والعبرة حاصلة

الشمس... وقيل لأنه تتبعه ملوك مخاليف اليمن .... وهو أسعد ـ وقيل حسان بن أسعد، والمكني أبا كرب، كان قد عظم سلطانه، وغزا بلاد العرب، ودخل مكة ويثرب، وبلغ العراق..). انظر المرجع السابق ٢٥/ ٣٣٤، وأطلس القرآن، للدكتور شوقي أبو خليل ص١٢٨.

(١) أهلكناهم: تعليق الإهلاك بقوم تبع دونه يقتضي أنه نجا من هذا الإهلاك، وأن الإهلاك، سُلِّط على قومه، ويروي في مسند الأمام أحمد ٥/ ٤٢٤، برقم ٢٢٨٧٥ عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم ـ وفي رواية ـ كان مؤمناً»، وفسره بعض العلماء بأنه كان على دين إبراهيم عليه السلام .... ولعل الله أهلك قومه بعد موته، أو في مغيبه) انظر تفسير ابن عاشور ٢٥/ ٣٣٤. والحديث قد صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ٦/ ١٥٢ برقم ٧١٩٦.

(٢) خامدون: الخمود: إنطفاء النار، وأستُعيرهنا للموت بعد الحياة المليئة بالقوة والطغيان. انظر المرجع السابق ٢٢/ ١٢٩.

م	اسم القوم	موقع العقوبة	نوع العقاب الذي حل بهم	بعض الآيات التي تحدثت عن ذلك	رقم الآية والسورة	ملاحظات
		اليوم بالعقبة)[1]				على كلا الاعتبارين)
١٥	أصحاب الفيل	مكة	رميهم بحجارة ملتهبة من طين متحجر	﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ[2] ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ[3]﴾	الفيل: ٣-٥	

(١) وأيلة غير إيليا بكسر الهمزة ويائين ممدودتين ـ الذي هو اسم بيت المقدس. انظر: المرجع السابق: ١/ ٥٢٦.

(٢) أبابيل: أي كثيرة متتابعة. انظر: تفسير ابن كثير ٦/ ٤٩٤.

(٣) كعصف مأكول: أي كأوراق الزرع اليابسة التي أكلتها البهائم ثم رمت بها. انظر: تفسير ابن كثير ٦/ ٤٩٥.

- ولم أذكر في الجدول قوم يونس عليه السلام كونهم تابوا قبل نزول العذاب بهم، قال ابن عاشور في تفسيره ١١/ ١٨١: «لما كذبه أهل نينوى توعدهم بخسف مدينتهم بعد أربعين يوماً، وخرج من المدينة غاضباً عليهم، فلما خرج خافوا نزول العذاب بهم، فتابوا وآمنوا بالله، فقبل الله إيمانهم، ولم يعذبهم..».

- ولم أذكر أيضاً قارون لأن حديثي هنا إنما هو عن الأقوام والأمم.

وأهلك أيضاً أصحاب الفيل[١]، وكفار قريش، وأمثالهم من أهل الكتاب والمنافقين والأعراب، ودمَّر كثيراً من الكفار منذ الخلافة الراشدة حتى عصرنا الحديث، وإن كان إهلاك الله لكفار هذه الأمة لم يصل إلى حد الاستئصال.

وكتب النجاة والأمان والعز والنصر للموحدين من رسله[٢]، وعباده المؤمنين، ووعدهم بالاستخلاف في الأرض[٣].

وكما أن الله تعالى قد أهلك الشرك والمشركين، ولم يُبقِ إلا آثار ديارهم، فإنه بالمقابل قد أبقى أول بيت وُضِع للناس لإعلان التوحيد[٤]، وحفظه من كيد الكفار منذ أن بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، حتى اللحظة، وسيبقى إلى ما شاء الله.

لقد اقتضت حكمة الله وإرادته أن يكون بيته كما قال سبحانه: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا[٥] لِّلنَّاسِ ﴾ (المائدة: ٩٧) وأن يبقيها رمزاً للتوحيد،

---

(١) انظر سورة الفيل.

(٢) قال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (المجادلة: ٢١).

(٣) قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٥٥).

ولكن قد يبتلي المولى عز وجل بعض أنبيائه وأوليائه بالقتل أو الذبح أو الإحراق ونحو ذلك، كما حصل لزكريا ويحيى عليهما السلام، والرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ـ قيل هو حبيب النجار في أنطاكية ـ وأصحاب الأخدود، وغيرهم كثير من موحدي عصرنا والعصور السابقة.

(٤) قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٦).

(٥) قياماً: أي جعلها الله سبباً في قيام أحكام شرعية.. كان بها صلاح أهل مكة ونفعهم، وغيرهم من العرب. انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٥/ ٢٢٣.

وقبلة للموحدين، ومقصداً للحجاج والمعتمرين، وآية على وحدانية الله في كل وقت وحين، وتذكيراً بوجوب توحيده، وخاصة بعد أن صارت وسائل الإعلام العصرية الحديثة تنقل شعائر الصلوات، ومناسك الحج والعبادات، للعالمين أجمعين، وصدق الله في أمره لقريش ومن كان يتنعم بأمثال نعيمهم قائلاً سبحانه: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش: ٣، ٤).

وقبل أن أختم هذا المبحث ـ مبحث أدلة التوحيد العقلية المستنبطة من الأحداث التاريخية ـ أقول: تتضح وجه الدلالة العقلية للأدلة السابق شرحها على التوحيد من الآتي:

إذا تقرر لدينا شرعاً من كل ما سبق أن الله تعالى أهلك كفار الأمم الماضية بسبب شركهم، وقصّ أخبارهم، وأبقى آثار ديارهم للعظة والعبرة، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف: ١١١)، وكما قال ـ مخاطباً كفار العصر النبوي ومبيناً أن الهدف القرآني من دعوته عقلاء الخلق إلى استقراء التاريخ والسير في الأرض هو أخذ العظة والعبرة من عواقب الأمم السالفة وما أنزله الله بها وبديارها من عذاب ودمار بسبب كفرها ـ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧)، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ (غافر: ٢١).

وإذا تقرر لدينا أن لله في الكون والتاريخ سنناً ثابتة مطردة تعم الأمم والجماعات والأفراد ـ إذا استجمعت شروطها وانتفت موانعها ـ ومن ذلك سنة الله فيما اتبع هداه وآمن به بالبقاء على الأرض والاستخلاف فيها، وسنته فيمن أعرض عنه بالهلاك والدمار، وأنه كما قال سبحانه: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (فاطر٤٣)، وكما قال أيضاً: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الفتح: ٢٣).

إذا تقرر هذا كله شرعاً من نصوص القرآن الكريم، ثم تقرر لنا من حقائق التاريخ والجغرافيا[1] والجيولوجيا[2] ـ المتعلقة بالاكتشافات العصرية الحديثة عن الأقوام السابق ذكرهم (عاد وثمود وقوم لوط وسبأ) تطابق الكشوفات التاريخية العمرانية عن هؤلاء الأقوام مع ما ورد عنهم في القرآن الكريم، دون أن يسعى أحد من العقلاء إلى الطعن في ذلك أو تكذيبه أو الإعراض عنه.

إذا تقرر كل ما سبق فقد دل هذا على أن دعوة التوحيد التي دعى الرسل السابقون أقوامهم إليها، ولم يستجيبوا لها، فحل بهم عذاب الله واستئصاله لهم ـ كما توعّدهم رسلهم بذلك ـ هي دعوة الحق، ودلَّ أيضاً على وحدانية الله في ربوبيته وتصرفه المطلق في الكون فهو سبحانه. لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (الرعد: ٤١).

---

(١) الجغرافيا هي: علم يعني بوصف سطح الأرض وما عليه من مظاهر. انظر: الموسوعة العربية ص٤٥، بإشراف محمد شفيق غربال، دار التراث العربي، ط (بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ١/ ٣٦٤.

(٢) الجيولوجيا هي: علم الأرض، يبحث في تركيبها البنائي، وفي مظاهرها السطحية وتاريخها وتطورها. المرجع السابق ١/ ٦٨٤.

كما دل أيضاً على أن الله وحده: قوي، جبار، منتقم، مذل، مهين، عزيز، متكبر، حكيم، مقتدر، قادر، حكم، ضار، قهار، متين، وهو الباقي، الوارث، المتعال، المميت، سبحانه وتعالى، وهذا كله من أسماء الله وصفاته.

فكانت أدلة التوحيد الحسية المستنبطة من الأحداث التاريخية والآثار المعمارية للأقوام الذين أهلكهم الله أدلة قوية على توحيد الربوبية وكذا توحيد الأسماء والصفات، وصدق الله القائل: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل: ٥٢) «إنها دعوة تلح على الناس أن ينظروا في تاريخ من قبلهم، ويدرسوا عوامل البقاء والفناء في المجتمعات دراسة واعية متفتحة... دعوة للاستفادة من تجارب البشرية السابقة، دعوة ذات منهج مرسوم يتجلى فيها سعي العقل لاختيار أحد طريقين لا ثالث لهما: الهدى أو الضلال، والشرك أو التوحيد»[١].

وبهذا يكون القرآن الكريم قد: «قدم أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، ينتقل من مجرد العرض والتجمع إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية»[٢].

وسعى إلى الاستدلال على توحيد الألوهية بدلائل توحيد الربوبية «الحسية التاريخية».

---

(١) منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب ١-/ ٩٤.

(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ، للدكتور عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٣م، بيروت، لبنان.

وانظر: السنن الإلهية في الأمم والأفراد والجماعات، للدكتور عبد الكريم زيدان ص٣٥-٤٢.

ولكن قد يقول قائل: ـ كما نرى من واقع بعض معاصرينا الآن ـ إن كل ما وقع على الأمم الماضية من هلاك ودمار لهم ولديارهم، إنما هي كوارث طبيعية، ناتجة عن اضطرابات فيزيائية، أو تفاعلات كيميائية في الكون، مرتبطة بخصائص المواد، وقوانينها التي جُبلت عليها فحسب، ولا علاقة لهذه الكوارث أو الحوادث بذنوب العصاة وكفر الكافرين أو معاقبتهم على ذلك. وإن الذي أهلكهم إنما هي الطبيعة لا غيرها.

وحقيقة إن هذه الشبهة قد روَّج لها أهلها، كما قال الدهريون سابقاً ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (الجاثية: ٢٤)، وكما روَّج الشيوعيون المعاصرون لشعارهم «لا إله والحياة مادة» فكان لزاماً علينا مناقشة ذلك، وتفنيده من خلال التساؤل التالي:

س: هل الكوارث الأرضية عقاب إلهي؟ أم ظواهر طبيعية ناتجة عن تفاعلات فيزيائية وكيميائية تتعلق بالمادة[1]؟.

جـ ـ للإجابة على هذا التساؤل لابد من التمهيد له بذكر الفقرتين التاليتين:

أولاً: أنواع العقوبات التي أوقعها الله بكفار الأمم الماضية، وأسبابها في ضوء وسنن الله في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية.

ثانياً: أنواع الكوارث الطبيعية ـ الأرضية ـ وأسبابها من الناحية العلمية وسنن الله في جميع الحوادث المادية.

---

(١) التفاعلات الفيزائية والكيميائية هي: تلك التفاعلات المتعلقة بطبائع وخواص الأجسام الأرضية وكيفية تحللها وتركيبها.

انظر: دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي ٨/ ٢٥٣.

ولنبدأ بالفقرة الأولى:

أولاً: أنواع العقوبات التي أوقعها الله بكفار وعصاة الأمم الماضية، وأسبابها في ضوء سنن الله في الأمم:

يتضح من خلال الجدول رقم (١) أن العقوبات التي أوقعها الله على عصاة الأمم السالفة، وذكرها في القرآن الكريم، إما:

١- الإغراق بالمياه.

٢- أو الرياح الشديدة التي تدمر كل شيء.

٣- أو الصواعق المميتة.

٤- أو الزلازل المدمرة.

٥- أو البراكين المحرقة.

٦- أو الخسف في الأرض.

٧- أو تسليط الأعداء عليهم.

٨- أو قلب القرى وجعل عاليها سافلها.

٩- أو غير ذلك كالتيه في الأرض والمسخ إلى حيوانات.

هذه هي أنواع العقوبات التي أوقعها الله على الكفار السابقين، أما أسبابها في ضوء سنن الله في خلقه ودأبه في المكذبين منهم، فيمكن توضيح ذلك بعد التمهيد له بالمقدمتين الآتيتين:

المقدمة الأولى: المقصود بسنن الله في الأمم والأقوام[١]، والسبيل لمعرفتها:

لفظ «سنن» جمع سنة، والسُّنّة في اللغة تعني السيرة، حسنة كانت أو قبيحة[٢]، والأصل في لفظ «السنة» الطريقة والسيرة، وفي الحديث عن المجوس قال ﷺ: «**سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب**»[٣] أي: خذوهم على طريقتهم، وأجروهم في قبول الجزية منهم مجراهم[٤].

وقال ابن تيمية: «والسُّنّة هي العادة التي تتضمن أن يُفعل في الثاني مثل ما فُعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار»[٥]، وقال صاحب المنار: «السنن جمع سنة، وهي: الطريقة المعبّدة، والسيرة المتبعة أو المثال المتّبع»[٦].

---

(١) هناك سنن جعلها الله في جميع الكائنات الحية والحوادث المادية وكيان الإنسان المادي، سمّاها أهل العلم بالقوانين المادية للمادة وهي أنواع كثيرة كلها تدل على وجود الله، وقد أشار إليها القرآن الكريم في كثير من الآيات كما في سورة المؤمنون ١٢-١٤ ويس: ٣٨-٤٠ وغيرها كثير سنأتي عليه.

(٢) لسان العرب، لابن منظور ٦/ ٣٩٩.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٨٩، وعبد الرزاق الصنعاني في المصنف ٦/ ٦٩، برقم ١٠٠٢٥، وقال الألباني في إرواء الغليل ٥/ ٨٨-٨٩ (قلت: فهو ضعيف بهذا اللفظ... ثم وجدت له شاهداً ولكنه ضعيف. وهو من حديث السائب بن يزيد قال: (شهدت رسول الله ﷺ فيما عهد إلى العلاء حين وجهه إلى اليمن، قال: ولا يحل لأحد جهل الفرض والسنن، ويحل له ما سوى ذلك، وكتب للعلاء: [أن سنوا بالمجوس سنة أهل الكتاب] قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٣ (رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٣/ ٤٠٩.

(٥) مجموع الفتاوى ١٣/ ٦٩.

(٦) تفسير المنار ٤/ ١١٥.

يتبيّن لنا من كل ما سبق أن معنى السنة يدور حول «الطريقة المتبعة» وعليه فيكون معنى «سنة الله في الأمم والجماعات والأفراد» أي: «الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشرية بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة» وهذا يعني أن معنى «السنة» هو معنى «القانون العام» من حيث خضوع أفعال البشر وسلوكهم إلى أحكام هذه السُّنّة، التي يمكن تسميتها بالقانون العام، وما يترتب على ذلك من نتائج كالرفاهية أو الضيق في العيش، والسعادة والشقاء، والعز والذل، والرقي والتأخر، والقوة والضعف، والبقاء أو الهلاك، ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا، وما يصيبهم في الآخرة من نعيم أو عذاب[1].

هذا هو المقصود بسنن الله في الأمم والأقوام.

أما السبيل لمعرفة سنن الله في الموحّدين والمشركين فلا شك أن كتاب الله عزوجل «القرآن الكريم» وسنة النبي ﷺ هما القول الفصل، والحق المبين، لمعرفة ذلك، قال تعالى ـ مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ـ : ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٠١) وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾[2] وقال تعالى آمراً نبيه ﷺ أن يخبر الناس بما أوحاه الله إليه من قصص هؤلاء المكذبين الكافرين: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٦).

---

(١) انظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، تأليف عبد الكريم زيدان، ص١٢-١٣.

(٢) هود: ١٠٠، ونحوها في النساء: ١٦٤، وهود: ١٢٠، والكهف:١٣، وطه:٩٩، وغافر:٧٨.

لقد تظافرت وتظاهرت آيات القرآن الكثيرة التي بيّنت سنة الله في الأمم والجماعات، فنحن نجدها في آيات قصص القرآن وسيرة الأنبياء، وما جرى لهم مع أقوامهم، وفي أخبار الأمم السابقة، وفي صراع أهل الحق مع أهل الباطل،.. وهذه الكثرة التي جاء فيها ذكر «سنة الله»، ومعناها وتطبيقاتها تدل دلالة قاطعة على أهمية المعرفة بسنن الله في الأمم ووجوب فهمها... لأن الله عزوجل لا يخص بالذكر في القرآن الكريم إلا ما يلزم ذكره ويحتاج الناس إلى معرفته، فإذا تكرر ذكر شيء دل ذلك على أهميته[1]...

المقدمة الثانية: ثبات سنن الله واطرادها وعمومها على جميع الخلق:

بعد أن عرَّفت وشرحت المقصود بسنن الله في الأمم أقول: تشير آيات القرآن إلى أن من خصائص سنن الله أو «قانونه العام» الثبات والاطراد والعموم، قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب: ٦٢)، وقال: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (فاطر: ٤٣)، فهي مطردة لا تتخلّف، ولو لم تكن كذلك لما قص الله علينا قصص الأمم السابقة، وما حل بها لنتعظ ونعتبر، ولا نفعل فعلهم، لئلا يصيبنا ما أصابهم، ولولا اطرادها لما أمكن الاتعاظ والاعتبار بها، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (آل عمران: ١٣٧، ١٣٨) وهي ـ أي سنة الله في البشر ـ عامة، بمعنى أن حكمها يسري على الجميع دون محاباة

---

(١) انظر: السنن الإلهية، لزيدان ص٢٥-٢٦.

ولا تمييز إذا تحققت الشروط وانتفت الموانع، قال تعالى ـ مخاطباً كفار قريش ـ : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ[1] أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ (القمر: ٤٣) وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ٥١) أي: أهلكنا أمثالكم فهل من متعظ ومعتبر[2]، وقال سبحانه: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[3] أي: أن كل من يعمل سوءاً يلق جزاءه، من غير فرق بين المسلم والكافر[4].

وبناء على كل ما سبق يمكن القول: إن سنة الله تعالى في خلقه ثابتة مطردة عامة غير مقتصرة على فرد دون فرد، ولا قوم دون قوم.

وبعد أن مهّدت بالمقدمتين السابقتين للفقرة الأولى «بيان أنواع العقوبات التي أوقعها الله بكفار الأمم الماضية، وأسبابها في ضوء سنن الله الشرعية في خلقه» أقول:

قد تبيّن من خلال حصر واستقراء آيات القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ المتعلقة بالأمم الهالكة أن لله سنناً في خلقه الموحِّدين المتبعين لهداه المهتدين بشرعه، وله كذلك سنن أخرى في المشركين المعرضين عن التوحيد الغارقين في ذنوبهم وسيئاتهم الظالمين لأنفسهم ولغيرهم، سنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول، مطردة عامة لكل الأجيال والأمم، فمن سنن الله فيمن كذّب بآياته وكفر به وآثر الشرك على التوحيد إهلاكه سبحانه لهؤلاء وأمثالهم، قال تعالى ـ مخاطباً كفار

(١) أي قوم فرعون كما يتضح من سياق الآيات.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٦/ ٤٨.

(٣) النساء: ١٢٣، ونحوها في سورة غافر: ٤٠.

(٤) انظر: فتح القدير، للشوكاني ١/ ٨٢١.

العصر النبوي-: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ... ﴾ (الأنعام: ٦) ـ وأي ذنب أعظم وأقبح من الكفر بالله والشرك به سبحانه وتعالى[1] ـ؟!

وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر: ٤٢) وقال سبحانه ـ بعد حديثه عن مصير فرعون وقومه في النار يوم القيامة وعدم نفع آلهتهم لهم بشيء ـ مبيّناً جريان سنته هذه وعمومها واطرادها على كل الكافرين بالله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (هود: ١٠٢، ١٠٣).

لقد ذكر ابن القيم رحمه الله آثاراً كثيرة وأضراراً كبيرة للذنوب والمعاصي على أهلها ـ سواء كانوا أفراداً أو أمماً أو جماعات ـ وأسوأها وشرها على الإطلاق الجحود بالله وآياته، فللذنوب عقوبات قدرية[2]، لا فكاك للمرء منها

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه ٤/ ١٦٢٦ في كتاب التفسير، سورة البقرة، باب قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ٢٢. برقم ٤٢٠٧ عن عبد الله ـ أي ابن مسعود ـ قال: «سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: **أن تجعل لله نداً وهو خلقك**. قلت إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: **وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك**. قلت: ثم أي؟ قال: **أن تزاني بحليلة جارك**».

(٢) وهناك عقوبات شرعية، شرعها الله سبحانه وتعالى على قدر مفسدة الذنب وتقاضي الطبع لها، وجعلها ثلاثة أنواع: القتل والقطع والجلد. انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، تأليف الإمام العلامة الحافظ ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ، تحقيق حسين عبد الحميد، دار اليقين للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، المنصورة ـ مصر ص١٥٢.

ولو بعد حين، منها ما هو على القلوب والنفوس، ومنها ما هو على الأبدان والأموال[١] والديار.

إن الله تعالى يقرر أن الذنوب سبب أكيد في هلاك الأمم والشعوب ـ وإن كانت قوية، فقال سبحانه ـ مخاطباً العقلاء في العصر النبوي وما بعده من سائر العصور ـ:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ (غافر: ٢١).

إننا نجد أن آيات القرآن تصرِّح أن سبب إهلاك الله للأقوام السابقين هو ما وقع منهم من فسق وظلم وإجرام، وتكذيب وبطش برسل الله إليهم، وإصرار على الشرك، وعدم إيمانهم بالله وحده[٢].

وبالجملة هو ما وقع منهم من ذنوب استحقوا بسببها عذاب الله وسخطه، قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٠).

---

(١) انظر: المرجع السابق ص٦٢-١٦٤.

(٢) انظر على سبيل المثال سورة آل عمران: ١٨١، والنساء: ١٥٥، والمائدة: ٤٩، والأنعام: ٦، والأعراف: ١٠٠، والأنفال: ٥٢، وغافر: ٢١، وغيرها كثير.

هذه هي أسباب العقوبات التي أوقعها الله بكفار الأمم الماضية في ضوء سننه في الأمم والأقوام حسبما قررته الشريعة الإسلامية[١]. وقد سبق ذكر أنواعها[٢].

ثانياً: أنواع الكوارث الطبيعية – الأرضية – وأسبابها من الناحية العلمية وسنن الله في الحوادث المادية:

تبين لنا من الفقرة السابقة أنواع العقوبات التي أخذ الله بها المذنبين من عباده، وهي إجمالاً لا تخرج عن أربعة أنواع سماها علماء الطبيعة في العصر الحديث بـ«أسباب الكوارث الطبيعية» كما يلي:

السبب الأول: البراكين النارية:

«وهي عبارة عن تشققات أرضية تندفع منها الغازات، والمواد المصهورة.. من باطن الأرض عبر قناة تسمى (المدخنة البركانية) فإذا وصلت إلى الأرض تدفقت من الفوهة إلى السهول والوديان المجاورة، فتدمِّر في طريقها كل ما يصادفها، حيث تبلغ حرارتها بين (١٠٠٠-١٢٠٠) درجة مئوية[٣].. وفي النهاية تبرد وتتحول إلى صخور بركانية.

---

(١) قد يخبر الله عن سنته في الأمم الماضية، أي عن قانونه العام بغير لفظ «سنة الله»، كأن يعبر عن «سنته» بتقرير نتيجة معينة بناءً على وصف معين أو حالة معينة، أو بناء على سبب أو شرط معينين، فيكون هذا الإخبار بهذه الصيغ إخباراً عن سنة ثابتة لله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ (الكهف: ٥٩)، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾ (الرعد: ١١).

(٢) راجع ص٥٠١.

(٣) لاحظ وقارن هذا بدرجة غليان الماء التي تبلغ ١٠٠م.

وسبب **حدوث البراكين هو**: الارتفاع الشديد للحرارة والضغط في أعماق الأرض، تحت القشرة الأرضية[1]... حيث تنصهر الصخور، وتتصاعد الصهارة إلى أعلى، كلما وجدت لنفسها منفذاً، وتستمر الصهارة في صعود إلى أن تتجمع في تجويفات أرضية، تقع تحت القشرة الأرضية مباشرة، وبارتفاع ضغط الصهارة على مناطق الضعف التي تعلوها في القشرة الأرضية، تتفتح الشقوق القديمة، أو تتكون شقوق جديدة!... لتندفع الصهارة خلالها إلى أعلى، وحينما تصل إلى سطح اليابسة، أو سطح قاع المحيط، تسيل مكونة ما يعرف بالحمم البركانية، ولا يأخذ خروجها عند اندفاعها من فوهة البركان شكل السيلان في بداية الأمر، وإنما يأخذ شكل انفجار!... يؤدي إلى نشر سحب من الرماد البركاني ـ انظر الشكل (١٠) ـ ، قد تغطي مئات الأميال، وتكون نتائجها كارثية على البشر!... وبعد الانفجار تبدأ الحمم بالسيلان إلى عدة أميال بسرعة قد تصل إلى ٦٠٠كم/ ساعة، ثم لا تلبث أن تقل سرعة سيلانها مع الوقت وتبرد»[2].

---

(١) يبلغ سمك القشرة الأرضية أو الغلاف الصخري ما بين ٦٥-١٠٠كم.

(٢) انظر: كيف تتكون الزلازل والبراكين، تأليف أندريوياماس، ترجمة الفيرانصور، أكاديميا للنشر والطباعة، الفرع العلمي من دار الكتاب العربي، ١٩٩٧م، بيروت ـ لبنان.

و: مجلة الأسرة، العدد ١٤٣، السنة الثالثة عشرة، صفر، ١٤٢٦هـ ـ الرياض ـ السعودية ص٣٠.

و: ملحق مساء، العدد الثامن، صفر، ١٤٢٦هـ.

شكل (١٠)

لماذا تثور البراكين؟

يقول علماء الأرض:

إن الحمم البركانية يمكن أن تتدفق بسرعة عالية تزيد عن ٦٠٠ كيلومتر في الساعة، وهذه السرعة تعادل ضعف سرعة أسرع قطار.

حمم بركانية تتدفق عبر فوهة أحد البراكين في هاواي وتنساب مسرعة أسفل الفوهة.



يعد البركان الثائر من أكثر المشاهد إثارة على وجه الأرض. فعلى عمق بعيد من قشرة الأرض تقع طبقة من الصخور المنصهرة عالية الحرارة تسمى «ماجما». وينفجر البركان عندما يتراكم الضغط تحت سطح الأرض ويدفع بالصخور المنصهرة إلى أعلى ثم إلى خارج السطح عبر أحد الشقوق الموجودة فيه. وعندما ينفجر البركان يقذف بالصخور والغبار والغازات في الهواء، وتسمى المادة الصخرية المنصهرة بالحمم.

تختلف البراكين في الأشكال اعتماداً على عنف الثوران ونوع الحمم التي يقذف بها من جوف الأرض. فالحمم البركانية الكثيفة عالية اللزوجة تكوّن جبالاً مخروطية الشكل لأنها تبرد وتتصلب بسرعة. أما الحمم الرقيقة والقابلة للجريان فتتدفق لمساحات أطول قبل أن تبرد وتتصلب. وهذه تكوّن البراكين المنخفضة وتسمى البراكين الدرعية.

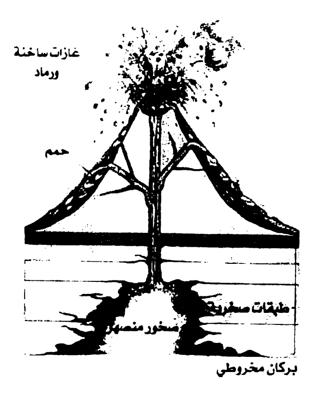
غازات ساخنة

حمم

طبقات صخرية

صخور منصهرة

بركان درعي



السبب الثاني: الزلازل الأرضية:

«تقوم نظرية حدوث الزلازل على أن الأرض محاطة بطبقة خارجية صلبة معروفة باسم (القشرة) تسبح على صهير معدني سائل، ذي حرارة مرتفعة جداً ـ كما سبق شرحه ـ و(القشرة) مكونة من مجموعة من الألواح، تبلغ (١٢) صفيحة صخرية عملاقة، تشكل كل واحدة منها منطقة، أو قارة من القارات، أو أكثر، وتلتقي الصفائح مع بعضها البعض عند مناطق يطلق عليها العلماء (الصدوع أو الفوالق)[1]..

ونظراً لارتفاع درجة حرارة الصهير المعدني السائل الحامل للقشرة الأرضية وضغطه، فإن ذلك يتسبب بانبعاث أمواج وتيارات بداخله، تقوم بصهر الطبقة السفلية من القشرة الأرضية، وشحنها بإجهادات عظيمة للغاية، تزداد بمرور الوقت، وعند وصولها إلى مستويات لا يمكن تحملها، تنطلق الطاقة فجأة في صورة موجات حركية قوية، تنتشر في جميع الاتجاهات، وتخترق صخور القشرة الأرضية، وتجعلها تهتز وترتجف[2]، مسببة الزلازل والدمار.. ـ انظر الشكل (١١) ـ وتكون قوة الزلزال مطّردة مع حجم الطاقة المنطلقة معه.. وتسمى النقطة التي يبدأ منها انطلاق الطاقة بـ(عين أو بؤرة الزلزال)، والنقطة الموجودة فوقها تماماً فوق سطح الأرض تسمى بالمركز السطحي للزلزال، وتكون عادة قريبة

---

(١) تمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات طولاً وعرضاً، وتمتد إلى أعماق تتراوح ما بين ٥٠-١٥٠كم وهي تحيط بالأرض كلها.

(٢) لاحظ قوله تعالى عن إهلاكه الكفار في أكثر من موضع ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ الأعراف: ٧٨، ٩١، ١٥٥، العنكبوت: ٣٧.

من أماكن التقاء الصفائح لكونها الأضعف في القشرة الأرضية، والأنسب لتنفيس الطاقة»[١].

الشكل (١١)

في عام ١٩٨٥م وقع زلزال عنيف في مدينة مكسيكو دمر مساحات واسعة منها وتسبب في قتل أكثر من ٢٠٠٠ شخص وتسوية مستشفى الولادة بالأرض. وعندما هرع رجال الإنقاذ أصيبوا بالدهشة لوجود خمسين طفل من الأطفال حديثي الولادة أحياء تحت الأنقاض.



(١) انظر: موسوعة العلم والإيمان (الأرض وظواهرها الطبيعية)، الناشر: منف للنشر والخدمات الإعلامية، المكتب العربي للمعارف، ط (بدون). ت ١٩٩٢م، القاهرة ـ مصر ٣/ ٣٢٩.

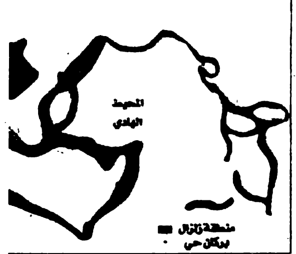
و: مجلة الأسرة، العدد ١٤٣ ص٣٠ وملحقها (مساء)، العدد الثامن ص١٣.

ومن أهم مقاييس الزلازل مقياس ريختر، ومقياس ميركالي المعدل.

لاحظ حكمة الله عز وجل في نشوء البراكين للتنفيس على باطن الأرض، فإذا جاء يوم القيامة زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت أثقالها، وسجرت البحار.. إلخ.

تقع ما يقرب من ٩٠٪ من الزلازل في المنطقة المحيطة بالمحيط الهادي وتسمى (حلقة النار).

حلقة النيران في المحيط الهادي:



تحدث العديد من الزلازل تحت قيعان البحار ولا يمكن الإحساس بها على سطح الأرض. وهذا النوع من الزلازل يسمى بالزلازل البحرية. وأعمق زلزال بحري حدث كان على عمق ٧٥٠ كم تحت سطح البحر. والهزات العنيفة جداً قد تؤدي إلى ارتجاج السفن بقوة. وبعضها يؤدي إلى حدوث انزلاقات طينية عظيمة تحت سطح البحر وقد يؤدي إلى إتلاف كوابل الاتصالات الممتدة في قاع البحر. ويمكن أن تؤدي الزلازل والبراكين تحت قاع البحار إلى حدوث أمواج طاغية، وتسمى هذه الأمواج الزلزالية المحيطية بـ(تسونامي). وبعض الأحيان تكون سريعة على سطح مياه البحر وتؤدي إلى ارتطامات عنيفة بالسواحل والجزر، وإلى إغراق المساكن والناس. وأعلى موجة محيطية زلزالية جرى تدوينها بلغ ارتفاعها ٨٥ متراً وهي بذلك أعلى من بناية تضم ٢٠ طابقاً.

السبب الثالث: الأمواج البحرية (تسونامي / TSUNAMI):

هي عبارة عن سلسلة من أمواج البحر السريعة والقوية، الناتجة عن الزلازل أو ثورات البراكين ـ كما سبق شرحه ـ أو غير ذلك[(١)]، وقد اصطلح على تسمية تلك الأمواج المدمرة بأمواج سونامي[(٢)] فعندما تحدث الزلازل تحت البحار والمحيطات أو تثور البراكين فيها.. تتولد موجات بحرية عملاقة[(٣)]، ـ انظر الشكل (١٢) ـ وبالغة القوة والشدة.. تستمد طاقتها من حركة الأرض، والأجسام الصلبة، وليس من الرياح كالأمواج العادية.. مما يتسبب في اكتساب هذه الأمواج طاقة حركية مدمرة، ترفع سرعتها إلى ٨٥٠كم/ ساعة، وارتفاعها إلى ٤٠ متراً، وعرضها إلى عدة كيلومترات،.. وتتراوح المدة الفاصلة بين كل موجتين عملاقتين من بضع دقائق إلى عدة ساعات..، تمر سونامي أثناء نشوئها بعدة مراحل، هي: التولد، فالانتشار ثم الإغراق»[(٤)].

---

(١) كسقوط الشهب والنيازك من الفضاء الخارجي في البحار والمحيطات (على سبيل الفرض) لكن الله حفظ الأرض من ذلك كله بالغلاف الجوي في السماء وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ (الأنبياء: ٣٢).

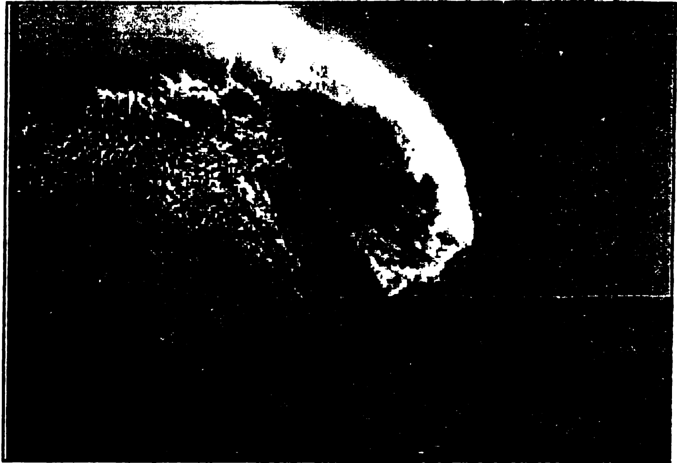
(٢) تسونامي: أصل الكلمة يابانية حيث يطلقها اليابانيون على العواصف البحرية المصاحبة للزلازل البحرية الممتدة إلى اليابسة.

(٣) وفي الزلزال الذي وقع في قاع المحيط الهندي جنوب آسيا بقوة ٩ درجات على مقياس رختر في تاريخ ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٤م وضرب ما يقرب من عشر دول، قتل أكثر من ٢٥٠ ألف نسمة، وارتفعت أمواجه فوق الأرض إلى خمسة عشر متراً، وبلغ تأثيره إلى مسافة ٤٥٠٠كم، وقدر علماء الزلازل سرعته بـ٨٠٠كم/ ساعة ـ أي سرعة الطائرة المدنية.

(٤) انظر: أسئلة وأجوبة في العلوم (علوم الأرض) (ما هي مسببات الزلازل)، تأليف: أنيتاجانيري، إعداد لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، الرياض ـ السعودية ص١٢-١٣. و: مجلة الإعجاز العلمي، العدد العشرون، محرم ١٤٢٦هـ، جدة ـ السعودية ص١٢، ٤٣. و: ملحق مجلة الأسرة (مساء) العدد الثامن ص١٤. و: مجلة الأسرة، العدد ١٤٣، ص٣١.

شكل (١٢)





تسونامي (الأمواج البحرية العاتية) الناتجة عن الزلازل الأرضية يلاحظ ارتفاعها لمسافة (٤٠) متراً فوق سطح البحر فهي كجبال المياه التي أغرق الله بها قوم نوح الكافرين

السبب الرابع: الأعاصير الهوائية:

هي عبارة عن أعمدة ضخمة من الدوامات الهوائية، تدور حول مناطق ذات ضغط منخفض، وتتحرك بسرعات فائقة.. ولذلك فهي أعاصير عنيفة، ما إن تتحرك حتى تبيد كل ما يعترض طريقها.. فتثير الأمواج وتدمر المدن، وتخرب الحقول، وتقذف بالسيارات ـ وكأنها أوراق الأشجار ـ وتصاحَبُ غالباً بغيوم سميكة[1] فتحدث ظاهرتي البرق والرعد وتهطل الأمطار الغزيرة.. يتراوح قطر الأعاصير ما بين ٢٢٠٠ كم في الأعاصير المدارية الحلزونية الضخمة، وبين بضع كيلومترات في الأعاصير الدوامية القمعية الصغيرة والتي تعد أقل حجماً من الأعاصير المدارية، إلا أنها أكثر تدميراً حيث تتجاوز سرعة الرياح في محيطها ٥٠٠كم/ ساعة..

وتنشأ الأعاصير عندما تثير حرارة الشمس طبقة الهواء الساكنة والملامسة لسطح الأرض، سواء كان ذلك عبر البحار والمحيطات، أو فوق اليابسة، فتكسبها الحرارة، وتتمدد صاعدة للأعلى، مكونة منطقة ذات ضغط منخفض، تجذب إليها التيارات الباردة. مما يؤدي إلى حدوث حالة من عدم الاستقرار في الهواء.. وكلما زاد عمق منطقة الضغط المنخفض وزادت شدة انحدار جوانبها بزيادة الفرق بين ضغطها والضغوط المحيطة بها زاد الإعصار عنفاً، فتدور حولها الرياح بسرعات فائقة.. بينما يكون الهواء الساخن في مركزها ساكناً تقريباً،

---

(١) قارن هذا بقوله تعالى على لسان عاد قوم هود عندما أرسل الله عليهم العذاب ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (الأحقاف: ٢٤، ٢٥).

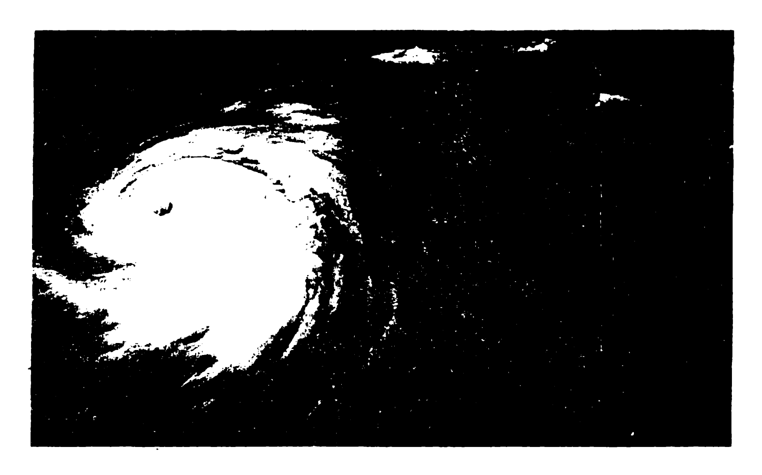
وبفعل السرعات الحلزونية الفائقة تنشأ الحركة المحورية للإعصار تجاه المدن والسواحل ـ انظر الشكل (١٣) ـ وتتراوح مدد مكث تلك الأعاصير بين عدد قليل من الأيام[١]، وأكثر من أسبوعين.. ويفقد الإعصار سرعته مع استمرار احتكاكه مع سطح الأرض حتى يتلاشى في النهاية[٢].

---

(١) قارن هذا مع قوله تعالى عن إهلاكه لعاد: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٦، ٧).

(٢) ويعد أكثر الأعاصير تسبباً في الوفيات هو الإعصار الذي ضرب بنجلادش عام ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

شكل (١٣)



في ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٤م وقعت عاصفة بحرية ناتجة عن زلزال حدث في قاع المحيط الهندي جنوب آسيا، ضرب ما يقرب من عشر دول، وقتل أكثر من ٢٥٠ ألف نسمة، وارتفعت أمواجه فوق الأرض إلى ١٥ متراً، وبلغ تأثيره إلى مسافة ٤٥٠٠ كيلو متر في المدن الساحلية.

وقدر علماء الزلازل سرعة المياه الناتجة عن الإعصار بـ(٨٠٠)كم/ ساعة

(أي سرعة الطائرة المدنية)

تلك أهم وأعظم وأعم الكوارث التي تقع في الأرض.

والملاحظ من خلال مقارنة الحقائق العلمية السابق ذكرها مع عقوبات الله التي أنزلها على بعض خلقه وسجَّلها القرآن الكريم[١] أن سبعاً منها ـ وهي العقوبات العظمى التي أنزلها الله على الكفار والعصاة[٢] ـ يرجع إلى التقسيمات العلمية للكوارث الرئيسة الأربعة السابق ذكرها.

والملاحظ أيضاً أن تلك الكوارث أو العقوبات مرتبطة ببعضها البعض من حيث الأسباب والآثار، فانفجار البراكين في البر أو البحر غالباً ما يؤدي إلى حدوث الزلازل الأرضية والأمواج البحرية، والزلازل الواقعة في البحار أو القريبة منها غالباً ما تؤدي إلى حدوث أمواج عاتية، والأعاصير الهوائية ناتجة عن إثارة حرارة الشمس للهواء الساكن فوق اليابسة والماء وكل ذلك عبارة عن ظواهر كونية عنيفة ذات تدمير كبير للإنسانية والبنيان وغيره، فتؤدي بذلك كله إلى خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات ونحوها.

ورغم اتفاق البشرية على قوة وأضرار وآثار تلك الكوارث إلا أن بعض علماء الغرب، وبعض وسائل الإعلام التابعة لهم، لازالت تنظر لتلك الأحداث وتقرؤها على أنها من فعل الطبيعة، وغضبها، أو تحديها للعقل والابتكار الإنساني.. ونحو ذلك مما يشير إلى إلحادهم وإنكارهم لرب السماوات والأرض ومن فيهما، وتدبيره لذلك كله، ولا عجب أن يقعوا في هذا التصور والاعتقاد،

---

(١) راجع الجدول رقم (١) ص٤٨٨.

(٢) وهي: «الإغراق بالمياه، والإهلاك بالرياح، والصواعق المميتة، والزلازل المدمرة، والبراكين المحرقة، والخسف في الأرض وقلب القرى وجعل عاليها سافلها».

لأن دولتهم وحضارتهم قامت على الإلحاد، لكن العجب أنهم لا يُعمِلون عقولهم ويوظفونها لمعرفة مقدار الصواب فيما يعتقدونه.

س: فهل اعتقاد هؤلاء صحيح؟ وما الطبيعة التي يقصدونها؟ وهل تقدر على فعل هذا كله؟ فإن عجزت فمن الفاعل إذاً؟

للجواب على ذلك كله لابد من التمهيد له بالحديث عن أمرين اثنين:

أولاً: قانون السببية.

ثانياً: حقيقة الطبيعة، وقدرتها على الخلق والتأثير.

ولنبدأ بالنقطة الأولى كما يلي:

أولاً: مقدمات وحقائق عن سنة الله في الأسباب والمسبَّبات:

أ ـ تعريف السبب وعلاقته بالمسبَّبات:

السبب في اللغة: كل شيء يُتوصل به إلى غيره[1]، وهذا هو المقصود بقوله سبحانه عن ذي القرنين: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ (الكهف: ٨٤)، والمعنى: «آتاه الله من كل شيء معرفة وذريعة يتوصل بها، فأتبع واحداً من تلك الأسباب»[2]، وقال الزمخشري: «السبب ما يُتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة»[3].

---

(١) لسان العرب، لابن منظور ٦/ ١٣٩ مادة سبب.

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (٧٢٩-٨١٧)هـ، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ٣/ ١٦٩.

(٣) تفسير الزمخشري ٢/ ٦٩٤.

وقد دلّ القرآن الكريم على أن كل شيء يحدث بسبب ـ سواء كان هذا الحدث يتعلق بالجماد أو بالنبات، أو بالحيوان أو بالإنسان أو بالأجرام السماوية أو بالظواهر الكونية المادية المختلفة ـ فقانون السببية أي ربط المسببات بأسبابها والنتائج بمقدماتها، هذا القانون عام شامل لكل ما في العالم، ولكل ما يحصل للإنسان في الدنيا والآخرة، قال ابن تيمية رحمه الله:

«فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات[1]»[2].

وقد تكون الأسباب مادية وقد تكون معنوية.

فمن الأسباب المادية قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٢) ومن الأسباب المعنوية قوله سبحانه: ﴿ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الفرقان: ٢٩).

---

(١) قال الشيخ الدكتور عبد الكريم زيدان تحت عنوان «المسبّبات تكون بأسبابها لا عندها»: «قال بعض الناس: إن المسبّبات تكون عند وجود أسبابها ولا تكون بهذه الأسباب، فالإحراق مثلاً يحصل عند وجود النار وليس بالنار، وهذا القول غير صحيح، فالمسبّبات تحدث أو تكون بالأسباب الموجبة لها، لا أنها تحدث أو تكون عند وجود هذه الأسباب، والأسباب إنما صارت أسباباً بما أودعه الله تعالى فيها من معاني السببية التي تستوجب نتائج معينة تناسب هذه المعاني، وكل هذا بتقدير الله ومشيئته وسنته في خلقه، فالإحراق يكون بالنار، فالنار هي سبب الإحراق، والإحراق يكون بالنار لما أودع الله فيها من معاني الحرارة المستوجبة للإحراق، لا أن الإحراق يحدث عند وجود النار».

انظر: السنن الإلهية، لزيدان ص٢٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٨/ ٧٠.

ب ـ الأسباب في القرآن الكريم:

القرآن الكريم ـ كما يقول ابن القيم ـ مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب، بطرق متنوعة، فيأتي بباء السببية تارة كقوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة: ٢٤).

ويأتي باللام تارة كقوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ (إبراهيم: ١).

ويأتي بذكر الوصف المقتضي للحكم تارة كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ (الطلاق: ٢).

فالله تعالى اقتضت حكمته ربط المسببات بأسبابها[1].

جـ ـ لابد للأسباب من شروط وانتفاء الموانع:

من المعلوم قطعاً أن السبب إنما يستوجب مسبَّبه إذا توافرت شروطه، أي إذا تحققت شروطُ عمل هذا السبب وفعاليته واستدعاءه لمسبّبه.

كما لابد من انتفاء موانعه، أي انتفاء الموانع التي تعيق عمل هذا السبب أو تسلبه فعاليته بحيث يصبح غير قادر على استدعاء مسبَّبه. فالنكاح مثلاً سبب للحصول على الولد، ولكن بشرط سلامة أعضاء الإنسان المتعلقة بذلك، وانتفاء العوائق التي تعيق وقوع الحمل والإنجاب وعمل تلك الأعضاء.

وقد صرّح غير واحد من العلماء بضرورة تحقق شروط السبب وانتفاء موانعه حتى يُنتج هذا السببُ مسبَّبه.

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم ٣/ ٤٩٨.

ومن ذلك ما ذكره الشاطبي[1] رحمه الله حيث قال: «وأما إذا لم تُفعل الأسباب على ما ينبغي، ولا استُكملت شرائطها، ولم تنتف موانعها، فلا تقع مسبَّباتها، شاء المكلف أو أبى، لأن المسبَّبات ليس وقوعها أو عدم وقوعها لاختياره، وأيضاً فإن الشارع لم يجعلها أسباباً مقتضية لمسبَّباتها إلا مع وجود شرائطها وانتفاء موانعها، فإذا لم تتوفر لم يستكمل السبب أن يكون سبباً شرعياً؛ سواء علينا أقلنا إن الشروط وانتفاء الموانع أجزاء أسباب أم لا، فالثمرة واحدة»[2]. وقال ابن تيمية رحمه الله: «فكل سبب هو موقوف على وجود الشروط وانتفاء الموانع»[3]. وقال أيضاً: «فلا بد من تمام الشروط وزوال الموانع،... وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوبه، بل لابد من انضمام أسباب أخرى إليه[4]، ولابد أيضاً من صرف الموانع

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الشهير بالشاطبي، محدث، فقيه، أصولي، لغوي، مفسر، محقق، نظار، من أئمة المالكية، وكان واسع الاطلاع، من شيوخه: أبو الفخار الألبيري، وأبو عبد الله البلنسي، من تلاميذه أبو بكر بن عاصم، وأخوه أبو يحيى، توفي عام ٧٩٠هـ، له عدة مؤلفات نفيسة، اشتملت على تحريات للقواعد وتحقيقات لمهمات الفوائد، منها: «الموافقات في أصول الفقه» ويسمى «الموافقات في أصول الشريعة أو الأحكام» وقد سماه هو بـ«عنوان التعريف بأسرار التكليف» وله «الاعتصام» وغير ذلك من الكتب. انظر: معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة ١/ ٧٧، ومعجم الأصوليين، للدكتور محمد مظهر بقا ١/ ٦٥.

(٢) الموافقات: للشاطبي ١/ ١٦٠.

(٣) مجموع الفتاوى ٨/ ١٣٣.

(٤) قول ابن تيمية: «وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوبه، بل لابد من انضمام أسباب أخرى إليه» هذه الأسباب الأخرى هي التي يسميها البعض بالشروط، وقد سماها ابن تيمية نفسه شروطاً في موضع آخر من كلامه، وكذلك أشار الشاطبي إلى هذه التسمية بقوله: (وسواء علينا أقلنا إن الشروط وانتفاء الموانع أجزاء أسباب أم لا).

انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية ٨/ ٧٠، و: المعلومات، للشاطبي ١/ ١٦٠.

والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود، فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من التراب والهواء وغير ذلك، ثم الزرع لا يتم حتى تُصرف عنه الآفات المفسدة له..».

د ـ علاقة سنة الله في الأسباب بسننه الأخرى:

تشغل سنة الله في الأسباب أو «قانون السببية» مساحة كبيرة جداً من سنن الله الأخرى ـ أقصد سننه أو قوانينه في الهدى والضلال، والظلم والظالمين والترف والمترفين والطغيان والطغاة، والذنوب وأهلها، والموحدين والمشركين، وغير ذلك[١] ـ فسنن الله تعالى في هذا كله وغيره من الحوادث المادية والمعنوية تقوم على سنته سبحانه في الأسباب بصورة مباشرة أو غير مباشرة، حتى لتبدو للمتأمل فيها كأنها من مفردات سنة الله في الأسباب، وليست سنناً مستقلة، وإن إفرادها بالذكر وبأسماء خاصة بها، إنما هو لإبرازها ولفت النظر إليها لمعنى خاص بها، وتبقى مع ذلك قائمة على سنة الله ومعتمدة عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة[٢].

ثانياً: حقيقة الطبيعة، وقدرتها على الخلق والتأثير:

الطبيعة هي الخليقة والسجية التي فُطرت الأشياء عليها وخُلقت بها[٣]...

---

(١) انظر: السنن الإلهية، لزيدان ص٣٥ وما بعدها.

(٢) نفسه ص٣٣.

(٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور ٨/١١٨-١٢٠ مادة طبع. و: دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي ٥/ ٦٧٨-٦٨١.

وفيه: (طبَعَ الشيء يطبعه): صوّره. (طبَعَ عليه): ختم عليه.

(طبع الله الخلق): خلَقَهم. (طُبِعَ الرجل على شيء): جُبل عليه.

(تطبّع بطباعه): تخلّق بها.

والطبيعة في العصر الحديث تُطلق على:

أ ـ الأشياء ذاتها، فالجماد والنبات والحيوان وسائر المخلوقات، كل هذه الكائنات هي الطبيعة.

ب ـ صفات الأشياء وخصائصها، فهذه الصفات: من حرارة وبرودة، ورطوبة ويبوسة، وملاسة وخشونة، وهذه القابليات: من حركة وسكون، ونمو واغتذاء، وتزاوج وتوالد، كل هذه الصفات والقابليات هي الطبيعة[1].

وهناك ألفاظ عديدة مشتقة من لفظ (طبع) لكل لفظ منها معناه الخاص به[2].

والذي يهمنا هنا أن لفظ الطبيعة يطلق على «المخلوقات، بما أودع الله فيها [وطبعها عليه] من خصائص وصفات[3]، كالشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والسماء والأرض، والمياه والبحار، والرياح، والأحجار، والأشجار، وغير ذلك».

---

(١) الله جل جلاله، لسعيد حوّى، ص١٠٩.

(٢) انظر: الكليات، للكفوي ص٥٨٤-٥٨٥.

و: التعريفات، للجرجاني ص١٤٠ باب الطاء.

و: الكافي، لمحمد الباشا ص٦٥٠، مادة طبع.

و: معجم اللغة العربية (عالم المعرفة)، لأديب اللجمي، وآخرين ص٨١٢ حرف الطاء.

و: معجم الباقلاني في كتبه الثلاثة (التمهيد ـ الإنصاف ـ البيان)، للدكتوره سميرة فرحات ص٢٨١.

و: موسوعة الزاد للعلوم والتكنولوجيا، (إعداد لجنة) ٥/ ١١٤٢.

(٣) انظر: كتاب التوحيد، للشيخ عبد المجيد بن عزيز الزنداني، ص٢٩٣.

وللحق أننا إذا تأملنا في نظرة الطبيعيين لتلك المخلوقات كلها تبيّن أنها ـ بالنسبة لهم (جملة أوثان) عبدها المشركون من دون الله، واعتقدوا لها قدرة ونفعاً وضُراً من تلقاء ذاتها، فكادت الطبيعة بذلك أن تكون إلهاً جديداً جمع كل الآلهة المزعومة والأوثان السابقة[1].

«وما أشد التشابه بين من كان يعبد الأصنام من قبل ويجادل عنها، ومن يعبد الطبيعة اليوم ويجادل عنها، فالعلة النفسية واحدة، والخطأ واحد.. ألا وهو الاصطناع في أول الأمر، وتوهّمُ الاستقلال والتأثير في آخره، ثم العبادة بناء على ذلك»[2].

وصدق الله في قوله للمشركين السابقين ومن شابههم: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

إن الطبيعة عند ملحدي العصر الحديث تخلق المخلوقات من عدم، وتمنحها بعض صفاتها، وتقدر على التأثير والتدبير، ولها دقة في التقدير، ولها إبداع عظيم في خلق السماوات والأرض بكل من فيهما وما فيهما.

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) الله جل جلاله، لسعيد حوى ص١١١-١١٢.

(٣) يوسف: ٤٠، ونحوها في الأعراف ٧٠-٧١.

ويزعم الطبيعيون: أن ما يجري في الكون من الذرة حتى المجرة إنما يحدث طبقاً (لقانون الطبيعة)[1]، فلا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلهاً مجهولاً!

---

(١) ومن هؤلاء الطبيعيين القائلين بذلك المعاصر البروفيسور روبرت ـ مدير معهد الإرصاد في أمريكا، فعندما التقى به الشيخ الزنداني في مؤتمر علمي في باكستان دعاه للإيمان بالله فأبى واستكبر، وهاك نص المناظرة بينهما:

يقول الشيخ الزنداني: «قلت له: هل لديك استعداد لأن نتحاور حول الإيمان بالله؟

قال: نعم.

فقلت له: هل كنت قبل مائة سنة موجوداً؟

قال: لا.

فقلت له: هذه النباتات بأغصانها، وجذورها وأزهارها هل كانت موجودة قبل آلاف ومئات السنين؟

قال: لا.

قلت: وكذلك الحيوانات، ما كانت موجودة منذ الأزل، (فأقرني على ذلك).

ثم قلت له: إن علم الحفريات في الأرض قد أثبت أنه قد مرت فترة زمنية على الأرض لم يكن فيها نباتات، ولا حيوانات، بل ولا جبال، ولا وديان، ولا تربة، ولا أنهار، ولا بحار.

فقال: نعم.

فقلت له: بل قد مر وقت لم يكن للكوكب الأرضي وجود، بل كان جزءاً من مادة السماء، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٠) فاندهش من الآية!

ثم قلت له: إن الشمس والقمر ونجوم السماء لم يكن لها وجود بل كانت دخاناً، كما يقرر ذلك علماء الفلك اليوم، وكما يقرره القرآن من قبل في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١) فأقر بما دلّت عليه الآية من أصل دخاني للكون.

وقلت أيضاً: كما يقرر علماء الكون اليوم أن مادة الكون الدخانية (السديم) لم تكن موجودة، ووجدت بالانفجار العظيم، وكان الكون قبل ذلك عدماً (فأقرني على ما قلت). =

= فقلت له: إذاً لا بد من وجود الخالق سبحانه، الذي أوجد هذه المخلوقات من عدم، وعدد الأدلة على وجود الخالق كعدد هذه المخلوقات التي وجدت من العدم.

فقال: نعم،لا بد لهذا الكون من خالق

فقلت له: من هو؟

قال: الطبيعة!

قلت له: عندي قاعدة أخرى ستبين لنا من الخالق، وستعرفنا بصفاته.

قال: ما هي؟

قلت له: انظر إلى هذا المصباح [وكان في الغرفة مصباح كهربائي (نيون)].

قال: ماذا انظر؟

قلت: هل الذي صنع هذا المصباح لديه زجاج؟

قال: نعم، وإلا فمن أين جاء هذا الزجاج؟

فقلت له: وهذا الصانع لديه قدرة على تشكيل الزجاج في شكل اسطواني منتظم؟ (فأقر بذلك).

فقلت له: وصانع المصباح لديه معدن (الألمنيوم الذي في طرفي المصباح).

قال: نعم.

قلت له: وهو قادر على تشكيل الألمنيوم في شكل غطاء.

قال: نعم.

قلت له: ألا ترى إلى الإحكام بين فتحتي الاسطوانية الزجاجية والغطاء المعدني، ألا يدلك ذلك الإحكام على أن الصانع حكيم؟

قال: بلى.

قلت له: وهذا المصباح يضيء بمرور التيار الكهربائي بين قطبيه، ألا يدل ذلك على أن صانعه عالم بهذه الخاصية؟

فقال لي: يمكنك أن تعرف ذلك بالضغط على زر المصباح الكهربائي فتحاً وإغلاقاً.

قلت له: إذاً تشهد الآن بأن صانع هذا المصباح يتصف بما يلي:

لديه زجاج.

قادر على تشكيل الزجاج في شكل اسطواني. =

= لديه إحكام (لأنه أحكم فتحة الغطاء المعدني على فتحة الاسطوانة الزجاجية).

لديه علم بالكهرباء وخاصيتها عند مرورها في المصباح.

قال: نعم.

قلت: أتشهد بذلك؟

قال: أشهد.

قلت: كيف تشهد بصفات صانع لم تره؟!

فأشار إلى المصباح: قال: هذا صنعه أمامي يدلني على ذلك.

قلت له: إذن، المصباح أو المصنوع هو كالمرآة يدل على بعض صفات الذي صنعه، فلا يكون شيء في المصباح أو المصنوع إلا وعند الصانع صنعة أو قدرة أوجد بها ذلك الشيء الذي نراه (فأقر بهذا).

فقلت له: هذه القاعدة الثانية، ففي المخلوقات آثار تدل على بعض صفات خالقها سبحانه، وكما عرفت بعض صفات صانع المصباح من التفكر في المصباح، فسوف تعرف بعض صفات الخالق جل وعلا بالتفكر في مخلوقاته.

قال: كيف؟

قلت له: فلننظر في خلقك أنت، ولنتفكر فيك بدلاً من المصباح، وعندئذ ستعرف بعض صفات خالقك.

فقال: كيف؟

وهنا حددت النقاش حول الحكمة التي هي من خصائص الخالق سبحانه وتعالى، فقلت له:

هل درجة حرارة جسم الإنسان ثابتة أم متغيرة بحسب الطقس الخارجي؟

قال: بل ثابتة عند ٣٧° درجة مئوية.

فقلت له: إن في الجسم عوامل مثل: إفراز العرق، تقوم بتخفيض درجة حرارة الجسم إلى ٣٧° درجة، عندما ترتفع درجة حرارة الجو التي قد تصل إلى أكثر من خمسين درجة، وفي الجسم أيضاً عوامل أخرى، كإحراق الطعام في الجسم، تعمل على رفع درجة حرارة الجسم إلى ٣٧°م عند انخفاض درجة حرارة الجو في الشتاء، والتي قد تصل إلى درجات تحت الصفر، فهل الذي أقام هذا الميزان المحكم، الدائم في عمله في سائر أجسام البشر التي =

= خُلقت، وسوف تُخلف، بحيث تبقى درجة الحرارة ثابتة عند ٣٧°م، لا تزيد ولا تنقص رغم تقلبات درجات الحرارة في الجو المحيط بنا، هل هو حكيم أم لا، فأحسَّ أنه إن سلّم باتصاف الخالق بصفة الحكمة ستسقط الطبيعة التي لا حكمة لها، فقال: لا ليس بحكيم!!
فقلت له: لقد أعدّ لك الجهاز الذي يضبط درجة الحرارة في الجسم وأنت جنين في بطن أمك، في رحم مكيفة عند درجة حرارة ٣٧°م، وفي وقت لم تكن بحاجة إليه وأنت جنين في بطن أمك، وإنما تحتاج إليه بعد خروجك إلى هذه الأرض، التي تتغير فيها درجات الحرارة، فتكون عندئذ في أمس الحاجة إلى هذا الجهاز المنظم للحرارة، والمثبّت لها عند درجة ٣٧° درجة مئوية، وهي الدرجة المناسبة لكيمياء الحياة في جسم الإنسان.
ألا ترى أن من زوَّدك في بطن أمك بما ستحتاج إليه بعد خروجك عليم بالبيئة التي ستخرج إليها، وما يلزم لها من تكوينات في خلقك؟!
فعلم عندئذ أنه إن سلَّم بأن الخالق يتصف بالعلم فستسقط الطبيعة التي لا علم لها ولا حكمة، فعاد مرة ثانية إلى الإنكار والجحود. فقال: لا، ليس بعليم.
وهكذا أنكر صفتي الحكمة والعلم.
فقلت: أضرب له مثالاً آخر.
هل ينمو جسمك باتزان أم بغير اتزان. (فلو كان بغير اتزان لرأيتَ عيناً أكبر من عين، ويداً أكبر من يد، ورجلاً أكبر من رجل).
ثم قلت: الذي وضع الميزان في كل خلية من جسمك، حكيم أم ليس بحكيم؟
فقال: ليس بحكيم. (قال ذلك فراراً مرة أخرى من أن يعترف بالحكمة، فيُلزم بالاعتراف بالخالق سبحانه وتعالى). قلت: يا بروفيسور! أرأيت ميزان الحركة في جسمك الذي يعمل على تثبيت الجسم وموازنته، بحيث لو انزلقت إلى الجهة اليسرى، يعيدك فوراً إلى الجهة اليمنى، بعمل تلقائي محكم، وهكذا لو أنزلقت إلى أي جهة أخرى، فيعيدك إلى الجهة المقابلة لها، هل الذي خلق لك جهاز التوازن في الحركة، وأنت جنين في بطن أمك، وجعله يعمل بسرعة البرق، حكيم أم ليس بحكيم؟
قال: ليس بحكيم!
فقلت في نفسي: سبحان الله إنه الكفر يغطي الحقائق.

= ثم عدَّدتُ له موازين ربانية، مثل ثبات نسبة الأكسيجين في الهواء، وكذلك توازن سير القمر مع الأرض، بحيث يسرع عند الاقتراب منها، ويبطئ عند الابتعاد عنها،
وذكرت له التوازن بين سرعة سير النجوم والكواكب، والجاذبية بينها وبين غيرها من النجوم والكوكب،
وقلت له: ألا يدل ذلك كله أنه من صنع الحكيم؟
فقال: لا.
وفي اليوم الثاني بدأت الحديث بهذا الكلام، فقلت له:
يا بروفسور: وقع حادث محزن في اليمن، وهو الزلزال الذي حدث في ذمار ـ أي عام ١٩٨١م ـ فأظهر حزنه مجاملة لي.
ولكن قلت له: يابروفسور، حدثت مفاجأة، مصاحبة للزلزال، وهي أنه طار قضيب معدني في السماء، ثم سقط على مسمار فخرقه في منتصفه، فاتزن القضيب، ثم طارت مادة من اللحام فوقعت على أحد طرفي القضيب، ثم طار طبق معدني فوقع على اللحام،
وشكل كفة ميزان، وبنفس الطريقة تكونت الكفة الثانية، وهكذا وجد لدينا ميزان!
(فرأيتُ ملامح وجهه قد تغير ت، وعبس بوجهه)
فقال: ما هذا. زلزال يصنع ميزاناً؟!
فقلت: انتظر، هناك أعجب من هذا. إنه يعمل بشكل آلي بحيث لو وَضَعْتَ وزناً محدداً في كفة، فإنه يقوم بوضع نفس الوزن في الكفة الثانية، وإذا أنقصتها، قام هو فأنقص ما يقابلها من الكفة الأخرى، لأنه لا يرضى إلا أن يكون متزناً!.
فأخذ ينظر إلي باستغراب ودهشه، فقلت متهكماً: يابروفسور، جاء صدفة، ويعمل بالصدفة!
فعلم ما أردت، فانفجر ضاحكاً، فقلت: لم تقبل لي ميزاناً واحداً بالصدفة،
فكيف تزعم أن موازين السماوات والأرض كلها قد خُلقت صدفة!). وهنا توقَّفت محاورة الشيخ عبدالمجيد الزنداني للبروفيسور روبرت، الذي لم يؤمن رغم أن هذا الحوار العقلي المتدرج كان وسيلة فعالة ومقنعة للوصول للإيمان بالله، وصدق الله القائل عن الكفار ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٥).
انظر علم الإيمان، للزانداني ١/ ٦٩-٧٥.

هكذا ينظر الملحدون الطبيعيون إلى الطبيعة وقبل الرد على هؤلاء أقول:

من أحسن ما قيل عن الطبيعة، ما قاله عالم مسيحي باللغة الإنجليزية:

«Natufe is Afact, Not An Explanation»

بمعنى: «إن الطبيعة حقيقة من حقائق الكون، وليست تفسيراً له»[1].

فكل ما اكتشفه الطبيعيون من خلال علومهم الطبيعية إنما هو دراسة للهيكل الظاهري للكون، وتفصيل للأحداث الواقعة فيه، وليست تفسيراً لها، «فعلومهم لم تكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين، وكيف قامت بين السماء والأرض على هذه الصورة المدهشة»[2]، وما الحكمة من ذلك كله، ومن المحْدِث لهذه الطبيعة والمسبب لها بقوانينها المبدعة المتقنة؟! لقد كانت أهداف الطبيعيين من دراستهم للمادة إنما هي الإجابة عن السؤال التالي:

ما هذا الذي يحصل في الكون؟ وما أسبابه الظاهرة، وما هي قوانينه ونواميسه المنتظمة التي يسير عليها؟

عموماً بعد أن مهّدتُّ للرد على الطبيعيين القائلين بأن كل ما يحصل في الكون إنما هو من فعل الطبيعة بالحديث عن قانون السببية، وبيان حقيقة الطبيعة وقدرتها على الخلق والتأثير أقول: إننا لو تدبرنا في شبهة الطبيعيين القائلين بأن الطبيعة خلقت نفسها، وأن الكون إنما جاء صدفة لا عن قصد وإرادة، لتأكد لنا بطلانها من عدة وجوه حسية وعقلية، نبدؤها بذكر المثال التالي:

---

(١) الإسلام يتحدى، تأليف وحيد الدين خان، تعريب ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق د/ عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، ط٩، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان ص٣١، ولم يذكر المؤلف من القائل.

(٢) نفسه، ص٣٢.

مثل الطبيعيين الملحدين القائلين بأن الطبيعة هي التي خلقت العالم كمثل بدوي متوحش في بعض الصحاري رأى بناء رائعاً مشيداً على أحسن طراز وأدق هندسة، لم يسبق أن رأى مثله في حياته، فتأمل في براعته ونقوشه ومظاهر إتقانه، ثم حدث نفسه أن ليس في هذه الصحراء كلها من يقدر أن يبدع مثل هذا الإبداع، فلابد أن الباني في جوف البناء نفسه..، ثم راح ينظر ويفتش عنه في الغرف من حوله، فلم ير أحداً، ولكنه عثر على أوراق فيها:

خارطة البناء، ومواده، وتفاصيل هندسته، ففكر قليلاً أن هذه الأوراق لا يد لها، ولا بصر، فليس من شأنها أن تشيد البناء، ولكنه ما لبث أن عاد فتعلق بها قائلاً: ولكن ها هي ذي تتحدّث عن قوانين تشييده، وكيفية تأليفه، إذاً فليس ثمة غيرها المشيد والباني. فكذلك بعض عباقرة الغرب وأكابر علمائهم لم تهضم عقولهم إلا اسم الطبيعة، يدخلون إلى صرح هذا الكون العظيم، فيدهشهم ما يرون فيه من إبداع، ثم لا يبحثون عمن وراء ذلك ـ بسبب عقولهم القاصرة ـ ولا يتأملون في أسراره وثناياه وأطرافه، لكنهم يعثرون على اللوح الذي سُجِّلت فيه قوانين الفطرة الإلهية، وقواعد صنعته الإبداعية، المسماة خطأ بـ (الطبيعة)، فينبهرون لها، وتحدثهم نفوسهم وهم في غيبوبة تامة: أن لابد أن هذا اللوح بقوانينه هو الذي أبدع هذا الإبداع، وصنع هذا الصنع[1].

بهذا المثال يتبين لنا بطلان شبهة الطبيعيين القائلين بأن الطبيعة هي خالق الكون، والمتصرف في شئونه، كما أنه يمكن إسقاط هذه الشبهة من خلال قواعد الإيمان العقلية الآتية:

---

(١) الله جل جلاله، لسعيد حوى ص١٢٠ بتصرف وزيادة.

أولاً: قاعدة (فاقد الشيء لا يعطيه)[١]:

بمعنى أن من لا يملك القدرة على الفعل لا يكون فاعلاً ـ فكما أنه لا يُعقل أن يُنسب إلى الأخرس فصاحة اللسان وحسن البيان، ولا ينسب إلى العاجز المشلول بناء البنيان وإقامة العمران ـ فكذلك لا يعقل أن ينسب إلى حجارة صماء القدرة على الخلق والرزق والإحياء والإماتة والنفع والضر.. إلخ.

فكيف يقول الطبيعيون: إن الطبيعة هي التي خلقت الكون ـ وهي مخلوقة ـ وتصرفت فيه، وهي مفتقرة إلى العقل والإرادة والقدرة والعلم والحكمة؟!

لقد أنكر الله عز وجل على الكفار اتخاذ آلهة عاجزة عن الخلق والتدبير، فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[٢].

وكيف يزعم الطبيعيون أن الطبيعة خلقت الإنسان وتصرفت فيه ودبَّرت شئونه، وليس لها ما للإنسان من العقل والإرادة والقدرة والتدبير والعلم والحكمة؟! وهل يصح أن يُنسب إلى هذه الطبيعة الجامدة خلق الإنسان ونفخ الروح فيه، ومنحه الأوصاف السابقة، وهي لا تملك من ذلك شيئاً؟! بل

---

(١) ممن شرح هذه القاعدة وغيرها من القواعد العقلية التالي ذكرها:

د/ صلاح الصاوي في كتابه (فاعلم أنه لا إله إلا الله)، دار الإعلام الدولي، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م القاهرة. والشيخ عبدالمجيد الزنداني ـ رئيس جامعة الإيمان ـ في كتابيه:

أ ـ توحيد الخالق ص٢١-٢٥.

ب ـ علم الإيمان ١/ ٦٤-٦٨.

(٢) الفرقان: ٣، ونحوها في النحل ٢٠-٢١، وفاطر ٤٠.

هي أعجز عن خلق ذبابة كما قال تعالى مخاطباً الكفار عن آلهتهم الباطلة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾

(الحج: ٧٣).

ثانياً: قاعدة (العدم لا يفعل شيئاً ولابد لكل فعل من فاعل)[١]:

وهذه ضرورة عقلية، وحقيقة شرعية، شهدت بها بداهة العقول، وأثبتها الله في كتابه بقوله سبحانه مخاطباً الكفار: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ ﴾

(الطور: ٣٥، ٣٦).

لقد كانت الطبيعة في حين من الدهر عدماً، لم تكن شيئاً مذكوراً ـ وهذا ما أكدته الكشوفات العلمية الحديثة التي نفت أزلية الكون من خلال عدة أدلة[٢]، وأكدت أنه صائر إلى نهاية ـ فوجب أن يكون له خالق، يقول الدكتور إدوارد لوثر كيسل[٣]: لقد «أثبتت البحوث العلمية ـ دون قصد ـ أن لهذا الكون (بداية) فأثبتت تلقائياً وجود خالق له، لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته،

---

(١) انظر: فاعلم أنه لا إله إلا الله، للدكتور صلاح الصاوي ص١٧.

(٢) منها: أ ـ دليل بقاء المواد المشعة.

ب ـ القانون الثاني للحرارة الديناميكية.

انظر: الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٥٥، و: توحيد الخالق، للزنداني ص٣٢١-٣٢٦.

(٣) هو: أخصائي في علم الحيوان والحشرات، حاصل على دكتوراه من جامعة كاليفورنيا أستاذ علم الأحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو ـ متخصص في دراسة أجنة الحشرات والسلامندر والحشرات ذوات الجناحين.

ولابد أن يحتاج إلى المحرك الأول، الخالق الإله»[1] - ووجب أيضاً أن يكون هذا الخالق أزلياً قطعاً لدور التسلسل، كما أنه لا يستقيم مع العقل أبداً القول: إن الكون هو الذي خلق نفسه، أو أنه جاء صدفة.

قال عبدالرحمن الميداني[2] وقد نظم شعراً يُعبِّر فيه عن الإلزام العقلي بوجود خالق للكون بمن فيه وما فيه:

حَدَثْنا ولم نكُ قبل الحدوث ... ولا شيءَ كنا بمحض العَدَم
وليس لنا موقع في الوجود ... وراءَ الحدود ببَحْر القِدَم
حدود الزمان حدود المكان ... ترى الحادثاتِ بها تصطدمْ
فهل خَلَقَتْ نفسها الحادثات ... بلا شيء لها قد عُلِم؟

---

(١) انظر: الله يتجلى في عصر العلم، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين، أشرف على تحريره جون كلوفر مونسيما، ترجمة الدكتور الدمرداش عبدالمجيد سرحان، راجعه وعلق عليه الدكتور محمد جمال الدين الفندي، دار القلم للطباعة والنشر، ط(بدون) د.ت، بيروت - لبنان ص٢٦ بتصرف يسير. و: الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٥٥.

(٢) هو عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ولد عام ١٣٤٥هـ الموافق ١٩٢٧م، في دمشق، نشأ في بيت علم ودعوة، وتربى على يد والده العالم والداعية... ومارس إعداد الدروس والخطب والمواعظ، وبدأ يعلِّم غيره وهو في سن الخامسة عشرة، درس في الأزهر وحاز على شهادته العالمية في التدريس آنذاك (الماجستير)، عمل أستاذاً في جامعة أم القرى قرابة ثلاثين عاماً، ثم اختير عضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وبعد تدريسه تفرغ لتدبر كتاب الله الذي كان قد بدأ به قبل ذلك وفق منهجه في كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله)، له عدة مؤلفات تربو على الثلاثين مؤلفاً منها: (الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها) و(الأخلاق الإسلامية وأسسها) و(مكايد يهودية عبر التاريخ).

انظر: علماء ومفكرون معاصرون، ٧ (عبد الرحمن حبنكة الميداني) العالم المفكر المفسر، بقلم زوجته عائدة راغب الجراح، دار القلم، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، بيروت - لبنان.

أم اندفَعَتْ للوجود الكبير   وليس لها خالقُ ذو حِكَم[١]؟!

يقول أحد علماء الطبيعة[٢] العقلاء: «لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه، فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله.. وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود الإله؛ ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيباً، إلهاً غيبياً ومادياً في آن واحد!! إنني أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومديره ومدبِّره..»[٣].

عموماً سأبسط القول عن هذه القاعدة عند الاستدلال بدلالة الحقائق الكونية على وحدانية الله وتوحيده فيما يتعلق بإبداع الكون ورعايته[٤].

ثالثاً: قاعدة (الفعل مرآة لقدرة فاعله وبعض صفاته):

تبين لنا مما سبق أن الطبيعة مخلوقة حادثة غير أزلية، وأنه لابد لها من محدث خالق، وأشرح هنا حتمية اتصاف الخالق بصفات معينة دلتنا عليها الآثار المشاهدة

(١) براهين وأدلة إيمانية ص٤٧٦.

(٢) هو: الدكتور جورج إيرل دافيز، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة منيسوتا، رئيس قسم البحوث الذرية بالبحرية الأمريكية ببروكلين ـ أخصائي في الإشعاع الشمسي والبصريات الهندسية والطبيعية.

انظر: الله يتجلى في عصر العلم ص٣٦.

(٣) الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٧٨.

و: الله يتجلى في عصر العلم، لنخبة من علماء أمريكا ص٣٧.

(٤) في ص٨٤٨.

في مخلوقاته، بناء على القاعدة المذكورة أعلاه، فـ«التعرف على بعض صفات الفاعل من خلال مشاهدة أفعاله وآثاره فيما خلق منهاج عقلي وشرعي، يحسه العقل بالضرورة، وتحث عليه النصوص الشرعية، وتعتمده أساساً هاماً تقيم عليه كثيراً من حقائق الإيمان»[1].

إننا لو تأملنا في القلم الذي نخطّ به لعرفنا أن لدى صانعه مواداً معدنية وبلاستيكية لتصنيعه، وقدرة على تشكيله بما يتناسب مع أصابع اليد، وعنده حبر لملئه به، ولديه علم بالحبر الذي يتناسب معه ـ سائلاً كان أو جامداً أو غير ذلك ـ وهو يمتلك دقة في صناعة رأسه المدبب المثقوب، وإحكاماً وضبطاً له بحيث يؤدي ما صُنع من أجله.. إلخ الصفات التي تعرفنا بصانع القلم من خلال صناعته.

وكذلك الكون كله نجده يقوم على علم وقدرة وإرادة وحسن تدبير، ودقة وإحكام، وغير ذلك من الصفات التي سأشرحها بالتفصيل في مبحث الأدلة العلمية على وحدانية الله.

لقد أكد علماء الغرب وغيرهم ما شهدت به العقول: أن الطبيعة ابتداء من أصغر شيء فيها وانتهاء بأكبر جرم قائمة على إبداع وإتقان يدلان على باريها حتى قال أحد أساتذة الكيمياء والباحثين فيها:

«إنني أقرأ النظام والتصميم في كل ما يحيط بي من العالم..، ولا أستطيع أن أُسَلِّم بأن يكون كل ذلك قد تم بمحض المصادفة العمياء التي جعلت ذرات هذا

(١) فاعلم أنه لا إله إلا الله، د/ صلاح الصاوي ص١٨.

الكون تتألف بهذه الصورة العجيبة، إن هذا التصميم يحتاج إلى مبدع، ونحن نطلق على هذا المبدع اسم الله»[١].

وقال آخر ـ متخصص في علم الأحياء ـ : «إننا كلما تعمقنا في دراسة هذا الكون وسكانه، ازددنا معرفة بطبيعة الخالق الذي أبدعه»[٢].

وقال ثالث ـ متخصص في علم الغابات والنبات ـ : «إن عجائب الكون لا تسمح بالإيمان فحسب، بل تدعو الناس إلى هذا الإيمان، وإن الاستدلال بالكون على وجود الله ـ وبعض صفاته ـ أمر لابد منه ـ وخاصة في عصر النهضة العلمية، والتفكير العقلي»[٣].

لقد خاطب الله خلقه في أكثر من آية ودعاهم إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض ـ الطبيعة ـ للاستدلال بهذه المخلوقات على وجود الخالق سبحانه، وعلى بعض صفاته، فقد أودع فيها دلائل وحدانيته في ربوبيته وألوهيته وبعض

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، لمجموعة من علماء أمريكا ص٣٩. والقائل هو: توماس دافيد باركس، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة ألينوي، وأخصائي في النظريات الكهربائية والأشعة السينية. مدير البحوث بشركة كلوركس الكيماوية، رئيس قسم الكيمياء بمعهد بحوث ستانفورد سابقاً.

(٢) نفسه، ص٨٩، والقائل هو: ألبرت ماكوب ونشستر متخصص في علم الأحياء، أخصائي في علم الوراثة وفي تأثير الأشعة السينية على الدروسوفيلا، أستاذ الأحياء بجامعة بايلور وعميد كلية العلوم بلفوريدا سابقاً.

(٣) المرجع السابق ص٥٢ بتصرف، والقائل هو: لورنس كولتون ووكر، أخصائي علوم الغابات والنباتات وعلم الفسيولوجيا، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة نيويورك. أستاذ علوم الغابات في جامعة جورجيا.

أسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ (الجاثية: ٣-٦).

إننا نشاهد أن الكون كله قد قام على حكمة بالغة، وخبرة فائقة، وإبداع عظيم، ولا تملك الطبيعة شيئاً من ذلك أبداً، بل «إننا نشاهد عقولاً مفكرة حكيمة تُخلق كل يوم ـ وتُبدِع كل لحظة ـ ولا تملك الطبيعة ذرة من ذلك»[1].

ولو تأمل الطبيعيون في معنى ودلائل قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٤) لأيقنوا بوجود إله عظيم على كل شيء قدير، فالنبات يسقى بماء واحد وينمو في تربة واحدة، ويتعرض لشمس واحدة، ويتنفس هواءً واحداً، لكنه يأتي مختلف الألوان والروائح والطعوم والأحجام والأشكال، مع أن مقتضى الطبيعة ـ لو كانت هي الخالقة للنبات المدبرة له ـ أن يكون على طبع واحد لوناً ورائحة وطعماً وحجماً وشكلاً[2]، وصدق من قال شعراً عن بعض آيات الله في الأرض والنبات ـ رداً على الطبيعيين ـ قال فيه:

---

(١) علم الإيمان، للزنداني ١/ ٦٨.

(٢) كما أن تعليل الطبيعيين لكل ما يحصل في الكون بقولهم (اقتضته الطبيعة) يلزم منه: =

والأرض فيها عبرة للمعتبر … تخبر عن صنع مليك مقتدر
تُسقَى بماء واحد أشجارها … وبقعة واحدة قرارها
والشمس والهواء ليس يختلف … وأُكُلُها مختلف لا يأتلف
لو أن ذا من عمل الطبائعِ … أو أنه صنعة غير صانع
لم يختلف وكان شيئاً واحداً … هل يشبه الأوْلاد إلا الوالدا
الشمس والهواء يا معاندُ … والماء والتراب شيء واحد
فما الذي أوجب ذا التفاضلا … إلا حكيم لم يُرِدْهُ باطلاً[1]

قال الآلوسي: «إنّ مَنْ عَقَلَ هاتيك الأحوال العجيبة، وخروج الثمار المختلفة.. في تلك القطع المتباينة المتلاصقة، مع اتحاد ما تُسقى به، بل وسائر أسباب نموها، لا يتلعثم في الجزم بأن لذلك صانعاً حكيماً قادراً مدبراً لها لا يعجزه شيء»[2].

لقد رد الرازي رحمه الله على الطبيعيين المنكرين لوجود الصانع ـ الخالق سبحانه وتعالى ـ ودَحَضَ شبهاتهم، بإبطال أزلية الكون، وإثبات حدوثه بصفة

= أ ـ أن يعترف صاحب هذا القول بأن كل ذرة من ذرات الوجود تنطوي على مجموعة العوامل والمؤثرات التي أبدعت هذه المجموعة الكونية، وأنها تشتمل على القدرة والطاقة الكافية لإبداع عالم كامل كالذي نراه من حولنا.. فلكل ذرة من ذرات هذا الوجود طبيعتها الخلاقة المدبرة الحكيمة منفصلة عن غيرها، غير مرتبطة بقيادة عامة لها ولأمثالها، وهذا ما يكذبه الواقع، ولا يقبله عقل عاقل!!.

ب ـ أن أصغر جزء من الأرض ـ وليكن شبراً واحداً ـ يمكن أن تستنبت فيه كل أنواع نباتات العالم وأزهاره، في وقت واحد.. وهذا ما لا يحصل أبداً، فالملاحظ وجود إرادة خصصت النبات في ذاته وشكله وخصائصه. انظر: الله جل جلاله، لسعيد حوى ص١١٩.

(١) روح المعاني، للآلوسي ٧/ ٩٩.

(٢) نفسه ٧/ ٩٨ باختصار.

تؤكد أن له محدثاً أحدثه بتقدير حكيم وتخصيص دقيق في أكثر من موضع في تفسيره لآيات القرآن الكريم[1]، ودلل على وحدانية الله في وجوده وربوبيته وألوهيته، وكثير من أسمائه وصفاته بأدلة عقلية مستنبطة من نصوص القرآن الكريم، وخلاصة قوله في الرد على الطبيعيين ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل: ٣): حيث قال: «الخلق عبارة عن التقدير بمقدار مخصوص، وهذا المعنى حاصل في السماوات من وجوه:

الأول: أن كل جسم متناه، فجسم السماء متناه، وكل ما كان متناهياً في الحجم والقدْر، كان اختصاصه بذلك القدْر المعين دون الأزيد والأنقص أمراً جائزاً، وكل جائز فلا بد له من مقدِّر ومخصِّص، وكل ما كان مفتقراً إلى الغير فهو محدَث.

الثاني: وهو أن الحركة الأزلية ممتنعة، لأن الحركة تقتضي المسبوقية بالغير، والأزل ينافيه، فالجمع بين الحركة والأزل محال.

إذا ثبت هذا فنقول: إما أن يقال: إن الأجرام والأجسام كانت معدومة في الأزل ثم حدثت أو يقال: إنها وإن كانت موجودة في الأزل إلا أنها كانت ساكنة ثم تحركت. وعلى التقدير فلحركتها أول، فحدوث الحركة من ذلك المبدأ دون ما

---

(١) انظر ذلك في تفسيره مفاتيح الغيب في ١٢/ ١٢٣ وما بعدها، في تفسيره للآية ١ من سورة الأنعام.

و: ١٩/ ١٧٧ وما بعدها، في تفسيره للآيات ٣-١٦ من سورة النحل.

و: ٢٤/ ٧٧ وما بعدها، في تفسيره للآيات ٤٥-٤٩ من سورة الفرقان.

قبله أو ما بعده خلق وتقدير، فوجب افتقاره إلى مقدِّر وخالق ومخصِّص له، بفعل فاعل مختار، متقدم على هذه الحركات.

الثالث: أن جسم الفلَك مركب من أجزاء، بعضها حصلت في عمق جرم الفلَك، وبعضها في سطحه، والذي حصل في العمق كان يعقل حصوله في السطح وبالعكس، وإذا ثبت هذا كان اختصاص كل جزء بموضعه المعيَّن أمراً جائزاً، فيفتقر إلى المخصِّص والمقدِّر»[1].

وكان الرازي، قد ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١) عشرة وجوه تدل على وجود الصانع الفاعل المختار، منها ما سبق ذكره في الوجوه الثلاثة الماضية مما يتعلق بدلالة التقدير والتخصيص (السكون والحركة)، ومنها:

تعدد إرادات الخالق في خلقه وجواز وقوع الخلق على غير ما هو عليه الآن من حيث: الزيادة والنقص والتركيب، والسرعة والبُطء والجِهة، والعلو والدنو، والترتيب الحكيم، واختصاص ابتداء الحدوث في وقت معين دونها قبله، واتصاف بعض الأجرام بالفلَكية، وبعضها بالعنصرية دون العكس، وحصول العالم في هذا الحيز دونها غيره من الخلاء الذي لا نهاية له.. إلخ[2].

«فثبت بتلك الوجوه كلها أن أجرام السماوات والأرض مختلفة بصفات وأحوال، فكان يجوز في العقل حصول أضدادها ومقابِلاتها، فوجب ألا يحصل

---

(١) التفسير الكبير، للرازي ١٩/ ١٧٨ بتصرف وزيادة.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي ١٢/ ١٢٣-١٢٤.

هذا الاختصاص الخاص إلا لمرجِّح ومقدِّر.. وإذا ثبت هذا»[1] فنقول: ثبت بذلك كله أن الطبيعة التي يزعم الملحدون أنها خالقة، إنما هي مخلوقة مفتقرة إلى خالق ـ هو الله الذي خلق السماوات والأرض.

إننا نجد أن الطبيعيين يمنحون الطبيعة بعضاً من أركان الربوبية ولوازمها، فيعتقدون أنها الخالق المدبر المتصرف في شؤون الكون، بل يجادلون عن ذلك[2]، فينسبون إليها ما ليست أهلاً له ويقولون إن الطبيعة هي التي أوجدت المخلوقات[3]، رغم يقينهم بعجزها عن خلق ذرة من ذرات الكون، وإذا افترضنا صحة زعم الطبيعيين فهذا يعني أن الطبيعة:

أ ـ إن كان المراد بها الأشياء ذاتها ـ كما سبق ذكره في تعريف الطبيعة[4] ـ فهي التي خلقت نفسَها بنفسها والأشياء أوجدت ذاتها، فهي الحادث والمحدِث في نفس الوقت، وهي الخالق والمخلوق في نفس اللحظة..، وهذا باطل بقانون السببية الذي اعترف به علماء الطبيعة.

---

(١) نفس المرجع ١٢/ ١٢٤، وسأشرح دلالة التقدير والتخصيص بشكل أكبر في مبحث الأدلة العلمية على التوحيد ص٨٣٣.

(٢) راجع مناظرة الزنداني للبروفيسور روبرت، في الحاشية ص ٥٢٧ وما بعدها.

(٣) نلاحظ أن الطبيعيين يتذرعون بهذا السبب لأنهم لا يستطيعون القول: إن الكون حدث بذاته من تلقاء نفسه، فينكرون قانون أو مبدأ السببية الذي أقروا به، ولقد أصابوا بهذا الإقرار، لكنهم أخطئوا حين جهلوا المسبِّب وأنكروه، ولم يعترفوا بمبدأ السببية فيما يتعلق بنشأة الكون ومنشئه سبحانه وتعالى. ونحن نقول هنا: ما دام أنه (لابد لكل حادث من محدِث) وهذا أمر يقيني مسلم به، ولا يقبل العقل غيره، فمحال على حادث أن يحدث بذاته. انظر: الله جل جلاله، لسعيد حوى ص١٠٨.

(٤) راجع ص٥٢٤.

ب ـ وإن كان المراد بها صفاتها وقابلياتها، فنقول: إن الذين يعزون الخلق إلى تلك القابليات والخصائص، إنما يصفون فقط ظواهرها، ولا يعرفون كنهها، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها، فكيف تقدر الصفات على خلق الذات إذا عجزت ذات الشيء عن خلق نفسها؟![1].

إن علماء الطبيعة يوقنون أنها عمياء صماء بكماء عاجزة، مفعولة لا فاعلة، فهي مسخرة للإنسان كل التسخير كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (الجاثية: ١٣) فأصبح ابن آدم سيداً عليها ـ خليفة بأمر الله ـ يتصرف بها كيف يشاء، وهي خاضعة له لا تملك لنفسها دفعاً ولا نفعاً ولا ضراً، فكيف تكون إلهاً خالقاً لهذا الإنسان[2]؟!

---

(١) انظر: المرجع السابق ص١٠٩-١١١.

وقد ضرب سعيد حوى مثلاً لإبطال تأثير الطبيعة في المخلوقات فقال: نضع حبة في التراب، ونسقيها بالماء فتنتفخ، وتنفلق، فيظهر منها الرشيم، ويندفع منه الجذر إلى الأسفل، والساق إلى الأعلى، وتنشأ الأوراق فالأزهار فالثمار.. إلخ.. فما الذي نفخها وفلقها؟.. فليس لها عقل.. وليس الماء هو الذي فعل ذلك وإلا لأمكن للماء أن ينفخ الحديد ويفلقه، إذاً فلابد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر.. والله يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٥). باختصار. انظر: الله جل جلاله ص١٠٩-١١١.

(٢) ولمزيد من التفصيل في الرد على الطبيعيين انظر:

أ ـ كبرى اليقينيات الكونية (وجود الخالق ووظيفة المخلوق)، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، ط٩، ١٤١١هـ ـ دمشق ـ سوريا ص٧٨-٩٦.

ب ـ الله خالق الكون، بقلم الأستاذ جعفر الهادي، دار الأضواء، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، بيروت ـ لبنان، ص٢٩٠-٣٠٤.

لقد بُهت بعض الطبيعيين المعاصرين عند إقامة حجج التوحيد عليهم ـ كما بُهت النمرود في عهد إبراهيم عليه السلام[١] ـ ودُهشوا عندما نُصبت لهم دلائل ربوبية الله من واقع الإنسان وآيات القرآن، ـ لكنهم رغم اندهاشهم لعظمة نصوص القرآن المتحدثة عن آيات الله في الأكوان، وعجائب صنعه إل الة عليه، وبعد أن شهدوا بأن الكون مخلوق من سديم الدخان، وأكدوا أنه لابد لهذا الكون من خالق يتمتع بعدة صفات كالملك والقدرة والحكمة والعلم[٢] وغيرها من الصفات، انقسموا إلى قسمين كما في قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾[٣].

وما كان كفر الكافرين وجحودهم عن جهلهم بالحقائق وما تدل عليه، ولكن لعدة أسباب سبقت الإشارة إليها[٤].

لقد أصدرت كنيسة كيرالا جنوبي الهند كتاباً بعنوان:

«Nature and Science Speak. About God»[٥].

---

(١) قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

(٢) راجع مناظرة الزنداني للبروفيسور روبرت ص٥٢٧ وما بعدها.

وانظر: إنه الحق، للزنداني، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، لنفس المؤلف.

(٣) البقرة:٢٥٣، وسنأتي لتفصيل ذلك في مبحث الأدلة العلمية على التوحيد ص٥٩٠ وما بعدها.

(٤) انظر موانع الهداية ص١١٤٤.

(٥) الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٥٣.

بمعنى «الطبيعة والعلم يتحدثان عن الله» فالطبيعة ـ كما قال بعضهم عنها ـ: «تحمل كتابها المفتوح، وتسبح بحمد الله وجلاله»[1].

وجماع القول لكل ما سبق أن الطبيعة:

أ ـ عاجزة عن الخلق، بل هي مخلوقة بنفسها.

ب ـ لا تملك شيئاً، بل هي مملوكة لخالقها، مسخرة للإنسان.

ج ـ لا تقدر على أي نفع أو ضر أو تدبير لنفسها أو لغيرها.

د ـ مفتقرة إلى رب لها، خلقها وامتلكها ودبرها، وتصرف في شئونها.

وإنكار كل ما سبق يعتبر تناقضاً مع العقل، وإقامة على الخطأ»[2].

وما دامت الطبيعة كذلك فقد بطلت ربوبيتها، وبالتالي لا تستحق أي شيء من الألوهية شركاً أو توحيداً، وهذا ما استنكره الله عز وجل على الكفار الذي عبدوا الأوثان ومنها وثن الطبيعة بقوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[3].

واحتاجت إلى رب، هذا الرب الخلاق هو ما سماه ابن سينا بـ(واجب الوجود)، وهو ما عرفه الموحِّدون بأنه الله الذي ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، لمجموعة من علماء أمريكا ص٥٦، وقائل العبارة هو: الدكتور لورانس كولتون ووكر.

(٢) انظر: الله جل جلاله، لسعيد حوى ص١٠٦. و: مفتاح دار السعادة، لابن القيم ص ٢٧٨. و: العقيدة في الله، للأشقر ص ٧٩-٨٣.

(٣) الأعراف: ١٩١، ونحوها في سورة النحل: ٢٠-٢١، والنمل: ٦٠، وفاطر: ٤٠، والأحقاف: ٤، والطور: ٣٦.

﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، فأخلصوا له توحيد العبادة فمدحهم الله بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: ١٨)، وأما الذين كفروا من الطبيعيين وغيرهم فقد وصفهم الله بأنهم ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة: ٧٧)، وأكد أنهم قد ﴿ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١٦٧).

وبعد أن تبين لنا بطلان زعم الطبيعيين وقولهم بربوبية الطبيعة ـ تضمَّن ذلك بطلان قولهم: إن الكوارث الكونية ـ وخاصة الأرضية كتلك التي أوقعها الله بكفار الأمم الماضية ـ إنما هي من فعل الطبيعة.

إننا نشاهد عدة كوارث وأحداث كونية عظيمة مدمرة تتخللها صور من لطف الله ورحمته بالموحدين، وأماكن عبادتهم، أو يُستثنى من شرِّها بعض الضعفاء والمساكين والأطفال وغيرهم ـ كما حصل في زلزال مدينة مكسيكو عام ١٩٨٥م في الولايات المتحدة الأمريكية الذي دمر مساحات واسعة منها، وأسفر عن موت أكثر من ٢٠٠٠ شخص، وأدت قوته إلى تسوية مستشفى الولادة بالأرض، ثم فوجئ رجال الإنقاذ حينها ببقاء خمسين طفلاً حديثي الولادة أحياء تحت الأنقاض!![1] ـ ارجع النظر للشكل رقم (١١) ـ.

فهل كانت الطبيعة التي سببت هذا الزلزال المدمر ـ كما يزعم الطبيعيون ـ على علم وإرادة وقدرة لإنقاذ هؤلاء الأطفال من الموت المحتم وقد اجتمعت كل أسبابه؟!!

---

(١) انظر الشكل رقم ٢٤.

أم أنها اتصفت بالرحمة والرفق واللطف والرأفة بهؤلاء الضعفاء العاجزين؟!!

أم أن وراء ذلك إلهاً حكيماً يفعل ما يشاء ويختار، وهو العلي العظيم؟!!

لقد قال أحد أساتذة الكيمياء في أمريكا ـ بعد أن سرد آيات الله في الماء ـ :
«إنني أجد أن تفسير هذه الظواهر والعجائب بنسبتها إلى قدرة إله، حكيم خبير، وتصميم خالق علوي، يعد تفسيراً مُرْضياً للنفوس ومقنعاً للعقول، إنني أرى في كل ظاهرة من هذه الظواهر أكثر من مجرد الخلق والتدبير المجرد عن العاطفة، إنني ألمس فوق ذلك كله محبة الخالق لخلقه واهتمامه بأمورهم»(١).

إن الكوارث الكونية ـ وبمعنى أدق ـ إن العقوبات الإلهية التي أوقعها الله بكفار الأمم البائدة، تدل على أن الذي أوقعها يتمتع بصفات الكمال: كالقدرة، والقوة، والقهر، والجبروت، والإحاطة، والكبرياء،.. إلخ، وهذا كله لا تملك الطبيعة شيئاً منه، فوثن الطبيعة هذا لا يسمع ولا يبصر، ولا يعي ولا يعقل، ولا يملك ولا يقدر، وليس له شيء من الأحاسيس والمشاعر فكيف يفسر الطبيعيون الحوادث التي تقع على البشر وتدمرهم بأنها غضب الطبيعة!

فإن قال الطبيعيون: إن تلك الكوارث الأرضية عبارة عن ظواهر طبيعية ناتجة عن تفاعلات وأسباب مادية فيزيائية أو كيميائية تتعلق بالمادة، ونحو ذلك(٢)، فهم صادقون في قولهم هذا، حسبما قررناه فيما مضى، فقد جعل الله لكل

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، لنخبة من أساتذة أمريكا ص٤١. والقائل هو توماس دافيد باركس.

(٢) كاتساع ثقب الأوزون، وارتفاع درجة حرارة الأرض.

شيء سبباً[1]، ومن ذلك الأسباب المادية للكوارث، فلهذه الكوارث الأرضية أسباب كونية داخلة في الإرادة الإلهية الكونية، وهذا لا يتعارض أبداً مع الأسباب الشرعية لها، وتوضيح ذلك كما يلي:

أولاً: إذا تقرر لدينا مما سبق أن الله تعالى وحده هو خالق الطبيعة بقوانينها وسننها التي تسير عليها، كما قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الزمر: ٦٢).

وتأكد لنا أنه وحده مالك الملك كما قال سبحانه: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ٢٨٤) وغيرها من الآيات، فمن البديهي أن يكون كل ذلك تحت سيطرة الخالق المالك ومشيئته سبحانه وتعالى، ينقاد له ويخضع لنفوذ مشيئته فيه، وهذه إحدى معاني سجود الكون لله كما قال الشنقيطي[2] وبالتالي يكون عبداً مطيعاً لله، جندياً من جنوده، ـ سواء شعرنا بهذا أم لم نشعر ـ قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الفتح: ٤) وقال: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر: ٣١).

---

(١) كما جاء في سورة الكهف: ٨٤ قال تعالى عن ذي القرنين: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ أي: أقدرناه بما مهّدنا له من الأسباب...
انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٤٢٤.
وانظر: ما سبق شرحه عن قانون السببية في ص.٥٢٠

(٢) حيث قال بعد أن سرد آيات السجود وناقش معناها الشرعي واللغوي (وحاصل القولين:
أ- أن السجود شرعي، وعليه فهو في أهل السماوات والأرض من العام المخصوص.
ب- أن السجود لغوي، بمعنى الانقياد والذل والخضوع، عليه فهو باق على عمومه. ا.هـ.
انظر: أضواء البيان ٣/ ١٠٠.

ومن هذه الجنود التي تسمع وتطيع ما أشرنا إليه من البراكين والزلازل والفيضانات والأعاصير التي أهلك الله بها كفار الأمم الماضية، وقد يرسلها تخويفاً وتحذيراً لعباده من معصيته، وتذكيراً لهم بما يجب عليهم من توحيده وطاعته سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (الإسراء: ٥٩).

فتوقيتها ووقوعها ـ سواء لأسباب مادية كونية قدرية أو أسباب شرعية ـ يجعلنا نتساءل: من المنشئ لكل تلك الكوارث وغيرها؟ ومن المقدر لأسبابها المادية العلمية؟ وهل قامت تلك الحوادث وأسبابها بنفسها أو حصلت صدفة؟ أم هناك من قدّرها وخلقها وأمر بها ـ بعد أن حدد وقتها ـ سبحانه وتعالى ؟

فمن له الخلق والأمر ما دام قد سقط وثن الطبيعة؟

لقد رد ابن تيمية على كل من لم يعتبر الأسباب وينكر أن تكون مسبّباتها ناتجة عنها، وقال: «ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل وطعن في الشرع»[1].

وقال الشيخ الدكتور عبد الكريم زيدان[2] في مقالة له بعنوان: «القانون الرهيب»:

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ١٧٥.

(٢) هو الشيخ الدكتور عبد الكريم زيدان، من مواليد العراق، أستاذ الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق بجامعة بغداد سابقاً، أستاذ الشريعة ورئيس قسم الدين بكلية الآداب بجامعة بغداد سابقاً، أستاذ الشريعة بكلية الدراسات الإسلامية وعميدها سابقاً، متمرس بجامعة بغداد.
يعمل حالياً مدرساً في جامعة صنعاء (كلية الآداب) وفي جامعة الإيمان.
له عدة مؤلفات منها «المستفاد من قصص القرآن» و«المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم» و«السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد».
- مصدر الترجمة: مقابلتي الشخصية له في يوم الأحد ١/ ربيع الآخر/ ١٤٢٧هـ الموافق ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٦م في مركز البحوث التابع لجامعة الإيمان.
وقد أبى الدكتور الإفصاح عن مكان ميلاده بالعراق وتاريخ ذلك، وعن رحلته العلمية.

«كثيراً ما يقول الناس إن الشيء الفلاني حدث صدفة، ويمر هذا اللفظ على الأسماع كأنه قول صحيح... والواقع أن هذا اللفظ غير صحيح، وليس له المدلول الذي يتبادر إلى الأذهان... فليس في الكون مكان لـ«الصدفة» وإنما هناك أسباب ومسبّبات، ونتائج تسبقها مقدمات... وما يسمى صدفة ما هو في الحقيقة إلا حدث يجهل الناس أسبابه... ولكن الجهل بالشيء لا يعني عدم وجود ذلك الشيء... وتوضيح هذه الحقيقة: أن هذا الكون الواسع العجيب المدهش الذي خلقه الله... يجري بموجب أسباب ومسبّبات تُكوِّن قانوناً عاماً هو في غاية الدقة والإحكام والشمول بحيث لا يخرج عنه شيء ولا يفلت منه مخلوق... يحكم كل شيء من المخلوقات بلا استثناء: من أصغر ذرة إلى أكبر جرم... ومن حركة الذرة في مادتها التي لا نشعر بها إلى حركة الريح العاصف التي تقلع الأشجار وتخرب البيوت... فالكل خاضع ومنقاد لهذا القانون الرهيب لا يستطيع منه تفلّتاً ولا خلاصاً... وهذا الخضوع التام من الجميع ما هو في الحقيقة إلا خضوع للملك القوي الجبار واضع هذا القانون وخالق هذا الكون، وعلى هذا دل القرآن الكريم في كثير من آياته[1]... وهذا القانون العام المسمّى في القرآن الكريم بـ«سنة الله» لا يقبل التبديل ولا التحويل... وهو في غاية الدقة والصرامة والاطراد... والإنسان وهو جزء من هذا الكون... يخضع لهذا القانون في جميع حركاته وسكناته وتقلبات أحواله... كما تخضع له الأمم أيضاً في علوها وانخفاضها، وسعادتها وشقائها، وعزها وذلها، وبقائها وهلاكها... وهذا الخضوع من الأفراد

---

(١) كقوله سبحانه: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (يس: ٣٨)، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾ (آل عمران: ٨٣) وغيرها من الآيات.

والأمم في جميع أحوالهم لهذا القانون الرهيب يساوي بالضبط خضوع الأحداث الكونية المادية لهذا القانون، فكما أن سقوط تفاحة من شجرة هو نتيجة حتمية لأسباب معينة أدت إلى هذا السقوط.. فكذلك يعتبر سقوط دولة أو هلاك أمة نتيجة حتمية لأسباب معينة أدت إلى هذا السقوط... وهذا ما تقضي به سنة الله العامة... وكل الفرق بين الأحداث الكونية المادية وبين الأحداث الاجتماعية هو أن أسباب الأولى واضحة بينة مضبوطة إذا عرفناها أمكننا الحكم بدقة على نتائجها وميقات هذه النتائج[1]،... أما أسباب الأحداث الاجتماعية فهي بمختلف أنواعها من سياسية واقتصادية وحضارية وعمرانية وغلبة ونصر وهزيمة وخذلان...إلخ، أسباب دقيقة وكثيرة ومتشعبة ومتشابكة، وقد يعسر على الكثيرين الإحاطة بها تفصيلاً... ولكن مع هذا العسر يمكن للمتأمل الفاحص الدقيق أن يعرفها ويحيط بها علماً، كما يمكنه الجزم بحصول نتائج معينة بناء على أسباب معينة وإن لم يمكنه الجزم بميعاد حصول هذه النتائج، فنستطيع مثلاً أن نحكم على وجه الجزم واليقين بزوال حكم أو سلطان إذا وجدناه قائماً على الظلم والإرهاب، وإن كنا لا نستطيع تحديد وقت زواله على وجه الدقة والضبط كما تحدد ميعاد غروب الشمس أو شروقها... ومن أجل هذا الفرق بين الأحداث الكونية المادية وبين الأحداث البشرية يغفل الناس كثيراً عن سنة الله في الاجتماع البشري في تصرفات وسلوك الأفراد والأمم، ويظنون أن أمورهم لا تخضع كما تخضع الظواهر الكونية لقانون الأسباب والمسببات، ويقوى هذا الظن الخاطئ في نفوسهم أنهم يرون ـ في الظاهر ـ أسباباً متشابهة في دولتين أو أمتين،

---

(١) فالماء مثلاً يتجمد إذا بلغت درجة برودته الصفر وما دونها ويغلي عند درجة ١٠٠م وبعد وقت محدد معلوم بالدقة، وهكذا بقية الحوادث المادية.

ولكن أحوالهما مختلفة، فيقولون: أين هو القانون العام الذي تزعمون؟ وهذه الأسباب فيهما واحدة ولكن لم تؤد إلى نتائج واحدة؟ وفاتهم أن الأسباب تؤدي حتماً إلى مسبّباتها إلا لمانع، وأن المقدمات تؤدي حتماً إلى نتائجها إلا لعارض، وهم لم يبصروا الموانع والعوارض، كما لم يبصروا بِكل الأسباب والنتائج، فتراكم الخطأ عليهم فلم يعودوا يبصرون»[1].

وبناء على ذلك أقول: إن لكل الحوادث الكونية والاجتماعية أسباباً معينة. ولا بد من «ملاحظة السبب والمسبَّب في وقت واحد، والربط بينهما، فإن خالق الطبيعة قد جعل مناطق من الأرض مسرحاً للزلازل والأمواج العاتية أكثر من غيرها، وهيّأ أسباباً لذلك ـ كضعف القشرة الأرضية.. إلخ، لحكم يريدها تعالى»[2] وجعل مناطق أخرى بلداً آمناً.

إنّ البشرية التي تعيش على ظهر الأرض الذلول الساكنة في أمان تنسى أن خالقها قد «يهزها.. من تحت أقدامهم هزاً، ويرجها رجاً فإذا هي تمور، ويثير الجو من حولها، فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور.. ليعلقوا قلوبهم بقدرة القادر الذي هزها أو فجرها قال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧ ﴾ (الملك: ١٦، ١٧).

---

(١) مجلة التربية الإسلامية، العدد الأول، السنة السادسة ـ شعبان ـ ١٣٨٣هـ ـ كانون الأول/ ١٩٦٣م، ص١٩-٢٦ باختصار. وانظر: السنن الإلهية، لزيدان ص٢٢-٢٦.

(٢) ولا يلزم من ذلك حتماً وقوع الكوارث ما لم يأذن الخلاق بها.

انظر: مجلة الإعجاز ص٤٣، بتصرف.

إن الطبيعيين لا يُعملون عقولهم عند ما يأذن الله باضطراب الأرض قليلاً، فلا تمسكها قوة ولا حيلة ـ خاصة عند الزلازل والبراكين والأعاصير ـ.. وهم لا يملكون من هذا الأمر شيئاً ولا يستطيعون..

وقد كانوا قبل ذلك في لهو وغفلة عن القدرة الكبرى الممسكة بالزمام!

إن الله يُذكّر البشر المخدوعين بسكون الدابة وسلامة مقادتها، الذين غرهم أمانها فأنساهم خالقها ومروِّضها ـ يُذكّرهم بهذه الجمحات ويحذرهم وينذرهم في تهديد يَرُجُّ الأعصاب ويُخَلخل المفاصل»[1] أنه سبحانه موجود قادر قاهر، وإن كل ما في السماوات والأرض ومن فيهما جنود لله يرسلهم على من شاء من عباده، متى شاء، وكيفما شاء وذلك كما قال ﷺ: «إذا كثر الخبث»[2] في الأرض، وفسد الإنسان في عقائده وأعماله، وأفسد من حوله وما حوله، فعم عذاب الله وعقابه البر والفاجر، والطيور والبهائم.

ثانياً: من الملاحظ في واقع الكون، ومكونات المخلوقات، وخصائص المواد، والأفعال التي تصدر من الخلق، والتفاعلات التي تتم في كل ما خلقه الله، أن كل شيء يسير وفق نواميس كونية منتظمة، وقوانين عامة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: ٤٩)، وكما قال على لسان موسى عليه السلام وهو يحاور فرعون: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه: ٥٠)،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٤٠ بتصرف. وقد ذكر ذلك سيد قطب في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ (الملك: ١٦).

(٢) أخرجه مسلم في ٤/ ٢٢٠٨، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن، برقم ٢٨٨٠ عن زينب بنت جحش رضي الله عنها.

بل كان ﷺ يأمر الناس إذا رأوا علامات الكسوف والخسوف ـ كاحمرار قرص الشمس أو القمر ـ أن يهرعوا للعبادة، فقد قال لصحابته ـ عندما انكسفت الشمس في يوم من الأيام ـ : «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلوا» وفي رواية: «فصلوا وادعوا حتى يكشف ما بكم»[1].

هكذا كان رسول الله ﷺ ينظر إلى الكوارث الكونية وعلاماتها أو مقدماتها، وهكذا كان صحابته رضي الله عنهم والتابعون من بعدهم ـ وهكذا هم المؤمنون أبداً ـ.

قال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (الإسراء: ٥٩).. ذُكِر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: «يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم[2] فأعتبوه»[3].

... وبعد: فالذي نخلص إليه من كل ما سبق:

١- بطلان ربوبية الطبيعة للكون، مع صحة الأسباب المادية لوقوع الكوارث.

---

(١) أخرجه البخاري في ١/ ٣٥٣ في كتاب الكسوف، باب: الصلاة في كسوف الشمس، برقم ٩٩٣،٩٩٥، عن أبي بكرة رضي الله عنه، ومسلم في ٢/ ٦٢٨، في كتاب الكسوف، باب: ذكر النداء بصلاة الكسوف، برقم ٩١١، عن أبي مسعود الأنصاري.

(٢) يستعتبكم: الإعتاب والعُتبى: رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب، والاستعتاب: طلبك إلى المسيء الرجوع عن إساءته، أ.هـ. لسان العرب ٩/ ٢٩ مادة عتب.

(٣) جامع البيان، للطبري ١٥/ ١٢٦.

وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت... ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها. فأهلكهم جميعاً، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليها، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد؟

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر..؟

وما الذي خسف بقارون وداره وما له وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميراً؟

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وآحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية، فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيراً؟

وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات، مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم

الرب تبارك وتعالى: ﴿ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ (الأعراف: ١٦٧)»[١].

ثالثاً: لقد ذكر الله في كتابه كثيراً من المقدمات ورتَّب على حصولها وقوع نتائج معينة، فكانت كما ذكرها الله[٢] وأخبر عن كثير من غيب المستقبل، فتحقق كما أخبر الله به[٣]، وهو كذلك قد أشار لبعض القضايا العلمية العصرية، فجاء الراسخون في العلم وترجموا تلك الإشارات بشرحهم لحقائق كونية بأنصع الصور والعبارات[٤]. فإذا كان القرآن قد صدق في ذلك كله ـ منطقياً وتاريخياً وعلمياً وحسياً. وثبتت صحته، ونسبته إلى الله وحده، من خلال إعجازه البياني والتشريعي والعلمي وغير ذلك، ووصل إلينا متواتراً عبر نَقَلَةٍ صادقين أمناء، فقد لزم من ذلك كله صدق القرآن في كل ما جاء به، وأخبر عنه، ومن ذلك تعليله وتفسيره للكوارث الكونية أو الحوادث الأرضية، وما أحله الله بالأمم السالفة من عذاب ودمار بسبب كفرهم.

إن الله تعالى يعرض الكوارث التي أصابت الأمم السابقة المذكورة في القرآن على أنها عقوبات إلهية لها ارتباط مباشر بذنوب العباد من كفر، أو عصيان كما قال تعالى: ﴿ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ (الجاثية: ١٤) ولا يعرضها على أنها

---

(١) الجواب الكافي ص٦٢-٦٣ باختصار.

(٢) مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ (البقرة: ١٧٩)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

(٣) مثل حفظ القرآن من التحريف، وعصمة النبي ﷺ من الكفار، وانتصار الحق وأهله.. إلخ.

(٤) كالنيران والبراكين في جوف والبحار، وعظمة مواقع نجوم السماء، وغير ذلك.

اختلالات مادية فحسب، وهذا هو منهج القرآن في تفسيره وتحليله لكل مصيبة وابتلاء يقع على الأفراد والجماعات والأمم، إنه يربط بين الأسباب المادية والمعنوية ليلتفت الناس إلى المسبب، القائل: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ (الأنعام: ٤٣).

ولكن يبدو أن علة الطبيعيين الملحدين ليست فقط في نسبة الكوارث إلى الطبيعة وعدم تفسيرها بأنها عقوبات إلهية، بل في إنكارهم وجود الرب أصلاً، وبالتالي إنكارهم ربوبيته وتصريفه لشئون الكون، وسبب ذلك أنهم حصروا علومهم المدركة فيما يتعلق بقضايا الإيمان في عالم الشهادة فقط، فما أدركوه بحواسهم وتجاربهم أثبتوه، وما لم يدركوه بذلك نفوه وأنكروه فأنكروا، من أجل ذلك كثيراً من علوم الغيب، مع العلم أن أكثر العلوم المدرَكة ـ الدنيوية منها والأخروية ـ إنما هي غيبية، يقول البروفيسور أ.ي. مانديز: «إن الحواس لا تدرِك من حقائق الكون غير القليل، فكيف يمكن أن نعرف شيئاً عن الكثير الآخر؟.. هناك وسيلة لذلك، وهي الاستنباط أو التعليل، وكلاهما طريق فكري نبتدئ به بوساطة حقائق معلومة، حتى ننتهي بنظرية: إن الشيء الفلاني يوجد هنا، ولم نشاهده مطلقاً.. فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة، ولكننا عثرنا عليها على كل حال.. وهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه بـ«الحقائق المستنبطة Inferred facts وهي غير الحقائق المحسوسة Percieved facts»[1].

إن الطبيعيين يؤمنون بالحقائق المشاهدة أكثر من إيمانهم بالحقائق الغائبة.

---

(١) الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص٤٧ بتصرف.

ومن الحقائق التي أنكروها ولم يؤمنوا بها[1] ما يتعلق بربوبية الله وأفعاله في الكون ـ رغم وجود دلائلها وآثارها ـ فعطلوا بذلك كثيراً من أفعال الله وصفاته، وهذا باطل شرعاً وعقلاً[2]، كما قال السعدي رحمه الله، وبذلك فقد «خالف الطبيعيون العقل والفطرة كما خالفوا جميع الأديان الصحيحة»[3]، بل خالفوا المشركين، فكلهم متفقون على إثبات ربوبية الله، وأنه المدبر لكل شيء في الكون.

---

(١) رغم إيمانهم بكثير من الحقائق العلمية الغيبية، وسأقوم بالرد على هذه الشبهة بالتفصيل عند الحديث عن الشبهات ص٩١١.

(٢) أما شرعاً: فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل تبطل قولهم وحصرهم العلوم بمدركات الحس الظاهرة ونفيهم لما عداها، وتثبت بالبراهين اليقينية من علوم الغيب ومن العلوم التي لا تُدرك إلا بالوحي من الحقائق النافعة الصحيحة والمعارف الصادقة ما لا نسبة لعلومهم كلها إليها من أولها إلى آخرها.. وأما عقلاً: فجميع العقلاء المعتبرين يثبتون للعلوم مدارك غير مدارك الحس، فإن مدارك العلوم الحس والعقل والأخبار الصادقة، فالأخبار الصادقة أعلاها وأصدقها وأحقها بالحق خبر الله عز وجل ـ ومن ذلك إخباره بأسباب الكوارث وتعليله لها بأنها عقوبات إلهية ـ.. وفي ذلك تبيان لكل شيء، وهدى للخلائق، وتوضيح الحقائق.
انظر: الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، للشيخ عبدالرحمن بن سعدي، دار المعارف، ط (بدون)، ١٤٠٢هـ الرياض ـ السعودية ص١٤-١٥.

(٣) المرجع السابق ص٨٧.

بل لقد عجزوا عن إقامة الأدلة على أن الطبيعة خلقت نفسها وأن الكون جاء صدفة، بينما قامت الأدلة على حتمية وجود إله للكون. والعقل يقبل بذلك أكثر من قبوله بكفرة عدم وجود إله أو أن الكون جاء صدفة، وما أحسن ما قاله أندروكونواي ـ إيغي ـ أستاذ في كلية الطب بجامعة شيكاغو ـ بعد أن أكد وجود الله ثم قال: «ولكنني لم أقرأ ولم أسمع في حياتي دليلاً عقلياً واحداً على عدم وجوده تعالى، وقد قرأت وسمعت في الوقت ذاته أدلة كثيرة على وجوده». انظر: الله يتجلى في عصر العلم، لنخبة من علماء أمريكا ص٦٦، ١٢٤.

ولم يكن إنكار الطبيعيين للإله رب الكون قائماً على علم صحيح دل عليه سمع أو بصر أو عقل أو فطرة أو وحي من مصدر صادق صحيح، إنما جاء إنكارهم هذا نتيجة لاستبعادات وجحود ومكابرات، ولا يستندون إلى دليل منطقي في زعمهم عدم وجود إله[1]. لقد أدى إنكار الطبيعيين لحقائق الغيب المتعلقة بربوبية الله للكون، وتعطيلهم لأفعاله في المخلوقات، وصفاته المرتبطة بذلك إلى جحودهم بربوبية رب العالمين، بل وقعوا فيما هو أشد من ذلك، وهو إنكار الباري رأساً، فضلاً عن اعترافهم له بالكمال، وعن قيامهم له بأوجب الواجبات، وأفرض الفروض، وهو عبادته وحده لا شريك له.

والخلاصة أن الطبيعيين الملحدين هم أعظم الخلق مكابرة وإنكاراً لأظهر الأشياء وأوضحها، فمن أنكر وجود الله وربوبيته في الكون فبأي شيء يعترف بعد ذلك، قال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

وصدق الله في قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٦) وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (يونس: ٩٦، ٩٧).

---

(١) انظر المرجع السابق.

(٢) الجاثية: ٦. وانظر: انتصار الحق، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، دار الثقافة، ط١، ١٣٩٨هـ، القاهرة، مصر ص١٠-١٢.

لقد تساءل الشاعر أحمد الرصافي[١] مبيّناً غفلة المعرضين عن دلائل التوحيد الإنسانية والكونية قائلاً:

هل في عيون الملحدين عماء؟ أم في عقول الملحدين غباء؟
أيجوز عقلاً أن عقلاً مبدعاً قد أبدعته طبيعة بلهاء!؟
فإذا الطبيعة أدركت وتصرفت قلنا[٢]: الطبيعة والإله سواء!
الله أحيا الكائنات بأمره وبأمره تتفاعل الأشياء

إننا نلاحظ أن الطبيعيين يوقنون بمنطقية وعقلانية القاعدة التي تنص على أن (العدم لا يخلق شيئاً) ويعترفون بمبدأ وقانون السببية الذي ينص على أنه «لابد لكل حادث من محدث، ولكل موجود من مُوجد»[٣]. وبأن «المادة لا توجد ولا تفنى من عدم»[٤].

وهم أيضاً يؤمنون بالقاعدة التي تؤكد أن «فاقد الشيء لا يعطيه».

ثم لا يوظفون تلك القواعد في قضايا الكون العظمى من حيث الخلق والتدبير والتأثير وكأنما انطبق عليهم قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ

(١) لم أعثر على ترجمته.
وانظر: مناظرات وبراهين لإسكات الملحدين، فهد محمد البلوشي، تقديم د/ السيد محمد نوح، مكتبة المنار الإسلامية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، كويت، ص٢٢ «ولم أعثر على المرجع الأصلي».

(٢) أصلها في البيت الشعري (قلنا) ولعل الأنسب (قالوا).

(٣) انظر: الله جل جلاله، لسعيد حوى ص١٠٥-١٠٧.

(٤) وقد قال تعالى في ذلك مخاطباً المشركين والملحدين على حد سواء: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ (الطور: ٣٥، ٣٦).

أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩) لأنهم عطلوا جوارحهم وعقولهم عما خُلقت له من الاستدلال على الله وصفاته.

لقد فهم الأعرابي القديم الجاهل البدوي (وربما الأمي) أن البعرة تدل على البعير، وأثر القدم يدل على المسير، ولم يفهم بعض أساتذة الجامعات، وقادة العلوم الطبيعية وأربابها أن الكون كله مخلوق لله، يجري بأمره ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (يس: ٣٨).

وأن فيه آيات لا تعد ولا تحصى كما خاطب به الشاعر إبراهيم بريول[1] كل طبيعي ملحد، أو غافل عن آيات الله قائلاً له:

لله في الآفاق آيات لعل ... أقلها هو ما إليه هداكا
ولعل ما في النفس من آياته ... عجب عجاب لو ترى عيناكا
والكون مشحون بأسرار إذا ... حاولتَ تفسيراً لها أعياكا

واستمر في سرد آيات الله في الأنفس والآفاق إلى أن قال:

هذي عجائب طالما أخذَتْ بها ... عيناك، وانفتحت لها أذناكا
والله في كل العجائب ماثل ... إن لم تكن لتراه فهو يراكا[2]

---

(١) لم أعثر على ترجمته.

(٢) انظر: مناظرات وبراهين لإسكات الملحدين، لفهد البلوشي ص٢٢-٥٩.

وأول القصيدة قوله: بك أستجير فمن يجير سواكا ... فأجر ضعيفاً يحتمي بحماك

وآخرها قوله: وتكون في يوم القيامة ماثلاً ... تُجزى بما قد قدمته يداكا

انظر: الله أهل الثناء والمجد، د/ ناصر الزهراني ص٥١٠ وما بعدها.

إننا نجد أن كل الأدلة قد قامت للدلالة على وجود رب للكون، وليس العكس، وهذا ما يقبله العقل، حتى قال بعض علماء الطبيعة المعاصرون المنصفون ـ بعد أن دلل على وجود الله، وأكَّدَ على ذلك ـ قال: «إن أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأ الفكرة التي تقول: «إن الله موجود» كما أن أحداً لا يستطيع أن يثبت صحة الفكرة التي تقول: «إن الله غير موجود»، وقد ينكر منكر وجود الله، ولكنه لا يستطيع أن يؤيد إنكاره بدليل..

وأنا لم أقرأ ولم أسمع في حياتي دليلاً عقلياً واحداً على عدم وجوده تعالى، وقد قرأت وسمعت في الوقت ذاته أدلة كثيرة على وجوده، كما لمست بنفسي بعض ما يتركه الإيمان من حلاوة في نفوس المؤمنين. وما يُخَلِّفه الإلحاد من مرارة في نفوس الملحدين»[1].

لكن الطبيعيين رغم هذا كله يأبون إلا أن يهووا برؤوسهم في مستنقع الطبيعة ـ إشراكاً بالله ـ وانصرافاً عن التأمل فيما وراء ذلك والبحث عن صانع الكون وخالقه وصدَق الله في قوله:

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج: ٣١).

ختاماً أقول:

لقد ذكر علماء الزلازل والمختصون بها أن من مقدمات وقوع الكوارث الكونية التي تنبئ عن قرب حدوثها «حدوث اضطرابات جوية، أو عواصف

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص١٢٤ بتصرف يسير، والقائل هو أندروكونواي أستاذ كلية الطب في جامعة شيكاغو بأمريكا.

إن الطبيعيين لا يُعملون عقولهم عند ما يأذن الله باضطراب الأرض قليلاً، فلا تمسكها قوة ولا حيلة ـ خاصة عند الزلازل والبراكين والأعاصير ـ.. وهم لا يملكون من هذا الأمر شيئاً ولا يستطيعون..

وقد كانوا قبل ذلك في لهو وغفلة عن القدرة الكبرى الممسكة بالزمام!

إن الله يُذكّر البشر المخدوعين بسكون الدابة وسلامة مقادتها، الذين غرهم أمانها فأنساهم خالقها ومروِّضها ـ يُذكّرهم بهذه الجمحات ويحذرهم وينذرهم في تهديد يَرُجُّ الأعصاب ويُخَلخل المفاصل»[1] أنه سبحانه موجود قادر قاهر، وإن كل ما في السماوات والأرض ومن فيهما جنود لله يرسلهم على من شاء من عباده، متى شاء، وكيفما شاء وذلك كما قال ﷺ: «إذا كثر الخبث»[2] في الأرض، وفسد الإنسان في عقائده وأعماله، وأفسد من حوله وما حوله، فعم عذاب الله وعقابه البر والفاجر، والطيور والبهائم.

ثانياً: من الملاحظ في واقع الكون، ومكونات المخلوقات، وخصائص المواد، والأفعال التي تصدر من الخلق، والتفاعلات التي تتم في كل ما خلقه الله، أن كل شيء يسير وفق نواميس كونية منتظمة، وقوانين عامة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: ٤٩)، وكما قال على لسان موسى عليه السلام وهو يحاور فرعون: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه: ٥٠)،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٤٠ بتصرف. وقد ذكر ذلك سيد قطب في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ (الملك: ١٦).

(٢) أخرجه مسلم في ٤/ ٢٢٠٨، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن، برقم ٢٨٨٠ عن زينب بنت جحش رضي الله عنها.

بل كان ﷺ يأمر الناس إذا رأوا علامات الكسوف والخسوف ـ كاحمرار قرص الشمس أو القمر ـ أن يهرعوا للعبادة، فقد قال لصحابته ـ عندما انكسفت الشمس في يوم من الأيام ـ : «**إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلوا**» وفي رواية: «**فصلوا وادعوا حتى يكشف ما بكم**»[١].

هكذا كان رسول الله ﷺ ينظر إلى الكوارث الكونية وعلاماتها أو مقدماتها، وهكذا كان صحابته رضي الله عنهم والتابعون من بعدهم ـ وهكذا هم المؤمنون أبداً ـ.

قال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (الإسراء: ٥٩).. ذُكِر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: «يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم[٢] فأعتبوه»[٣].

... وبعد: فالذي نخلص إليه من كل ما سبق:

١- بطلان ربوبية الطبيعة للكون، مع صحة الأسباب المادية لوقوع الكوارث.

---

(١) أخرجه البخاري في ١/ ٣٥٣ في كتاب الكسوف، باب: الصلاة في كسوف الشمس، برقم ٩٩٣،٩٩٥، عن أبي بكرة رضي الله عنه، ومسلم في ٢/ ٦٢٨، في كتاب الكسوف، باب: ذكر النداء بصلاة الكسوف، برقم ٩١١، عن أبي مسعود الأنصاري.

(٢) يستعتبكم: الإعتاب والعُتبى: رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب، والاستعتاب: طلبك إلى المسيء الرجوع عن إساءته، أ.هـ. لسان العرب ٩/ ٢٩ مادة عتب.

(٣) جامع البيان، للطبري ١٥/ ١٢٦.

٢- تعاضد سنن الله القدرية ذات الأسباب المادية مع سننه الشرعية ذات الأسباب الآدمية على وقوع الكوارث والعقوبات الإلهية.

٣- يتميز أهل الإيمان عن غيرهم بقراءة الأحداث الكونية والكوارث قراءة يربطون فيها بين السبب والمسبِّب.

٤- اقتضت سنة الله وحكمته أن تجتمع الأسباب الكونية القدرية مع الأسباب الشرعية لإهلاك الكفار والعصاة في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الفتح: ٢٣).

ومن هنا خاطب الله عصاة خلقه قائلاً: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ (النحل: ٤٥-٤٧).

بعد الرد على شبهة الطبيعيين ـ كما سبق شرحه ـ فإنه قد تتولد من هذا الرد شبهتان أخريان وهما:

أ - إذا كان الله قد أهلك كفار الأمم الماضية لشركهم، فلماذا لا يهلك أمثالهم في هذا الزمان؟

ب - لماذا تقع بعض الكوارث ـ كالسابق ذكرها ـ في بلاد المسلمين وهم موحِّدون؟

وما ذنب دواب الأرض حتى يشملها عذاب الله؟

والجواب على ذلك بالآتي:

بالنسبة للشبهة الأولى:

اقتضت سنة الله تعالى وحكمته في كفار هذه الأمة ألا يعاقبها عقوبة استئصال كما فعل بالأمم الماضية، بل يؤخرها إلى أجل مسمى لحكم عظيمة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1].

قال سيد قطب: «والله خلق هذا الخلق - البشري - وأنعم عليه بآلائه، وهو وحده الذي يفسد في الأرض ويظلم، ويتحرف عن الله ويشرك... والله بعد هذا كله يحلم عليه ويرأف به، ويمهله وإن كان لا يهمله، فهي الحكمة تصاحب القوة وهي الرحمة تصاحب العدل، ولكن الناس يغترون بالإمهال، فلا تستشعر قلوبهم رحمة الله وحكمته حتى يأخذهم عدله وقوته عند الأجل المسمى الذي ضربه الله لحكمة، وأمهلهم إليه لرحمة»[2].

وقال تعالى مخاطباً محمداً ﷺ وكل من يغتر بحال المشركين: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ (آل عمران: ١٩٦) «والمعنى لا يوهمك تناولهم مختلف النعماء واللذات في حياتهم - أو تصرفهم على حسب مشيئتهم في الحروب والتجارات والغرس ونحو ذلك - أننا غير مؤاخذيهم - أو - أننا لا نعلم ما هم عليه فلم نؤاخذهم به....»[3] ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ (إبراهيم: ٤٢) .... إنما هو استدراج ومقدار من حلم الله ورحمته بهم وقتاً ما[4].

---

(١) النحل ٦١ ونحوها في فاطر ٤٥.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٧٩.

(٣) انظر التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣/ ٣١٥-٣١٦.

(٤) المرجع السابق ٢٤/ ١٤٧-١٤٨ بتصرف.

قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم[1] مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (القلم: ٤٤، ٤٥).

جاء في تفسير الزمخشري: استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه[2]، فالله قد يستدرج الكفرة والعصاة، وهذه سنة من سنن الله العديدة، وقد يستدرج المكذبين كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي[3] لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨١، ١٨٢).

وقد يستدرج الأمم بشكل عام، قال تعالى ـ مخاطباً رسول الله ﷺ وكل من يصلح له الخطاب ـ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ

---

(١) جاء في لسان العرب، لابن منظور ٤/ ٣٢٠ استدرجه أي أدناه منه على التدريج فتدرج هو.
وفي المفردات، للراغب ص١٦٧ سنستدرجهم معناه نأخذهم درجة فدرجة، وذلك إدناؤهم من الشيء شيئاً فشيئاً كالمراقي والمنازل في ارتفاعها ونزولها.
وفي المعجم الوسيط ص٢٧٧ استدرج الله العبد: أمهله ولم يباغته.
وفي البصائر، للفيروزآبادي ٢/ ٥٩٢ استدرج الله المرء: جره قليلاً قليلاً إلى العذاب.

(٢) الكشاف ٤/ ٥٩٢.

(٣) وأملي لهم: أي أمهلهم فلا أعاجلهم بالعقوبة ليزدادوا إثماً.
إن كيدي متين: سمى الله إحسانه وتمكينه للكفرة والعصاة كيداً لما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للسقوط في الهلكة، ووصف كيده بأنه متين لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك، وأن هذا الهلاك لا يدفعه شيء.
انظر: الكشاف للزمخشري ٤/ ٦٠٠، وتفسير ابن كثير ٦/ ٢٥٢ وروح المعاني للآلوسي ١٥/ ٤١.

وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الأنعام: ٤٢-٤٥).

والمفهوم من كل الآيات السابقة أن الله تعالى قد يستدرج الكفرة والعصاة وهم لا يشعرون، بأن يرزقهم الصحة والنعمة والأولاد ويفتح لهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، حتى يظنوا أن ذلك كرامة من الله لهم، ويجعلوا ذلك كله ذريعة إلى ازدياد كفرهم ومعاصيهم ـ بعد أن نسوا ما ذُكروا به أو تناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ـ عندها يأخذهم الله بغتة، أي على غفلة فإذا هم آيسون من كل خير[1].

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ... ﴾[2]»**.

وقال: **«إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته»**[3].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٤١٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٤/ ٢٠٠ برقم ١٧٢٨٠ عن عقبة بن عامر، والهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٠، وقال الألباني في المشكاة ٣/ ١٤٣٦ وإسناده جيد.

(٣) أخرجه مسلم في ٤/ ١٩٩٧ في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم ٢٥٨٣ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وهو عند البيهقي في الكبرى ٦/ ٩٤.

إذاً يمكن القول: إن الله تعالى لم يعجل باستئصال كفار هذا الزمان رغم شركهم كالأمم الماضية لأن له معهم سنة الاستدراج التي كانت لغيرهم ممن سبق، وهذه السنة تعني إمهالهم بعد أن لم يتعظوا بما امتحنهم الله به من صنوف البأساء والضراء، أو بما امتحنهم به من النعم، أو بعد أن كذبوا بآيات الله التي من شأنها أن تحمل المتأمل فيها على الإيمان، وإن سنة الله تعالى في هؤلاء مدة إمهالهم أن يوسع عليهم الرزق والخيرات، ويزيد عليهم الرخاء الذي هم فيه، ويعطيهم ما يتمنون من النعم على وجه الاستدراج لهم وزيادة إثمهم لما يقابلون هذه النعم بالمعاصي[١].

عموماً: قد يؤخر الله عقوبة الكافرين لكفرهم إما استدراجاً لهم كما بيناه أو لحكم آخر كالآتي:

أ - «لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله»[٢] كما كان حال كفار قريش سابقاً، فإن الله أمهل العرب بحكمته[٣]، وبرحمة نبيه ﷺ.. فلطف بهم إذ جعلهم مختلطين مؤمنهم ومشركهم ـ كما هو حال كثير من بلاد الكفار الآن ـ ثم هاجر المؤمنون فبقيت مكة دار شرك، ولكن الله أخرج من أصلابهم من يؤمن

---

(١) السنن الإلهية، لزيدان ص٢٣٤-٢٣٥ بتصرف.

(٢) جزء من حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه مسلم في ٣/ ١٣٢١، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، برقم ١٧٩٥، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) رغم دعاء قريش على لسان النضر بن الحارث أو أبو جهل قائلين: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال: ٣٢) والمقصود بقوله سبحانه (هذا هو الحق) أي القرآن.

انظر تفسير ابن عاشور ٩/ ٨٥-٨٦.

به كمسلمة الفتح ومن سبقهم قبيل دخول الرسول ﷺ مكة. وهكذا كما فعل الله بقريش يفعل بكفار العصر الحديث.

لتتم حكمة الله وإرادته بعمارة الأرض واستخلاف الإنسان فيها وفقاً لسنن الله الكونية، قال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: ٦١) قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (النحل: ٦١) «وقد دلت الآية على أن تأخير ـ الكفار ـ متفاوت الآجال، ففي، مدد تلك الآجال تبقى أقوام كثيرة تُعمر بهم الأرض، فدلك سبب بقاء أمم كثيرة من المشركين وما حولهم»[1].

ختاماً أقول:

اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون عذابه لكفار وعصاة هذه الأمة من باب قوله سبحانه: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (السجدة: ٢١) و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٢١) و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (الأنعام: ٤٢).

وشاء الله سبحانه أن يكون إرساله للآيات كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (الإسراء: ٥٩) فإنه تعالى يعاقب أقواماً بالكوارث لشركهم وكفرهم، ويبتلي المؤمنين بها ليرى صنيعهم وصبرهم، ويعافي آخرين ليتعظوا ويعتبروا ويشكروا الله على ذلك كله. قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٣/ ١٥٣ بتصرف.

فإذا جاء الأجل المسمى الأعظم أهلك الله الأرض بمن عليها، قال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس: ٢٤).

لقد طلب كفار قريش العذاب من محمد ﷺ واستعجلوا بذلك، فرد الله عليهم قائلاً: ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝ ﴾ (العنكبوت: ٥٣-٥٥).

ورغم تأخير الله لعقوبة الذين كفروا بعدم إهلاكهم واستئصالهم عن بكرة أبيهم إلا أن حالهم الآن كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ (الرعد: ٣١).

قال سيد قطب: «وإذا كان الله قد قدّر ألا يهلك الكفار هلاك استئصال في جيل ـ واحد ـ كبعض الأقوام قبلهم، فإن قارعة من عنده بعد قارعة تنزل بهم فتصيبهم بالضر والكرب، وتُهلك من كُتب عليه منهم الهلاك ﴿ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ ﴾ .. فتدعهم في قلق وانتظار لمثلها.. ﴿ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ ﴾»[1] وصدق

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٦٠.

رحمه الله، فإن التاريخ يشهد أن أكثر العقوبات الإلهية، والكوارث الماضية والحالية تقع في بلاد الكفار فتهلك من شاء الله، وتبقى الآخرين ـ انظر على سبيل المثال بيان الزلازل عبر التاريخ في الجدول رقم (٢) ستجد أن أكثرها وقع ويقع في بلاد الذين كفروا، فيهلك الله بها وبغيرها من شاء إهلاكه[1].

---

(١) وعلى سبيل المثال وقع إعصار كبير في أمريكا في ٢٥/٩/٢٠٠٥م وكان الأكثر تدميراً في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، فقد نتج عنه أكثر من ألف قتيل، وتشريد مئات الآلاف، وخسائر تزيد على ١٢٥ مليار دولار، وكان ذلك نتيجة الأمطار الغزيرة والرياح القوية التي بلغت سرعتها ٢٥٧ كم/ ساعة، واجتاحت المدينة موجة مد وصل ارتفاعها إلى تسعة أمتار، وغرق تحت الماء أكثر من ٨٠٪ من مساحتها، وأكثر من ٩٠٪ من المباني الساحلية حيث اختفت تماماً، ويبلغ تدمير هذه المنازل إلى مسافة ٤٠ و٥٠ كيلومتر على ساحل خليج المكسيك، ولجأ أ: ثر من ٢٠ ألف شخص إلى الملعب الرياضي المغطى هرباً من العاصفة وطلباً للنجاة، وانتشرت الأمراض الوبائية جراء تحلل الجثث التي طفت فوق الماء بعد غرقها فيه، وانهارت معظم البنى التحتية لشبكات الاتصالات والكهرباء التي كانت تزود أكثر من ٣.١ مليون مشترك، وبقي الناس في ظلام شديد.

انظر: مجلة العربي، العدد ٥٦٥، ذو القعدة، ١٤٢٦هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٥م، ص١٥١-١٥٦.

و: مجلة نيوزويك (Newsweek)، ١٣ سبتمبر، عام ٢٠٠٥م ص٢٤-٥٣.

جدول (٢)

بيان بما أمكن حصره من الزلازل الأرضية عبر التاريخ البشري

الرقم	التاريخ	البيان
١	١٤٨٠ ق.م	يقول علماء الجيولوجيا إن زلزالاً عنيفاً ضرب مدينة إيطالية وطمسها ثم حولها إلى بحيرة.
٢	٤٧٩ ق.م	يؤرخ علماء الزلازل لأقدم حادث تسونامي ضرب الطرف الشمالي من بحر إيجه
٣	٥٥١م	ضربت سلسلة زلازل منطقة سوريا ولبنان وكان أعنفها في مدينة بيروت
٤	١١٣٩م	ضربت الزلازل مدينة حلب السورية وقتلت أكثر من ١٠٠٠ شخص ثم امتدت إلى إيران
٥		ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر حدثت في العالم ٢٨٠٤ هزة أرضية منها ١٠٠ هزة بالغة العنف
٦	١٦٠١م	ضرب زلزال عنيف مدينة سان فرانسسكو تسبب في حرائق هائلة وقتل الآلاف من السكان
٧	١٦٩٣م	تعرضت جزيرة سوريا إلى أربع هزات أرضية ثم بدأت الأرض تنفث دخاناً ثم انفجر بركان قوي
٨	يناير ١٦٩٩م	حدثت في جزيرة جاوة (تتبع لأندونيسيا حالياً) ٢٠٨ هزة أرضية غيّر فيها أحد الأنهار مجراه
٩	١٨١١م	تعرضت مدينة (نيومدريد) إلى زلزال عنيف تكونت بسببه أربع بحيرات

الرقم	التاريخ	البيان
١٠	٥/٦/١٨٩٦م	كان أشهر حادث تسونامي حيث ضرب زلزال بحري جزيرة هونشو اليابانية وابتلع جزراً وشواطئ وأحدث أخاديد تحت البحر وهيجاناً في الأمواج ضربت السواحل الأمريكية
١١	١٨/٤/١٩٠٦م	ضرب زلزال عنيف مدينة سان فرانسسكو الأمريكية وقتل حوالي ٣٠٠٠ شخص تحت الأنقاض
١٢	١/٩/١٩٢٣م	كان زلزال كانتو الهائل الذي ضرب اليابان وقتل حوالي ١٤٢ ألف شخص
١٣	١٩٢٩م	تعرضت طوكيو ويوكوهاما إلى أعنف وأكبر زلزال عرفته اليابان
١٤	١٩٢٩م	في نفس العام تعرضت مدينة نيويورك إلى زلزال عنيف ضرب السواحل وأغلق السفن
١٥	١٩٣٥م	تعرضت تايوان لزلزال كبير أدى إلى مقتل أكثر من ٤٠٠ ألف شخص
١٦	١٩٤٨م	حدث زلزال بحر الصين الشرقي الذي ضرب غرب اليابان وأحدث أضراراً بالغة
١٧	١٩٦٠م	كان أضخم زلزال سجله التاريخ إلى ذلك الوقت وهو زلزال تشيلي الذي اقتلع قرى بأكملها
١٨	مارس ١٩٦٤م	ضرب زلزال آلاسكا الذي بلغ ٩.٢° وأحدث مداً وموجات ارتجاجية

الرقم	التاريخ	البيان
١٩	١٩٧٦م	تحولت مدينة تانجشان إلى أنقاض بسبب زلزال راح ضحيته ٥٠٠ ألف شخص
٢٠	نوفمبر ١٩٨٠م	هزات أرضية ضربت إيطاليا وقتلت المئات
٢١	سبتمبر ١٩٨٥م	زلزال هائل ضرب مدينة مكسيكو ومسح كثيراً من المباني بساكنيها
٢٢	ديسمبر ١٩٨٨م	ارتجت أرمينيا وحدثت فيها أضرار بالغة
٢٣	أكتوبر ١٩٨٩م	ضرب زلزال ولاية كاليفورنيا
٢٤	يونيو ١٩٩٠م	زلازل ضربت شمال إيران وقتلت ٤٠ ألف شخص
٢٥	سبتمبر ١٩٩٣م	زلزال ضربت غرب الهند وجنوبها وقتلت ١٠ آلاف شخص تقريباً
٢٦	يونيو ١٩٩٤م	وقوع زلزال وانهيارات أرضية بولاية كولومبيات
٢٧	يناير ١٩٩٥م	اجتاح زلزال مدينة كوبي اليابانية وأحدث خسائر فادحة
٢٨	مايو ١٩٩٥م	وقوع زلزال في جزيرة سخالين بأقصى شرق آسيا وقتل المئات
٢٩	فبراير ١٩٩٧م	وقوع زلازل بريف شمال إيران وغربها قتلت المئات
٣٠	مايو ١٩٩٨م	حدوث زلازل بشرق إيران قتلت المئات
٣١	يوليو ١٩٩٨م	وقوع زلزال كبير على الساحل الشمالي الغربي لغينيا الجديدة وقتل المئات
٣٢	مايو ١٩٩٩م	وقوع زلزال كبير بشمال أفغانستان خلّف المئات من القتلى
٣٣	يناير ١٩٩٩م	حدوث زلزال بقوة ٦ درجات في كولومبيا

الرقم	التاريخ	البيان
٣٤	مارس ١٩٩٩م	وقوع زلزالين بشمال الهند قتلا أكثر من ١٠٠ شخص
٣٥	أغسطس ١٩٩٩م	زلزال كبير ضرب تركيا وقتل أكثر من ١٧ ألف شخص
٣٦	سبتمبر ١٩٩٩م	حدوث زلزال في تايوان قتل المئات
٣٧	يناير ٢٠٠١م	وقوع زلزال بقوة ٧.٦ درجة في السلفادور قتل المئات
٣٨	٢٦ يناير ٢٠٠١م	وقوع زلزال بقوة ٧.٩ درجة في ولاية غوجرات الهندية قتل حوالي ٣٠ ألف شخص
٣٩	١٣فبراير ٢٠٠١م	ضربت زلازل السلفادور وقتلت المئات
٤٠	يونيو ٢٠٠١م	وقوع زلزال يستمر لأكثر من دقيقة في بيرو قتل المئات
٤١	فبراير ٢٠٠٢م	وقوع زلزال في غربي تركيا قتل العشرات
٤٢	٣ مارس ٢٠٠٢م	وقوع زلزال بقوة ٧.٢ درجة في أفغانستان قتل العشرات
٤٣	٢٥مارس ٢٠٠٢م	وقوع زلزال في أفغانستان بقوة ٦ درجات قتل ٨٠٠ شخص
٤٤	١٢ إبريل ٢٠٠٢م	وقوع زلزال في أفغانستان قتل العشرات
٤٥	يونيو ٢٠٠٢م	وقوع زلزال في إقليمي قزوين وهمدان بإيران قتلا ٢٣٥ شخص
٤٦	٣١/ ١٠/ ٢٠٠٢م	وقوع زلزال في إيطاليا قتل عدداً من التلاميذ داخل فصولهم الدراسية
٤٧	٢١/ ١١/ ٢٠٠٢م	وقوع زلزال في شمال باكستان قتل ٢٠ شخصاً
٤٨	فبراير ٢٠٠٣م	مقتل ٢٠٦ شخصاً في الصين وتدمير ١٠ آلاف منزل بسبب زلزال مدمر

الرقم	التاريخ	البيان
٤٩	١ مايو ٢٠٠٣ م	وقوع زلزال في تركيا أدى إلى انهيار العنابر على النائمين
٥٠	١ مايو ٢٠٠٣م	في ذات اليوم ضرب زلزال الجزائر أدى إلى مقتل ٢٠٠٠ شخص.
٥١	٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٤م	ضرب زلزال سومطرة والجزر الأندونيسية الأخرى وامتد إلى دائرة كبيرة في سواحل الصومال وخلّف حوالي ٢٥٠ ألف قتيل

مصدر الجدول: مجلة الأسرة، العدد (١٤٣) صفر ١٤٢٦هـ.

أما الرد على الشبهة الثانية وهي تساؤل البعض قائلين:

- لماذا تقع بعض الكوارث في بلاد المسلمين - وهم موحدون - وما ذنب دواب الأرض حتى يشملها عذاب الله؟

للجواب على ذلك أقول:

١ - بالنسبة لما وقع من كوارث وحوادث على المسلمين فالملاحظ في الواقع (من حيث الإجمال والعموم) أن ما يحصل منها في بلاد المسلمين يعتبر شيئاً يسيراً مقارنة بما يقع في بلاد الكفار، وهذا معلوم لكل ذي سمع وبصر[1].

ثم إن الأصل أن الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (آل عمران: ٤٠) و﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ (الأنبياء: ٢٣) سبحانه وتعالى، فهو رب العالمين، والخلق عبيده، وقد قال سبحانه: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦).

وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (النساء: ٤٠) فيجب التسليم بذلك، ورغم ذلك يمكن القول:

إن ما يقع من نزول المصائب في بلاد المسلمين كالكوارث أو الحروب أو غيرها، وما يصيب الناس من الفتن الواردة في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (الأنفال: ٢٥) إنما هو لعدة أسباب وحِكَم منها:

---

(١) يمكن أن يستثنى من ذلك الخسائر الفادحة التي أصابت مسلمي أندونيسيا في الزلزال الواقع في ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٤م حيث نتجت عنه أمواج بحرية عاتية دمرت كثيرا من نفوس المسلمين وأموالهم أكثر من الكفار القاطنين في الدول المجاورة.

١ ـ عقوبةً لهم على ذنوبهم[١] وسيئاتهم[٢] وعصيانهم لله[٣]:

قال تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا[٤] يُجْزَ بِهِۦ ﴾[٥]، وقال: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾[٦] فعمل السيئات يستوجب ترتب الجزاء عليها بغض النظر عن فاعلها، وسنة الله تعالى في عمل السيئات وما يترتب عليها سنة عامة قاطعة، تسري على جميع الخلق... فكل من يعمل سوءاً يلق جزاءه بحسب سنة الله ... قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (الشورى: ٣٠)، أي: «وما أصابكم أيها الناس أيّ مصيبة من مصائب الدنيا كالمرض وسائر النكبات والأحوال المكروهة نحو الآلام والأسقام والقحط والغرق وأشباهها: ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها: ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ أي ويعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها عاجلاً، قيل وآجلاً»[٧] قال ابن تيمية رحمه الله: «ومن المعلوم بما

---

(١) الذنب هو: كل فعل يستوخم عقباه، اعتباراً بذنب الشيء وجمع الذنب ذنوب.

(٢) السيئة هي: الفعلة القبيحة، وهي ضد الحسنة.

(٣) العصيان هو: الخروج عن الطاعة والأمر، أي الخروج عن طاعة من تجب طاعته والمقصود هنا الله عزوجل. فالمعصية والذنب والسيئة يجمعها جامع الخروج عن طاعة الله، فيوصف هذا الخروج بالقبح وسوء العاقبة وبالذنب والسيئة والمعصية. انظر: مفردات الراغب ص١٨١، ٢٥٣، ٣٣٧. و: المعجم الوسيط ص٣١٦.

(٤) السوء: هو كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية، والسوء: الفعل القبيح. انظر: النهاية، لابن الأثير ٣/ ٤١٦.

(٥) النساء: ١٢٣، ونحوها في القصص ٨٤، وغافر: ٤٠.

(٦) الأنعام: ١٦٠، ونحوها في الأنعام: ١٢٠.

(٧) انظر: تفسير ابن كثير ٥/ ٢٥١، ومفاتيح الغيب، للرازي ٢٧/ ١٤٨، وروح المعاني، للآلوسي ١٣/ ٤٠.

أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب..»[1].

قال تعالى عما أصاب المسلمين في أحد: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ... ﴾ (آل عمران: ١٦٥).

والذنوب التي هي سبب للمصائب أنواع فمنها:

أ ـ الفسق والعصيان الذاتي، قال تعالى: ﴿ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٥) وقال: ﴿ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ ﴾[2].

ب ـ السكوت على المنكر الواقع من الغير واستمرائه وعدم تغييره، وترك الأخذ على يد الظالم الفاسق، حتى يزيد الشر ويعم[3]، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (الأنفال: ٢٥)، وفي الحديث عن النبي ﷺ: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»**[4]. وفي رواية أخرى: **«ما من رجل يكون**

---

(١) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية، تحيق صلاح الدين المنجد، مطبعة (بدون)، د.ت، البلد (بدون) ص٣١.

(٢) الأنعام: ٦ ونحوها في الأنفال: ٥٤، وغيرها كثير.

(٣) وفي الحديث الصحيح عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ «أنهلك وفينا الصالحون قال: نعم إذا كثر الخبث» سبق تخريجه في ص٤٢٧، والمراد بالخبث كما قال النووي: فسّره الجمهور بالفسوق والفجور، وقيل المراد الزنا خاصة، والظاهر أنه المعاصي مطلقاً. انظر: صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٤/ ٢٢٠٧.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ٥١٠، في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، برقم ٤٣٣٨ عن قيس بن أبي حازم عن خالد الطحان، وأخرجه الترمذي في جامعه ٤/ ٤٠٦ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال الألباني في مشكاة المصابيح ٣/ ١٤٢٢ (إسناده صحيح).

في قوم يُعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا[(١)]»[(٢)].

---

(١) وهنا قد تقع شبهة مفادها أنه إذا كان الأصل المقطوع به في الشريعة الإسلامية هو قصر العقوبة على صاحبها المذنب لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (المدثر: ٣٨)، وأنه لا يؤاخذ أحد بذنب أحد... فما وجه شمول الجميع بالعقاب وعدم قصره على فاعل المنكر؟

والجواب: أنه كما يجب على مرتكب المنكر الإقلاع عنه، يجب على الباقين إنكاره ورفعه، فإذا لم يفعلوا كانوا آثمين جميعاً: هو بفعله المنكر، وهم بسكوتهم عنه أو رضاهم به، وقد جعل الله بحكمه وحكمته الراضي بالمنكر كفاعله فيصيبهم العذاب جميعاً لإثمهم جميعاً.

وقد يقال في شبهة ثانية: إن الباقين قد ينكرون بألسنتهم، ويبقى المنكر ولا يستطيعون تغييره بأيديهم، وقد لا يستطيعون إنكاره حتى بألسنتهم فينكرونه بقلوبهم، لأن هذا هو ما يقدرون عليه كما في الحديث عن النبي ﷺ: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»** أخرجه مسلم في ١/ ٦٩ في كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان...، برقم ٧٨ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. فما وجه شمول الجميع بالعقاب في هذه الحالة؟

والجواب: أن على العاجزين عن تغيير المنكر الخروج من هذا البلد الذي تُعمل فيه المنكرات، ولا يُستطاع تغييرها، جاء في تفسير القرطبي ٧/ ٣٩٢: «وإذا لم تغير ـ أي المنكرات ـ وجب على المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهروب منها، وبهذا قال السلف رضي الله عنهم». وانظر: أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي (المالكي)، (٤٦٨-٥٤٣)هـ، راجع أصوله محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، بيروت ـ لبنان ٢/ ٣٩١. و: الجواب الكافي، لابن القيم ص٦٨-٧٢ و: السنن الإلهية، لزيدان ص٢٠٦-٢٠٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في ٤/ ٥٥١ برقم ٤٣٣٩ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٧، وقال الألباني في مشكاة المصابيح ٣/ ١٤٢٢: (إسناده صحيح).

وهكذا قد يُقدِّر الله المصائب على الموحِّدين العصاة عقوبة لهم على ما كان منهم لعلهم يؤوبون إلى ربهم كما قال سبحانه: ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (الأنعام: ٤٢) وقال: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (السجدة: ٢١).

٢ - وقد يقدر الله المصائب على المؤمنين تكفيراً لذنوبهم وسيئاتهم التي وقعوا فيها، كما جاء في حديث النبي ﷺ أنه قال: **«ما من شيء يصيب المؤمن حتى الشوكة تصيبه إلا كتب الله له بها حسنة، وحط عنه بها خطيئة»**[١].

٣ - وقد يقدر الله المصائب على المؤمنين لزيادة أجورهم والإكثار من حسناتهم، أو لرفع درجاتهم، كما في قوله تعالى عن الصحابة وسائر المجاهدين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ﴾ (التوبة: ١٢٠)، وكما جاء في الحديث السابق ذكره **«إلا كتب الله له بها حسنة»** فلا يلزم في حق هؤلاء أن يكون ما أصابهم بسبب ذنوبهم، قال الزمخشري: «فأما من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره فللعوض الموفى والمصلحة»[٢]، فهؤلاء قد يبتليهم الله بالمصائب لرفع درجاتهم، وفي مقدمتهم أنبياء الله ورسله، ثم من يليهم من أهل

---

(١) أخرجه مسلم في ٤/ ١٩٩٢، في كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، برقم ٢٥٧٢، عن عائشة رضي الله عنها. وللحديث ألفاظ أخرى.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٣٠.

العلم والإيمان، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: **«أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل[١]»**[٢].

٤ ـ وقد يقدر الله المصائب على المؤمنين اختباراً وابتلاء[٣] لهم أو امتحاناً لإيمانهم، فيصيبهم بأنواع البلايا والمصائب والشدائد وما يشق على

---

(١) قال الراغب في مفرداته ص٤٦٣: «الأمثل يعبر به عن الأشبه بالأفاضل والأقرب إلى الخير، وأماثل القوم كناية عن خيارهم». وإنما كان هؤلاء أشد الناس بلاء لتتضاعف أجورهم وتتكامل فضائلهم، ويظهر للناس صبرهم، ورضاهم فيقتدون بهم... وهكذا هي سنة الله في البلاء والمبتلين، أن أشدهم بلاءً أي محناً هم الأنبياء، ثم الأفضل فالأفضل في الصلاح والدين وتقوى الله تعالى... فالأنبياء يقومون بتبليغ رسالات ربهم ويدعون الناس إلى الله وعبادته، فيكذبهم أهل الباطل ويؤذونهم بشتى أنواع الأذى... ويشتد البلاء ويكثر على الصالحين من بعدهم، لأنهم هم القائمون بما عليهم من حقوق الحق والخلق، ومن هذه الحقوق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ودعوة الخلق إلى الحق سبحانه وتعالى... وهكذا كلما كان المؤمن صلباً في دينه وقوياً في إيمانه كان أكثر جهاداً في سبيل الله فيكون أكثر بلاءً من غيره لما يلقاه من الكفار وأهل الباطل. انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للإمام الحافظ أبي العلي محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (١٢٨٣-١٣٥٣) أشرف على مراجعة اصوله وتصحيحه عبدالوهاب عبد اللطيف، ضبطه عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، ط (بدون)، البلد بدون، ٧/ ٧٨-٧٩. و: فيض القدير بشرح الجامع الصغير، للعلامة المحدث محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي (٩٥٢-١٠٣١)هـ، على كتاب الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير للسيوطي، دار المعرفة، ط(بدون)، د.ت، بيروت ـ لبنان ١/ ٥١٨.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه ٣/ ٣٤٣ عن سعد بن أبي وقاص، وأخرج الترمذي نحوه في ٤/ ٥٢٠ في كتاب الزهد، باب في الصبر على البلاء، برقم٢٣٩٨، وقال الترمذي، هذا حديث حسن صحيح، وقال الألباني في مشكاة المصابيح١/ ٤٩٢ (وإسناده حسن).

(٣) وقد يختبر الله خلقه بالخير كما اختبرهم بالشر، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

نفوسهم، لعدة حكم عظيمة، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[١]، فهؤلاء الذين يبتليهم الله بهذا كله وغيره إنما ابتلاهم به ليرى صبر المؤمنين ويعلم[٢] المجاهدين والصابري[٣]، ويميز ويمحِّص المخلصين الصادقين[٤]، وفوق ما يعطيهم من الأجور ويرفعهم إليه من الدرجات العالية، وغير ذلك من الحِكَم العظيمة[٥].

---

(١) البقرة: ١٥٥-١٥٨ والمراد بصلاة الله على المؤمنين ثناءه عليهم وتزكيته لهم ومغفرته لذنوبهم. انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٢٨٨. و: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢/ ٥٦.

(٢) أي يعلم علم رؤية.

(٣) قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٢).

(٤) قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ ... ﴾ (آل عمران: ١٧٩).

(٥) من ذلك ما قاله الشيخ عبد الكريم زيدان في كتابه «السنن الإلهية» ص٩٩ عن ابتلاء الجماعة المسلمة: «ثم إن بابتلاء الجماعة المسلمة بالشدائد تعرف الجماعة وزن قوتها الحقيقية لأن الشدائد تمييز وتمحيص، فبانكشاف حال المنافقين المندسين في صفوفها وانكشاف حال القادمين إليها للغنيمة والجاه أو التجسس أو غير ذلك من الأغراض الدنيوية سيكون وزن قوة الجماعة قدر وزن الذين ظهر صدقهم وإخلاصهم وثباتهم، كما أن بالشدائد ينكشف حال أعضائها المؤمنين الضعفاء، فتعرف الجماعة أن هؤلاء كانوا يزيدون في عدد أعضائها فقط ولا يزيدون في قوتها، وفي امتحان الجماعة المؤمنة وابتلائها بالمحن سيعرف كل عضو مؤمن مخلص صادق في إيمانه مقدار إيمانه الحقيقي ومدى عمقه في نفسه ومقدار ثباته عليه...». أ.هـ.

هذه تقريباً هي أهم الأسباب والحِكَم التي لأجلها وبسببها تقع المصائب والكوارث على المسلمين وفي بلادهم.

ثم إنه إذا أوقع الله هلاكه وعذابه على قوم عصاة من المسلمين فلعله أن يجعل للمتقين طريقاً إلى النجاة، وخاصة الذين ينهون عن السوء، فتلك سنة الله القائل:﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] والقائل عن بني إسرائيل الذين لم يستجيبوا لمن وعظهم منهم: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ (الأعراف: ١٦٥).

وأيضاً إذا شمل العذاب والهلاك المؤمنين مع العصاة، فإن الله يبعث الصالحين منهم يوم القيامة على نياتهم، ويثيبهم على ذلك، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال رداً على عائشة رضي الله عنها عندما سألته عن الذين يهلكون مع الجيش الذي يغزوا الكعبة وفيهم المجبور ـ أي المكره ـ وابن السبيل، ونحوهم ممن لا يقصدون الشر وليسوا من أهله: «**يبعثهم الله على نياتهم**»[2] ومعنى ذلك أن

---

(١) يونس: ١٠٣، ونحوها في الأنبياء: ٨٨.

(٢) أخرجه مسلم في ٤/ ٢٢٤٠ في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، برقم ٢٨٨٤ عن عائشة رضي الله عنها.

وأصل الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: «عبث رسول الله ﷺ في منامه ـ أي اضطرب بجسمه أو حرك أطرافه ـ فقلنا يا رسول الله صنعت شيئاً في منامك لم تكن تفعله فقال: **العجب أن أناساً من أمتي يؤمون هذا البيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم، فقلنا يا رسول الله إن الطريق قد يجمع الناس، قال نعم، فيهم المستبصر والمجبور ابن السبيل يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله على نياتهم**».

المؤمنين لا يشملهم العقاب الأخروي الذي قدره الله على الكفار أو العصاة فإنه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

٢ ـ بالنسبة لشمول عذاب الله وعقوباته الدواب والبهائم، فالرد على ذلك ماتضمنه تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ (فاطر: ٤٥) قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ هـو... جواب عن سؤال مقدر، أن يقال: ماذا جنت الدواب حتى يستأصلها الله، بسبب ما كسب الناس،... فأفيد أن الله أعلم بعدله، فإن الدواب مخلوقة لأجل الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة: ٢٩) فإهلاكها قد يكون إنذاراً للناس لعلهم يُقلعون عن إجرامهم..»[١].

وقال في موضع آخر: «ووجه الملازمة بين مؤاخذة الظالمين بذنوبهم، وبين.. إفناء الدواب أن إهلاك الظالمين لا يحصل إلا بحوادث عظيمة لا تتحدد بمساحة ديارهم.. فلذلك يتناول الإهلاك الناس غير الظالمين، ويتناول دوابهم.

وإذ قد كان الظلم، أي الإشراك لم تخل منه الأرض لزم من إهلاك أهل الظلم سريان الإهلاك إلى جميع بقاع الأرض، فاضمحل الناس والدواب.. وعليه فلا بدع أن يستأصل الله الدواب إذا استأصل أهلها وذويها»[٢]، اهـ.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٩٠ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/ ١٥٢-١٥٣ بتصرف.

وبعد أن انتهيت من الرد على الشبهة الثانية، أقول:

هناك شبهات أخرى تتعلق بوحدانية الله ووجوب توحيده، تعرض للمشركين والجاهلين، ويضعها المشكّكون والملحدون، سأفرد لها مبحثاً خاصّاً للرد عليها فيما يلي من فقرات.

وبهذا أكون قد انتهيت من شرح أدلة التوحيد العقلية المستنبطة من الأحداث التاريخية الحسية المتعلقة بإهلاك الأمم.

وهناك أدلة أخرى تدل على وحدانية الله ووجوب توحيده، وهذا ما أشره بالتفصيل في المبحث الخامس من هذه الرسالة.

المبحث الخامس

أدلة التوحيد العقلية المستفادة من الحقائق العلمية

مدخل:

أشار القرآن الكريم في كثير من آياته إلى عدة حقائق علمية تتعلق بالإنسان والكون ـ وإن لم يُفضِ في تفاصيلها ـ ثم جاءت الأبحاث العلمية التجريبية الحديثة، فصدَّقت ذلك وبيَّنته وفصَّلته على أيدي طائفة من علماء العصر الحديث في مجالات العلوم المختلفة ـ سواء علم الحياة، أو علم الحيوان، أو علم النبات، أو علم الفلك، أو علوم الهندسة والطب.. إلخ.

وصارت كل هذه العلوم الإنسانية والطبيعية والكونية مقررات دراسية لطلاب المدارس والجامعات، فكم من حقائق علمية حديثة اكتشفها الباحثون مؤخراً ذكرها الله عز وجل في كتابه بصورة مباشرة أو غير مباشرة، إما عن طريق التلميح أو التصريح كانت حجة قاطعة على الطاعنين في صحة كتاب الله ونسبته إليه وحده[1] قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢) .

ودليلاً كافياً على وحدانية الله ووجوب توحيده لو سَلِمَت فطرة هؤلاء الدارسين لحقائق الكون والحياة، وتجاوزت أهدافهم من معرفة الأسباب إلى

---

(١) وكذا صحة رسالة رسول الله ﷺ من عند الله عز وجل.

البحث عن المسبب المدبر لذلك كله(١)، فإنه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ ﴾ (الجاثية: ٣، ٤).

ومن هنا دعى الله خلقه إلى تأمل آياته في مخلوقاته، والاستدلال بها عليه سبحانه، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٥) وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا

---

(١) من أعجب ما قرأته عند تحضيري لهذه الرسالة أن حكومة بريطانيا قامت قبل فترة برصد مبلغ (٤٨.٠٠٠) ثمانية وأربعين ألف دولار ـ وليس جنيه استرليني ـ للجمعية الملكية البريطانية لتقوم ببحوث في مختلف ميادين العلم، لتثبت بها بشكل قاطع وجود الله، وكانت النتيجة نحو اثني عشر مجلداً كتبها أعضاء تلك الجمعية وآخرون غيرهم، وقد بيَّنت هذه الدراسات بشكل حازم وجود تصميم في الخلق يدل على وجود كائن أعلى، انظر العلم يدعو للإيمان لكريسي موريسون ص٤٤.

وتعليقنا على هذا: هل خفيت عندهم الحقيقة لدرجة جعلتهم يبذلون كل هذا الجهد والمال حتى وصلوا إليها!!

لقد سبقهم إلى معرفتها الأعرابي البدوي قبل ١٤٠٠ عام بقوله: «البعرة تدل على البعير، وأثر القدم يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا يدل ذلك على العليم الخبير».

إن ما حصل من الحكومة البريطانية يجعلنا نتساءل متى كان النصارى ينكرون وجود الله عز وجل حتى لجأت حكومتهم لرصد مبالغ للقيام ببحوث تثبت وجود الله؟ إن هذا يدل على تحول بلاد الغرب نحو الإلحاد في فترة من الفترات، وإن كان أكثر علمائهم قد تراجعوا عن ذلك كما سيظهر لنا من خلال الفقرات القادمة من هذا المبحث.

مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ (ق: ٦-٨) «أي لكل عبد راجع إلى التفكر والتذكُّر والنظر في الدلائل»[١].

وغير ذلك من نصوص القرآن التي تحثُّ الإنسان على النظر في آيات الله الإنسانية والكونية، وتدعوه للبحث عن أسراره، الدالة على بارئه، المشيرة لبعض صفاته، حيث اعتبرها الله عزوجل آيات لقوم يعقلون، ويتفكرون، ويتذكرون، ويعلمون، ويفقهون، ويوقنون إذا سمعوها سماع تأمل وتفكر واعتبار ورغبة في الاهتداء إلى الحق، وقد سبقت الإشارة لبعض تلك الآيات[٢].

ولم يخش سبحانه عاقبة فتح باب التفكر في الخلق، بل أثاب صاحبه على ذلك، مؤكداً أن هذا التدبُّر هو سياجٌ لحماية فطرة الإنسان، وطريقٌ لتحقيق الإيمان، وزيادة في إجلال العبد لربه الرحمن[٣].

والذي يظهر من خلال تتبع سور القرآن الكريم وآياته أن معظم دلائل التوحيد القرآنية وردت في السور المكية التي اتسمت بالاهتمام بأصول العقيدة الإسلامية[٤]، وخاصة ما يتعلق بركني الإيمان بالله واليوم الآخر.

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي ٢٨/ ١٣٥.

(٢) راجع ص١١١ وانظر: سورة البقرة: ١٦٤، الرعد: ٤، النحل:١٢، الروم: ٢٤، يس: ٦٨، الجاثية، الرعد:٣، النحل:١٠-١١، الروم، ٢١، الزمر: ٤٢، الأعراف: ٥٧، يونس: ٣، النحل:١٧،١٣، المؤمنون:٨٥، الأنعام:٩٧، يونس:٥، غافر:٥٧. الأنعام: ٩٨، الجاثية:٤، الذاريات: ٢٠.

(٣) كما يتضح من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١).

(٤) انظر مثلاً ما جاء في سورة الأنعام، والأعراف، ويونس، والنحل، والمؤمنون، والروم، ويس، والزمر، وغافر، والجاثية، والذاريات، والواقعة، وغيرها كثير.

وقبل أن أشرح منهج القرآن في الاستدلال على التوحيد بآيات الله الإنسانية والكونية من وجهة نظر علماء العصر الحديث، وفي ضوء الاكتشافات العلمية المعاصرة، أُنبِّهُ إلى أمرين اثنين:

أولاً: إنَّ كثيراً من أدلة التوحيد القرآنية التي سأتعرض لها قد تناولها السابقون، واستدلوا بها على الذات الإلهية كأدلة نقلية ذات دلالة عقلية[1]، لكن استدلالهم بها كان على سبيل الإجمال، وبحسب ما وصلوا إليه من العلوم والمعارف في زمانهم، وما كان لديهم من إمكانات وقدرات فكرية أو مادية وبشرية، ونحو ذلك، والجديد هنا هو إبراز وتوضيح طرق الاستدلال بها بصورة تجمع بين ما قاله كبار مفسري آيات القرآن وكبار باحثي علوم الإنسان والأكوان.

ثانياً: قضية الاستدلال على وحدانية الله وتوحيده، من خلال الحقائق العلمية الحديثة، المشار إليها في القرآن الكريم هي مسألة تدخل ضمن التفسير العلمي لكتاب الله الذي وصفه الله بأنه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢). وعليه لابد من بيان شرعية التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم كما يأتي:

---

(١) وقد شرحها القاسمي في كتابه دلائل التوحيد.

وانظر كتاب: الله جل جلاله، لسعيد حوى، ص٢٨-١٠٤.

و: كتاب دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون، لعبد الله بن عبد القادر التليدي، ص٤٢-٤٤.

و: معالم التوحيد في القرآن الكريم، للشيخ جعفر السبحاني.

شرعية التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم:

هذه المسألة وإن كان قد أشار إليها بعض العلماء السابقين وقالوا بجمع القرآن للعلوم كلها(١)، ودلَّلوا على صحة ما ذهبوا إليه(٢).

وردَّ عليهم الشاطبي حينها(٣):

---

(١) ومن هؤلاء:

أ- الإمام الغزالي الذي صرَّح بأن العلوم كلها داخلة في القرآن، وأن كل ما أشكل فهمه على النظار، واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن رموز ودلالات عليه، يدركها أهل الفهم بدركها. ثم أكد ذلك وفصَّله في كتابه (جواهر القرآن) الذي ألَّفه بعد الإحياء. انظر: إحياء علوم الدين ١/ ٣٤١، وما بعدها.

ب ـ الفخر الرازي، كما يتضح من خلال تفسيره (مفاتيح الغيب).

ج ـ القاضي عياض، كما يتضح من كتابه (الشفاء).

د ـ الزركشي كما أشار إليه في حديثه عن إعجاز القرآن في كتابه (البرهان في علوم القرآن).

هـ- السيوطي، كما يتضح من كتابه (الإتقان في علوم القرآن): ٢/ ١٠٣٠.

و- الزرقاني كما جاء في كتابه (مناهل العرفان) ١/ ٢٧.

وغيرهم كثير. انظر: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، لنعيم الحمصي، قدَّم له الأستاذ العلامة محمد بهجة البيطار، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، بيروت ـ لبنان.

(٢) وقد جمع أدلتهم وناقشها: أ ـ الدكتور الكبيسي في كتابه (مناهج المفسرين) ص١١٠-١١٩.

ب ـ والدكتور خليل إبراهيم أبو ذياب في كتابه (ظاهرة التفسير العلمي للقرآن الكريم)، دار عمار، ط١، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م، عمان ـ الأردن.

ج ـ والأستاذ الدكتور فضل حسن عباس في كتابه (إعجاز القرآن الكريم) ص٢٤٥-٢٩٠.

(٣) انظر: الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠) هـ، شرح وتخريج الشيخ عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، بيروت ـ لبنان ٢/ ٧١-٧٩.

منكراً التفسير العلمي للقرآن الكريم[١].

إلا أنها لا تزال محل نزاع بين العلماء المعاصرين، ما بين مؤيد[٢] ومعارض[٣].

---

(١) ممن نسب إلى الشاطبي إنكار التفسير العلمي للقرآن الكريم الدكتور/ الذهبي في كتابه (التفسير والمفسرون) ١/ ٥٣، لكن الدكتور الكبيسي وجّه ذلك الإنكار بأنه لا يعني رد الشاطبي للتفسير العلمي للقرآن الكريم من أصله، إنما كان يقصد نفي احتواء القرآن على تفصيلات العلوم وجزئيات المعارف. انظر: مناهج المفسرين، للدكتور/ خليل الكبيسي ص١١٢-١١٣. وانظر أيضاً: تعقيب ابن عاشور على الشاطبي ١/ ١٢٥ (المقدمة العاشرة).

(٢) من المؤيدين لذلك (وهم الأكثرية): أ - المرحوم عبدالرحمن الكواكبي، انظر كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ص٢٣-٢٥. ب - الإمام الشيخ محمد عبده.

ج - الشيخ محمد رشيد رضا، كما يتضح من منهجه في تفسير المنار.

د - الإمام سعيد النورسي، كما يتضح من مؤلفاته (رسائل النور).

هـ - الشيخ عبدالحميد بن باديس. و - الإمام الطاهر ابن عاشور، كما يتضح من كلامه في المقدمة العاشرة في التحرير والتنوير ١/ ٩٩، وما بعدها.

ز - الشيخ عبدالوهاب خلاف. انظر كتابه (علم أصول الفقه) ص٣٠.

ح - الشيخ محمد أبو زهرة. ط - محدث المغرب الفيض أحمد بن صديق الغماري.

ي - يمكن أن يعد من هؤلاء الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، كما يتضح من تفسيره (أضواء البيان).

ك - الشيخ الزنداني، والشيخ جاد الحق علي جاد الحق (شيخ الأزهر سابقاً). انظر: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، للزنداني وآخرين.

ل - الشيخ الدكتور محسن عبدالحميد (من علماء العراق المعاصرين).

م - الدكتور زغلول النجار.

(٣) من المعارضين لذلك:

أ - الشيخ محمود شلتوت (شيخ الأزهر سابقاً) انظر: كتابه (تفسير القرآن العظيم) ص٣١.

ب - الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي، انظر كتابه (التفسير والمفسرون) ٢/ ٥٣٧-٥٤٠.

ج - الأستاذ أمين الخولي، انظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة تفسير، ومناهج تجديد، لأمين الخولي ص٢٩٤. د - بنت الشاطئ، انظر كتابها (القرآن والتفسير العصري).

ولكلٍّ دليله وتعليله[١]، وللمؤيدين في ذلك عدة مؤلفات ـ سواء في التفسير[٢]، أو غيره[٣]، كلها تأخذ بفكرة الإعجاز أو التفسير العلمي للقرآن الكريم[٤].

---

(١) انظر: أدلة الفريقين وتعليلاتهم في:
أ ـ تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، للزنداني وآخرين ص٣٩، ٦٩، ٨١.
ب ـ مناهج المفسرين، للدكتور خليل الكبيسي ص١١٥-١١٩.
ج ـ علم الإعجاز القرآني بين الفن والتاريخ، لنفس المؤلف ص١٨١-١٨٨.
د ـ ظاهرة التفسير العلمي للقرآن الكريم، للدكتور خليل أبو ذياب ص١٣ وما بعدها.

(٢) مثل: أ ـ (الجواهر في تفسير القرآن) للشيخ طنطاوي جوهري.
ب ـ تفسير المراغي للآيات ١٩ من سورة الحجر، وآية ٤٠ من سورة يس، وآية٥ من سورة الزمر.
ج ـ تفسير الشيخ الدكتور محمد عبدالله دراز للآية ٥-٦ من سورة الطارق، والآية ٥ من سورة الحج، والآية ٣٠ من سورة الأنبياء، وغيرها كثير، رغم انتقاد الدكتور دراز الإسراف في التوفيق بين النص القرآني والنتيجة العلمية. انظر: (المدخل في القرآن الكريم) للدكتور محمد دراز ص١٤٤.

(٣) مثل: معظم مؤلفات هارون يحيى، والدكتور زغلول النجار، والدكتور حسن أبو العينين، والشيخ الزنداني، وغيرها كثير، حيث وقَعَتْ يدي على أكثر من أربعين مؤلفاً في ذلك.

(٤) يرى الشيخ الزنداني أن التفسير العلمي للقرآن الكريم يختلف عن إعجازه، فالتفسير العلمي عنده يعني: الكشف عن معاني الآية.. في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية.
والإعجاز العلمي يعني: إخبار القرآن الكريم.. بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيراً، وثبت عدم إدراكها بالوسائل البشرية، في زمن الرسول ﷺ، انظر: تأصيل الإعجاز العلمي، للزنداني وآخرين ص٢٤، وانظر صحيفة صوت الإيمان، العدد ١٦٩، جمادى أولى، ١٤٢٦هـ ـ يونيو ٢٠٠٥ ص٦ مقابلة مع الدكتور زغلول النجار حول تأصيل الإعجاز العلمي.

والذي يميل إليه صاحب هذا البحث هو إقرار ذلك، والأخذ بالتفسير العلمي لبعض آياته بشرط الوسطية والاعتدال في المنهج، وعدم المبالغة التي قد تؤدي إلى تحميل آيات القرآن ما لا تحتمله، أو تفسره بمجرد نظرية غير ثابتة علمياً[١]، حتى لا يؤدي ذلك إلى الشك في القرآن الكريم، وذلك للأسباب الآتية:

١ ـ لمساهمة ذلك في كشف حقيقة قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣) وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ (النمل: ٩٣).

٢ ـ ولأن كتاب الله الخالد هو كتاب إعجاز وهداية لجميع الخلق في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة، وقد تكفل الله بحفظه[٢] لتستمر إقامة الحجة عليهم ويعرفوا الحق كما نصت عليه الآيات السابقة، وحتى يتحقق عموم الرسالة المحمدية للعالمين أجمعين[٣]، فكان لزاماً أن تتجدد بيِّنات هذه الرسالة، والمعجزة الخالدة (القرآن الكريم) لمحمد ﷺ، وخاصَّة لمن لا يفهمون العربية، ولا يتذوّقون الإعجاز البلاغي لكلام الله[٤].

---

(١) وهذا ما اختاره سيد قطب رحمه الله. انظر: تفسيره للآية الخامسة من سورة الزمر، والآية رقم ١٨٩ من سورة البقرة.

(٢) قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

(٣) قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا... ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

(٤) لا سيما بعد أن فسد اللسان العربي، وفقدت المعايير البلاغية قيمتها، ولم يعد بإمكان الناس تذوق البيان، وتلمس الفنون البلاغية المعجزة.

انظر: علم الإعجاز القرآني بين الفن والتاريخ، للدكتور خليل الكبيسي ص١٨١.

أضف إلى ذلك أن عصرنا الحديث هو عصر الكشوفات العلمية المتعددة والمتوالية في كل مجال[١]، حيث استخدمها بعض الملحدين سلاحاً لشن حرب ضروس على القرآن الكريم والتشكيك فيه باسم الإلحاد العلمي، لإبطال كثير مما جاء في كلام الله، وسنة رسوله ﷺ.

٣ ـ ولأن في القرآن إشارات كثيرة ـ منها المفصل ومنها المجمل ـ إلى حقائق علمية عدة، لا يمكن فهمها إلا بالتفسير العلمي لكلام الله، ونحن ملزمون بتدبر القرآن وفهم آياته، ومحتاجون لذلك عن طريق التفسير للأحداث الكونية، والحقائق العلمية المذكورة في كتاب الله المجيد من أي طريق توصل إلى ذلك.

٤ ـ ولأنه كما قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ[٢] حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ (البينة: ١) فقد تحقق إسلام بعضهم ممن عاصروا نزول القرآن الكريم وكذا إسلام وانفكاك بعض متأخريهم عن الكفر، بعد أن جاءتهم البينة العلمية التي سبق إليها القرآن الكريم، ولم يصلوا إليها إلا بعد ثلاثة عشر قرناً من الزمان[٣]، وشهد البعض الآخر أن القرآن كلام الله

---

(١) مع ملاحظة أن من ثمار الإعجاز العلمي للقرآن الكريم تصحيح مسار العلم التجريبي في العالم.

انظر: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، للزنداني وآخرين ص٣٣.

(٢) منفكين: أي تاركين كفرهم حتى تأتيهم العلامة التي وُعدوا بها في الكتب السابقة وهي رسول الله محمد ﷺ يتلو قرآناً في صحف مطهرة.

(٣) انظر: قصص عدد من الذين أسلموا في:

أ ـ علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، للزنداني وآخرين، وعلم الإيمان، للزنداني؛ الجزء الأول.

ب ـ المعجزة المتجددة، لصالح بن محمد اليافعي.

أوحاه إلى رسوله ﷺ ليبلغ خلقه أجمعين، وظل بعضهم على كفره عناداً ومكابرة واستكباراً[١].

وهكذا لا تزال وفود الداخلين في دين الله تتوالى يوماً بعد آخر، كان الإعجاز العلمي للقرآن الكريم هو أحد الأسباب الرئيسة ـ في العصر الحديث ـ لذلك، أكثر من غيره من صور إعجازاته الأخرى.

٥ ـ ولأن للتفسير العلمي للقرآن الكريم فائدة عظمى في هذا الزمان فهو:

أ- يساهم في تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية، بدافع من الحوافز الإيمانية عندما يكون الدافع لذلك هو الاستجابة لتحقيق ما أشار إليه القرآن الكريم[٢].

ب- يحقق استنهاض الأمة، ورد الطعون والشبهات الموجهة لفكر المسلم ودينه.

ج- يزيد من ترسخ عقيدة المسلم وإيمانه بالله وكتابه ورسوله الصادق الأمين.

د- يعيد الثقة إلى نفوس ضعاف الإيمان من المسلمين بأن كتابهم قادر على انتشالهم من أوضاعهم العلمية المتخلفة، وقيادتهم نحو الرقي والتقدم للأمام، وإعادة بناء حضارتهم من جديد[٣].

---

(١) انظر: شهاداتهم في:

أ ـ الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان ص١٥٣.

ب ـ معرفة الله، للمرابط بن محمد الشنقيطي ص١٢٢، وما بعدها.

ج ـ الأدلة القاطعة، لمجدي عبدالباقي شريف ص١٣-٢٨.

(٢) انظر: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، للشيخ عبد المجيد الزنداني، وآخرين، جامعة الإيمان، ط (بدون)، د.ت، صنعاء ـ اليمن ص٢٤.

(٣) انظر: مناهج المفسرين، للدكتور خليل الكبيسي ص١١٥.

٦ ـ ولتوافق ذلك مع عموم النصوص القرآنية الداعية إلى إعمال العقول، وتدبر آيات الله في الأنفس والآفاق، والاستدلال بها عليه سبحانه.

٧ ـ ولأن لكلام الله (القرآن الكريم) من السعة في المعاني ما يتناسب مع عظمة علم الله عزوجل، فليس لمعانيه حدود، ولا يصح قصرها على علم البشر المحدود.

عموماً: إنَّ مما يعضِّد تأييد الباحث للإعجاز العلمي للقرآن الكريم، أو التفسير العلمي لآياته، وترجيحه لذلك، هو ما ثبت من سرور النبي ﷺ في أكثر من حادثة توافق فيها واقِعُهُ مع ما أوحى الله به إليه، بل استشهاده بذلك، وإعلانه إياه على مَن حوله[1].

---

(١) ومن ذلك ما أخرجه مسلم في ٤/ ٢٢٦٢، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجسَّاسة، برقم ١١٩/ ٢٩٤٢ عن فاطمة بنت قيس.. وفيه.. فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: «ليلزم كل إنسان مصلاه، ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري، كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايع وأسلم.

وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال..». ثم ذكر لهم خبر تميم الداري ورحلته، التي استغرقت أكثر من شهر في البحر، وجاءت موافقة لما أخبر به الرسول ﷺ من قبل عن المسيح الدجال.

وكذا ما أشار الله تعالى إليه بقوله: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الروم: ١-٥).

ولم يعد خافياً أبداً أن التفسير العلمي للقرآن الكريم يوصِّل لفهم بعض آياته، التي خفيت كثير من حقائقها على المفسرين السابقين، أو سكتوا عنها، أو أجملوا معناها حتى لا يتقولوا على الله بغير هدى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[1].

إننا نجد أن القرآن الكريم الذي نزل بعلم الله، حين يعرض آية كونية في معرض الهداية فإنه يتحدث عنها حديث المحيط بعلوم الكون، فإن الله عزوجل كما وصف نفسه ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الفرقان: ٦) ولا تخفى عليه خافية رغم أنه يأتي بأصول عامة.. ويترك لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ليبيِّنوا للناس جزئياتها، بقدر ما أوتوا من العلم، فيكشفوا لهم شيئاً من حقائق القرآن العلمية.

وليس معنى القول بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم أنه جعل العلوم الكونية من موضوعه، أو من وظيفته.. إنما ذلك من قبيل الحث على البحث والنظر، والانتفاع بما في الكون من نعم وعبر، ولكونه أحد الأسباب الموصلة إلى الهداية[2]، أما كتاب الله فهو «الدعوة والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه، وهو البيِّنة على الدعوة، وهو الشاهد والمشهود به»[3].

---

(١) آل عمران: ٧.

والآية فيها إشارة إلى أن الصحابة رضي الله عنهم وسائر من جاء بعدهم من العلماء لم يكونوا من الراسخين في العلم، وأن من بعدهم أعمق علماً منهم.

(٢) مناهل العرفان، للزرقاني ٢/ ٣٨١.

(٣) الفتاوى ١٤/ ١٩٠.

لقد اشتمل كلام الله على عدة آيات تمثل بمجموعها أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم(١).

وخلاصة القول: أن الباحث يرى ضرورة الأخذ بالتفسير العلمي لبعض آيات القرآن، المنضبط بقواعده التي صاغها رجاله(٢).

---

(١) تتمثل أوجه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في: أ - التوافق الدقيق بين نصوص الكتاب، وما اكتشفه علماء الكون المعاصر. ب - تصحيح القرآن لما شاع بين البشرية في أجيالها المختلفة من أفكار باطلة حول أسرار الخلق (كأصل خلق الإنسان الذي كان يُعتقد أنه من دم الحيض).
ج - تكميل نصوص القرآن لبعضها البعض، وتجليتها للحقائق العلمية، رغم نزول آيات القرآن مفرقة على مدى ثلاث وعشرين عاماً.
د - عدم معرفة أسرار التشريع وحِكَمه في بعض الأحكام، حتى جاء العلم الحديث وكشف عن شيء من ذلك. انظر: تأصيل الإعجاز العلمي، للزنداني ص٢٧، وما بعدها.

(٢) من قواعد أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: أ - علم الله هو العلم الشامل الذي لا يعتريه خطأ، ولا يشوبه نقص، وعلم الإنسان محدود، يقبل الازدياد، ومعرض للخطأ.
ب - هناك نصوص من الوحي قطعية الدلالة، كما أن هناك حقائق علمية كونية قطعية.
ج - في الوحي نصوص ظنية في دلالتها، وفي العلم نظريات ظنية في ثبوتها.
د - لا يمكن أن يقع صدام بين قطعي من الوحي، وقطعي من العلم التجريبي، فإن وقع في الظاهر، فلابد أن هناك خللاً في اعتبار قطعية أحدهما.
هـ - عندما يُري الله عباده آية من آياته، في الآفاق أو في الأنفس مصدِّقة لآية في كتابه.. يتضح المعنى، ويكتمل التوافق، ويستقر التفسير، وتتحدد دلالات ألفاظ النصوص، بما كُشف من حقائق علمية. و - إن نصوص الوحي قد نزلت بألفاظ جامعة، وكثيراً ما تكون مجملة، تحيط بكل المعاني الصحيحة في مواضيعها، التي قد تتوالى في ظهورها جيلاً بعد جيل.
ز - إذا وقع التعارض بين دلالة قطعية للنص، وبين نظرية علمية، رُفضت هذه النظرية، لأن النص وحي من الذي أحاط بكل شيء علماً، وإذا وقع التوافق بينهما، كان النص دليلاً على صحة تلك النظرية، وإذا كان النص ظنياً والحقيقة العلمية قطعية يُؤوّل النص بها دون تعسف. انظر: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، للزنداني وآخرين ص٢٥-٢٦، ص٨٠-٨٣.

وشروطه التي شرطوها[١].

وقد ظهر من خلال حصر واستقراء آيات القرآن المشيرة إلى دلائل التوحيد في الإنسان وما حوله أنها في نحو من ثمانين سورة[٢]، أوردها الله عزوجل في كتابه على أنحاء وبأساليب مختلفة، تارة بصورة مختصرة، وتارة أخرى في آيات طويلة ـ لبيان الحق ـ مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ[٣] وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣) أي «علامات وحدانيتنا وقدرتنا»[٤].

---

(١) شروط الأخذ بالتفسير العلمي لبعض آيات القرآن:

أ ـ مراعاة معاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي.

ب ـ مراعاة القواعد النحوية ودلالاتها.

ج ـ مراعاة القواعد اللغوية، ودلالاتها، خصوصاً قاعدة ألا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية.

د ـ الوسطية والاعتدال في التفسير العلمي لآيات القرآن، وعدم تحميل آياته ما لا تحتمله من التأويل ونحوه.

هـ ـ ألا تجعل حقائق القرآن موضع النظر، بل هي الأصل، فما وافقها قُبل، وما عارضها رُفض.

و ـ ألا يفسر القرآن إلا باليقين الثابت من العلم، لا بالفروض والنظريات التي لا تزال موضع دراسة وتمحيص.

انظر تأصيل الإعجاز العلمي، للزنداني، ص٨١.

(٢) عدها عبد الله التليدي في كتابه (دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون) إلى سبعمائة آية، بينما نُسب للدكتور زغلول النجار أنها تزيد على ألف آية.

(٣) الآفاق: النواحي. انظر: فتح القدير، للشوكاني، ٤/ ٦٨٥. انظر: معرفة الله، للمرابط بن محمد الشنقيطي ص٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٥/ ٣٧٤، البحر المحيط، لأبي حيان ٩/ ٣١٧.

ذكر أهل التفسير أن المراد بآيات الله في الآفاق عدة معان، فذكروا مما يتعلق ببحثنا هذا:

الأول: كل المخلوقات التي خلقها الله في شتَّى أقطار الأرض والسماوات[١].

الثاني: آيات القرآن التي تُصدِّق أخبارها[٢].. بدلائل خارجية من غير كلام الله[٣]، برؤية مصداقها من حقائق الخلق حيناً بعد آخر[٤].

قال الزمخشري: «ومعنى الآية أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، سيرونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالمِ الغيب، الذي هو على كل شي شهيد»[٥] وتقام حجة الله على خلقه، وهذا ما وقع لكفار العصر الحديث، حتى شهد به بعضهم، وآمن البعض الآخر، كما سيتضح لنا فيما يلي من فقرات قادمة.

---

(١) فتح القدير، للشوكاني ٤/ ٦٨٥.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٥/ ٩١-٩٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٥/ ٢٣٥-٢٣٦.

(٤) لخّص ابن الجوزي أقوال المفسرين في الآية في خمسة آراء، منها ما ذكرناه أعلاه، ومنها: أن المراد بآيات الله في الآفاق والأنفس:

أ ـ (في الآفاق): فتح أقطار الأرض، (وفي أنفسهم): فتح مكة، قاله: مجاهد والحسن والسُّدي.

ب ـ (في الآفاق): وقائع الله في الأمم الماضية، (وفي أنفسهم) يوم بدر، قاله: قتادة ومقاتل.

ج ـ (في الآفاق): إمساك قطر السماء عن الأرض كلها، (وفي أنفسهم) البلايا التي تكون في أجساد الكفار، قاله: ابن جريج، أو حوادث الأرض كما قاله ابن زيد، ونسب إليه قول آخر.

د ـ (في الآفاق) آثار من مضى قبلهم من المكذبين، (وفي أنفسهم) كونهم خُلقوا من نطفة ثم من علقة.. إلخ، قاله الزجاج. انظر: زاد المسير في علم التفسير ٤/ ٥٦-٥٧.

(٥) الكشاف ٤/ ٢١٢.

وقبل أن أشرح ذلك، أقول: تشير الآية السابق شرحها إلى الأمور الثلاثة الآتية:

١ – أن البشرية على وعد من الله بأن يريها آيات ملكوته في أقطار السماوات والأرض ـ إن أَحْسَنَتْ استخدام أدوات العلم والمعرفة بالله وآياته، التي زوَّدها بها كالأسماع والأبصار والعقول، لعلهم يشكرون[1].

٢- تَعاقُب الأجيال التي تشهد تلك الآيات، بعضها خلف بعض، واستمرار هذه الآيات واحدة بعد أخرى، فيجتمع من ذلك للأجيال اللاحقة معرفة موروثة عمّن سبقها، وأخرى خاصّة بها، كما هو حاصل الآن لجيلنا، وكما سيقع بصورة أكبر وأكثر للأجيال من بعدنا، فكلما أراهم الله آية كانوا على موعد مع أخرى، وهكذا حتى يتبين الحق لجميع الخلق، إلى قيام الساعة.

٣- تضمُّنُ آيات القرآن والكون المعروفة لحقائق أخرى مجهولة، متجدِّدة، تتكشَّف للناس شيئاً فشيئاً.

ويمكن القول أيضاً:

أ- إن لفظ (الحق) الوارد في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣) من الألفاظ المشتركة التي تدل على عدة معان[2]، وقد لخَّص القرطبي مقصود الآية في جامعه بقوله «فيه أربعة أوجه: **أحدها**: أنه القرآن، **والثاني**: الإسلام، **والثالث**: أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق، **والرابع**: أن محمداً ﷺ هو الرسول الحق»[3].

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨)، وانظر سورة الأنعام ٤٦.

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن ص١٢٥-١٢٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٣٧٥.

ب- يشمل قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (فصلت: ٥٣) نوعين من الآيات:

١- الآيات المشهودة في الآفاق والأنفس[1]، التي لم تُذكر في القرآن.

٢- الآيات المشهودة في الآفاق والأنفس، التي ذكرها القرآن، وأرشد الناس إليها، ليتحقق في الواقع وعد الله سبحانه وحقيقة كلامه.

إن الله يخبرنا أنه لابد أن يكشف لخلقه من آياته المشهودة، ما يُبيِّن لهم أن آياته المتلوة حق.

وليس معنى هذا أن الحق غير واضح ولا بيِّن، بل هو ظاهر في ذاته، «والآيات الدَّالَّة عليه بيِّنة، ولكن تضليل الشبهات، وإغواء الشهوات تحجبه، وتحجب آياته عن القلوب، فإذا أُزيلت تلك الحوائل، وأصغت الأفئدة إلى تلك الآيات، ظهر نور الحق، وانقشع ظلام الباطل»[2].

وقد يتبين الحق للخلق، ولكن لا يقبله بعض الناس، ولا يعتبرون بذلك، فمنهم:

---

(١) تنقسم الآيات المشهودة في الآفاق إلى قسمين:

أ- آيات موافقة لمألوف الإنسان كالشمس والقمر ونحو ذلك.

ب- آيات خارقة لمألوف الإنسان كانشقاق القمر ونحوه.

وتنقسم الآيات المشهودة في الأنفس إلى قسمين:

أ- آيات موافقة لمألوف الإنسان كالأسماع والأبصار ونحو ذلك.

ب- آيات خارقة لمألوف كولادة عيسى من أم دون أب ونحو ذلك.

(٢) دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، لمحمد عز الدين توفيق ص٥٣ بتصرف وزيادة.

أ ـ الغافل عن آيات الله، المصروف عن التفكر فيها، رغم رؤيته لها وإحساسه بها قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾ (يونس: ٩٢).

ب ـ الناظر لآيات الله، المتفكر فيها، لكنه معرض اتباع الحق لكبرٍ في نفسه، أو تقليد لغيره. أو لاتباع هواه، أو اعتقاده الفاسد، ونحو ذلك[١] قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣) ونحوها من الآيات[٢].

ومنهم من يقبله، ويعمل بمقتضاه.

وفيما يأتي أذكر نماذج من آيات القرآن الكونية والإنسانية، الدَّالة على وحدانية الله ـ دون استقصائها وحصرها فدلائل التوحيد المستفادة من الحقائق والنظريات العلمية الحديثة كثيرة جداً، وهي بعدد الاكتشافات المتنوِّعة والمتوالية في كل زمان ومكان ومجال ـ وحسبنا هنا بعض النماذج الواضحة والقوية في دلالتها على وحدانية الله وتوحيده (محور البحث).

وحتى يتضح كل ما سبق رأيت تقسيم هذا المبحث إلى المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: الدلائل الإنسانية على توحيد الله تعالى.

المطلب الثاني: الدلائل الكونية على توحيد الله تعالى.

---

(١) انظر ص ١١٤٤.

(٢) كقوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل: ١٤).

«المطلب الأول»

«دلائل التوحيد الإنسانية»

ذكر الله عز وجل في كتابه كثيراً من الآيات التي تُبيِّن أصل خَلْق الإنسان، وأطوار تخليقه، وبديع صنع الخالق في كل مرحلة، وأكثر أيضاً من آيات الخلق والحكمة في أعضاء الجسم ووظائفه، حتى جاوزت الآيات القرآنية في ذلك السبعين آية في خمسين سورة تقريباً[١]، منها:

أ ـ ما يبيِّن خلق الإنسان بشكل عام.

ب ـ ما يؤكِّد خلقه من مادَّة الأرض (التراب).

ج ـ ما يكشف تناسله من مني يُمنى، أو ماء مهين.

ولو تأملنا لوجدنا أن الله وحده هو كما قال عن نفسه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ (الأعلى: ٢، ٣) وهو سبحانه: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه: ٥٠) وجعل دلائل وحدانيته في ذلك كله[٢] وخاطب العقلاء بقوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١) أي «لما فيها من الإشارة إلى إحكام الصنعة

---

(١) وقد جمعها صاحب كتاب (دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون) عبد الله بن عبد القادر التليدي ص٣٥، وما بعدها.

(٢) وقد شرح ذلك بعض الباحثين تحت العناوين التالية:

أ ـ دليل الخلق. ب ـ دليل التسوية. ج ـ دليل التقدير. د ـ دليل الهداية.

انظر: الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية د/ عبد الكريم عبيدات ص٢٦٨-٣١٠.

الموجودة في الإنسان، من يدين يبطش بهما، ورجلين يمشي عليهما، وعين يبصر بها، وأذن يسمع بها، ولسان يتكلَّم به،... وعقل... وقلب... ومعدة... وكبد... وعروق... وأمعاء... فيستدل بها على أن لها صانعاً حكيماً عالماً قديراً»[١].

قال ابن القيم رحمه الله: «لَّما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، دعاه خالقه[٢] وبارئه[٣] ...

---

(١) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، لأحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨)هـ، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٩٨١م، بيروت، لبنان ص٤١.

(٢) خالقه: الخالق هو الذي أوجد الأشياء كلها بعد أن لم تكن موجودة، وقد أبدعها على غير مثال سابق، ولا تجوز هذه الصفة بالألف واللام لغير الله عزوجل. اهـ. لسان العرب، لابن منظور ٤/ ١٩٢ مادة خلق.

(٣) وبارئه: برأ أي خلق.. والبرية: الخلق، والبارئ هو الخالق الذي برأ الخلق فأوجدهم بقدرته، وهو الذي خلق النفوس في الأرحام وصوَّرها كما يشاء في ظلمات ثلاث، وعلى هذا فالبارئ بمعنى الخالق، ويكون في الجواهر والأعراض. لسان العرب، لابن منظور ١/ ٣٥٤ مادة برأ.
وقد فرَّق بعض أهل العلم بين الخَلْق والبَرء فقالوا:
أ ـ الخلق هو التقدير، وعليه: فالخالق هو المقدِّر للأشياء قبل وجودها.
والبَرء هو الفري، وهو التنفيذ وإبراز ما قدَّره وقرَّره إلى الوجود، وليس كل من قدَّر شيئاً ورتَّبه بقادر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل.
ب ـ لفظ (البَرء) مختص بخلق الحيوان، وقلَّما يُستعمل في غيره، فيقال (برأ النسمة) وخلق السماوات والأرض.
ج ـ قيل البرء خلقٌ على صفة، فكل مبروء مخلوق، وليس كل مخلوق مبروء، لأن البرء فيه فصل بعض الخلق من بعض. اهـ. تفسير أسماء الله الحسنى، للزجاج ص٣٧.
د ـ قيل أن البارئ هو خالق الناس من البرا وهو التراب، فالخالق عام، والبارئ أخص منه، والراجح هو أن الخلق يطلق أحياناً ويراد به الإيجاد من العدم، ويطلق أحياناً ويراد به التقدير، والسياق هو الذي يدل على المعنى المراد. انظر: الحجة في بيان المحجَّة، لأبي إسماعيل التيمي ١/ ١٣١، جامع البيان، للطبري ٢٨/ ٦٦، التوحيد، لابن منده ٢/ ٧٦.

.. ومصوِّره[١] ... وفاطره[٢]... إلى التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين»[٣].

إننا نجد أن آيات الأنفس القرآنية قد سلكت، في الاستدلال على صفتي الخلق والحكمة الطريقتين التاليتين:

أولاً: توجيه النظر إلى أصل النوع الإنساني كله، وتعاقبه أجيالاً بعد أخرى، ثم توجيه النظر إلى أصل الفرد الواحد من بدئه إلى منتهاه.

---

(١) ومصوِّره: صُورة المخلوق هي هيئة خِلْقته، وتطلق على حقيقة الشيء وعلى صفته، والتصوير: التخطيط والتشكيل، والمصوِّر هو الذي صوَّر جميع الموجودات، وأعطى كل شيء منها صورة خاصَّة، هيئةً، مفردة، يتميَّز بها على كثرتها واختلافها، وقد صوَّر سبحانه كل صورة لا على مثال احتذاه ولا رسم ارتسمه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً. وهو سبحانه إذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، وهو ينفذ مايريد إيجاده على الصفة التي يريدها. انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٣/ ٣١٩-٣٢٠ مادة (صور)، لسان العرب، لابن منظور ٧/ ٤٣٨-٤٣٩ مادة صور.
انظر: الحجة في بيان المحجة، لأبي القاسم التيمي ١/ ١٣١-١٣٢، جامع البيان، للطبري ٢٨/ ٦٦، اشتقاق أسماء الله الحسنى، للزجاجي ص٢٤٣، جامع الأصول، لابن الأثير الجزري ٤/ ١٧٧، شأن الدعاء، للخطابي ص٥١، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٣/ ٥٨.

(٢) وفاطره: الفَطْر والفِطرة: الخلق والخِلْقة، يقال: فطر الله الخلق يفطرهم: خَلَقهم وبدأهم، وقيل الفطرة ما فطر الله عليه الخلق من معرفته سبحانه، أي طبعهم عليه. وفاطر السماوات والأرض: أي مبدعها، ومبتدئها، وخالقها، وهو سبحانه فطر الخلق أي ابتدأ خلقهم. انظر: لسان العرب ١٠/ ٢٨٥ مادة (فطر)، تفسير ابن جرير ٧/ ٢٩٩، شأن الدعاء ١٠٣ ولمزيد من التفصيل حول معنى الفطرة راجع ص١٣٤.

(٣) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص١٩٠.

ثانياً: دعوة الإنسان للنظر في نفسه، مع إمعان النظر في أعضاء معينة منه[١].

ولا شك أن رؤية الإنسان لآيات الله ودلائل وحدانيته في نفسه[٢]: في شمولها، ثم في تفصيلاتها وجزئياتها تجعله يستوعب دلالتها بشكل أكبر وأفضل وأقوى، وذلك عندما تنسجم الجزئيات في رؤية شاملة متكاملة[٣].

وبناء على ذلك، وحتى تتضح لنا آيات الله ودلائل وحدانيته في النفس الإنسانية رأيت تقسيم هذا المطلب إلى الفرعين التاليين:

الفرع الأول: دلائل التوحيد في خلق الإنسان، ومراحل تَخلُّقِه.

الفرع الثاني: دلائل التوحيد في أعضاء الجسم، ووظائفها.

---

(١) دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، لمحمد عز الدين توفيق ص٦٧.

(٢) من نصوص القرآن التي تحدَّثت عن آيات الله في الأنفس ما جاء في السور التالية:
آل عمران: ٦، الأنعام: ٤٦، ٩٨، الرعد:٨، الحجر ٢٦-٣٠، النحل: ٤-٨، ٧٠-٧٢، الحج: ٥-٦، النور: ٤٥، الروم: ٢٠-٢١، ٥٤، السجدة ٧-٩، الزمر: ٦، فصلت: ٥٣، الجاثية:، الذاريات:٢١.

(٣) دليل الأنفس ص٦٨.

الفرع الأول: دلائل التوحيد في خلق الإنسان، ومراحل تخليقه:

من المعلوم أن الله تعالى قد خلق أصل النفس الإنسانية (آدم عليه السلام) من تراب[١] تحوَّل إلى طين[٢]، وصلصال، وأخبر بذلك في كثير من آياته،

---

(١) قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ (غافر: ٦٧)، ونحوها في آل عمران ٥٩، وانظر أضواء البيان للشنقيطي ٥/ ٢٠.

ولو تأملنا قليلاً لوجدنا أن النطفة التي يتكون منها الإنسان تنشأ من اتحاد الحيوان المنوي الذي يكون من الرجل مع البويضة التي تكون من المرأة، وهذه الحيوانات والبويضات أصلها مني تولَّد من الدم، الذي تكوَّنة من المادة اللبنية الناتجة عن الكيلوس، وهو عبارة عن نواتج هضم الغذاء، الذي هو نبات وحيوان وماء، وكلها مكوّنات من عناصر التراب، فالأصل كله يعود إلى التراب.

ويرجع إلى آدم أبي البشر الذي خلقه الله من تراب ثم توالت خلق ذريته من النطفة التي هي خلاصة التراب.

(٢) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (المؤمنون: ١٢).

والطين هو التراب المخلوط مع الماء ـ كما هو المعلوم ـ وقد تختلف تسميته بحسب أحواله ومراحله، وقد نصَّ القرآن على خلق الإنسان منها كلها كما يأتي:

أ ـ الحمأ المسنون، وهو الطين الأسود المتغير اللون والرائحة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر: ٢٨).

ب ـ الطين اللازب، وهو الطين المستقر على حالة من الاعتدال، ويصلح لقبول الصورة، كونه لزجاً متلاصقاً، قال تعالى آمراً نبيه أن يخاطب الكفار: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴾ (الصافات: ١١).

ج ـ الصلصال كالفخار، وهو الطين اليابس الذي يُسمع له صلصلة بعد إصلاحه بالنار فصار كالخزف، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ (الرحمن: ١٤).

وانظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٦٤٩، ٤/ ٥١٢، ٥/ ١٧٧.

وأكّدته أحاديث المصطفى ﷺ[1]، ثم جاء العلم الحديث بما يطابق ذلك ويزيده تأكيداً[2].

كما أخبر سبحانه في آيات أخرى أنه خلق الإنسان من نطفة، من ماء المني المهين، الدافق، المختلَط من الرجل والمرأة، وجَعَلَه في قرار مكين، ثم خلَّقه طوراً فطوراً، بإحالة النطفة إلى علقة، ثم إلى مضغة، ثم إلى عظام، ثم كَسَا العظام باللحم، ثم أنشأه خلقاً آخر.

وقد أشار الله عز وجل إلى مرحلة النطفة التي تُحدَّد فيها خصائص الجنين وصفاته وجنسه، وهذا كله قد أكَّده علم الأجنة في العصر الحديث.

وفيما يلي اذكر نصوص القرآن المتعلقة بذلك، وأرْدُفها بأقوال علماء الأجنة، تمهيداً لتقرير منهج القرآن في الاستدلال على التوحيد بخلق الإنسان:

---

(١) سأذكر بعضها فيما يلي من فقرات هذا المبحث ص٦١٤.

(٢) حيث أثبت أن جسم الإنسان يحتوي من العناصر والمكونات على بعض ما تحتويه الأرض ـ بنسب مختلفة بين الناس ـ، ففيه قدر من الكربون يكفي لصنع سبعة أقلام رصاص، وقدر من الفوسفور يكفي لصنع ١٢٠ عود ثقاب، وقدر من الحديد يكفي لصنع مسمار واحد متوسط الحجم، وقدر من الكبريت..، وغير ذلك من الأكسجين والهيدروجين والآزوت والكالسيوم والصوديوم والكلور، والبوتاسيوم والمنجنيز والنحاس... وغيرها من العناصر المعدنية المكوِّنة للأرض.

انظر: الله والعلم الحديث، لعبد الرزاق نوفل، دار الشروق، ط (بدون)، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، القاهرة ـ مصر ص١٦١-١٦٢.

و: رحلة الإيمان في جسم الإنسان، د/ حامد أحمد حامد، دار القلم، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، دمشق ص٢٥٠-٢٥٤.

أ ـ أصل خلق الجنين وبدايته (أمشاج النطفة الإنسانية):

قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان: ٢) تدل الآية على أنَّ خلْق الإنسان يكون من جزء من المني ـ وليس منه كله[١] ـ كما يوحيه لفظ (من[٢] نطفة)[٣] وتدل أيضاً على أن هذه النطفة عبارة عن قطرة مختلطة من أكثر من ماء كما يشير إليه لفظ (أمشاج)[٤]، وهذا ما ثبت وتأكدَّ لدى علماء الأجنة، حيث يقولون: إنّ تخلُّق الجنين في بطن أمه إنما يكون نتيجة «مزيج من إفرازات الذكر والأنثى»[٥] أي من منيٍّ الرجل ومنيّ

---

(١) وفي الحديث عن النبي ﷺ: «ما من كل الماء يكون الولد..» أخرجه مسلم في ٢/ ١٠٦٤ في كتاب النكاح، باب حكم العزل، برقم ١٣٣ عن حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) (من) قد تكون للبيان، وقد تكون للتبعيض، وقد تكون لابتداء الغاية.

(٣) النطفة ثلاثة أنواع هي:

أ ـ النطفة المذكرة، وهي الحيوانات المنوية الموجودة في مني الرجل، والتي تفرزها خصيته.

ب ـ النطفة المؤنثة، وهي البويضة التي يفرزها مبيض المرأة مرة في الشهر.

ج ـ النطفة الأمشاج، وهي النطفة المختلطة من الحيوان المنوي الذي يلقح البويضة.

(٤) أمشاج: مشتق من المشج، وهو الخلط. تفسير ابن عاشور ٢٩/ ٣٤٧.

(٥) علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، للشيخ عبد المجيد الزنداني، وكيث مور، وآخرين، مطبعة (بدون)، د.ت، البلد (بدون) ص٤٣ «والكتاب عبارة عن خلاصة لأبحاث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، في إسلام آباد في باكستان، في الفترة من (٢٥-٢٨) صفر ١٤٠٨هـ/ ١٨-٢١ أكتوبر، ١٩٨٧م». وانظر: إنه الحق، للشيخ الزنداني، المطبعة بدون، د.ت، البلد (بدون) ص١٤ «والكتاب عبارة عن محاورة علمية مع أربعة عشر عالماً من كبار علماء ورواد العلوم الحديثة في شتى الآفاق». و:خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار، الدار السعودية، ط٥، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، جدة ـ السعودية ص١٠٩، وما بعدها.

المرأة، فليس من منيّ الرجل فقط، وليس من كل منيِّه، بل من بعضه[1]، وليس أيضاً من مني المرأة فقط أو من دم حيضها كما كان شائعاً بين علماء التشريح سابقاً، قبل اكتشاف المجهر الإلكتروني، واستخدام الفحص الجوهري لرؤية الحيوان المنوي والبويضة[2].

إنّ الآية السابقة تشير إلى تخلُّق جميع الجسد الإنساني ـ بكل أجزائه وأعضائه مع خصائصها وتخصصاتها ـ من نطفة الأمشاج «أي بويضة الأم الملقّحة بمنيِّ الأب».

وكما أن لفظ (أمشاج) يشير إلى تكوّن النطفة «التي هي أصل الجنين» من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح، فإنه يشير ضمن ذلك إلى الوراثات الكامنة في النطفة، والتي تسمى علمياً بـ (الجينات)[3]... فهي أمشاج مختلطة من وراثات شتى... حيث يحتوي الحيوان المنوي على نصف عدد

---

(١) انظر: الطب محراب الإيمان (رسالة دكتوراه) للطبيب خالص جلبي كنجو، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، بيروت ـ لبنان ١/ ٤٥ وما بعدها، والكتاب مكون من جزأين. و: خلق الإنسان في الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار ص١٠٩. و: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، لمحمد عز الدين توفيق ص٧٥-١١١. و: المعجزات القرآنية، لهارون يحيى ص٥٤-٥٦.

(٢) علم الأجنة ص١٢، ص٢٣٦، وقد رفض ابن حجر وغيره من علماء المسلمين فكرة تخلق الجنين من دم الحيض قبل الاكتشافات العلمية الحديثة معتمدين في ذلك على ما جاء في القرآن والسنة. انظر: فتح الباري ١١/ ٤٧٧-٤٩١.

(٣) هي وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميِّزة لجنس الإنسان أولاً، ولصفات الجنين العائلية أخيراً، وإليها يعزى سير النطفة الإنسانية في رحلتها لتكوين جنين إنسان، لا جنين أي حيوان آخر، كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة بالأسرة.

الكروموسومات[١] الموجودة في أي خلية جسدية أخرى.... وكذلك البويضة تحتوي على نصف عدد الكروموسومات،... فيكوّنان جميعاً أصول الخلية الجسدية الإنسانية الجديدة التي تحتوي على ستة وأربعين كروموسوم فيكتمل عدد الكروموسومات الحاملة للصفات الوراثية في النطفة الأمشاج من الأب والأم.

وعبر هذه الكروموسومات تنتقل الصفات الوراثية من الآباء والأجداد منتقاة مختارة، حتى تصل إلى الأبناء دون أن يتطابق منهما اثنان[٢].

إن العقل ليستنتج أن الذي خلق النطفة الذكرية ناقصة في حواملها الوراثية، يعلم أن مصير هذه النطفة المذكّرة أن تتحد بالنطفة المؤنّثة، وبالاتحاد بها تنتج الخلية الإنسانية الكاملة. وهذه النطفة الأمشاج هي خلية واحدة تبدأ في الانقسام والتكاثر، فإذا هي بعد فترة ملايين الملايين من الخلايا، كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ذات خصائص معينة تختلف عن خصائص المجموعات الأخرى، لأنها مكلفة أن تنشئ جانباً خاصاً من هذا الجنين، فهذه خلايا عظام، وتلك خلايا عضلات، وغيرها خلايا جلد، وهكذا...

فكيف تخصّصت تلك الخلايا فصارت هذه لتخليق العين، وتلك للأذن، وغيرها للقلب.. إلخ؟! ومَن الذي كان ولا يزال وراء ذلك كله؟! هذا ما عجز عن الإجابة عليه وضل عنه بعض علماء العصر الحديث، ـ رغم بداهة الإجابة عليه ـ حتى قال أحدهم في ألمانيا: «إن الموضوع الرئيسي الذي كثيراً ما يشغل بال العلماء هو: كيفية نشوء خلايا متخصصة من بويضة ملقحة، وكيفية نشوء اتصال

---

(١) هي الجسيمات الملوّنة التي تحمل الصفات الوراثية وهي نفسها (الجينات).

(٢) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للبار ص١٩٥-١٩٨.

وانسجام بين هذه الخلايا المنقسمة، وبصورة تلقائية»[(١)]. ولو هداه الله لعرف أن الذي دبّر ذلك كله هو الله الذي وصف نفسه بقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ (الأعلى: ٢، ٣).

ب ـ الماء الدافق والسلالة المصطفاة:

قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ ﴾ (الطارق: ٥-٧) تشير الآية إلى أن من خصائص هذا الماء التدفُّق ـ سواء ماء الرجل الذي يأتي من صلبه[(٢)] أو ماء المرأة الآتي من ترائبها[(٣)] ولفظ (دافق) يوحي بالكثرة والغزارة، وقد اكتشف العلم الحديث «أن الحيوانات المنوية التي يحتويها ماء الرجل[(٤)] لابد أن تكون حيوية متدفقة كثيرة متحركة حتى يتم التلقيح والإخصاب، انظر الشكل (١٤)، وأثبت أيضاً أن ماء المرأة الذي

---

(١) سلسلة المعجزات، لهارون يحيى، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، بيروت ـ لبنان ص١٢٠ والقائل هو هيرمال فون ديثفورث. وانظر: HOIMAR VON DITHFURTH هيرمال فون ديثفورث (الليلة الساكنة للديناصورات) دار الآن، ط(بدون)، د ـ، ص١٢٦.

(٢) صُلبه: الصُّلب هو الشديد، وباعتبار الصلابة والشدة سُمِّي الظهر صلباً، فالصُلب هو الظهر. اهـ. المفردات، للراغب ص ٢٨٤ مادة (صلب).

(٣) الترائب: جمع تريبة، والترائب ما بين الثديين، وقيل هي عظام الصدر، وقيل غير ذلك. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٥/ ٥٥٩.

(٤) وفي كتاب الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ٢/ ٣٠٢-٣٠٣ أن للحيوان المنوي رأساً بطول ٥ ميكرون (والميكرون هو جزء من الألف من المليمتر) وله ذَنَبٌ بطول ٥٥ ميكرون، وأن عدد الأنابيب المنوية الموجودة في خصية الرجل حوالي ٤٠٠٠ أنبوب، وبأطوال تصل إلى بضع كيلومترات. وانظر: دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٧٩ والمؤلف قد اقتبس بعض معلوماته من مراجع أجنبية.

يحمل البُييضة يخرج متدفقاً إلى قناة الرحم (فالوب)، وأن البُييضة لابد أن تكون حيوية متدفقة متحركة[١] حتى ينجح الإخصاب»[٢]، انظر الشكل (١٥).

واكتشف الأطباء أيضاً «أن عدد الحيوانات المنوية السَّابحة في السنتيمتر المكعب من مني الرجل تبلغ تقريباً مائة مليون حيوان منوي، ومعنى هذا أنه خلال القذفة الواحدة يُنتج الرجل ما بين مائتي مليون إلى ستمائة مليون حيوان منوي[٣]»[٤] إلى رحم المرأة.

---

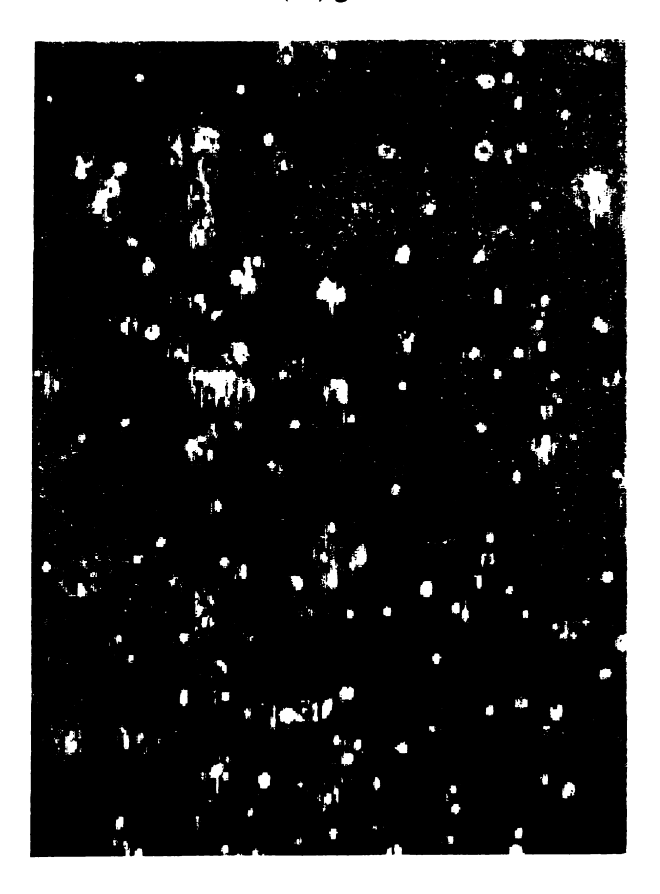
(١) وقد ثبت طبياً أنه يوجد في مبيض المرأة البالغة بويضات جاهزة، تصلح كل واحدة منهن أن تكوّن نصف إنسان وقطر البويضة مأتا ميكرون تقريباً، وشكلها دائري، وبداخلها نواة، ولا يفرز من هذه البويضات في كل دورة قمرية (٢٨يوم) سوى بيضة واحدة ويتناوب المبيضان في الإفراز في الحالة الطبيعية. انظر: الطب محراب الإيمان، لخالص جلبي ٢/ ٣٠٢. و: دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٨٦، ٨٩. و: المعجزات القرآنية، لهارون يحيى، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، بيروت ـ لبنان ص ٥٧.

(٢) علم الأجنة، للزنداني ص٣٥.

(٣) وتستمر قدرة الرجل على إنتاج تلك الحيوانات المنوية بنفس العدد طوال حياته، بينما المرأة تكون قدرتها على إنتاج البويضات من سن ١٢-٥٠ سنة، أي لمدة ٤٠ عاماً فقط تقريباً.
فتأمل حكمة الله بأن أحل للرجل الزواج بأكثر من واحدة ليتمكن من الحصول على المواليد من زوجات أخرى إن توقّفت الزوجات الأُوَل عن ذلك. انظر: الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ١/ ٦٨.

(٤) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين ص٩٠.
وقد وجد الأطباء أن مصنع الحيوانات المنوية (الخصيتين) مناسب جداً لتخليقها، فلو كانت الخصيتان في مكانهما الأول قبل الولادة ـ داخل جسم الإنسان ـ ولم تنزلا إلى كيس الصَّفن، لتكوَّنت فيهما نطف وحيوانات منويّة مشوَّهة، ذلك أن الحرارة اللازمة لنمو النُّطف نمواً سليماً يجب أن تكون أقل من حرارة الجسم بدرجة أو درجتين، وهذا ما يتوفر في الصَّفن بعد أن تنزل إليه الخصيتان فسبحان الله العظيم الحكيم الرحمن الرحيم. انظر: المرجع السابق ص٨٠.

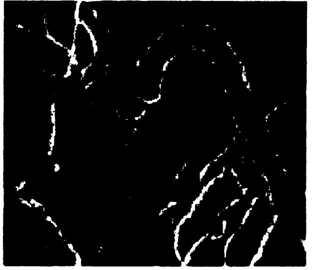
شكل (١٤)



صورة حية للحيوانات المنوية (الماء الدافق)

شكل (١٥)





صورة حية للحيوان المنوي
وهو يقوم بتلقيح البويضة



صورة حية للبويضة ويحيط بها
مئات من الحيوانات المنوية
(النطفة الأمشاج)

كما اكتشف الأطباء أيضاً أن «مبيض المرأة يحوي ما بين ثلاثمائة ألف إلى أربعمائة ألف بويضة»[1].

ولا يتكون الجنين في رحم أمه إلا من تلقيح حيوان منوي واحد لبويضة واحدة[2]، فإذا تم التلقيح والإخصاب، وصارت النطفة في مرحلة (الأمشاج) ـ فقد بدأت مرحلة السلالة[3] من النطفة التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ (السجدة: ٨).

إن القرآن الكريم قد سبق العلم الحديث بإخباره أن خلق الجنين يتم من جزء يسير جداً من الماء المهين، من خلال اختيار خاص، وعناية خاصّة.

ومما يؤكد هذا الاختيار والعناية الخاصة لاستخراج خلاصة الماء المهين لتكوين الإنسان في بطن أمه ما يلي:

---

(١) الطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي ٢/ ٣٠٢.

(٢) وقد يأذن الله بتخليق توأم، وهناك نوعان من التوائم: توائم متشابهة، وتوائم غير متشابهة، وذلك عندما يفرز المبيض أكثر من بويضة، فيكون التوأم مكون من بويضتين ملقحتين.
انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور البار ص٤٧٥-٤٨٦.

(٣) السلالة: يأتي لفظ السلالة بمعان منها:
أ ـ انتزاع الشيء وإخراجه في رفق.
ب ـ السمكة الطويلة.
وكلا المعنيين السابقين ينطبق على الحيوان المنوي فهو سلالة تُستخلص من ماء الرجل، ويُستخرج برفق من الماء المهين، وهو يشبه شكل السمكة الطويلة.
انظر: لسان العرب، لابن منظور ٦/ ٣٣٨ ومادة سلل، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي ٢/ ٦٠١ باب السين مادة سلل.

أ ـ موت عدد كبير من الحيوانات المنوية الخاصة بالرجل أثناء اتجاهها إلى البويضة في رحم الأم، فلا يصل إليها إلا بضع مئات ـ بعد ست ساعات على الأقل ـ وهي الحيوانات المنوية الأقوى حركة، بينما تموت البقية نتيجة للإفراز الحامضي الموجود في مهبل المرأة، ويموت عدد آخر في عنق الرحم، وغيرها في قناة الرحم؛ حيث تلتقي الحيوانات المنوية بالبويضة.

ب ـ ما اكتشفه العلماء المعاصرون المتخصصون في علم الأجنة من أن مبيض الطفلة وهي لا تزال جنيناً في بطن أمها يحتوي على ستة ملايين بويضة، فإذا ما خرجت إلى الدنيا مات الكثير منها، وتستمر هذه البويضات في اندثارها حتى إذا بلغت الفتاة المحيض لم يبق منها إلا ثلاثين ألفاً، وما ينمو منها ويخرج من المبيض لا يزيد عن خمسمائة بويضة في حياة المرأة كلها، وفي كل شهر تنمو مجموعة من البويضات، ولكن الخالق سبحانه يختار واحدة منها فقط، ليكتمل نموها، وتخرج لملاقاة الحيوان المنوي.

فهناك اختيار واصطفاء للحيوان المنوي، واختيار واصطفاء للبويضة.

بل هناك اختيار واصطفاء للبويضة الملقحة والكرة الجرثومية كما يلي:

ج ـ أثبتت الدراسات الجنينية الحديثة أنه ليس كل بويضة ملقحة تصبح جنيناً كاملاً، بل إن ٧٨٪ من كل حمل يُجْهَض ويتم إسقاطه، وأن ما يقرب من ٥٠٪ تسقط قبل أن تعلم الأم أنها حامل[١]. ولاشك أن الذي يسقط إنما هو الأضعف، وأن الذي يبقى إنما هو الأقوى والأصلح للخروج إلى الحياة.

---

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور البار ص١٠٩-١١٢، ص١٥٩-١٦٨ باختصار.

وهكذا يتحقق معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (المؤمنون: ١٢)، وقوله سبحانه: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾ (السجدة: ٧، ٨)، وغيرها من الآيات.

ج ـ مراحل تخليق الإنسان في بطن أمه:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً[1] فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً[2]

---

(١) علقة: وردت كلمة علقة في كتب اللغة بالمعاني الآتية: أ ـ لفظ (علقة) مشتقة من (علق)، وهو الالتصاق والتعلق بالشيء. ب ـ العلقة: دودة في الماء تمتص الدم وتعيش في البرك، وتتغذى على دماء الحيوانات التي تلتصق بها.
ج ـ العلَق جمع علقة، وهو الدم عامّة، والشديد الحمرة، أو الغليظ أو الجامد. انظر: لسان العرب، لابن منظور ٩/ ٣٥٦-٣٥٧ مادة علق. و: المعجم الوسيط ٢/ ٦٢٣، القاموس المحيط، للفيروز آبادي ٣/ ٣٨٦، مادة علق، باب القاف فصل العين، والمفردات، للأصفهاني ص٣٤٣، وتطلق العلقة على الدم الجامد الرطب، وهذا ما أشار إليه أكثر المفسرين. انظر: زاد المسير، لابن الجوزي ٣/ ٢٢٣، والبحر المحيط، لأبي حيان ٧/ ٤٨٥، والجامع، للقرطبي ١٢/ ٦. و: روح المعاني، للآلوسي ٩/ ١١٢، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ٥٩٥. وأضواء البيان، للشنقيطي ٥/ ٢١.

(٢) مضغة: المضغة في اللغة تأتي بمعان متعدّدة منها: أ- شيء لاكته الأسنان. ب- مُضَغُ الأمور أي صغارها.
والمضغة عند المفسرين هي ما كان في حجم ما يمكن مضغه، أو القطعة الصغيرة من اللحم. انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٥/ ٣٣٠، وتاج العروس، للزبيدي ١٢/ ٦٠. وانظر: تفسير الرازي ٢٣/ ٨، والكشاف، للزمخشري ٣/ ١٤٥، وزاد المسير، لابن الجوزي ٣/ ٢٢٣. و: محاسن التأويل، للقاسمي ١٢/ ٨، وروح المعاني، للآلوسي٩/ ١١٢. و: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٥٩٥، وأضواء البيان، للشنقيطي ٥/ ٢١.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝﴾[١] تشير الآية إلى ترتيب مراحل تخليق الإنسان في بطن أمه ابتداء بالنطفة الأمشاج من أبيه وأمه[٢] ـ وقد سبق شرح ذلك ـ ثم انتقاله إلى طور العلقة[٣]، ثم المضغة[٤]، ثم مرحلة تخليق العظام،

---

(١) المؤمنون: ١٢-١٦، ونحوها في الحج: ٥.

(٢) وتسمى مرحلة النطفة الأمشاج، وتمتد إلى أسبوعين من بداية التلقيح.
وقطر هذه النطفة الأمشاج (الكرة الجرثومية) حينها ١ ملليمتر. وتأتي بعدها مرحلة التخليق التي تمر بأربعة أطوار هي:
«العلقة، المضغة، العظام، اللحم»، وتستمر من بداية الأسبوع الثالث حتى نهاية الأسبوع الثامن.
ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة النشأة وتسمى المرحلة الجنينية حيث تتطور الأعضاء والأجهزة، وتُنفخ الروح في الجسم، وتتغير مقاييس البدن، وتبدأ هذه المرحلة من الأسبوع التاسع حتى الأسبوع الثاني والعشرين.
انظر: علم الأجنة، للزنداني وآخرين ص٦٧-١٤٠، ص٢٣٦ — ٢٣٩.
و: مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة، لـ (كيث مور).
و: المعجزات القرآنية، لهارون يحيى ص٥٩-٦٣.

(٣) ويلاحظ أنه في هذا الطور تلتصق النطفة بالرحم وتتعلق به حتى تنغرس فيه وتنزرع في جداره، وطولها ٣.٥مم، وتفقد النطفة شكلها المستدير وتستطيل حتى تأخذ شكل الدودة، ويبدأ الجنين بأخذ غذائه من دماء الأم، ويحاط بمائع أو سائل مخاطي تماماً كما تحاط الدودة بالماء، ويكون المظهر الخارجي للجنين أشبه ما يكون بقطعة دم غليظ جامد، فهل هناك تعبير أدق لوصف هذه المرحلة من تعبير القرآن بلفظ (علقة).
انظر: علم الأجنة ص٧١-٧٥.

(٤) ويلاحظ في هذه المرحلة ظهور كتل بدنية (فلقات) في جسم الجنين تتكون منها العظام والعضلات، ونظراً للعديد من هذه الفلقات يكون شكل الجنين كالمادة الممضوغة التي =

فكسوتها باللحم، ثم استحالة جسد الجنين إلى خلق آخر، وكل هذا وهو في القرار المكين.

انظر الأشكال ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣.

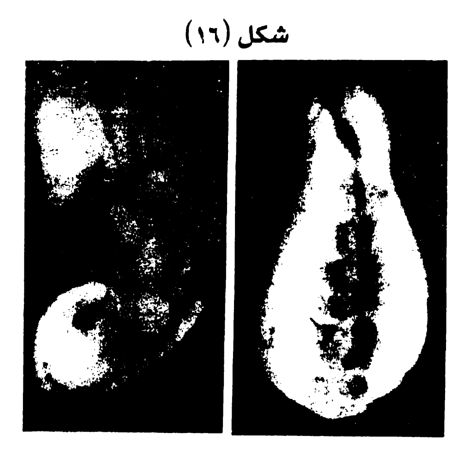
= عليها طبعات الأسنان، وهي تتغير باستمرار كتغير آثار طبع الأسنان على المادة الممضوغة، وكما أن المادة التي تلوكها الأسنان يحصل بها تغضّن وانتفاخات وتثنيات مع بقاء أصلها كذلك الجنين تماماً، يتغير في شكله مع بقاء أصل تركيبه، ويتغيّر في أوضاعه نتيجة تحولات في مركز ثقله وتكوّن أنسجة جديدة، ويشبه ذلك تغير وضع وشكل المادة الممضوغة حينما تلوكها الأسنان، ويستدير كما تستدير المادة الممضوغة قبل البلع، ويكون طوله في نهاية هذه المرحلة ١ سم فهو شيء صغير كالمضغة رغم تخلق كل أجهزته حينها ولكن في صورة برعم.

ونلاحظ أيضاً أن الله تعالى وصف المضغة في سورة الحج آية ٥ بأنها: ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ وقد أثبت العلم الحديث أن بعض أعضاء الجنين وأجهزته تتكوّن في مرحلة المضغة، والبعض الآخر يتكوّن في مراحل لاحقة.

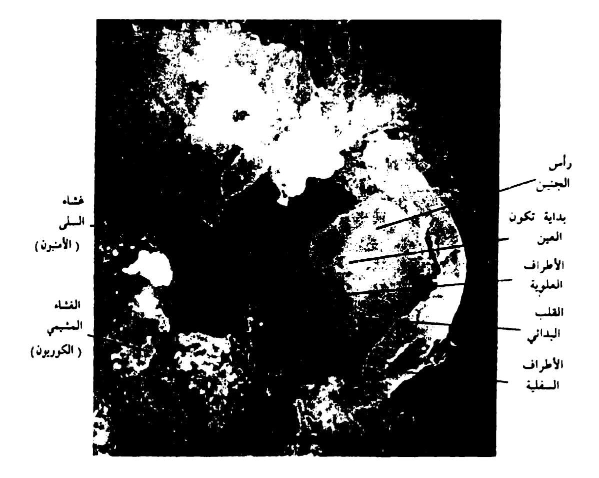
انظر: علم الأجنة، للزنداني ص٨٠-٨٣، ص٢٣٦-٢٣٩،

و: انظر: تفصيل الشنقيطي في معنى الآية في أضواء البيان ٥/ ٢١-٢٥.

شكل (١٦)



صورة حية لجنين في مرحلة المضغة وعمره أربعة أسابيع



صورة حية لجنين في الأسبوع الرابع داخل الأغشية إلى جوار المشيمة. وفي هذه المرحلة لا يزيد حجم الجنين عن حبة القمح (٧-٨) ملليمترات

شكل (١٧)



صورة حية لجنين في أسبوعه الخامس



صورة حية لمضغة في أسبوعها الخامس
داخل السَّلَى (كِيس الصاء)
(الصورة مكبرة خمس مرات)



صورة حية لجنين في بداية أسبوعه السادس

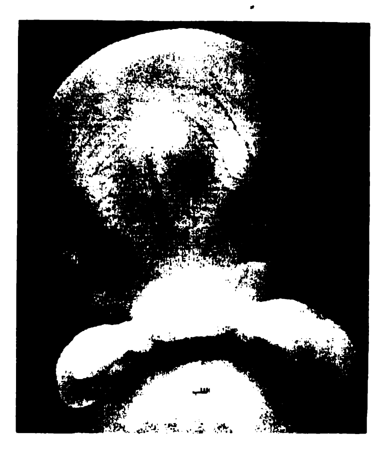
شكل (١٨)





صورة حية لجنين بلغ من العمر ٤٢ يوماً منذ بدء التلقيح (نهاية الأسبوع السادس)، وهو في كيس السلى بعد أن أزيلت أغشية المشيمة ونلاحظ بداية الأطراف تبدو كأطراف الضفدع... وفي وسط الجنين يظهر بوضوح بداية تكون النخاع الشوكي والعمود الفقري ـ يبلغ طول الجنين سنتيمتر ونصف.

شكل (١٩)





صورة حية لجنين في أسبوعه السابع ... يشبه في هذه المرحلة

شكل أي حيوان من الثدييات

شكل (٢٠)





صورة حية لجنين في أسبوعه الثامن داخل غشاء السلى

شكل (٢١)



أثبتت الأبحاث المجهرية أن تطور الجنين داخل رحم الأم يتم كما وصفته آيات القرآن، فأولاً تتكون الأنسجة الغضروفية التي تتحول إلى عظام، ثم تتكون خلايا العضلات التي تُختار من بين الأنسجة التي تحيط بالعظام، ثم تتجمع مع بعضها وتلتف حول العظام.

عظام طفل اكتمل تكوينها في رحم الأم وبدأت تُكسى باللحم بأمر الله

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٤)

شكل (٢٢)





صورة حية للجنين في مرحلة تخليق العظام
ثم كسوتها باللحم حيث يبدأ الهيكل
العظمي بالتكون في الأسبوع السابع،
وخلال الأسبوع الثامن تأخذ العضلات
وضعيتها حول أشكال العظام

ولقد أكّد العلم الحديث ذلك ـ بغير قصد طبعاً ـ فعند دراسة علماء الأجنة لمراحل تخلُّق النطفة الإنسانية في رحم الأم، قبل اطّلاعهم على الآيات السابقة، أو علمهم بمضمونها ومعناها وترتيبها لمراحل التخلق الإنساني، اكتشفوا نفس ما سبق إليه القرآن تماماً، بترتيب المراحل نفسها، ودقة تسميتها، وعندما عُرضت عليهم الآيات المذكورة المتعلقة بذلك، قال أحد كبار علماء الأجنة في العالم[1] ـ مبدياً دهشته وتساؤله ـ : «كيف يكون لمحمد ﷺ قبل ١٤٠٠ عام أن يصف الجنين وأطواره هذا الوصف الدقيق، الذي لم يتمكن العلماء من معرفته إلا منذ ثلاثين عاماً؟..»[2] ثم تحوّلت دهشته تلك إلى إعجاب بهذا البيان، وهذا الهَدْي القرآني، فصار يُلقي محاضراته في المجامع العلمية بعنوان:

«مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة»[3] وكان مما قاله: «ويتضح لي أن هذه الأدلة حتماً جاءت لمحمد من عند الله، لأن كل هذه المعلومات لم تُكتشف إلا حديثاً، وبعد قرون عدَّة، وهذا يُثبت لي أن محمداً رسول الله»[4] ﷺ، ثم أنزل طبعته الثالثة لكتابه (أطوار خلق الإنسان) المتداول عالمياً بثمان لغات، أنزله بعد إضافة الآيات والأحاديث المتعلقة بذلك.

---

(١) هو العالم الكندي كيث مور أحد كبار علماء العالم في التشريح وعلم الأجنة، مؤلف كتاب (أطوار خلق الإنسان)، وهذا الكتاب مترجم إلى ثمان لغات عالمية، وللمؤلف ثمانية كتب تعتبر مرجعاً لطلاب كليات الطب وقد تُرجمت إلى ست لغات عالمية اهـ. انظر: إنه الحق، للزنداني ص٥-٧، علم الأجنة ص٦٧ وما بعدها.

(٢) إنه الحق، للزنداني ص٦.

(٣) بل قدم ثلاث حلقات في التلفزيون الكندي لشرح التوافق بين ما ذكره القرآن وما اكتشفه علماء الأجنة عن أطوار خلق الإنسان، المرجع السابق، ص١٢.

(٤) المرجع السابق، ص٧.

لقد رأى علماء الأجنة ـ من غير المسلمين ـ أنَّ أنسب المصطلحات الوصفية الدقيقة لأطوار التخلُّق الإنساني في رحم الأم هي الأوصاف المذكورة في القرآن الكريم، فهي دقيقة جداً، وبليغة في تعبيرها، ويمكن استخدامها كمصطلحات علمية في العصر الحديث، حتى وصفها (كيث مور) بقوله: «هي تقسيمات علمية دقيقة، .. سهلة ومفهومة ونافعة.. وعليه فإنه يصبح بالإمكان تبني نظام جديد في التصنيف باستخدام الاصطلاحات والمفاهيم التي ورد ذكرها في القرآن والسنة[1]».

---

(١) أي قوله ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع: برزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح» وقوله ﷺ: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً فصوّرها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال يا رب: أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك... الخ الحديث».

أخرجهما مسلم في ٤/ ٢٠٣٦-٢٠٣٧ في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه... برقم (٢٦٤٣و٢٦٤٥)، الأول عن ابن مسعود والثاني عن حذيفة رضي الله عنهما.

وغيرهما من الأحاديث التي رواها البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم، التي ظاهرها التعارض بين إرسال الملك بعد مرور مائة وعشرين يوماً على الجنين، ودخوله على النطفة بعد استقراره في الرحم بأربعين أو باثنتين وأربعين أو بخمس وأربعين ليلة، وقد جمع تلك الروايات وأزال تعارضها ابن القيم في كتابه (طريق الهجرتين وباب السعادتين) ص١٠٣-١٠٦، وخلاصة ما قاله مع إضافات يسيرة:

إن للملك ملازمة ومراعاة لحال النطفة، وأنه يقول: يا رب هذه نطفة .. هذه علقة.. هذه مضغة .. في كل أوقاتها، فكل وقت يقول فيه ما صارت إليه بأمر الله تعالى، وهو أعلم سبحانه، ولكلام الملك وتصرفه أوقات كالآتي:

أ ـ عند خلقها نطفة ثم نقلها إلى علقة، وهو أول عِلْمِ الملك بأنه ولد، لأنه ليس كل نطفة تصير ولداً، وذلك عقب الأربعين الأولى، وحينئذ يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته أو سعادته. =

ويتميز النظام الجديد بالبساطة والشمولية، إضافة إلى الانسجام مع علم الأجنة الحالي[1].

وبعد كل ما سبق أقول:

لنا أن نتساءل الأسئلة الآتية:

س١: من الذي حدد مراحل تخليق الإنسان في بطن أمه ووَصَفَها بهذا الوصف الدقيق؟ وماذا يعني ذلك؟ وعلام يدل؟.

= ب ـ عند تصويره وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظمه، وكونه ذكراً أو أنثى، وذلك إنما يكون في الأربعين الثالثة، وهي مدة المضغة، وقبل انقضاء هذه الأربعين، وقبل النفخ فيه.

ج ـ عند نفخ الروح فيه عقب الأربعين الثالثة حين يكمل له أربعة أشهر، وقد اتفق العلماء على أن نفخ الروح لا يكون إلا بعد أربعة أشهر.

انظر: أ - صحيح مسلم بمختصر شرح النووي ٤/ ٢٠٣٦، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه...

ب- طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية، إعداد المكتب العالمي للبحوث، بإشراف: عبدالمنعم العاني، منشورات دار مكتبة الحياة، ط (بدون)، ١٩٨٠م، بيروت، لبنان.

ج- فتح الباري، لابن حجر العسقلاني ١١/ ٤٨٥ وما بعدها، كتاب القدر.

د- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، توزيع الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط (بدون)، د.ت، الرياض، السعودية. ص٤١-٥١.

هـ- خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور البار، ص٣٩٢-٤٠٥.

و - أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، للدكتور حمد العمّار، ص٢٩٨-٢٩٩.

ز- علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، للزنداني، ص١٤٩-١٥٣.

(١) انظر: إنه الحق، للزنداني ص١٣-٢٠، و: علم الأجنة، للزنداني أيضاً ص٢٣٦-٢٣٩.

س٢: من الذي تكفل برعاية الجنين منذ أن كان نطفة حتى صار خلقاً آخر؟

س٣: من الذي أودع نطفة الذكر والأنثى القدرة على الحركة، ووجّهها ليتم اللقاء بين الحيوان المنوي والبويضة، بعد قطع رحلة طويلة شاقة مات فيها خلق كثير؟

س٤: من الذي أعطى النطفة الأمشاج المكوّنة من خلية واحدة القدرة على الانقسام لملايين الخلايا لتكوين جسد الجنين القادم وتحديد جنسه؟

إن النطفة لا تملك عقلاً، وليس لها مدارك ولا تجارب، وهي كذلك تفقد كل مشيئة وقدرة.

وإنه لم يزعم أحد من الخلق أنه دبّر ذلك كلّه أو شيئاً منه، وقاد خطوات النطفة في ظلمات الأرحام، حتى خرجت إنساناً سوياً للوجود.

لكن الله القائل: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الملك: ١) أكد أنه رب العالمين: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ (السجدة: ٧).

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (الحج: ٥).

فهرس